ابن حجة الحموي

شاعراً وناقداً

تأليف

الدكتور محمود الربداوي

أستاذ في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة دمشق

دار قتيبة


ابن حجة الحموي
شاعراً وناقداً

ابن حجة الحموي

شاعراً وناقداً

تأليف

الدكتور محمود الربداوي

أستاذ في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة دمشق

دار قتيبة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

يحار المرء وهو يقدم على اختيار موضوع بحثه حيرة تلازمه في اختيار العصر الذي سيكون مجال الدراسة ، وتلازمه في اختيار الشاعر أو الفن أو الظاهرة التي ستكون صلب البحث وموطن التنقيب .

وقد كنت في معزل عن حيرة اختيار العصر ، لأن جامعة دمشق التي أوفدتني طلبت مني أن تكون العصور التي تلت العصر العباسي مجال دراستي في الماجستير ، وقد توخت وجهة نظر الجامعة توفر دارس مختص بهذه الحقبة وقد قبلت ملبيا طلب الجامعة بنفس منشرحة ، لعلمي أن عصور أدبنا جميعها جديرة بالدراسة ، سواء في الحقب التي واكبت عصور القوة السياسية أو تلك التي سايرت عصور الضعف . والباحث عن الحقيقة يبحث عنها أنى كانت وفي أي عصر وجدت .

ولقد مضى على تاريخ الأدب العربي حين من الدهر ، كان فيه مؤ رخو الأدب يعيرون اهتماما كبيرا لدراسة العصور القديمة : الجاهلي والأموي والعباسي . ويقفون للبحث فيها جهودا كبيرة بالاجلال والاحترام ، ولكنهم ما إن يتخطوا العصر العباسي وهم يؤ رخون للأدب حتى تفتر هممهم ، وتثبط عزائمهم ، فيعرضون عن دراسة العصور التي تلت العصر العباسي ، فيصاب تاريخ الأدب العربي بتشويه لانقطاع حلقة من سلسلته المتطاولة عبر القرون .

وعلى الرغم من أننا لا ننكر أن العصور التي تلت العصر العباسي كانت عصورا واكبت هرم الأدب العربي ، الا أنها مع ذلك تبقى جزءا لايتجزأ من تاريخنا الأدبي ، والانصاف في البحث والدراسة يقتضينا ان نولي دراسة تاريخ الأدب في عصور هرمه وفتوره كما أوليناها في عصور نموّه وازدهاره ، والعزوف عن دراسة حقبة من حقب تاريخ الأدب العربي والاعراض عن البحث فيها تقصير لا يغتفر من الدارسين والمؤ رخين والباحثين عن الحقيقة العلمية ، وخاصة أن الحقبة التي تقع بين العصر العباسي الذي يطلقون عليه عصر الازدهار الأدبي والعصر الحديث الذي يسمونه بعصر النهضة والبعث الأدبي لا تقل عن سبعة قرون ، فهي من حيث الزمن تنساح فتملأ من مساحة تاريخ أدبنا نصفه .

ولم تكن هذه القرون السبعة قرونا عجافا لا خصب فيها ، حتى يزدريها دارسو الأدب والمؤ رخون لتطوره بل كانت تزخر بالأدباء والشعراء والكتاب وأصحاب الفكر . والذي يلج هذه القرون السبعة ليس كمن يلج صحراء قاحلة ، بل كمن يلج بستانا خصبا فسيحا واسع الأرجاء مترامي الأطراف يعج بالأزهار

المتباينة الأشكال والألوان ، وإن كان يؤخذ على هذه الأزهار أنها قليلة العطر لم يتضوع شذاها كالازهار التي عهدناها في العصر العباسي وما قبله ، الا أنها تُعَدُّ امتدادا لتلك الأزهار القديمة ، وكل الذي اختلف في هذه العصور عن تلك أن الراعي لها والمشرف عليها المتعهد لنضارتها قد شغل عنها فكاد يدركها الضمور ، وتعوزها النضارة .

وعندما اختارت لي الجامعة العصر ، وتركت لي اختيار الشاعر أو الفن الذي سيكون موضوع بحثي أحببت أن أختار من الأدباء من يمثل الأديب الحق في هذه الحقبة أتم تمثيل ، اذ أن الأديب في هذه العصور التي أتحدث عنها كان أديبا بحق بالمعنى الذي عرفه به القدماء ، اذ كان (يأخذ من كل علم وفن بطرف) فهو شاعر وناثر ومؤلف ومؤرخ وناقد بلاغي ، ووجدت هذه الصفات كلها مجتمعة في ابن حجة ، فله من الشعر ديوان إن لم نقل دواوين ، وله من النثر والانشاء الخالص كتب ورسائل كثيرة ، وله من المؤلفات ما يربو على الثلاثين ، وله في التاريخ سير ومطولات ، وله في النقد آراء ونظريات ، وفي البلاغة مصنفات .

لذا وجدت فيه الأديب الكامل الذي يمثل عصره أتم تمثيل ، والدارس له ، المتد..ر على أدبه كأنه درس وتعرف على الأديب الصحيح أو على الأدب جميعه في تلكم العصور .

ومعرفتي لابن حجة ليست حديثة عهد ، وعمر هذه المعرفة أطول بكثير من عمر اختياري له موضوعا لرسالتي ، فقد عرفته منذ مطلع دراستي الجامعية الأولى ، ومنذ هذه الانطلاقة البسيطة أخذت أتعرف على كتب ابن حجة ، وأحاول الحصول على المطبوع منها حتى كان لي ذلك ، لكنني ما تعرفت بعمق على تراث ابن حجة وأدبه الا عندما فكرت باختياره موضوعاً لرسالتي هذه . فأخذت أجمع لاكتبه المطبوعة فحسب بل وما ترك من مخطوط ومنسوخ . ولقد ساعدني الأصدقاء الذين يدرسون في أوروبة فرفدوني بالفرائد من بعض المخطوطات ، وعقدت العزم على دراسة ابن حجة الأديب بكل جوانبه . ولكن من كانت لهم معرفة بتشعب البحوث واتساع آفاقها أشاروا عليّ بالاقتصار على دراسة ابن حجة (شاعرا وناقدا) خشية اتساع المذاهب ، وحذر الانشغال بالاكثار من الجمع مما يصرفني عن التعمق ، فقبلت المشورة ، واستبعدت من عملي الحديث عن ابن حجة الأديب أو بشكل خاص الناثر وآثاره النثرية والأدبية بعد أن أنفقت في جمعها وتصنيفها ودراستها ورصد خصائصها الكثير من الوقت والجهد ، واقتصرت على ابن حجة الشاعر الناقد ، فاعتكفت على دراسة شعره ونقده ، وقصرت الجهود على هذين اللونين من ألوان ثقافته المتنوعة .

فبعد أن مهدت لهما بقليل من الحديث عن عصر الشاعر وحياته جعلته الباب الأول ، توجهت الى شعره بما فيه من فنون وأغراض وأنواع وخصائص وميزات وجعلته الباب الثاني ، والى نقده المتضمن للنقد البلاغي والنقد الأدبي بفرعيه النظري والتطبيقي وجعلت منه الباب الثالث ، ثم ختمت حديثي عنه بفصل بينت فيه منزلته بين شعراء عصره ونقاده ، في بعض الظواهر التي سادت العصر واشترك فيها مع أدباء عصره كالتورية والسرقات الأدبية والمعارضات ، وفي بعض الظواهر التي انفرد بها ، وتميز عن غيره . ولا أريد أن أشيد

بالجهد الذي بذلته ، فالصفحات التالية تشهد بذلك .

ولقد شجعني على المضي في اختياره من كان له الفضل في الاسهام بمزيد من توجيهاته استاذي المشرف الدكتور حسين نصار ، ولم يقف عند الاسهام في الاختيار والتشجيع على ولوج عصر فسيح الرحاب بل أخذ بيدي طوال الرحلة التي قضيتها في المسير بصحبة ابن حجة ، منذ أن شاركني في اختيار الموضوع حتى أصبح البحث خلقا سويا ، وقد كان يقتطع أوقات راحته التي لم يكن يضن بها علي في سبيل تقريب هذا البحث من الكمال في المحاولة التي سأعرضها في الصفحات القادمة .

وكل ما أرجوه أن أكون قد وفقت في عملي ، وأن أكون قد وفيت الأمانة العلمية المنوطة بمن يسند اليه مثل هذه البحوث ، وعلى الرغم من أنني بذلت ما وسعني الجهد في سبيل استكمال هذا البحث ، فان لي من ملاحظات اللجنة المشرفة وتوجيهاتها ما يجعلني أسدد ماوقع به البحث من تقصير .

والله أسأل أن يعينني على مواصلة البحث الدائب ، والدرس المجدي لعلي أفي هذه الأمة بعض ما لها عليّ من دين ، وأخدم هذا التراث الذي أسهم في الثقافة الانسانية ، ويشرفني أن أكون أحد سدنة هذا العلم ، وبعض جنوده والله ولي التوفيق .

مصر الجديدة ـ ١٩٦٥

الباب الأول

عصر ابن حجر وحياته وآثاره

الفصل الأول

عصره

٧٦٧ - ٨٣٧هـ

ولد ابن حجة الحموي في مطلع الثلث الأخير من القرن الثامن الهجري ، وأدركته المنية في أوائل الثلث الثاني من القرن التاسع الهجري ، فتطاول عمره حتى بلغ بضعا وسبعين سنة ، وقد واكبت هذه الحقبة تسنّم المماليك الشراكسة للعرش ، وأتيح لابن حجة أن يعاصر مجموعة من الخلفاء العباسيين والسلاطين المماليك ، الذين لعبوا دورا خطيرا في حياة الأمة العربية ، وقد كانت مملكتهم تشمل الديار المصرية والبلاد الشامية ، وتمتد في الجنوب فتغطي بظلها قسما ليس بالقليل من شبه الجزيرة العربية ، وتنساح في الشمال ، فينضوي في أفيائها جزء لا يستهان به من شبه جزيرة الأناضول . كل هذا والخلافة العباسية التي انتقلت منذ قرن الى القاهرة لا يزال في ذبالتها بعض زيت يشع على العالم الاسلامي بنور خافت ضئيل ، واذا كان عهدنا بالخلافة ، في القديم ، أنها المدبرة لشؤ ون الرعية فانها ، الآن ، قد توارت خلف ظلال السلطنة ، وأصبحت الخلافة تمثل ـ فقط ـ التقليد القديم للسلطة الروحية ، دون أن تمتد قوتها الى السلطة الدنيوية فتسهم في تدبير شؤ ون الرعية .

وفي هذا الفصل سنتناول الكلام ، في ثلاثة أقسام ، عن الحياة السياسية في هذا العصر وانعكاسها في شعر ابن حجة الذي يعتبر صدى لبعض أحداثها ، ثم نتبعها بالحديث عن الحياة الاجتماعية ، ثم الحياة الفكرية والأدبية :

القسم الأول ـ الحياة السياسية :

وسيكون مجال حديثنا في هذا القسم عن الخلافة والخلفاء ، والسلطنة والسلاطين الذين عاصرهم ابن حجة ، وكان لهم من شعره نصيب وافر :

الخلافة والخلفاء

ما كادت شمس الخلافة العباسية الأولى تغرب في بغداد سنة ٦٥٦ هـ على أثر اجتياح (هولاكو) ملك التتار للعراق ، حتى بزغت شمس الخلافة العباسية الثانية من جديد سنة ٦٥٩ هـ وكانت هذه المرة في القاهرة ، بعد توار يزيد عن ثلاث سنوات ببضعة أشهر ، ولقد شهدت القاهرة ، في رجب سنة ٦٥٩ ، مبايعة الأمة لأمير المؤمنين الخليفة المستنصر العباسي «على الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والجهاد في سبيل الله ، وأخذ أموال الله بحقها ، وصرفها بمستحقها» . وعندما أصبحت مصر موئل الخلافة الاسلامية أخذت تلعب دورا كبيرا في تاريخ القرون الوسطى ، وقد قال السيوطي : «واعلم أن مصر من حين صارت دار الخلافة عظم أمرها ، وكثرت شعائر الاسلام فيها ، وعلت فيه السنة ، وعفت منها البدعة ، وصارت محل سكن العلماء ، ومحط رحال الفضلاء . . .»[1] .

ولقد كانت الخلافة في باديء أمرها موضع عناية واجلال وتقدير ، لأنها تمثل أعلى سلطة دينية ودنيوية فكان يدعى للخليفة على المنابر ، ثم يدعى للسلطان بعده ، وتنقش السكة باسميهما ، ويرتب للخليفة الحجاب والكتبة والخزنة ، وتقطع له الاقطاعات ، وتجرى له الأموال التي تسد نفقة بيته وحرمه ومماليكه ، وكانت هذه الأموال تختلف من زمن لآخر ، ومن سلطان لآخر ، وتختلف تبعا لاختلاف علاقة السلطان بالخليفة ، ومقدار رضاه عنه ، فتبعا لذلك لم تكن رواتب ثابتة ، وأغلب الخلفاء عاشوا «عيشة ضنك» كما يقول المقريزي[2] . الا أن بعضهم أثرى كالخليفة المتوكل على الله في عهد السلطان برقوق ، فقد أصبحت له الاقطاعات والأموال ، وتعرض أكثر من مرة للمصادرة والحجز ، وكذلك الخليفة المستعين بالله ، الذي تحسنت أحواله عندما أقبلت الدنيا عليه فحاز السلطنة بالاضافة الى الخلافة سنة ٨١٥ هـ ، ولكن الدنيا أدبرت عنه ثانية ، فزُجّ بالسجن ، وصودرت أمواله ، ولكنه عندما خرج من سجنه بالاسكندرية آثر البقاء فيها ، وعزف عن المؤامرة في السياسة ، الى المغامرة في التجارة ، فاجتمع له بسببها مال وفير . وكان السلطان لا بد له من أن يبايعه الخليفة لكي تنحدر اليه السلطة من المصدر الشرعي ، وكثيرا ما كان الخليفة يدلي برأيه في عظائم الأمور ، وينهض مع السلطان للجهاد ، وكبح جماح المرتدين والخارجين عن السلطة . ولكن هذه التجلة اضمحلت وتلاشت عن هذا الضيف الوافد ، وكثيرا ما كان الصراع ينشب بين الخليفة والسلطان ، وفي كل مرة يتغلب جانب السلطان ، وبعض الخلفاء ذاق الأمرّين على أيدي السلاطين . كما سنرى الآن في استعراض حياتهم ، وعلى رأسهم الخليفة المتوكل على الله ، الذي واكبت ولادة ابن حجة ونشأته تسنمه عرش الخلافة ، وهو الخليفة العباسي الذي تعتبر خلافته صلة وصل بين أواخر السلطنة التركية وأوائل السلطنة الشركسية . فقد شهد انتقال السلطة من المماليك البحرية الى المماليك الشركسية .

---

(١) حسن المحاضرة للسيوطي ص ٧٦ ، وتاريخ الخلفاء ص ٣٤٩ .

(٢) خطط المقريزي جـ ٢ ص ٢٤٣ .

وقد ولي الخلافة بعهد من أبيه المعتضد ، وفي عهد الملك المنصور محمد ، الملك الحادي والعشرين من ملوك الترك بالديار المصرية ، وكانت مبايعته بالخلافة في ١٨ جمادى الأولى سنة ٧٦٣ ، وعاصر أربعة من السلاطين الأتراك هم : الملك المنصور محمد (٧٦٢ ـ ٧٦٤) والملك الأشرف (٧٦٤ ـ ٧٧٨) والملك المنصور (٧٧٨ ـ ٧٨٣) والملك الصالح (٧٨٣ ـ ٧٨٤) ، كما عاصر ثلاثة من ملوك الشراكسة ، هم الظاهر برقوق ، وابناه الناصر والمنصور ، الذين امتدت سلطنتهم من سنة ٧٨٤ الى وفاته سنة ٨٠٨ هـ وتذكر المراجع التي بين أيدينا ان الحقبة التي قضاها هذا الخليفة في الخلافة ، وما تخللها من عزل واعادة هي أطول حقبة قضاها خليفة عباسي في مصر في هذا المنصب ، فقد أربت على خمسة وأربعين عاما ، ولكن طول هذه الفترة عرّض الخليفة لهزات كثيرة وعنيفة بلغ من عنف بعضها أنها زجت به في السجن ومكث قريبا من سبع سنوات .

ويبدو أن القسم الأول من خلافة المتوكل قد مضى بسلام ، حتى قامت المؤامرة التي أطاحت بالأشرف شعبان من السلطنة سنة ٧٧٨ ، وطلب الأمراء من الخليفة أن يتسلطن وقالوا له : «تسلطن . . . أنت أحق بالسلطنة ، فامتنع من ذلك غاية الامتناع ، وطال بينه وبين الأمراء الجدال»(١) ، فلما قتل الأشرف ، وخلفه ابنه الطفل علي الذي اعتلى عرش السلطنة وعمره سبع سنوات ، وصار صاحب الحل والعقد الأتابكي أينبك البدري حنق على الخليفة ، ونفاه الى مدينة قوص(٢) . ثم شفّع فيه فأعاده الى بيته ، وفي اليوم الثاني طلب أينبك البدري نجم الدين زكريا بن ابراهيم بن الخليفة الحاكم بأمر الله ، ورسم بتعيينه خليفة من غير أن يخلع المتوكل نفسه ، أو يتابع الأمة زكريا ، ولقب بالمعتصم ، ثم سعى نفر من أعيان الدولة لردع أينبك عن مرسومه فأفلحوا ، فأصدر مرسوما جديدا بخلع المعتصم واعادة المتوكل ، بعد مرور خمسة عشر يوما على المعتصم في الخلافة ، وما لاقاه المتوكل من السلطان الظاهر برقوق لا يقل عما لاقاه من أينبك البدري ، حيث رسم الظاهر لأحد أمرائه(٣) بأن يتوجه الى الخليفة المتوكل وينقله من داره الى البرج في القلعة ، ويضيّق عليه ويمنع الناس من الدخول عليه ، ففعل الأمير ذلك بالخليفة حتى شفع له بعض الأمراء الآخرين فأعيد الى بيته .

وقصة الصراع بين السلطان برقوق والخليفة المتوكل طويلة ، فقد نمي للسلطان برقوق أن الخليفة تآمر مع بعض الأمراء على الاطاحة بالسلطان برقوق ، فما كان من برقوق الا أن استدعاه وحقق معه في الأمر ، فلما حاول الخليفة انكار ما نسب اليه من المؤامرة ثار غضب السلطان وسلّ السيف ليضرب عنق الخليفة ، لولا تدخل بعض الأمراء لاصلاح ذات البين ، ثم استدعى القضاة ليفتوه بقتل الخليفة ، فلم يفتوه بقتله ، فأخذ الخليفة وسجنه وقيّده ، ثم طلب السلطان زكريا بن ابراهيم عم المتوكل فولاه الخلافة وتلقب بالواثق بالله(٤) ، وبقي الخليفة المتوكل في السجن مدة حتى تشفع فيه بعض الأمراء ففك قيده ، وبعد فترة أمر

---

(١) بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن اياس ص ٢٠٣

(٢) النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ١٥٥

(٣) النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢٦٠

(٤) النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢٣٤

السلطان بالافراج عنه ، فعاد الى بيته [1] .

ويحدثنا ابن تغرى بردى عن موقف الملك الظاهر مرة ثانية مع المتوكل فيقول : «واستدعى الملك الظاهر الخليفة المتوكل على الله من مكانه بالقلعة ، فلما دخل عليه الخليفة قام الملك الظاهر له وتلقاه ، وأخذ بملاطفته والاعتذار اليه ، واصطلحا وتحالفا ، ومضى الخليفة الى موضعه بالقلعة فبعث السلطان اليه عشرة آلاف درهم وعدة بقج فيها أثواب صوف وقماش سكندري» [2]

وما سلك برقوق هذا السلوك في استرضاء الخليفة المتوكل الا عندما علم بثورة الأمير يلبغا عليه ، فأحب أن يستغل وجود الخليفة في صفه ضد يلبغا الثائر ، ثم تشاء الظروف أن يخذل برقوق ويختفي عن الأنظار ، فيستقبل يلبغا الخليفة المتوكل ويبالغ في تعظيمه ، ثم عرض عليه أن يلي السلطنة «فتبرم الخليفة من الدخول في السلطنة» [3] ، وهذه هي المرة الثانية التي تعرض عليه فيها السلطنة ويأبى دخول حرمها ، ولعله في هذه المرة آثر مجانبتها لكبر سنه ، وبقي محتفظا بالخلافة حتى وافته المنية سنة ٨٠٨ هـ .

وقبل أن تدركه المنية عهد بولاية العهد لابنه العباس الذي ولي الخلافة فور موت أبيه وتلقب بالمستعين بالله ، ولم يكن حظه من تبعات الخلافة بأقل من حظ أبيه المتوكل ، فبالرغم من أنه لم يلها أكثر من ثماني سنوات ، الا أن هذه السنوات الثماني كانت حافلة بالمشاكل ، وقد أمضى القسم الأول من خلافته من دون أن يحصل له شيء من المضايقات يزعجه ، الى أن نشبت الخصومة والحرب بين الملك الناصر فرج وبين نوروز الحافظي نائب دمشق ، وشيخ المحمودي . وما كادت الحرب تنتهي بقتل الملك الناصر ، حتى برزت مشكلة جديدة ، وهي من الذي يتسلطن بعده ، فقال ـ عندئذ ـ نوروز لشيخ : «لا أنا ولا أنت نتسلطن ، ولكن اجعلوا الخليفة العباسي» [4] وتفاديا للخصومة بين نوروز وشيخ قبل الاثنان هذا الرأي ، وعلى الرغم من أن الخليفة امتنع عن قبول السلطنة ، الا أنه وافق بعد أن استوثق منهما بأغلظ الايمان واشترط عليهما عدة شروط ، منها أنه يحتفظ بمنصب الخلافة اذا ما خلع من السلطنة ، وأكد له نوروز وعده بحمايته ، وقال له : «لا تخف . . أنا ظهرك ، لا يصيبك الا ما يصيب رقبتي» [5] فقبل الخليفة المستعين ، ورسم بتعيين الأمير شيخ المحمودي قائدا للجيش ، والأمير نوروز نائبا للشام . وأقبل عليه الشعراء مهنئين بتسلمه السلطتين : الخلافة والسلطنة ، ومن جملتهم القاضي والعالم الأديب ابن حجر العسقلاني الذي هنأه بقصيدة منها : [6]

الملك أصبح ثابت الأساس ... بالمستعين العادل العباسي
رجعت مكانة آل عم محمد ... لمحلها من بعد طول تناسي

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢٣٦
(٢) النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢٦١
(٣) حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٨٠
(٤) بدائع الزهور ص ٣٠٩
(٥) بدائع الزهور ص ٣١١
(٦) حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٨١

غير أن الأمير شيخا استبد بأمور الحكم حتى غدا الخليفة في غاية الحصر ، على حد قول المقريزي ، وأخيرا خلع الأمير شيخ الخليفة ، بحجة أن الحالة في البلاد أصبحت تحتاج الى سلطان تركي يقمع أهل الفساد ، ونصب شيخ نفسه سلطانا ، وتلقب بالمؤيد ، وسجن الخليفة ، وحجبه عن الاجتماع بالناس ، ثم استغل شيخ غيظ قاضي القضاة جلال الدين البلقيني الذي استفتح الخليفة المستعين سلطنته بعزله ، فانتزع منه فتوى بخلعه ، غير آبه بالشروط التي التزمها عند قبوله للسلطنة ، وأرسل الخليفة المعزول الى السجن في الاسكندرية ، ومكث سنين طويلة ، وأفرج عنه الملك الأشرف سنة ٨٢٥ ، وآثر البقاء في الاسكندرية ، منصرفا الى التجارة ، حتى كان عام ٨٣٣ هـ فمات بطاعونها المشهور .

أما الخليفة الأخير الذي عاصره ابن حجة ، فهو المعتضد بالله بن الخليفة المتوكل ، وأخو الخليفة المستعين ، وكانت مناسبة توليه للخلافة تلك الغضبة التي غضبها الامير شيخ على المستعين وخلعه سنة ٨١٥ ، وتنصب على أثرها الخليفة المذكور ، وفي هذه الحادثة يقول ابن حجة :

ومعتضـد العبـاس لمّا أقمته تنـادى لسـان الرمـح عنـه وأنشدا
اذا سيد منّـا مضى في سبيله أقمنـا بأطـراف الاسنـة سيّدا

وطالت مدة خلافته الى حوالي ثلاثين عاما ، جمع فيها ثروة طائلة ، وبايع خلالها ستة سلاطين ، واشتهر بحرصه على مجالسة العلماء والاستفادة منهم ، وتوفي سنة ٨٤٥ هـ .

سبق أن قلنا ان ابن حجه عاصر أربعة من الخلفاء ، ولكن عدد من عاصرهم من السلاطين كان أضعاف ذلك ، فقد قيض له أن يعاصر ثلاثة عشر سلطانا ، منهم ثلاثة اعتلى كل واحد منهم عرش السلطنة مرتين ، ومنهم أربعة كانوا امتدادا لدولة المماليك البحرية ، وتسعة كانوا طليعة الملوك الشراكسة ، وقد اسعفت الظروف ابن حجه لأن يكون كاتب دواوين الانشاء في الممالك الاسلامية على عهد خمسة منهم ، ولهذا سنتحدث بشيء من التفصيل عن السلطنة ، الا أن مركز السلطنة كان أعلى من مركز الخلافة ، والسلطة الفعلية كانت بيد السلطان لا الخليفة ، فهو الذي يدير الأمور ويسوس البلاد ، ويأمر وينهى ، ويعينّ ويعزل ، ويثيب ويؤدب ، حتى أن السلطان هو الذي كان يقر تعيين الخليفة ، ويعزله ثم يعيده ، وما دام هذا هو مركز السلطان وقدره فلا عجب أن نرى تكالب الأمراء على هذا المنصب ، وتنافسهم للحصول عليه .

وهنا لا بد من إلمامة سريعة تتضمن الحديث عن الفئات التي حكمت أكبر بقعة من العالم العربي في هذه الحقبة من الزمن . وأقل ما يقال في هذه الفئات انها كانت دخيلة على هذه المملكة التي تحكمها . فلم تكن طبقة من طبقات الشعب احتجنت السلطة ، ولم تكن حزبا سياسيا قفز رجاله الى الحكم في غفلة من الزمن ، ولم تكن فئة عسكرية محلية تظافرت جهودها ، ودفعها امتلاكها للقوة أن تسيطر على مقدرات البلاد ، ولكن هذه الفئة التي تحكم البلاد العربية فئة دخيلة ، جلبتها ظروف اجتماعية ، وبثّتها فوق بقعة لا يستهان بها من أرض المسلمين ، فدانت بديانتها ، واتخذت الحياة العسكرية لها حرفة . فكان أفرادها بعد أن يجلبوا الى بلاد المسلمين عبيدا ارقاء ، ويمنّ عليهم اسيادهم بالعتق ، تسمو بهم هممهم واحترافهم لحياة الجندية الى مناصب لم يكن يحلم بها مملوك قضى شطرا من حياته في دولة بين أيدي تجار الرقيق .

ولقد حكم مصر والشام والحجاز ، منذ مجيء الاسلام ، عناصر مسلمة عربية ، أما في هذه الفترة التي نؤرخ لها فقد تعاقبت على حكمها عناصر مسلمة ولكنها غير عربية ، تركية حينا وشركسية حينا آخر ، فاذا أحببنا أن نعرف شيئا عن هذه العناصر ، وبخاصة الشراكسة الذين عاصر سلاطينهم ابن حجه فلا بد من بعض الحديث عن هؤلاء ، ومجيئهم وأصلهم . تقول كتب التاريخ المعاصرة لتلك الحقبة ان أول من جلب الرقيق التركي الى مصر والشام أحمد بن طولون حوالي منتصف القرن الثالث الهجري[1] ولكن المماليك الذين صار منهم سلاطين مصر وأمراؤها وجندها ، هم المماليك الذين كانت نواتهم الأولى تلك الطائفة التي جلبها الى البلاد الملك الصالح نجم الدين أيوب عام ٦٣٦هـ . ليثبّت بهم دعائم ملكه ، ويستعين بهم على مناوئيه ، فاستكثر من شرائهم ، ونشّأهم تنشئة عسكرية ، وبنى لهم قلعة بجزيرة الروضة عند المقياس ، فسمّوا لذلك المماليك البحريّة ، وعلى يد هؤلاء المماليك انتقل ملك مصر من بني أيوب .

---

(١) صبح الأعشى للقلقشندي - ج٣ تحت عنوان «من ولي مصر ملكا قبل دولة الفاطميين» .

ولو جاز لنا أن نتساءل عن بلاد الشركس ـ الذين هم عدة كلامنا عن المماليك ـ وأصل هذه الفئة لقلنا : انها بعض بلاد الكرج (جورجيا) بين بحر قزوين والبحر الاسود ، وهي جزء من أقاليم الاتحاد السوفياتي في العصر الحاضر ، وتوجد منطقة تعرف باسم (جركس Cercetae أو (Tcherkesses) أو (Circassia) تمتد على الشاطئ الشرقي للبحر الأسود ، وهي منطقة جبلية باستثناء وادي نهر كوبان ، والمعروف أن الشراكسة مشهورون بالشجاعة والفروسية فضلا عن الوسامة والجمال ولاسيما في نسائهم ، وتجارة الرقيق بينهم رائجة [٢] وقد وفد هؤلاء الشراكسة الى الديار المصرية مماليك ودربوا على حياة الجندية وكانت السلطنة ـ أنذاك ـ حقا مشاعا للقادر من الناس على انتزاعه ، وهو حق لايؤخذ الا قسرا ، ويتوقف نجاح الطامع فيه أو اخفاقه على مقدرته الحربية وقوة الذين يملكهم من المماليك والأنصار .

وعندما رأت عينا ابن حجة النور كانت دولة المماليك البحرية تسير نحو نهايتها ، فأدركها في سن الهرم ، فولد في زمن سلطنة الملكين ، المنصور محمد (٧٦٢ ـ ٧٦٤) والاشرف أبي المعالي (٧٦٤ ـ ٧٧٨) ، وأيفع في زمن سلطنة الملك المنصور علي (٧٧٨ ـ ٧٨٣) والملك الصالح الأمير حاج (٧٨٣ ـ ٧٨٤) هـ . ولكنه أدرك في سلطنة الملك الظاهر برقوق (٧٨٤ ـ ٨٠١) وخبر الحياة ، وأخذ يراقب المسرح السياسي في سلطنة الناصر والمنصور ولدي برقوق (٨٠١ ـ ٨١٥) ، ولكنه بلغ أشده وشارك في الأحداث السياسية والأدبية منذ سلطنة الخليفة المستعين سنة ٨١٥ وسلطنة الملك المؤيد شيخ المحمودي ولي نعمته (٨١٥ ـ ٨٢٤) واستمر من هذه الحقبة حتى الأيام الأولى للأشراف بار سباي وهو كاتب دواوين الإنشاء بالممالك الاسلامية . وقد اعتزل العمل السياسي في أيام الاشرف ، وأخيرا أدركته المنية أيضا في ايام الإشراف بار سباى التي امتدت من سنة ٨٢٥ حتى ٨٤١ .

ونريد أن نضرب صفحا عن الحديث عن السنوات الأولى التي عاشها ابن حجه قبل أن يدخل معترك الحياة لأنها تشتمل على ولادته وطفولته وصباه ، ولم يكن آنذاك شيئا يذكر ، وبدأ نجمه يلمع حقا منذ سلطنة الخليفة المستعين بالله ، وانتقال السلطة منه الى شيخ المحمودي ، وهو الذي ابرز اسمه الى حيز الوجود الأدبي والسياسي ، وما تاريخ الأمير شيخ المحمودي الا كبقية صفحات تاريخ أمثاله من المماليك . يبدأ مملوكا ثم يعتق ، ويتدرج في المناصب الى أن يواكبه نجم السعد فيقفز الى السلطنة .
والسلطان (المؤيد شيخ المحمودي) نسبة للتاجر الخواجا (محمود) شاه الذي باعه الى السلطان برقوق ويبدو ان شيخاً كان عسكريا طموحا ، تدرج من نيابة طرابلس الى نيابة دمشق فنيابة حلب . وفي سنة ٨١٠ حصلت نفرة بين الناصر فرج ونواب الشام ، وكان نواب الشام يشكلون مركز الثقل في دولة المماليك ، وازدادت النفرة حتى بلغت ذروتها سنة ٨١١ ، فتمرد نوروز الحافظي نائب دمشق ، يعضده شيخ المحمودي نائب طرابلس ، وانضم اليهما نواب حلب وغزة وحماة ، وغيرها ، واستمرت الحال بين الملك الناصر ونوابه بين مد وجزر حتى سنة ٨١٣ اذ جاءت الأخبار بأن نوروزا وشيخا قطعا الخطبة للملك الناصر بدمشق وأعمالها ، وقد حذا حذوهما كل نواب الشام ، فأصبح اقليم الشام من حلب حتى غزة تحت تصرف

---

(٢) حسن المحاضرة ج٢ ص١٠٥ وابن اياس ج١ ص ٢٥٣ .

نوروز وشيخ ، وبقيت الديار المصرية تحت تصرف الملك الناصر ، فلما تحقق الملك الناصر من ذلك ، ألبس العسكر لباس الحرب ، وأمرهم بالخروج لمحاربة نواب الشام ، وتأديب الثائرين المتمردين نوروز وشيخ ، وكان يرافقه الخليفة العباسي المستعين بالله ، والقضاة الأربعة ، وسائر الأمراء ، وكان السلطان الملك الناصر فرج قد انهكته السنون ، لما قام به من تجريدات وحروب ، وخاصة بالشام ، فقد كانت هذه التجريدة الثالثة لبلاد الشام . وفي سنة ٨١٥ دخل الناصر الى الشام وأقام بها أياما ، ثم توجه حلف النواب في يوم الثلاثاء خامس عشر المحرم سنة ٨١٥ والتقى بالملك الناصر في منطقة اللجون ـ من ضياع الشام ـ وأقبل الناصر وهو مصطبح لايعي من شدة السكر[1] . فلما رآه بعض الأمراء في جيشه على هذه الحالة انسحبوا ، وانضموا لجيش نواب الشام ، ولم يلبث غير قليل حتى كتب له الخذلان ، وانكسر بعسكره ، فولى مدبرا نحو الشام . وفي اليوم التالي قبض عليه واجتمع أمراء الجند مع النائبين نوروز وشيخ ، وكتبوا محضرا وقعّه القضاة الأربعة بأن الناصر فرجا سفّاك دماء ، مدمن خمرة ، ثم خلعوه من السلطنة ، وأرسلوا له من قتله في سجنه ، وأخرجوا جثته وألقوها على المزابل ، وبقيت في العراء ثلاثة ايام . وقال ابن حجة في انتصار شيخ في معركة اللجون :

(فرج) على اللّجون نظمّ عسكراً … وأطاعه في النظم بحر وافر
فانبت منه زحافه في وقفه … يا من بأحوال البرية ناظر
وجميع هاتيك البغاة بأسرهم … دارت عليهم من علاك دوائر
وعلى ظهور الخيل ماتوا خيفة … فكأنَّ هاتيك السروج مقابر

صغرت ياشيخ كبار ملوكهم … قهرا ، ومافي الخافقين مكابر
وكسرت ناصرهم وما مقداره … في ملتقاك ، وربنا لك ناصر

ونعد هذه القصيدة وثيقة تاريخية بالاضافة الى كتب التاريخ التي تحدثت بالتفصيل عن هذه الحقبة . حيث إن ابن حجة لا يتحدث عن معركة اللجون ويصفها فقط وانما يتحدث عن القضية مفصلة ، منذ زحفت جيوش الملك الناصر من مصر ، والتقى الجيشان ، الجيش المصري وعلى رأسه السلطان الملك الناصر ، والجيش الشامي وعلى رأسه شيخ المحمودي ، وما دار بينهما من معارك جزئية ، ثم المعركة الحاسمة ، وطلب الناصر الصلح ، ثم نكثه بالايمان التي اقتطعها على نفسه فقال :

---

(١) بدائع الزهور ص ٣٠٨

وأتـاك عسـكر مصر مع سلطانها ... في أثـر ذاك وأنـت ليث كاسر
فحصرتهـم بالـواديين وفرقت ... تلك الجمـوع ، وكل عقـل طائر
وكتبـت بالهنـديّ فيهـم أسطرا ... وصدورهـم تحت الـدروع مساطر
سألـوك صلحـاً بعـد ذا فأجبتهم ... هذا وأولهـم بمصر عابر
لكنهـم خانـوك في أيمانهم ... مذ عاهـدوك وأنـت نعـم الصابر
فورثت أرضهـم وجئـت ديارهم ... وملـكت مصرهـم ومـات الناصر

ولأهمية هذه الحادثة في ذلك الزمن بشكل عام ، وعند ابن حجه بشكل خاص فقد كررها وتحدث عنها في قصيدته نفسها مرتين . وصار شيخ المحمودي ـ كما رأينا ـ قائداً للجيش ، ونوروز نائبـاً للشـام . . ولما أطمأن شيخ إلى قوته خلع المستعين واستبد بالحكم بعده ، ولكن كان له بالمرصاد تِرْبه نوروز الذي تواطأ معه على التخلص من السلطان فرج . وتحالف معه على الاخلاص للخليفة ، فعندما نكث شيخ العهد ما كان من نوروز نائب الشأم إلا أن شق عصا الطاعة في بلاد الشام ، وأبقى الخطبة والسكة باسم المستعين . وأقضّ هذا التصرف مضجع المؤ يد ، وخاصة أن أخباراً وصلت إلى المؤ يد تقول أن نوروزا نهض لمحاربته ولكن ابن حجه تفاءل بنصر السلطان ، وعبر عن تفاؤ له ببيتين من الشعر ارتجلهما في الاحتفال الذي شهده السلطان عند كسر النيل في نوروز فقال :

أيا ملـكا بالله صار مؤ يداً ... ومنتصبـاً في ملـكه نصـب تمييز
كسرت بمسرى نيل مصر ، وينقضي ... وحقك بعـد الـكسر أيام (نوروز)

غير أن نوروزا استرسل في غيه ، وتحصّن في الشام ، ولكن حصونه فيها لا تجعله يستعصي على عزيمة المؤ يد فقال ابن حجة :

ونوروز وافاه العمـى فهـو لم يشم ... سوى برق نار في حشـاه توقدا
وبالشـام لما جن صار مسلسلاً ... إلي أن رأينـاه لدينـا مقيدا
فكم قد بنـي سدا وأحـكم سده ... ولكنـه بالفتـح بات مهدداً
ومـن بعـد هذا نام في بطـن قلعة ... فقلنـا وحـق الله نقذفـه غداً
وكم قد رأى في صدرها نهـد مدفع ... غدا بارزا في حذفـه فتنهدا
أنـوروز ، لو حاربـت مثلك ربمّا ... ظفرت ، ولـكن قد عرفـت المؤ يدا
وصـيرت شاهينـا لصيدك حارسا ... فطار الى السلطـان بالصيد واهتدى
«ومـن يجعل الضرغـام للصيد بازه ... تصيده الضرغـام فيما تصيدا»

ودارت المعركة ، وظفر المؤيد بنوروز وحز رأسه ، وانتهى التمرد في الشام ، ففرحت الأمة بكسر هذا المتمرد ، وعلى رأس المبشرين ابن حجه الذي خلد هذا النصر فقال بمناسبة كسر نوروز بالشام والاحتفال بنوروز في مصر :

ظفرت (بنوروزين) في عصرنا الذي ... به كل يوم منك بالبشر عيداً
ففي مصر نوروز الذي جاء بالوفا ... وبالشام نوروز الخؤون الذي اعتدى
فهذا الى كل القلوب محبب ... وذا بغضه في كل قلب تأكدا
وذا كسره في البحر جبر لأمة ... وذا دمه في البر أشهى من الندى
من الناصر السلطان دهرا حميته ... وما ازداد ذا الشيطان الا تمردا
«فان أنت أكرمت الكريم ملكته ... وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا»

ولم تكن قصة نوروز الحافظي هي قصة المتمرد الأول والأخير في المملكة ، بل جرت العادة أنه ما إن يأنس أحد القادة أو النواب القوة في نفسه حتى تسوّل له نفسه الانفصال عن السلطان ، ان لم يكن الانقضاض عليه ، لذلك كثرت مثل هذه الفتن ، ومنها فتنه بعض الطامعين بالانفصال في غربي بلاد الشام ، فما كان من السلطان الا أن توجه اليهم فالتجوا الى حصن صبيبة فحاصرهم ومزّقهم شر مزق ، وسجل ابن حجه هذا النصر الثاني فقال :

وصبيبةٍ باشرت فيها وقعة ... صيرتها مثلا ، وما هو سائر
وأدرت كأس الحرب بين عصاتها ... لم يصح منها بعد ذاك مخامر
وتمزقت أحسابهم أيدي سبا ... ولكل كبد عند ذكرك فاطر
وغرست أغصان النقا بصدورهم ... والقضب من فوق الرؤوس تشاجر
وتجشموا قلل الجبال ـ وبعدذا ... لم يكتحل بالعمق منهم ناظر

وكان النصر حليف السلطان حيثما سار ، فقد ترك أعداءه مصفدين بالأغلال عندما خامروا عليه بصفد فأشار الى ذلك الشاعر فقال :

وتصفدت أعداك في (صفد) وهم ... عُميٌ وطرف البحر نحوك ناظر
والباب يتلو الفتح حين طرقته ... عند القتال وللفتوح أشاير
فتحت وحمراويها من حزنه ... كعيون حمرة دمعه المتناثر
هذا وحقك كله في لمحة ... يامن لعين الدهر دوما ناصر

---

(١) قلعة الصبيبة : هي قلعة بانياس جنوب غربي دمشق ، وهي علي بعد ساعة من بانياس ، ترتفع عنها نحو(٢٠٠) قدم ، ومازالت بقاياها موجودة الي الآن ، وكانت قلعة حصينة قديمة عني باصلاحها الصليبيون والمسلمون ـ حاشية النجوم الزاهرة ج١١ ص ٢٩٨ .

وفتوح المؤيد بالشام أكثر من أن يحصيها محص ، بله أن تنتظمها قوافي ناظم ، فمواقعه في شقراء الشام والميدان والأبلق ، وجبل صهيون وقلعة المرقب أكثر من أن تعدد -

أيا ملكا بالفتح يقرأ سيفه ... وفي النصر والأعداء قد زلزلت رعبا
تملكت شقراء الشام بقوة ... وذللت في الميدان أبلقها وثبا
وصهوة صهيون ودهماء مرقب ... فتحتهما واليوم جمجمت الشهبا

وهذه الفتوح الميمونة تذكر الشاعر بفتوح خالد بن الوليد في الشام ، وتداعي أسوارها حصنا بعد حصن فقال :

ودخلت غزة والنخيل يميد من ... طلع وطلع الثغر زاه زاهر
وكذا فتوح الشام ذكرك خالد ... فيها وكم لك سيرة وسرائر
ذللت شقراء الشام وأبلق ال ... ميدان يا من بالجياد يناظر
وعلوت أدهم مرقب وجنبت من ... صهيون صهوتها وأنت مسافر
هامت بك الشهباء شوقا جمجمت ... فركبتها ولك السعود مساير
وبصرخد لك وقفة مشهورة ... وعليك من عين العناية ناظر

وبقي الملك المؤيد يدير دفة الحكم الي أن انتقل الى جوار ربه سنة ٨٢٤ وترك ولاية العهد لابنه أحمد الذي كان عمره يوم وفاة أبيه سنة وثمانية أشهر تقريبا ، وتعصب له مماليك أبيه وقالوا : «ما نسلطن الا ابن استأذنا [١] » فلما حضر الخليفة والقضاة عارض الخليفة وقال : «هذا صغير ، وتضييع أحوال المسلمين بين الأمراء» . وأخيرا أكره الخليفة على المبايعة ، وأجلس الملك الرضيع على سرير الملك وهو في حجر المرضعة ، ولصغر سن السلطان تولى الوصاية عليه الأمير (ططر) الذي صار فيما بعد قائدا للجيش ، وتزوّج أم السلطان أحمد ، غير أن استبداد الوصي أثار نواب الشام فخرجوا عن الطاعة ، فتصدى لهم الوصى وأخضعهم ولما شعر بسيطرته على المملكة ، استغلّ صغر سن السلطان فخلعه بعد سلطنة لم تصل مدتها الي ثمانية أشهر ، وأعلن نفسه سلطانا مكانه ، ولما تم أمره في السلطنة طلّق أم السلطان القديم . الا أنها لم تتركه يتمتع طويلا بالعرش ، فدبرت له مقتلا بعد سلطنة دامت حوالي ثلاثة أشهر ، وعهد بالسلطنة من بعده لابنه محمد الذي بويع في ذي الحجة من سنة ٨٢٤ وله من العمر احدى عشرة سنة ولقب بالملك الصالح ناصر الدين ، وعهد لجانى بك الصوفي بالوصاية عليه ، ولكن بارسباي استطاع أن ينتزع هذه الوصاية من جاني بك ، ثم ما لبث أن انتزع السلطنة من محمد بن ططر وتولى مكانه سنة ٨٢٥ .

وقعت كل هذه الحوادث تباعا في مدة لم تتجاوز سنة وشهرين ، وصل بعدها بارسباي الي السلطنة وتلقب بالملك الأشرف ، وأخذ في غزو قبرص ، فهزم ملكها وأسره مع بعض جنوده ، وسيقوا الي القاهرة مصفّدين

---

(١) بدائع الزهور ص ٣٢٠ .

بالاغلال ، ثم قام بغزوة ثانية لبلاد الأرمن لتأديب الخارجين عليه فيها ، ولكنه عاد دون أن يشفى غليله منهم ، ومرض الأشرف في آخر عهده ، وأصابته لوثة في عقله . فشذّت أوامره ، قيل انه رسم مرة بنفي الكلاب الي الجيزه ، وأمر بألا تخرج النسوة الى الشوارع ، وقتل بعض الحكماء ، وتطير من لباس رأس الفلاحين ، وأكثرت كتب التاريخ المعاصرة له من ذكر مثل هذه الأشياء . مع العلم بأنه كان في أول الأمر منقادا للشريعة يحب أهل العلم ويقربهم ، وأقام في السلطنة قرابة سبعة عشر عاما ، وتوفي في آخر سنة ٨٤١ هـ .

هكذا تناولنا في الصفحات القليلة السابقة الحياة السياسية الداخلية في المملكة ، وتحدثنا عنها بايجاز ، ولكي تتضح معالم هذه الحياة لا بد من الحديث عن السياسة الخارجية في هذه الفترة وعن أهم الدول والممالك التي عاصرت المماليك الشراكسه وكانت لها مع المماليك علاقات وطيدة ظهر أثرها في شعر ابن حجة .

ونبدأ بالحديث عن علاقة المماليك بتيمور لنك ، هذا الغازي الذي شغلهم فترة ليست بالقصيرة ، وغزاهم في عقر دارهم ، وصلت أخبار تيمور لنك الى السلطان برقوق سنة ٧٨٨ بأنه قد اجتاح أطراف امبراطوريته الشمالية ، والشمالية الشرقية ، ولذلك عمد الى صده ، وأرسل جيشه لملاقاته ، كما عمد الى تكوين جبهة اسلامية موحّدة قوية لملاقاة هذا العدو ، وكانت هذه الجبهة تضم الأمراء الشماليين وهم : القاضي برهان الدين صاحب سيواس ، وقره يوسف زعيم التركمان ، وطقتمش خان القبيلة الذهبية وبايزيد العثماني ، وابن أويمن صاحب بغداد ، ولكن المنية عاجلت برقوقا في سنة ٨٠١هـ دون أن تتاح له، فرصة اظهار شجاعته ، ومعرفة مدى تماسك هذا الحلف ، وفي مطلع حكم فرج استطاع تيمور لنك أن يجتاح شمالي المملكة ، ويواصل زحفه ، ويأسر كبار أمراء الجيش المملوكي ، حتى وصل الى ظاهر دمشق ، والتقى بالجيش المملوكي ، فأصيب الجيش المملوكي بخسارة فادحة ، وتراجع السلطان فرج الى مصر ، وبقيت دمشق ممتنعة علي تيمور ، وكان ابن خلدون من جملة من قدم مع السلطان فرج على أثر الدسائس التي حيكت حوله بالقاهرة من جانب القضاة حتى أبعدوه عن وظائفه . ثم أن تيمورا عمد للحيلة ، وطمأن أهل دمشق حتى فتحها، ثم غدر بهم بعدفتحها، وبعد أن استنزف أموالها قفل راجعا إلى بلاده، ولم تخسر دمشق مالها فحسب ، بل سلب تيمور منها أهلها وفضلاءها ونساءها وأرباب الصنائع والحرف فيها من الأطباء والعلماء وأمر بترحيلهم الى سمرقند ، ولذلك لم تكن كارثة دمشق مجرد كارثة حربيه ، وإنما جاءت كذلك كارثة حضارية ذات أثر بالغ في انحطاط فنونها وتأخرها عدة أجيال .

والى هذه الكارثة أشار ابن حجة فقال :

هذي دمشق الشام عين بلادنا | وعلى محاسنها الخناصر تعقد
قد صيرّتها المغل قاعا صفصفا | هذا وفيها نارهم لا تخمد
وتهدمت أركانها بحريقهم | ووعيدهم ظلما وكم تتهدّد

وقد أرسل السلطان نوابه لعمارة ما تهدم من مدن الشام . فأرسل شمس الدين ابن عباس كافلا لدمشق وعهد اليه اصلاح ما أفسده المغول ، فمدحه ابن حجه ، وأشاد بجهوده التي بذلها لإعادة عمران دمشق فقال :

وافي دمشــق الشــام بعــد حريقها ... وجرى الندى من ذلك الكف الندى
فاليوم قد أضحــت لكثـرة ريها ... يروى بلثم ترابهــا قلــب الصدى
وأزال وحشتهــا وأمــن خوفها ... وعـلا النــدى فيه بصــوت مغرّد
يا أهــل جلــق لا تخافــوا بعدها ... فاليوم أنتــم في أمــان محمد

كما أرسل المقر الأشرف الزينى عمر بن الهدياني كافلا لحماة ليعيد اليها عمرانها ، فدخلها بعد رحيل اللنك عنها بيوم واحد ، وأطفا حريقها ، وشرع في عمارتها فمدحه ابن حجه وقال :

عمــر تنبــه للخلائــق فارقدوا ... متوسمين الأمــر لا تتسهدوا
فحماة عنهــا الظلــم عاد مقيدا ... والقيد مكتــوب عليه «مخلد»
والعــدل أصبــح غصنــه متوردا ... وعليه أطيار النجــاح تغرد
وأمامكم عمر ، وسيرتكم غدت ... عمـريّة ، والفضــل عنــكم يسند
يا أيهــا الملك الــذي لولاه ما ... بحماة كان اليوم يعهــد معهد
ان كان ممــن قدم مؤ يدهــا مضى ... فاليوم أنــت مظفــر ومؤ يد
دار السعــادة كان قد حل الشقا ... فيهــا وجاورهــا زمــان أسود
واليوم تنشــد مذ حللــت بربعها ... أهــلا بعيش أخضر يتجدد
واذا نظــرت الى البقــاع وجدتها ... تشقـي كما تشقـى الرجــال وتسعد

ومن العلاقات العدائية كانت العلاقة بحكام جزيرتي رودوس وقبرص حيث كانت هاتـان الجزيرتـان تسـهمان مع أحـلافهما من الأوربيين في الاغـارة على السواحـل المصرية والشـامية وتنـزلان بهما الخسائـر والأضرار ، ومما حدث أن الفرنج أغاروا على ثغر الاسكندرية سنة ٧٦٧ على حين غفلة ، ونهبوا المدينة فنهض لهم السلطان بعسكره ، فتركوا الاسكندرية وهربوا [١] وقال الشيخ شهاب الدين أحمد بن أبي حجلة يرثي ثغر الاسكندرية في هذه الوقعة :

ألا في سبيل الله ما حل في الثغر ... على فرقــة الإسلام من عصبــة الكفر
أتاهــا من الافرنــج سبعــون مركبا ... وضاقــت بهــا العربــان في البــر والبحر
وصيــر منهــا أزرق البحــر أسودا ... بنــو الأصفــر الباغــون بالبيض والسمر

---

(١) النجوم الزاهرة ج١١ ص٢٩ .

ثم استجمعوا قواهم وأرادوا أن يجربوا حظهم بثغر من الثغور الشامية ، فأغاروا على طرابلس سنة ٧٦٩ ونهبوا بعض أسواقها ، ولكن حظهم من الفشل لم يكن بأقل من حظهم يوم هاجموا ثغر الاسكندرية ، وكان في هاتين الغارتين ، صاحب قبرص يرافق الافرنجة الغازين ويدلهم على معاقل المسلمين ، وكذلك فان امتلاك (الاسبتارية) لجزيرة رودس التي تعتبر الحصن الباقي من حصون الصليبية بالشرق ، ومن الطبيعي أن يتعاون الصليبيون في كل من قبرص ورودس ضد العدو المشترك الذي هو المماليك المسلمون في مصر والشام ، وبالرغم من أن الدولة المملوكية البحرية هادنت جزيرة قبرص ورودس فان الدولة المملوكية الشركسية آثر حكامها اجتثاث هذا الداء الصليبي من البحر كما اجتث من البر فأرسل الأشرف بارسباي ثلاث حملات بحرية ، في ثلاث سنوات متتالية الأولى سنة ٨٢٧ وهاجمت (ليماسول) ، والثانية سنة ٨٢٨هـ اشتركت فيها مع قوة المماليك قوة بحرية من قبل السلطان الحفصي صاحب تونس ، والثالثة سنة ٨٢٩ وقعت فيها معركة حامية أسر فيها (لوزنيان) ملكها ، وسيق الى القاهرة ، فقبل منه السلطان الأشرف الفدية ، ورتّب عليه جزية سنوية ، وسمح له بمغادرة القاهرة ، وبقيت قبرص تابعة لمصر حتى زوال الدولة المملوكية نفسها ، وأما صاحب رودس فانه آثر أن يدفع جزية سنوية قبل أن يدخل في حرب مع السلطان .

وقد مني الفرنجة بخسائر فادحة في الفترة التي عاشها ابن حجه ، وكان الفشل حليفهم ، فانتصر عليهم قائد الجيش المملوكي (دمرداش الحاكمي) فمدحه ابن حجه وسجّل له هذه المأثرة التاريخية على الفرنجة فقال :

بنو الأصفر اسودت وجوه ليوثهم ... وفي أسود البحر ارتدوا بالدما الحمر
نثرت رقاب القوم مع نظم شملهم ... بحق لقد أبدعت في النظم والنثر
وفي قطع كالليل لما أتوا تلت ... سيوفك في ظلمائه سورة الفجر
بسطتهم في البر ثم كسرتهم ... نعم أنت عين الدهر في البسط والكسر
وصيرتهم بالسيف في كل ساحل ... فلم يقربوا من بعدها ساحل البحر
وطارت بهم غربانهم منك خيفة ... وهل لغراب قدرة بلقا النسر

وهيجتهم خوفا لصدق عزائم ... كأنك في الهيجاء فرع من السحر

ويستبشر ابن حجة بكسر الفرنجة ، ويعتبر هذا نصرا لأهل الشام ومصر وكافة بلاد المسلمين ، فحق لهم أن يفرحوا فقال :

وصح الهنا من أهل مصر بكسرهم ... كما استبشروا من مثلها ساعة الكسر
وامنتنا بالشام من بعد خوفنا ... وجاء الهوى من حيث ندري ولاندري
وطيبة طاب العيش فيها لأهلها ... وهب نسيم الغرب من ذلك القبر

وبلد الشاعر تعرضت لهجوم الفرنجة ، حيث هاجموا حصن حماة الحصين ، ولكن الممدوح رد عنه سطوة المغيرين فأشاد بعزيمته وقال :

وحصن حماة أنت حميته بعزمة ليث لم يخف سطوة الدهر
رددت ملوك الأرض عنه بخيفة تقول . وحق النصر إنا لفي خسر
أطاعك عاصيها ، ولكن لهم عصىً فسائلهم ما رد الامن النهر
وكم صمموا في أخذها وتجاسروا منعتهم أن يقربوا طرف الجسر

فاذا تركنا علاقة المماليك بكل من تيمور لنك ، وجزر البحر الأبيض المتوسط الشرقية التي كانت عدائية في أغلبها ، نلتفت للحديث عن حدود المملكة من جهة الشمال ، ونقصد بها منطقة ملطية والابلستين ، وبلاد دلغاور ، وابن رمضان ، ودولة بني قرمان ، ويطلق عليها اسم مجموعة الدول التركمانية ، ولم تثبت هذه المناطق على تبعيتها الدائمة ، وولائها المستمر لدولة المماليك .
وربما كان أبرز حوادث خروج التركمان ما وقع بعد زوال خطر تيمور لنك ، اذ كثر تمردهم ، واستمروا على ذلك حتى زمن سلطنة الملك المؤيد شيخ . مما اضطره الى الخروج بنفسه لقمعهم ، وذلك على أثر تحالف قرا يوسف زعيم الشاه السوداء مع شاه رخ بن تيمور لنك ، وهزم شيخ الثائرين مرتين الاولى سنة ٨١٨ والثانية سنة ٨٢٠ وانتهز الروم هذا الاضطراب على الحدود الشمالية فتسللوا الى قيسارية ، ولكن المؤيد كان لهم بالمرصاد ، فاسترد المنطقة منهم ، وسجل له ابن حجة هذه المأثرة فقال :

وفتحت قيسارية والروم قد خضعت ومالكها مطيع شاكر

وعندما كانت الأخبار تترى بهجوم الروم على تخوم المملكة من الشمال ، كان السلطان اما أن ينهض لحمايتها بنفسه اذا كان المقام يقتضي ذلك كما رأينا سنة ٨١٨ ، واما أن يرسل لهم جيشا من قبله ، ويعيد المياه الى مجاريها ، كما فعل عندما أرسل ابنه ابراهيم ، فانتصر عليهم وعاد قبل العيد بأيام وساق العصاة مكبلين بالأصفاد ، وعرضهم بالقاهرة ، فكان العيد عيدين فقال ابن حجة :

وساق كل عصاة الروم خاضعة تمشي اليك وقد زلت بها القدم
والعيد وافى وابراهيم عاد الى حجر المؤيد والأيام تبتسم
هو المظفر من نسل المؤيد وال أشبال يعزى الى الآساد فعلهم
لسان سيفك من بعد على يده نادى العدى فأجابته رؤوسهم

ولو تساءلنا عن هذه الأماكن التي كانت مثار نزاع وخصومة بين المماليك وجيرانهم لكان الجواب أنها منطقة قرمان وطرسوس وسيواس وغيرها ، وكان أهلها يحاولون أن ينقضوا عليها بين الحين والحين ، ولكن قوة السلطان كانت تنتزعها منهم وتعيدها الى أمها وتقرّ فيها الأمن والطمأنينة . قال ابن حجة في استرجاع أرض القرمان وطرسوس ، بعد أن استولى عليها ابن قرمان سنة ٨٢٠ ، وفي سنة ٨٢٢ أرسل المؤيد ابنه ابراهيم ومعه حملة كبرى أخضعت القرمان ورجعت بالغنائم الكثيرة .

وخص من قرمـان فرقـة فنيت | واشتد في لحمهـم من سيفـك القرم
راموا بطرسوس ملكا منهـم أخذت | وزال من بعدهـا ـ والله ـ ملكهم
ومصطفى عينـه قد مدهـا قلعت | وهـا أبـوه أسـيرا دأبـه الندم
ولـو ذكرت ملـوكا خالفـوك وقد | أمنتهـم لأطـال الشرح ذكرهم
لكن نظمـت لضيق الوقـت مختصرا | أوجـزت منـه لكيلا يحصـل السأم

وهؤلاء القرمان ومن كان يواليهم من وراء حدود المملكة من حكام الشاه البيضاء كثيرا ما جمعوا الأحزاب وتواطؤوا على الاغارة على الحدود المملوكية ، فكان السلطان يرسل قادته لمحاربتهم فيكسرونهم بمساعدة سليمان الأيوبي صاحب حصن كيفا الموالي للمماليك والمجاور لمنطقة سيواس التي كانت موضع نزاع وخصومة ، ففي هذه المناسبة يقول ابن حجة مادحا قائد الجيش المملوكي تعريفا الافضلي قائلا :

بالأمس في حصـن سيواس تجمعت | الأحـزاب نحـوك لما أن أتـوا زمرا
فأذكرونـا سليمانـا وقـد نفروا | كالنمـل من خوفهـم يا آية الشعرا
صدمتهـم بجنـان لو صدمـت به | صدر الصباح عقيب الليل ما سفرا
وكم علـوت بنهـد فوق صدر فتي | كلمتـه بلسـان السيف مختصرا

وأما الجار الكبير الخطير الذي كان يخشاه المماليك فهو بنو عثمان ، بدأت العلاقة المملوكية ـ العثمانية ودية زمن الدولة الشركسية ، وكان العامل الأساسي في هذا الود هو الخطر المشترك الذي هدد الدولتين ، من ناحية تيمور لنك . ودأب السلطان العثماني بايزيد على تأكيد صداقته واحترامه لسلاطين المماليك فأرسل سنة ٧٩٧ هدايا وتحفا الى الخليفة العباسي في مصر وهو المتوكل على الله في ذلك الوقت ، طالبا منه تشريفا وتقليدا باعتماده سلطانا فبعث له تقليدا . وهذا دليل واضح على مركز السلطنة المملوكية وسيادتها الاسلامية العليا في المجال الدولي . على أن العلاقة الودية لم تستمر طويلا ، فقد زحف بايزيد سنة ٨٠١ واستولى على ملطية ، ثم تعود العلاقات الى المهادنة في زمان مراد العثماني والأشرف المملوكي ، وأرسل مراد تهنئة للاشرف بمناسبة انتصاره على الصليبيين القبارصة ، وفي عام ٨٣٢ هـ أرسل مراد خمسين أسيرا مسيحيا على أثر استيلائه على احدى الامارات البلقانية لكي يدلل على أنه ليس دون الأشرف في اعلاء كلمة الاسلام ، وتمضي العلاقات بين مد وجزر ، حتى يقيّض لدولة بني عثمان أن تقضي على دولة المماليك سنة ٩٢٣ هـ .

لقد شمل حديثنا ، حتى الآن ، علاقة المماليك بدول آسية ، وما أجدرنا أن نتحدث عن علاقتهم بدول أفريقية ، فالدول الافريقية ذات الصلة بالشراكسة ، أشهرها دولة بني حفص بتونس ودولة بني عبد الواد بتلمسان ، ودولة بني مرين بفاس والمغرب ، ويتصل بشمالي أفريقية ملوك الأندلس في غرناطة الا أن أشهر العلاقات بين المماليك ودول شمالي أفريقية كانت مع دولة بني حفص ، ويمكن ايجاز العلاقة بأنها كانت على الأغلب ودية أساسها تبادل الهدايا والمجاملات في المناسبات المختلفة . وأعظم مناسبة لذلك هي موسم الحج من كل عام ، نظرا لموقع المماليك في طريق الحاج المغربي ، ومكانة المماليك وإشرافهم على الأرض المقدسة

عند المسلمين والنصارى ، وقد جرى ملوك مصر على تسهيل أداء فريضة الحج لكل القاصدين من الأقطار الاسلامية . ومن ناحية اخرى فان المماليك بحكم تنشئتهم العسكرية ، وحياة الفروسية التي كانوا يحيونها ، ومتطلبات ذلك العصر للخيول فقد عمدوا الى استيراد الخيول من المغرب وتونس ، اما استهداء أو شراء ، لأن الخيول المغربية تبزّ غيرها ، أوكما يقول ابن خلدون «لا يوجد بالمغرب تحف تطرف بها ملوك الشرق الا الجياد العرب»(١) فلما قدم الحاج المغربي الى مصر سنة ٧٨٨ أحضر معه هدية حافلة من الخيول المغربية من سلطان تونس ، ولعل مجيء ابن خلدون الى مصر قد ساعد على استمرار علاقات الود بين السلاطين الشراكسة وسلاطين المغرب ، واتخذ السلطان برقوق من ابن خلدون مستشارا له ، يأخذ بآرائه في كثير من الاحيان . ولقد استغل ابن خلدون صداقة برقوق له وطلب منه أن يتدخل لدى سلطان المغرب الحفصي ليرسل له أهله ، فلبى السلطان الحفصي ذلك وبعث بسفينة محمّلة بالخيول المنتقاة ، وعليها أسرة ابن خلدون ، غير أن عاصفة هبّت قرب الاسكندرية فأغرقت أسرة ابن خلدون وما رافقها من خيول . ولم تقتصر هذه العلاقة على مجرد الهدايا والمجاملات بل تعدتها الى النواحي السياسية ، فما كاد يعلم السلطان أبو العباس الحفصي بخلع برقوق من السلطنة حتى حزن أشد الحزن فلما عاد الى السلطنة تهلل السلطان الحفصي وأرسل اليه قاصدا بالتهنئة ، كذلك قبل سلطان بني مرين بالمغرب وهو أبو العباس أحمد بن سالم شفاعة السلطان برقوق في يوسف بن علي بن غانم أحد شيوخ العرب بالمغرب ، عندما لجأ الى السلطان المملوكي سنة ٧٩٣ ، وسبق أن نوهنا بمساعدة السلطان الحفصي بتونس للأشرف حربيا في فتح قبرص ، والخلاصة ان العلاقة بقيت ودية حتى نهاية عصر المماليك .

ويتصل بمماليك شمالي أفريقية الاسلامية مسلمو الأندلس في غرناطة ، حيث يحكم أمراء بني نصر ، وامارة غرناطة آخر امارة اسلامية في اسبانية ، ظل أمراؤ ها يلتمسون العون من جانب أقوى دولة اسلامية معاصرة وهي دولة المماليك وذلك بسبب ضغط الدول المسيحية الاسبانية ، ولا سيما أرغونه وقشتاله .

وبهذه المناسبة نذكر ما أورده ابن حجة في جنى الجنتين قوله : «وبلغ صاحب الأندلس محمد الأحمر أخذ مدينة واستيلاء الافرنج ، فجهز قصيدة دالية الى تونس يستنصر بها عبد العزيز العمري ، ويشير الى أحد ملوك الاسلام بالمغرب أنه كان السبب في ذلك ، ولما وصلت القصيدة الى صاحب تونس أجاب أبو محمد القفصي بجواب سافل ، وفي ربيع الأول سنة ٨٢٤ وردت القصيدتان الى القاهرة ، فنظم ابن حجة الجواب ومحمد الأحمر يطلب نجدة من ملوك الاسلام لاسترداد مدينة سبتة التي انتزعها الفرنجة بتواطؤ مع بعض ملوك المسلمين ، ويبدو أن أهل تونس لم يكونوا على استعداد لتلبية الطلب ، وبالرغم من أن قصيدة الاستنجاد وصلت إلى القاهرة إلا أن الملك المؤ يد كان في آخر أيامه يعاني مرض الهرم ، واكتفى السلطان المملوكي بتكليف ابن حجة بنظم بعض أبيات ينجد فيها ابن الأحمر ، ولم تتعدّالنجدة أكثر من ذلك . فمن أبيات قصيدة ابن الأحمر قوله :

(١) تاريخ ابن خلدون جـ ٥ ص ٤٧٩

حماة الهدى سبقاً وان بعد المدى — فقد سألتكم نصرها ملة الهدى
وقد أسمع القطر الغريب نداءه — فهل قاصد بالغوث من أسمع الندا
ومديداً يرجو من الغرب نصرة — فأبصرت المرجوّ قد قبّض اليدا
علام يعد المسلم السيف صارماً — أو الرمح عسالاً أو الطرف أجردا
فلا تفردوا الاسلام بين عداته — فقد أسلم الجار القريب وأفردا
وان كان بعد الدار عذرا لقائل — ألم تبلغوا بالعزم أقصى وأبعدا
فأندلس من تعلمون حماتها — ثبوتاً إذا جد الوغى وتجلدا
وللقدر الجاري مطاف بسبتة — جرى نحوها قصداً فأعيى وأبعدا
فهل منصف ممن تعمد غصبها ؟ — وقد علمت آفاقها من تعمدا
على سبته تهمى الدموع سحائبا — لتطفىء من نار الأسى ما توقدا

ومن الأبيات التي أجاب ابن حجة قوله :

أجابكم عزم سبقنا به الندى — وأسيافنا والله كذبت الصدا
فلبيك يا من بالندا صار معلنا — وقد رفع الأعلام في حالة الندا
ومد يداً ترجو من الشرق نصرة — بعيشك فالمرجو قد بسط اليدا
نعم واشترينا منك ما كنت بائعاً — من العرض الفاني بقاء مخلدا
وان لم نعاجلكم بفرسان شرقنا — وبالأمس قد رمتم من الشرق منجدا
فليس كما قلتم نرى السيف صارماً — ولا الرمح عسالاً ولا الطرف أجردا
فلا هيكل إلا وقد صار دارساً — ولا بيعة إلا وتصبح مسجدا
وان أسبتوا في سبتة فرحاً بها — غدا يجدوا فيها خصيماً منكدا

وقد عرض ابن حجة بذلك الملك المسلم الذي تواطأ مع الفرنجة على أخذ سبتة ، وتوقع له مصيراً مشؤ وما فقال :

وإن كان ذاك الجار صادق شركم — عليها وعادى بعد ذاك محمدا
فمصرعه مع عصبة الشرك قد دنا — من اليوم لكن حشره معهم غدا

وهذا كل ما كان يملكه مسلمو المشرق تجاه مسلمي المغرب ، قصيدة يدبجها الشاعر ينصر بها من استنجد به ، وقصيدة ليس غير .

هذه صورة سريعة لعلاقات المماليك بملوك الأندلس المسلمين . أما في الجهة الجنوبية لمصر فكانت الحبشة ، وكانت العلاقات بينها وبين دولة المماليك ، طوال الفترة الشركسية أكثر ما تكون ميلاً نحو الود

والوفاق والمجاملات وتبادل الهدايا . غير أن تطلع مسلمي الحبشة إلى الدولة المملوكية - وهي أكبر دولة مسلمة في ذلك الوقت - جعل الحبشة تخشى دائماً جانب المماليك ، ولذا اتخذ النجاشي (زرء يعقوب) خطوة ايجابية كبرى في هذا الصدد فعمل على تكوين حلف مسيحي كبير ضد الاسلام ، فكتب إلى الفونس الخامس) ملك أرغونة يقترح عليه العمل على تكوين حلف مسيحي أوروبي - أفريقي ضد المسلمين ، فأجاب (الفونس) باقتراح المصاهرة بين الأسرتين لتدعيم الصداقة وتوطيد الروابط ، وأظهر استعداداً لمثل هذا الحلف ، ويجب ألا ننسى أن الفونس الخامس ملك أرغونة كان في ذلك الوقت يحارب إمارة آل نصر في غرناطة الاسلامية ، للقضاء على المسلمين نهائياً من اسبانيا ، وحملت كراهية النجاشي للدولة المملوكية أن يفكر في فصل الكنيسة الحبشية عن الكنيسة المصرية ، ويربطها بكنيسة روما حتى يضمن مساعدة البابا الروحية والدول الأوروبية ، ووفقاً لهذا المخطط وافق بطريرك الاسكندرية على ذلك المشروع ، وهكذا كانت العلاقات المملوكية الحبشية زمن الشراكسة مزيجاً من التحدي والعداء تارة ، والهدوء مع تبادل الهدايا تارة أخرى .

وما فصلنا الحديث عن الدول المجاورة للسلطنة المملوكية إلا لصلتها الوثيقة بها ، ويدل على هذه الصلة كتاب (قهوة الانشاء) الذي صنّفه ابن حجة الحموي كاتب دواوين الانشاء في الممالك الاسلامية ، وجمع فيه كل المرسومات السلطانية والأنظمة والكتب والمعاهدات التي كان يكتب بها سلطان القاهرة المملوكي ، إلى الأقطار المجاورة الآنفة الذكر .

القسم الثاني
الحياة الاجتماعية

يتألف المجتمع المملوكي من قسمين رئيسيين ؛ الأول العنصر المملوكي الوافد إلى البلاد العربية ، وهو العنصر **الحاكم** الذي آلت إليه السلطة خلال حقبة ليست قليلة من الزمن . الثاني هو العنصر العربي الذي رمت به **أحداث** السنين إلى أن يكون شعباً محكوماً ، تتحكم به عناصر دخيلة ، على أرضه ولغته وأعرافه وتقاليده . وفئة المماليك عاشت مترفعة عن طبقة الشعب ، وندر أن وقع بين هذين الطرفين صلات مصاهرة ونسب ، وان وقع شيء من هذا في أحيان قليلة فلم يكن على نطاق واسع ، ولهذا لم يستطيعوا أن يتركوا في الشعب العربي سلائل هجينة .

من هذين العنصرين الرئيسيين يتألف المجتمع المملوكي في مجمله ، أما في تفاصيله فيمكن تقسيمه إلى طبقات ثلاث ، الطبقة الأولى هي طبقة سراة المجتمع ، وحكامه ، وهي تضم السلاطين والأمراء وقادة الجيوش ونواب الولايات وجميع أرباب السيوف وإذا استثنينا الخليفة وبعض حاشيته فيمكن القول أن هذه الطبقة كانت مقصورة على العنصر التركي المملوكي ، وهي الطبقة التي تسيّر الأحداث على مسرح السياسة ، وهي التي تقتتل وتتصارع وتتنافس على الوصول إلى خشبة مسرح الزمن لتمثل أقصى ما يمكنها من تمثيل . وبالبحث عن ماهية أفراد هذه الطبقة ندرك أن أغلب من نطلق عليهم اسم سراة اليوم ، وسلاطين الزمان ، كانوا عبيد الأمس ، وأرقاء البارحة ، بيعوا في سوق النخاسة ، فملكتهم أعيان قوم عنوا بتربيتهم وتنشئتهم تنشئة عسكرية ثم اعتقوا وابتسم لهم فم القدر ، فشاء لهم أن يقبلوا أحسن المناصب وأرقاها ، ورفعتهم عصاميتهم إلى أن يتسنمواأعلى المراتب وأسماها ، ثم طوحت ببعضهم المطامح فردتهم إلى أرذل مصير ، فقتلوا شر قتلة ، وسالم الزمان بعضهم فمدّهم ظلالاً وارفة من نعيم تفيأ فيها طوال حياته وأورثها أبناءه وأحفاده من بعده .

أعود فأقول : إن هذه الطبقة الحاكمة هي ـ في أغلبها ـ من عناصر مملوكية لم تنبت في أرض عربية ، ولكنها وفدت إلى هذه الأرض العربية واستوطنتها ، وحكمتها ، وليست بذات جذور فيها ، وكل ما كان يربطها بهذا الشعب الذي تحكمه هو الدين الذي دانت به ، وهذا هو سر بقاء هذه الفئة ، وسكوت الشعب المحكوم ، ولو لا رابطة الدين التي تربط الحاكم بالمحكوم لكان للمسلمين مع هؤلاء المماليك شأن آخر . أما رابطة القومية فليست بذات بال في ذلك الزمن . وأما رابطة اللغة فهي الأداة الثانية التي اصطنعها المماليك بعد الدين ، لأنهم لم يكونوا يحسنون اللغة العربية ، فاصطنعوا من العرب من كان يحسن هذه اللغة الشريفة ، وقرّبوهم وآثروهم ، لأن زاد المماليك من الحضارة لم يكن إلا سيفاً يرفع ، وعزيمة تدفع ، وكان لابد لهم من دين ولغة ـ وهما عنصرا الحضارة الفكرية ـ فدانوا بدين الاسلام واتخذوا لغة الاسلام لغة لدولتهم ، ومن هنا نشأت الطبقة الثانية التي تملك هذين العنصرين ـ الدين واللغة ـ وقد كانت عربية في أغلب الأحيان ، فكان منها القضاة وكتاب السر والمنشئون ، وشيوخ الاسلام ، وعمد المذاهب ، وكانت

تدير دفة الحكم من حيث الرأي والفكر ، ولكنها كانت منساقة تابعة للطبقة الأولى في كثير من الأحيان ، وهذه تشكل طبقة أرباب الأقلام .

وإذا انحدرنا من الطبقتين السابقتين : أرباب السيوف وأرباب الأقلام ، إلى الطبقة الدنيا في هرم التصنيف الاجتماعي ، طالعتنا القاعدة الكبرى ، قاعدة الشعب بشتى فئاته ، من تجار وعملة وأكرة وبطّالين وسوقة ،[1] هذه الطبقة كانت تنقص أفرادها التوعية الفكرية ، والتوجيه الثقافي ، ولذا كانت في كثير من الأحيان شراً على الطبقتين الأخريين ، فكم من فتنة أثارها الشعب على السلطان ، وكم من ثورة أجج أوارها (الزعر) ورجموا القضاة والمحتسبين لا لاعلاء كلمة الله ولا لرفع كلمة الحق ، ولكن لضعف لمسوه في السلطان ، أو لفتيا أفتاها قاض ، لا تتمشى مع أهوائهم .

الاقطاع : وفوق هذا يمكن أن نقول بشيء غير قليل من الاطمئنان ، إن المجتمع المملوكي مجتمع طبقي اقطاعي . حازت فيه طبقة الحكام أقصى ما يمكن أن يحوزه حاكم من اقطاع . وان نظرة سريعة نلقيها على كتاب صبح الأعشى، وهو من أهم كتب الفترة التي نتحدث عنها ، كفيلة بأن تعطينا فكرة عن الاقطاع السائد في هذه الحقبة من الزمن .

والسّنة التي جرى عليها المماليك في اقطاع الأراضي ، بل وجميع موارد الدولة هي أن توزع بين السلاطين وأولادهم وذراريهم ، والأمراء ومن يلوذ بهم ، وكانت الأراضي المقطعة درجات ، من حيث الري والخصوبة ، ووفرة الانتاج ، يستأثر السلطان بأحسنها ، والإدارة التي تقوم بعملية توزيع الاقطاعات هي ديوان الجيش ، ثم يليه ديوان الانشاء يصدر الوثيقة النهائية في الاقطاع ، وتعرف باسم (المنشور) حيث يتسلمه المقطع وبه يصير الاقطاع شرعياً بيده . وقد يعطى الاقطاع أحياناً لمن لا يستحقه ، فمما أخذ على برقوق أنه جعل قريبه الأمير (قجماس) أمير مئة ومقدم ألف ومايتبع ذلك من اقطاع وهو لا يحسن التلفظ بالشهادتين[2] حتى موظفي ديوانه كانوا يدخلون عليه فيجدون الفقيه يعلمه الشهادة وقراءة الفاتحة وهو كالتيس بين يدي الفقيه» ومن الذين يحوزون الاقطاعات الكبيرة أولاد السلاطين ، فأحيانا كانوا يمنحونه وهم صغار ، فمثلا أعطى السلطان شيخ المحمودي عام ٨١٥ ولده ابراهيم امرة مئة وتقدمة ألف وما يترتب على ذلك من اقطاع . وأما غلال الاقطاعات فيقسم الى أقسام ثلاثة الأول للسلطان والثاني للمقطع والثالث للفلاح وكانت حالته أسوأ حال . ومن القيود المفروضة عليه اجباره على الفلاحة . يقول السبكي : «ومن قبائح ديوان الجيش الزام الفلاحين بالاقطاعات بالفلاحة ، والفلاح حر لا يد لآدمي عليه»[3] ويزيدنا

---

(١) كانت طبقات الشعب على ما يرويه المقريزي في اغاثة الأمة ست طبقات ، وهي أهل اليسار من التجار وأولي النعمة من ذوي الرفاهة ، والباعة وهم متوسطو الحال من التجار ويقال لهم أصحاب البز . ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السوقة ، وأهل الفلح وهم أهل الزراعات والحرث ، وسكان القرى والريف . والفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم والكثير من أجناد الحلقة ، وأرباب المصانع والأجرا وأصحاب المهن ، وذو الحاجة والمسكنة ، وهم السؤال الذين يتكلفون الناس ويعيشون منهم - اغاثة الامة .

(٢) النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٥١

(٣) معيد النعم ص ٤٤

صاحب الخطط بيانا بأنه «إذا حدث وهرب الفلاح فرارا من الظلم والقسوة أعيد قسرا» (١) ولم تختلف هذه الأوضاع عن مثيلتها التي سادت في الاقطاع الأوروبي ، حيث كان الفلاح مقيداً بالأرض ، فإذا هرب منها قبض عليه ، وقيّد بالسلاسل كالعبد ، وعوقب أشد العقوبة . بل يعاقب كذلك من سهّل له الفرار (٢) .

والاقطاعات ، لا تورث ، بل تعود ملكيتها للسلطان واذا مات أصحابها أو غضب عليهم السلطان ، أو نقلهم عنها ، فيهبها من جديد لمن يشاء .

الثورات الشعبية ، أبرز الظواهر التي تلفت النظر في العصر المملوكي هي ظاهرة الثورات والفتن ، التي لا تكاد تخلو منها سنة ، ولكن حريّ بنا أن نستبعد الحديث عن الثورات التي لم تكن شعبية ، اذ أن الثورات التي كان يقوم بها المماليك حبا في الوصول الى سدة الحكم ، أو الثورات التي كانت عبارة عن حركات انقلاب تطيح بسلطان لترفع آخر ، أو المؤامرات التي كان يحيكها قائد جيش ضد سلطانه ، ، أو أمير ضد تربه ، كلها ليست من الثورات الشعبية . وتحدثنا عنها في الحياة السياسية ، وحسبنا هنا أن نتحدث عن الثورات الشعبية هي صدى للحياة الاجتماعية التي كان يحياها الشعب في النظام المملوكي ،

والتي كانت دوافعها أسبابا اجتماعية ككثرة الغلاء والقحط والغلاء من الأمور التي عصفت كثيراً بالمجتمع المملوكي ، وبالرغم من أن بعض عوامل القحط والغلاء كان طبيعيا ، مرده الى الطبيعة لايد للحاكم فيه كنقص كميات مياه النيل ، فبعضها الآخر لم يكن طبيعيا بل هو من صنع بعض الحكام ، كاحتكار صناعة السكر من قبل الاشرف ، واشرافه على تجارته ، وعدم التخفيف من قيود الاحتكار عند وقوع طاعون سنة ٨٣٣ في عهده .

وبمناسبة ذكر الأوبئة والطواعين فما أكثر ما ذكرت كتب التاريخ حدوثها ، فقد كانت الطواعينُ تفتك بالبشر أكثر من الحروب ، وضحايا الأوبئة يفوقون ضحايا المعارك ، «ففي طاعون سنة ٧٦٤ كان الطاعون بالديار المصرية والبلاد الشامية ومات فيه خلق كثير .»(٣) وللمزيد دعنا نستمتع الى ابن تغري بردى يحدثنا عن بعض الأوبئة وما يترتب عليها من أزمات اقتصادية فيقول : «وقع الفناء بالديار المصرية حتى صار يموت في كل يوم من الحشرية(٤) ومن الطرحي(٥) نحو الألف ، فأبيع كل فروج بخمسة وأربعين درهما ، وكل سفرجلة بخمسين درهما ، وكل رمانة بعشرة دراهم ، وكل بطيخة صيفية بسبعين درهما .»(٦) ويقع طاعون آخر سنة ٧٩١ توفي فيه خلق كثير ، وواكب ذلك أيام الفتنة الكبرى ، وذهب ضحيته عدد كبير من القضاة .(٧) وفي عام ٨٣٣ في عهد السلطان الاشرف انتشر الطاعون بالبلاد ، وكان طاغيا فتاكا ، قال ابن

---

(١) الخطط جـ ٢ ص١٣٨
(٢) من كتاب : مصر في عصر دولة المماليك الشراكسة ص ٢٤٢ .
(٣) النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ١٧
(٤) الحشري الذي يموت ولا وارث له
(٥) الطرحي : جمع طريح وهو المتروك المهمل
(٦) النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٦٦ .
(٧) النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٣٨٢

اياس : «كان هذا الطاعون مخالفا لبقية الطواعين ، فان عادة الطعن يقع في فصل الربيع ، وهذا وقع في فصل الشتاء ، واستمر أربعة أشهر»(١) وقال : «وكانت قوة عمله في الغرباء والأطفال والمماليك والعبيد والجواري ، فمات فيه من الناس مالا يحصى عددهم ، حتى قيل انه مات في يوم واحد أربعة وعشرون ألفا حتى ضج الناس من ذلك ، وصار يودع بعضهم بعضا ، وقال فيه بعض الشعراء :

قد نقص الطاعـون ثلـث الورى وأهلك الوالـد والوالده
كم منـزل كالشمـع سكانه أطفأهـم في نفخـة واحده

وقد انتهى خطره في شعبان ، بعد أن مات به كثير من الأعيان»(٢)

ومن الآفات الاجتماعية غلاء الأسعار ، وفقدان الحاجة الضرورية ، فقد حدث في آخر سلطنة الاشرف شعبان سنة ٧٧٧ أن وقع غلاء مفرط في الأسعار بالبلاد الشامية ، حتى أكل الناس الميتات والكلاب والقطط(٣) . وبيع بحلب رطل الخبز بثلاثة دراهم ، وفي هذا المعني يقول بدر الدين بن حبيب :

لا تقيمـن بي علي حلـب الشهـ ـبـاء ، وارحـل ، فأخضر العيش أدهم
كيف لي بالمقـام والخبـز فيها كل رطـل بدرهمـين ودرهم

والغريب أنه في الوقت ذاته الذي تحدثنا فيه كتب التاريخ عن الغلاء والقحط الذي كان يجتاح الشعب ، فلا يجدون لقمة العيش ، نرى هذه الكتب تطنب في وصف الترف الذي كان يحياه السلطان وحاشيته ، ففي سنة ٧٧٧ بالذات ، حج السلطان ، واصطحب معه الى الحج «عشرين قطـارا من الابـل محملـة قماشـا مذهبا ، وخمسة عشر قطارا قماشا حريرا . . ومئة فرس ، وقطارين من الجمال محملة خضرا مزروعة كالبقل والنعناع والسلق والكسبرة . . وأما أحمال المطاعم والمشارب والمآكل فلا تدخل تحت حصر كثـرة ، منهـا ثلاثون ألف علبة حلاوة في كل علبة خمسة أرطال ، وطيبّت بمئة مثقال مسك سوى الصندل والعود ، هذا خلاف ما كان للأمراء . .»(٣) . وأقصى ما كان يفعله ولي الأمر في حالة الغلاء وحدوث الأوبئة ونقص مياه النيل هو الاستنقاء والدعاء ، فمثلا في سنة ٨٢١ وقع الغـلاء بالـديار المصرية ونـزل الملك المؤ يد شيخ واستسقي ـ كما جرت بذلك العادة ـ وتقشف ، وذبح هناك بيده أغناما وأبقارا ، وفرق في ذلك اليوم على الفقراء ثلاثين ألف رغيف»(٤) .

يضاف للأسباب المباشرة للثورات الشعبية اعتداء المماليك على الناس ، ولا سيما خلال الأزمات واعداد الحملات الحربيّة ، هذا بالاضافة الى تغيير النقود ، وكثرة التلاعب بالسكة ، وضرب العملات الزائفة ، وشدة وطأة المكوس التي تؤخذ من التجار ، وبخاصة في ثغر (قطية) وهو الواقع بين بلاد الشام والـديار

(١) النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ١٣٦
(٢) النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٧٠ .
(٣) بدائع الزهور ص ٣١٦ .

المصرية ، كما حصل لابن حجة عند مروره بقطية واحتجازه بها ، فلما برم بالاقامة فيها استعطف حاكمها فقال :

والله ما باشرت قط وظيفة تسمى، ولاعاينت ـ عمري ـ متجرا
كلا ولا أنا من ذوي المال الذيـ ـن سموا ، ولم أر غير نظم جوهرا
لكن سمعت بأن مصراً جنّة أضحى لها النيل المعظم كوثرا

ومن الأسباب للثورات الشعبية الكراهة العنصرية التي شعر بها العرب ضد حكامهم من المماليك ، ولكن أداة الشعب في مناهضة حاكمه كانت قاصرة ، اذ كانوا يشتركون في الفتن العامة ، ويعتبرها العوام فرصة سانحة للتعبير عن سخطهم ، ولم يكن لهم كبير مصلحة في انتصار منافس على آخر ، ولذلك كانت ثوراتهم بلا هدف فمثلا استعد الزعر والعوام للنهب خلال ثورة يلبغا ومنطاش ضد برقوق ، ولما لاحت علائم النصر بجانب الثائرين انقلبوا ضد السلطان برقوق ، وصاروا يرجمونه ، ثم [illegible]وا القلعة ونهبوها . ومن هنا نستطيع القول بأن الثورات الشعبية ـعلى كثرتها ـ كانت لا ترمي الى هدف بعيد ، ولا الى تغيير اجتماعي ، وقصاراها أنها كانت للسلب والنهب ليس أكثر ، ولم يكن يدفعها وعي رزين ، أو توجيه حصيف ، فلننظر الى هذه الفئة الشعبية فئة الصيادين في الاسكندرية ، تقوم بثورة عارمة ضد نائب الاسكندرية على عهد المؤ يد شيخ ، فلما أرسل لهم النائب مبعوثا من قبله ، قبضوا عليه وحلقوا نصف لحيته ، وشهروه في شوارع الاسكندرية فوق جمل ، وساروا به في موكب بالموسيقى والغناء ، ثم ذبحوه ، وأجبروا نائب الاسكندرية على الوقوف عاريا وضربوه حتى مات . »[1] ثم هؤ لاء عوام دمشق قتلوا في عام ٧٩٩ تاجرا يسمى (ابن النشو) وأحرقوه ، لأنه اشترى القمح في وقت رخاء الاسعار وخزنه ، ثم أخرجه للبيع في وقت الغلاء ، وتعاونوا على قتله ولم تنتطح في ذلك شاتان .

ويدخل في الثروات الشعبية ثورات العربان ، ونستطيع أن نعتبرها ثورات اجتماعية مردها الى الاحتلال الاجتماعي ، وليست ثورات سياسية كما يحلو لبعض المؤ رخين أن يسميها ، لأنها لم تكن تهدف الى تغيير نظم الحكم المملوكي بحكم عربي ، ولم تكن لتثور انتصارا لفكرة القومية ، ولم تدخل ، حتى في كفة المنافسة للمماليك ، ولذلك يمكن القول بأن العربان أو العرب والقومية العربية ظلت متوارية طوال حكم المماليك في ظل بردة الخلافة التي لم يكن لها من الحل والعقد ولا أقله ، وقد نستطيع القول بأن في بعض ثورات العربان شيئا من الكراهية للمماليك ، فان وجدت فهي من باب كراهية المحكوم للحاكم الظالم أنيّ وجد ، وربما كان يكمن فيها شعور العرب بأنهم أحق بالسلطة من المماليك وبأنه ينبغي أن يعاد للخلافة مظهرها الفعلي ، ولذلك اشتركوا مع الخليفة المتوكل في المؤ امرة التي حاكها للقضاء على سلطنة برقوق . ولما رحل تيمورلنك عن دمشق بعد حرقها عاد بعض عسكر السلطان الناصر فرج في طريقهم الى مصر ،

(1) Lane - Poole, P327, Poliak, op. cir., p. 266.

فخرج عليهم العربان ونهبوهم ، وجرى عليهم مالم يجر عليهم من عسكر تيمور[٢] وكذلك في سنة ٧٨١ هاجم العربان مدينة دمنهور ، ونهبوا أسواقها وبيوتها ، وأخرجوا عدة بلاد ، وعاثوا في تلك المنطقة فسادا ، حتى خرج لهم نائب الاسكندرية ، مستعينا بقسم آخر من العربان فكسرهم وهربوا نحو برقة ، ولذلك فان هؤلاء العرب الذين كانوا يعيثون فسادا حيثما حلوا لا في مصر وحدها بل في شمالي أفريقية . كان ابن حجة يعتبر تشتيت امراء المملكة لهم والقضاء على فتنهم لا يقل عن النصر على الفرنجة ويعتبر من مآثر السلطان فقال :

ففي البحر فرقنا الفرنج هزيمة وشتت شمل العرب في المهمه القفر

وقد كانوا يشتطون فينهبون الحجاج ، كما حدث في سنة ٨٠٤ ، لولا أن أمير الحج كرّ عليهم وأسر شيخهم (منجد بن خاطر) فهمّ السلطان فرج بقتله ، لولا أنه تعهد برد مانهب ، ومما هو جدير بالذكر أن هؤلاء العربان كانوا يتحالفون مع التركمان لنهب بعض مدن نيابة حلب . وهذا الشعب العربي الذي لم يستطع أن يشارك في رسم مصيره ، ولم يكن الحاكم الفعلي في بلاده ، كان يتابع الاحداث السياسية والاجتماعية بروح اللامبالاة ، بل بلغ به الأمر أن ينفس عن ضغطه هذا بالتندر والتنكيت على مالكيه وسلاطينه ، فعندما تشبت الفتنة بين الناصري صاحب حلب ومنطاش ، أجرى الله على ألسنة العامة ـ كما يقول المقريزي ـ قولهم : «من غلب » صاحب حلب . » . «حتى لا يكاد صغير ولا كبير الا يقول ذلك . »[١] وعندما خذل الملك الظاهر برقوق ، وانتصر بلبغا الناصري وبرموا به ،وأخذوايتندرون عليه بقولهم : «راح برقوق وغزلانه ، وجاء الناصري وثيرانه . »[٢] وعندما حاصر الأشرف بارسباي مدينة آمد ، وطال حصارها بدون جدوى ، أخذ العوام والجند يتندرون ويغنون : «في آمد رأينا العونة ، في كل خيمة طاحونة ، الغلام نهاره يطحن والجندي يجيب المونة» . ولما أرسل (جكم) نائبا لحلب سنة ٨٠٧ جرى على ألسنة الناس (جكم حكم وما ظلم)[٣] ، ولما هاجم تيمور دمشق وبلاد الشام وفتك فيها ، برم أهل مصر بالاعجام المقيمين بينهم ، وقد نادى السلطان بخروجهم من القاهرة ، وأمهلهم ثلاثة أيام فأخذ الناس يكتبون على الحيطان : «من نصرة الاسلام قتل الاعجام»[٤]

هذه مجموعة من الملامح الصغيرة تصور بعض جوانب الحياة الاجتماعية في العصر المملوكي وبخاصة في الفترة التي عاشها ابن حجة .

---

(١) بدائع الزهور ص ٢٩٢
(٢) النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢٥٥
(٣) النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢٢٣
(٤) النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٣١٠
(٥) النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٥٣ .

القسم الثالث
الحياة الفكرية والأدبيّة

عندما سطا التتار على بغداد وقوّضوا سلطان الدولة العباسية ، لم يقتصروا على تدمير الجانب السياسي من الحضارة العربية وانما امتدت يد الدمار الى الجانب الثقافي والفكري ، وبمقدار ما أعملوا السيف في رقاب الناس أعملوا الحريق والغريق في منتجات أفكار هؤلاء الناس .

ولقد قيض للخلافة من يحتضنها بعد أن هجرت بغداد وسامراء ، وفتحت لها القاهرة ذراعيها ، واستمرت رسومها طوال حكم المماليك ، واذا كانت القاهرة قد ورثت الخلافة عن بغداد فما أحراها أن ترث الثقافة عن بغداد والبصرة والكوفة ، وحقا وجدت الثقافة مرتعا خصيبا في هذه البيئة الجديدة التي أصبحت معقلا للثقافة العربية الاسلامية وخاصة في أواخر العهد المملوكي ، حيث قضى التتار على معالم الثقافة في بغداد والموصل ، وقضى الاسبان على الثقافة الاسلامية في اشبيلية وغرناطة ، وبقيت القاهرة ودمشق الملجأ الوحيد للثقافة الاسلامية بعد أن حوصرت من الشرق والغرب ، ولذلك لا غرابة أن نجد فريقا كبيرا من أساطين العلم والفكر ينزحون من الشرق والغرب ييممون شطر القاهرة ودمشق اللتين أخذتا تحملان مشعل الحضارة وتؤديان دورهما بأمانة كعاصمة سياسية وثقافية للعالم الاسلامي آنذاك . ومن هؤلاء النازحين من المشارق والمغارب الى معقل الخلافة الجديد في مصر والشام ، ابن خلكان الاربلي ، وابن مالك الاندلسي ، وابن أبي حجلة المغربي ، وابن منظور الافريقي ، وابن خلدوان المغربي وغيرهم كثيرون .

وبالرغم من ان المماليك لم يكونوا عربا ، كانوا مسلمين يوقنون بأن لغة الاسلام هي العربية التي لا يتخلى عنها فاضطروا الى اتخاذ اللغة العربية لغة رسمية للدولة ، لأنها ـ بالاضافة الى ذلك ـ لغة الشعب الذي يحكمونه . هذا بالاضافة الى أن اللغة التركية أو الشركسية لم تكن تؤهلها ظروفها لأن تكون لغة الدولة الرسمية لأنها أعجز من أن تفي بمتطلبات الدولة ، وأبسط من أن تكفي للتعبير عن ثقافة بلغت في العصور التي نتحدث عنها قسطا وافرا من التطور والرقي .

نعم كانت القلة الحاكمة من الشراكسة الذين لا يعرفون الا القليل من اللغة العربية باستثناء الملك المؤيد الذي كان يتقن العربية وينظم بها الشعر . ولكن الكثرة من سواد الشعب كانت من العنصر العربي ، هذا بالاضافة الى الطبقة النيرة من الشعب التي كانت تعرف العربية وتقدسها ، كطبقة القضاة والكتاب والمنشئين والشعراء وجميع أرباب القلم ـ كما يعرفون في مصطلح العصر ـ فبهذا يمكن أن نقول ان اصطناع المماليك للغة العربية في العصور الوسطى كان من أهم الأسباب التي وطدت عراقتها ، وجعلتها بحق صلة وصل بين الثقافة العربية القديمة والثقافة العربية الحديثة ، ولو جاز لنا أن نتصور تخلي المماليك عن اللغة العربية خلال حوالي ثلاثة قرون واحلال اللغة التركية أو الشركسية مكانها ثم أسقطنا من الثقافة العربية كل ما كتب ونظم وألف في هذه الحقبة ، لأدركنا مدى الخسارة التي تلحق بالتراث العربي والفكر الاسلامي .

وبالرغم من أن الصفة التي تجمع المغول والمماليك هي صفة الشجاعة والفروسية والتنافس والطموح للسيطرة ، بالاضافة لعجمتها وغرابتها عن اللغة العربية الا أن الصفة التي تفرق بينهما هي أن المغول كانوا

جهلاء لا يهمهم اقامة حضارة بل كانوا في أغلب فتوحاتهم مقوضي حضارات ، على حين أن المماليك ان لم يكونوا علماء فقد كانوا يحترمون العلماء ويعتمدون عليهم في ادارة حكمهم ولايمانهم بالعلم فقد عمدوا الى تشييد المدارس فمما يذكر أن برقوقا لما أسس مدرسته المعروفة بالظاهرية سنة ٧٨٦ افتتحها باحتفال عظيم شهده الأمراء والقضاة والقرّاء ، وقد أسند مشيختها الى العلامة علاء الدين السيرامي وفي يوم الافتتاح بالغ السلطان في تعظيم هذا الشيخ حتى فرش له سجادة بيده ، ورتب بها دروسا في المذاهب الأربعة ودرسا في الحديث ودرسا في القراءات ، وقد كثر شعر الشعراء في افتتاحها فمما قاله الشاعر ابن العطار : (١)

قد أنشأ الظاهر السلطان مدرسة فاقت على ارم مع سرعة العمل
يكفي الخليلي أن جاءت لخدمته شمّ الجبال لها تأتي على عجل

ولم تكن مدرسة الملك المؤيد بأقل من مدرسة برقوق ، فقد انتهى من عمارتها سنة ٨١٩ وأنفق عليها أربعين ألف دينار ، وكانت فيما مضى سجنا رهيبا ومن جملة من اعتقل فيه السلطان المؤيد الذي نذر أن يبنيه جامعا لله اذا أطلق سراحه وآلت اليه السلطنة ، ثم برّ بنذره ، ولقد احتفل المؤيد بافتتاحها احتفالا عظيما ، وقرر أن يكون شيخ الحضور شمس الدين الديري ، وجعل الخطابة فيها للقاضي ناصر الدين بن البارزي وخطب في ذلك اليوم خطبة بليغة وأودع بهذه المدرسة خزانة كتب نفيسة فيها من كل أنواع العلوم بلغت هديةالبارزي خمس مئة مخطوط مجلد قيمتها ألف دينار ، وليست هذه هي اليد البيضاء الوحيدة للسلطان المؤيد في بناء المدارس فبالرغم من أنه حول سجن (خزانة شمايل) من خزانة مجرمين الى خزانة كتب فقد كانت له اليد الطولى في بقاء المدرسة الجمالية التي أنشأها الأمير جمال الدين محمود ، وأودع فيها مجموعة قيمة من أنفس الكتب في الفقه والحديث وبينها مؤلفات مخطوطة عظيمة القيمة ، وعشرة مصاحف كبيرة الحجم أحدها بخط ياقوت والآخر بخط ابن البواب ، مجلدة بالجلد تجليدا أنيقاً . وتم بناؤها سنة ٨١١ ورتب بها ستة من كبار المدرسين وأوقف عليها أوقافا كثيرة جداً ، وأجرى الرواتب والارزاق على موظفيها ، وأنشأ قسما بها لتحفيظ القرآن وتأديب الصغار ، ولما قتل الملك الناصر منشئها كاد يهدمها لولا تدخل كاتب السر ، فبقيت الى أن جاء الملك المؤيد شيخ فأعاد اليها رونقها كما أسلفنا .

وليست المدارس هي الأثر الوحيد الباقي الذي يدل على خدمة المماليك للعلم والثقافة ، لقد انحدر الينا من هذه الحقبة ، التي نتكلم عنها أثر يشهد ، بكل فخر ، لأهل العلم والمعرفة آنذاك بالتفوق وسعة الاطلاع ، وأمدّ الثقافة العربية بثروة طائلة من الكنوز التي لا تفنى ، وهذا الأثر هو «المؤلفات» التي خلفها ذلك العصر ، وقد اختلف المؤرخون في الدوافع التي دفعت مفكري هذه الحقبة الى التأليف والاستكثار منه ، وبالرغم من أننا نقول ان الدافع الداخلي له الدور الأكبر في هذه المؤلفات لأنّ المفكر أخذ يشعر بأنه وريث ثقافة واسعة ضخمة تعاورت عليها الأحداث ، وأخذت تنتابها المحن ، فسيل المغول الجارف يزحف كالجراد من الشرق يلتهم كل شيء ، ويهدم ويدمر ، والظلام التتاري يكتسح النور الاسلامي ويكسف

(١) حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٦٣ ، البدائع جـ ١ ص ٢١٤

شمسه ، كل ذلك في المشرق ، أما في المغرب وبخاصة في الأندلس فان الثقافة الاسلامية كانت تعاني الاحتضار ، والمسجد الذي كان قبلة الثقافة ووعاء العلم أصبح الآن تلتهمه النيران بما فيه ، لذا شعر مفكرو هذه الحقبة في مصر والشام شعورا ضمنيا بأنهم حفظة هذه الثقافة والمسؤ ولون عن تبليغها للناس كافة فنشطت هممهم ، أقول بالرغم من ذلك فقد وجدت بعض الدوافع الخارجية الحافزة على التأليف والاستكثار منه كأن تؤلف بعض الكتب نزولا عند رغبة سلطان فقد ذكر ابن حجة في أكثر من موضع من كتبه بأن ابن ناهض الفقاعي كتب سيرة الملك المؤ يد شيخ ما بين نظم ونثر وقدمها اليه في عام ٨١٨ ، وأن كتاب (روض المناظر) ألفه قاضي القضاة محب الدين بن الشحنة المتوفي سنة ٨١٥ اجابة لرغبة الأمير عماد الدين محمد نائب السلطان بقلعة حلب . ولكن الدافع الأهم - برأيي - للتأليف والاستكثار منه هو أن الأديب في هذه الفترة يبقى مغمورا مهما كان علمه غزيرا حتى يبرزه في كتب ونظم ونثر ، فيذيع صيته ، وتعظم شهرته ، ويعلم به القاصي والداني ، ويزكيه أولو الأمر عند السلطان ، وتكون مؤ لفاته الكثيرة شفيعا له ، مدلّلة على غزارة ثقافته ، بمثابة شهادة أو اجازة في زمن لا تعرف فيه الشهادات ، وهذا ما حصل للكثيرين من القضاة وكتاب السر والمنشئين ، فلم يصل هؤ لاء الى المنصب الا بعد أن كتبوا عشرات المؤلفات ، كابن حجة والقلقشندي والسيوطي ، وقد يعترض معترض على ماهية هذه التآليف بقوله : انها لم تكن أكثر من اجترار للثقافة العربية التي نضجت قبل قرون قليلة ، والواقع ان هذه التآليف مهما يُقَلْ عنها من أنها اجترار للثقافة فهي اجترار يعقبه هضم وفهم عميقان ، وتمثل دقيق ، فلم يكن مجرد اعادة وتكرار بل تصنيف وجمع للمتشابه واحاطة بالكلي ، ثم لو طرحنا كل تلك الجهود جانبا وأخذنا الجهود التي اعتكفت على التسجيل للثقافة المعاصرة أدبها وتاريخها شعرها ونثرها لكفاها فخرا ، فقد ألفت في هذه الحقبة مؤ لفات كنا نتمنى لو ألف مثيلها في العصر الجاهلي وصدر الاسلام والعصرين الأموي والعباسي لكفتنا مؤ ونة كثير من الشك الذي لا يزال يخامر أفكار بعض الدارسين لهذه الحقب وقد يؤ خذ على هذه المؤ لفات أنها جمعت بين طياتها الغثّ والسمين ، والفكرة الجليلة الى جانب الرأي السقيم ومع ذلك فهي - في عملها هذا - كانت صادقة كل الصدق في رسالتها ، لأنها أعطت الصورة الصحيحة عن الفكر في تلك الحقبة ، في وجهيه الباسم والعابس .

وقد أوتي بعض المؤ لفين في هذه القدرة التي تستحق كل اجلال واعظام ، فمجهودات فرد واحد قد تنوء بحملها العصبة أولو القوة ، فمؤ لفات السيوطي يقول هو في حسن المحاضرة إنها بلغت ثلاث مئة مصنف[١] ، أما ابن اياس فيوصلها إلى ست مئة[٢] ، ومؤ لفات ابن تيمية تعد بالمئات كما ترك ابن حجر العسقلاني مجموعة ضخمة من المؤ لفات . ومن معاصري ابن حجة المقريزي المتوفي سنة ٨٤٥ له من الاسفار القيمة الشيء الكثير ، ومن معاصري ابن حجة أيضاً بدر الدين الدماميني سنة ٨٢٧ ، والقلقشندي .

(١) حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٥٥

(٢) بدائع الزهور حوادث ذي الحجة سنة ٩١١ هـ .

وأهم ما يميز حركة التأليف هذه أنها اصطبغت بالصبغة الدينية ، واتجهت الى احياء علوم الدين ، فكثر الاشتغال بكتب التفسير ، وكتب الحديث رواية ودراية ، والفقه بمذاهبه الأربعة ، وعلم الكلام ، ثم تأتي علوم العربية كالنحو والبلاغة واللغة ، أما علوم الفلك والهندسة والصناعات ، فكانت في المنزلة الأخيرة عند أهل هذا الزمان ، ولهذا تضاءلت وقل المشتغلون بها .

وظل النابغ في الفقه يجد مجالا واسعا للعمل في القضاء والتدريس والامامة والخطابة ، والنابغ في الكتابة والأدب والشعر ، يجد مجالا للعمل في دواوين الانشاء . وهذا يفسر اقبال الناس على تعلم الفقه ، أو حذق الأدب .

وقد يتساءل المرء : ألأنّ حركة التأليف كانت ناشطة تمكنت هذه المؤلفات من استيعاب كل ما ألّف ونظم وكتب من الشعر والنثر ، حسنه ورديئه ؟ ومهما كانت درجة مؤلفه ؟ ولأنّ حركة التأليف لم تكن كذلك بل كانت معدومة في العصور الأدبية الأولى وبخاصة في العصر الجاهلي لم تستطع أن تسجل كل ما هبّ ودب ، بل ما وصلنا من تلك العصور الا المصطفى المنقى الذي يرتقي الى درجة الأثر الفني الخالد ، أظن أن ذلك صحيح .

وثمة تساؤل آخر ، وهو : هل لأن حلبة المجموعة العربية كانت خالية من المشاركة في الأحداث السياسية ، والتنافس على السلطة صرفتهم الى التعويض عن السلطة بالتوجه نحو الثقافة والتأليف ؟ وأوجدت أمامهم فراغا كبيرا ملؤوه بالتآليف التي يقتضى انجازها زمنا طويلا لا تسمح به ظروف من شغلته السياسة ومشاكلها ؟ حتى لتقودنا هذه الملاحظة الى القاء الضوء لمحاولة لتفسير الشعر التافه والاكثار منه ، لأنه يستنزف الوقت الجم كشعر الألغاز والاحاجي . وقد نظن أن كثرة التآليف تدل على رواج الأدب في ذلك العصر ، ولكن ابن حجة يتذمر من كساد سوق الأدب في عصره فيقول بعد أن أورد قصة لهشام بن عبد الملك أجاز فيها حمّاداً جاريتين لانشاده أبياتا من الشعر ، يقول ابن حجة : «انظر أيها المتأمل الى نفاق ، رخيص الأدب في ذلك العصر ، وكساد غالية في هذا العصر . وبشهادة الله ، إنّ البيت الذي طلب حمّاد الراوية بسببه من بغداد الى دمشق في اثني عشرة ليلة ، وأجيز عليه بالجاريتين والمئة ألف درهم ، تأنف نفسي أن أضعه في قصيدة من قصائدي لرخصه وسفالته»(١) .

وقد يكون سبب كساد سوق الأدب في زمن ابن حجة ونفاقه في زمن حماد أن الحاكم في زمن حماد كان عربيا صليبة ، يتذوق الأدب ، ويثيب بأعظم الأجر عليه ، ولكن الحاكم في زمن ابن حجة قد أصبح أعجميا ، لا يفهم من العربية الا بعض ما يتعلق بأمور دينه بله الشعر والأدب . وان كان بين هؤلاء الحكام والسلاطين من يفهم الشعر وينظمه فهم أندر من أن تنظمهم قاعدة ، يروى عن الملك المؤيد شيخ المحمودي أنه كان ينظم الشعر ، ومن نظمه الرقيق قوله من قصيدة :(٢)

فتنتنا سوالف وخدود وعيون نواعس وقدود
أسرتنا الظبا وهن نعاس وخضعنا لها ونحن الاسود

---

(١) ثمرات الأوراق ص ٣٥
(٢) بدائع الزهور ص ٣١٨

ولم يزل يركز هذه الأبيات حتى استشهد باسمه فقال :

وأنا الخاصيكي شيخ المؤيد   نظم شعري جواهر وعقود

وقد وصلنا شعر كثير من شعر تلك الحقبة ان دلّ على شيء فانما يدل على العزوف عن حرفة الأدب والانصراف الى غيرها من الحرف الأخرى ، لأنها حرفة مزدراة ، وبضاعة الشعراء كانت بضاعة مزجاة ، مما جعل الكثيرين من الشعراء يعزفون عن قول القريض وينصرفون للبحث عن صنعة شريفة يكسبون بها قوتهم ، مثل أبي الحسين الجزار الذي انصرف عن الآداب الى الجزارة ، وآثر هذه المهنة الجديدة على صنعة الآداب فقال :

كيف لا أشكر الجزارة ماعشـ   ـت حفاظا وأرفض الآدابا
فبها صارت الكلاب ترجّيني   وبالشعر كنت أرجو الكلابا

وقد أكد هذا المعنى وأصر عليه فقال في مناسبة ثانية :

لا تعرني بصنعة القصاب   فهي أزكى من عنبر الآداب
كان فضلي على الكلاب فمذ صر   ت أديبا رجوت فضل الكلاب

والمعروف أن ازدراء حرفة الآداب لم يكن من قبل الجزار وحده ، بل شاركه في ذلك كثيرون ، وعافوا قول الشعر ، ومعاناة القريض ، لا من صعوبته بل خيفة الانتساب لحرفة الأدب فقال ابن الساعاتي :

عفت القريض فلا أسمو له أبدا   حتى لقد عفت أن أرويه في الكتب
هجرت نظمي له لا من مهانته   لكنها خيفة من حرفة الأدب

أما ابن نباته فيصرّ على نظم الشعر لا ينكص عنه ، ويضع اللوم على من لا يستطيع تقدير شعره حق قدره فلذا قال :

لهفي لشعر بارع نظّمته   تحتاج بهجته لرفد بارع
در يتيم قد تضوع نشره   يا من يرق على اليتيم الضائع

الا أن صلاح الدين الصفدي يضع اللوم على شعراء العصر الذين دهى بهم الأدب فقال من قصيدة يمدح بها القاضي بهاء الدين السبكي :

مهلا فان الشرع أصبح يزدهي   بك فرحة والشعر فينا قد دهي

وأما شكوى ابن حجة فلم تكن من تقصير الشعراء وانما كانت من تقصير أهل الذوق فقال :

من بعد أهل الذوق نظمي قد شكا ذل اليتامى من فؤاد مكمد

وكذلك السراج الوراق يشارك أهل عصره في احتقاره هذه المهنة فيقول :

أصون أديم وجهي عن اناس لقاء الموت عندهم الأديب
ورب الشعر عندهم بغيض ولو وافى به لهم (حبيب)

وبالرغم من كساد الأدب واحتقاره ، فقد عرفت تلك الفترة مجموعة كبيرة من الشعراء كابن حجة وشهاب الدين بن العطار وابن الخراط ، والنواجي والمقري وشعبان الأثاري وغيرهم ، ومن الجدير بالذكر أن نقول ان الشكوى من كساد الأدب شكوى تقليدية قديمة عرفت حتى في عصور ازدهار الأدب كما في العصر العباسي .

هذه صورة موجزة للحياة الفكرية والأدبية في هذه الحقبة التي عاشها ابن حجة ، حاولنا أن نسجل فيها حسنات العصر وسيئاته .

الفصل الثاني
حياة ابن حجّه الحموي
٧٦٧ ـ ٨٣٧ هـ

في مدينة عريقة من مدن الشام ، تترامى أطرافها على مشارف الصحراء ، ويجوس خلالها نهر العاصي ، فيحيلها الى واحة وارفة الظلال ، في هذه المدينة الخالدة التي تتعانق فيها النواعير النائحة ، مع شرفات المآذن الشامخة ، في هذه المدينة المسماة (حماة) ولد ابن حجه[1] ، ومنحته النسبة اليها ، فعرف بابن حجه الحموي ، وأصبح هذا الاسم علما عليه ، بعد أن سماه والداه (أبو بكر)[2] ، وكان من عادة أهل العصر أن يتلقبوا باسم يضيفونه الى كلمة (الدين) فيقرنونه باسمائهم ، فاختار هو اسم (تقي الدين) ولم يكونوا يكتفون بهذا الحد من التسمية بل يلحقونها بالمذهب الذي ينتمي اليه الشخص ، والحرفة التي يحترفها ، فلهذا يصبح تمام أسم ابن حجه : تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله ابن حجّه الحموي الحنفي الأزراري . وعند جده عبد الله هذا ينتهي نسبه ، وليس لدينا من المراجع ما يسعفنا بذكر نسبه أكثر مما ذكرناه وحتى معاصروه وأصدقاؤه من المؤرخين كابن حجر العسقلاني لم يذكروا له نسبا فوق جدّه . ولو كانت لديهم معرفة بهذا لما بخلوا على من يحب الاستزادة من أسماء أجداد ابن حجه ، والذي يبدو أن أبا بكر هذا كان خارجة بالنسبة لبقية أفراد أسرته وأجداده ، فقد عرف أسمهم الأدب والتاريخ بفضله ، ولم يعرف عنه أنه خلف ذريّة عاشت وتسلسلت من بعده حتى يتصل بهم حبل الأدب .

---

(١) قال السخاوي في الضوء اللامع جـ ١١ ص ٥٣ الترجمة رقم ١٤٤ : «ويعرف بابن حجة ـ بالكسر ـ باسم الشهر» ، أما النواجي فقال في كتابه الحجة في سرقات ابن حجة ورقة ٢/١٦ : «فهو انما يعرف قديما بين الزّجالة والموّالة بابن حجة نسبة الى أمه ، ولكنه نكر الآن ، والى ذلك أشار زين الدين بن الخرّاط بقوله :

ان (ابن حجّه) ما له أبدا أب يعزى بعلمه
لو لم يكن ولد الزنا ما كان معروفا بأمّه

وقد قلب ابن حجة هذا المعنى كثيرا ، فقال في قصيدته الرائية ، مدّعيا أن هذا الاسم جاءه لحجه مرة واحدة :

و (بابن حجة) لما حج واحدة لبيته صار يدعى وهو مشكور

وقال في أخرى : لو لم أزر بيتكم لم أكن (بحجة) أعرف بين الأنام

وقال في اللامية : يرجو (ابن حجة) أن لو حج ثانية بحيث ينشدها والدمع مسبول

(٢) سمي بالكنية (أبو بكر) وليس له أسم سواه ، وأما كنيته فـ (أبو المحاسن)

وأما كونه يعرف بالأزراري فذلك لحرفة كان يحترفها في صغره ، فقد ذكر أنه (تعاني عمل الحرير وعقد الأزرار وقتا[١]) ، ولقد سجل عام ٧٦٧[٢] اسم ابن حجه في عداد مواليده النابهين الذين طالما أنجبتهم حماة ، وهو ككل طفل ينحدر من أسرة مسلمة أخذ أهله ينشئونه على حفظ القرآن الكريم ، ويدرّجونه على معارف اللغة العربية وآدابها . فتزود بهذه الفترة بكنز غزير من أجمل الصور البلاغية المتمثلة في اعجاز القرآن ، ثم أيفع فأخذ يشتغل بالحرير ويعقد الأزرار . وكأني به وقد أضاف خبرته التي ثقلتها يده في تنسيق الأزرار واتسجام خيوطها الحريرية ، الى ما ثقفته ذاكرته من صور بلاغية أكتسبها من القرآن الكريم . فكان نتاج ذلك أدبا منمقا مزخرفا ، وذوقا يستهويه من الأدب جناسه وطباقه ومقابلته ، كما كان يروقه من عمل الحرير تجانس خيوطه ، وتضاد ألوانه ، أو المقابلة بين رسومه ، فليس من قبيل المغالاة أن نقول ان صناعة الحرير وعقد الازرار في مطلع حياة ابن حجه وما تتطلبه هذه الصناعة من حذق في اختيار الألوان ، ودقة في رصفها وتجانس ألوانها تارة ، وتطابقها تارة أخرى ، قد زرعت في ذوقه بذور فن البديع الذي أينع وأعطى أزكى الثمار عندما بلغت شاعرية ابن حجة أشدها ، ونضج هذا النتاج الفني المزخرف فأعطانا من الشعر (جنى الجنتين ، والثمرات الشهية من الفواكه الحموية . . الخ) ومن الأدب الذي قعد به قواعد الفن البديعي المزخرف كتابه الموسوم بتقديم أبي بكر . وعندما شبّ ابن حجه اشتغل بالعلم وأولع بالأدب ، وأخذ ينهل العلم والأدب من مناهلهما . فتردد على الشيخين شمس الدين الهيتي[٣] ، وعز الدين الموصلي[٤] ، وهما من شيوخ البديع وسدنة البلاغة ، فقرأ عليهما في الأدب ، وسمع من نظمهما ونثرهما الشيء الكثير ، ثم أكثر من ملازمة شيخه العلاء القضاءمي الحنفي ملازمة طويلة ، وبالرغم من أنه لم يحفظ ود شيخه الموصلي فإنه قد حفظ ود شيخه القضاءمي ، ولما قضي عليهما أن يفترقا بأن سافر ابن حجة الى طرابلس ، ومكث فيها بعض الوقت تاقت نفسه الى شيخه واشتاق الى حماة حيث يقطن هذا الشيخ فكتب اليه :

بوادي حماة الشام من أيمن الشط　　　وحقك تطوى شقة الهم بالبسط

وتذكّر الأيام الخوالي فيها ، فبالرغم مما كان فيها من عيشة فاقة وفقر فهي ألذ عنده من الغنى والجاه العريض في بلد آخر .

---

(١) الضوء اللامع جـ ١١ ص ٥٣

(٢) قال العماد الحنبلي في شذرات الذهب في أخبار من ذهب انه ولد بحماة سنة ٧٧٧ وليس بصحيح للاسباب التالية :

أ ـ نظم قصيدة كافية مدح بها ابن جماعة ، ارسلها قبل سنة ٧٩٠ ، واسلوبها يدل على انها لا تصدر من شخص عمره ١٣ سنة .

ب ـ كتب رسالته/ ياقوت الكلام في نار أهل الشام سنة ٧٩١ ، وأسلوبه ينم عن رجل ثقف اللغة العربية وتمرس بها ولا يعقل أن يكتبها يافع عمره ١٤ سنة آنذاك .

جـ ـ صرح في سنة ٨١٩ في قصيدة بأنه تجاوز الخمسين فهذا يدل على أنه ولد سنة ٧٦٧ .

د ـ لا يطمأن الى التاريخ الذي أعطانا اياه ابن العماد لأنه متأخر عن ابن حجة ولم يعاصره والذين عاصروه في تواريخهم أنه ولد سنة ٧٦٧ هـ .

(٣) شمس الدين الهيتي : لم نعثر له في الضوء اللامع ولا في البدر الطالع ولا في المراجع التي بين أيدينا على ترجمة .

(٤) عز الدين الموصلي هو علي بن الحسين بن علي بن أبي بكر بن محمد بن أبي الخير الموصلي الدمشقي متوفي ٧٨٩ .

(٥) هو علاء الدين أبو الحسن علي الحنفي الشهير بابن القاءمي ولد سنة ٧٤٠ برع في النحو والفقه والأدب والانشاء وكتب لابن البارزي .

يلـذ عنـاق الفقـر لي بغنائها ... وفي غيرهـا لم أرض بالملك والرهط
نعمـت بهـا دهـرا ولـكن سلبته ... برغم ، وهذا الدهر يسلب ما يعطي

ويستمر على المودة حتى اذا بلغه انحراف في صحة شيخه كتب اليه رسالة سماها «نفثة الصدور»[1] . وقد كان الشيخ القضاءمي غاية بمعرفة الشعر ، وادراك المعاني الدقيقة فيه ولكن اذا نظمه قصرّ فيه[2] ، ولذلك كثيرا ما كان ابن حجه يعرض شعره عليه لينقحه له . ولقد ادخر الود نفسه لشيخه الآخر القاضي أبي بكر بن الخيثمي الحنفي[3] وارسله من طرابلس أيضا ، ونقل اليه أنه بالرغم من علو القدر الذي ناله بطرابلس فانه لا يزال يحن الى مسقط رأسه حماة فقال :

فان كان قدري في طرابلس علا ... وقد لقيتني وهي باسمة الثغر
فان فراق الالف والخل والهوى ... وفقد الحمى والأهل صعب على الحر
بلاد بهـا نيطت عليّ تمائمي ... وحزت بها ما حزت من رفعة القدر
وان كنت فيهـا قد أصبت بغلطة ... من الدهراني قد صفحت عن الدهر

وفي مطلع تردده على شيوخه[4] كان ينظم الأزجال والمواليا والموشح ولم يكن يملك ناصية اللغة ، أو زمام حذاقة التعبير ، لذا فانه عندما شب وبلغ أشده ، راجع ما كتب ونظم ، فوجده دون الكمال فأعاد فيه النظر وقال : «وهذا الموشح نظمته بحماة المحروسة في مبادىء العمر ، ورياحين الشبيبة غضه ، ولما طلبت الى الأبواب الشريفة المؤيدية ، سنة ٨١٥ ، ووصلت الى الديار المصرية في التاريخ المذكور ، وجدته ملحنا ،

---

(١) قهوة الانشاء ـ ورقة ٣١٥

(٢) الضوء اللامع للسخاوي جـ ٥ ص ١٥٥ الترجمة ٥٣٩ .

(٣) قاضي القضاة أبو بكر الدين الخيثمي الحنفي الحموي ، كان في الغاية القصوى من الفضل وعلوم الأدب ، كان يراسله من مصر تلميذه ابن حجة ويمدح بأبيات بجبله ـ تاريخ حماة ص ١٥٥ .

(٤) واذا أردنا مزيدا من علاقاته مع أصدقائه الذين كان لهم بعض التأثير في ثقافته لمراسلتهم ومطارحتهم ومكاتبتهم فيمكننا الرجوع الى ابن حجة نفسه ليحدثنا عن هؤلاء الأصدقاء ، ويصف لنا علاقته الأدبية بهم قال : «وممن أدركتهم وحاضرتهم وكتبوا الى وكتبت اليهم من أهل مصر والشام : الشيخ زين الدين بن العجمي عين كتاب الانشاء الشريف بالشام المحروسي ، والشيخ عز الدين الموصلي ، والشيخ علاء الدين بن أيبك ، والشيخ جمال الدين بن خطيب داريا ، والشيخ شمس الدين المزين ، والشيخ شرف الدين عيسى العالية ، والشيخ جمال الدين عبد الله السوسي ، أدركته بمصر ولكن ما حاضرته ، والشيخ شهاب الدين العطار ، أدركته أيضا بمصر وما حاضرته ، والصاحب فخر الدين بن مكانس ، حاضرته وأنشدته وأنشدني ، وكتب اليّ وكتبت اليه ، والشيخ شمس الدين المتيني ، رحمه الله تعالى بالغ في الخدمة بالديار المصرية ، ، وأما سيدي أبو الفضل بن أبي الوفاء قدس الله روحه فاني أدركته بالديار المصرية ، وسمعت نظمه ، ولكن ما تمثلت بحضرته ، والفرقة التي أطال الله بقاءها ، وأمست قواعد بيوت الأدب بها قائمة ، وختمت بها هذه الطريقة ، واخلصوا بالعمل ففازوا بالحالين بحسن الخاتمة ، أبقاهم الله للمسلمين . منهم : مولانا قاضي القضاة إمام الحفاظ وشيخ الاسلام شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حجر العسقلاني الشافعي متع الله الاسلام والمسلمين في هذا العصر بحياته ، والشيخ بدر الدين الدماميني ، والشيخ بدر الدين البشتكي ، والقاضي مجد الدين بن مكانس ، درجوا بالوفاة الى رحمة الله ، تأهيل الغريب النثري ص ٣٤١ .

وأهل مصر يلهجون به ، وبتلحينه كثيرا ،»[1] وقد ذكر السخاوي : «انه تقدم في عمل الأزجال والمواليّا»[2] ومصداق ذلك أنه ألف كتابا في هذا الفن سماه «بلوغ الأمل من فن الزجل» . ثم أقبل على نظم القصيد ، ومدح أعيان بلده من قضاة ونواب وكتّاب ، ولما صلب عوده في نظم القصيد دبّج قصيدة مدح بها القاضي برهان الدين بن جماعة[3] وأرسلها اليه قبل عام ٧٩٠ ، وقد سخر لهذه القصيدة كل إمكانياته الأدبية ، لأنه تصدى فيها لمعارضة الكافيات الثلاث ؛ كافية ابن نباتة ، وكافية القيراطي ، وكافية صفي الدين الحلي ، ولما جاءه رد الفعل الحسن ممن سمعوا بها ارتاح قلبه لأول امتحان عام يجتازه شعره ، فجاء مشفوعا بثناء وتقريظ عدد كبير من الأدباء والشعراء ، كل هذا أكد في نفسه صلابة الشاعرية ، بعد نظم هذه القصيدة الكافية التي مطلعها :

طربت عند سماعي وصف معناك   فكيف لو كان هذا عند مغناك

ثم دخل القاهرة سنة ٧٩١ وهذه القصيدة معه ، فوقف عليها الفخر بن مكانس[4] وابنه المجد[5] فقرظاها أيضا ، وفي تلك الفترة مدح الفخر بن مكانس بقصيدة فائية مطلعها :

قد مال غصن النقا عن صبّه هيفا   يا ليته بنسيم العتب لو عطفا

ومدح ابنه مجد الدين بقصيدة استهلّها بقوله :

ما لمعت بارقة من نجد   الا وهزتني رعود وجدي

وفي هذه المرة تعرف على مجموعة من كبار أهل العلم في القاهرة ، فالتقى بالعلامة ابن خلدون الذي كان قد قدم من المغرب منذ مدة وجيزة ، واعجب بعقله وحنكته ، فمدحه بقصيدة كافية ثانية مطلعها :

رضيع الهوى يشكو فطام وصالك   فداوي قتيل الحب يا بنة مالك

---

(١) التقديم ص ٢٠٨

(٢) الضوء اللامع جـ ١١ ص ٥٣

(٣) برهان الدين بن جماعة ، أبو اسحق ابراهيم بن عبد الرحمن بن محمد بن ابراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الشافعي كان قاضي قضاة الشافعية بمصر ، وكان خطيب بيت المقدس ، وولي قضاء الشام ، ولد سنة ٧٢٥ وتوفي سنة ٧٩٠ برع في الفقه والعربية ـ النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٣١٤ .

(٤) فخر الدين بن مكانس : هو عبد الرحمن بن عبد الرزاق بن ابراهيم أبو الفرج ، وزير شاعر . حنفي المذهب . أصله من القبط ولد بالقاهرة سنة ٧٤٥ وتوفي سنة ٧٩٤ ، ولي نظارة الدولة بمصر . ثم تولى في آخر عمره ، وزارة دمشق . له ديوان انشاء ـ الدرر الكامنة جـ ٢ ص ٣٣٠ ، والأعلام جـ ٤ ص ٨٢ .

(٥) مجد الدين بن مكانس ابن فخر الدين الآنف الذكر .

كما التقى بابن حجر العسقلاني[1] لقاء عابرا ، ولكن صحبته لم تتأكد الا في المرة الثانية ، حيث «سمع من نظمه كثيرا ، بل وسمع منه معظم شرحه على البديعية التي نظمها على طريقة شيخه عز الدين الموصلي ، وشرحها في ثلاث مجلدات ، وسمع جملة من انشائه»[2] .

وبعد اقامة ليست بطويلة في القاهرة عاد ابن حجة الى بلاد الشام ، وعرج في طريقه على دمشق ليراها بعد الكارثة التي أنزلها بها الملك الظاهر برقوق عندما فرمن سجنه في قلعة الكرك وسار الى الشام ، فامتنعت عليه لأنها كانت موالية للسلطان الملك المنصور ، وبعد انتصار الملك الظاهر في موقعة (شقحب)[3] دخل دمشق وانتقم من أهلها ، وأحرقها ، فدخلها على أثر ذلك ابن حجة وهو في طريقه الى حماة في شوال سنة ٧٩١ .

ولما شاهد ما ألم بها رثى لحالها وكتب رسالة أرسلها لابن مكانس في مصر ، وهذه الرسالة هي المسماة بـ (ياقوت الكلام فيما ناب أهل الشام) ، وبعد أن اكتوى قلبه برؤ ية دمشق المحترقة ، واصل المسير الى حماة ، وحطت ركابه هناك ، وقضى فيها فترة ليست بالقليلة ، يشتغل بالعلم والتأليف والمطالعة والبحث . ويمدح أمراء حماة وقضاتها ، ويرحل متجولا في بلاد الشام .

وفي دمشق في سنة ٧٩٧[4] مدح قاضي القضاة علاء الدين بن أبي البقاء الشافعي[5] بقصيدة رائية مطلعها :

اغـراء لحظـك مالي منـه تحذير ولا لتعـريف وجـدي فيه تنكير

ويبدو أنه وجد في رحاب ممدوحه ما كان يؤ مله ، فلذا آثر البقاء عند ابن أبي البقاء ، وألقى عصا الترحال في دمشق ، رغم الحاح حماة في طلبه فقال :

قالـوا : فعـرج على وادي حمـاة بنا فنهرهـا بعدنـا بالفيض مكسور
فقلت : قد قرّ قلبي في دمشـق ولي من فضل قاضي قضاة الشـام تقرير

ولم تكن دمشق البلد الشامي الوحيد الذي يكثر ابن حجه من الترداد عليه ، بل هناك حمص الرابضة على ميمنة العاصي بين دمشق وحماة ، فلا بد من أن يمر بها ويترك بعض الاصدقاء والأخلة ، وكان يعرف فيها

---

(١) شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد المعروف بابن حجر العسقلاني الكناني المصري ، أصل أسرته من عسقلان ببلاد الشام ، وابن حجر لقب لبعض آبائه ، ولد ٧٧٣ وتوفي سنة ٨٥٢ ، اشتغل بالعلم والحديث ونظم الشعر له مؤلفات كثيرة ـ ترجمته في الضوء اللامع للسخاوي ج٢ رقم الترجمة ١٠٤

(٢) انباء الغمر بابناء العمر لابن حجر العسقلاني ج٢ص٨٦٣ (مخطوط) .

(٣) (شقحب) قرية في الشمال الغربي من غباغب ، ويقال لها : تل شقحب . ذكرها (دوسود) في الكلام عن وادي العجم من ضواحي دمشق . (انظر كتاب التخطيط التاريخي لسوريا القديمة والمتوسطة لرينيه دوسود ـ طبع باريس ١٩٢٧ ص٣٢٢) عن حاشية النجوم الزاهرة ج١٢ ص ١ .

(٤) هذا ما ذكرته نسخة من ديوانه ، وفي نسخة أخرى وهي (جني الجنتين)تؤ رخ هذه القصيدة بسنة ٧٩٩ .

(٥) علاء الدين ابن علي البقاء قاضي قضاة دمشق ، حضر الى القاهرة في ٢١ جمادى الآخرة مع القاضي موفق الدين أحمد بن نصر الله الحنبلي ، وحضرا من دمشق بأسوأ حال كان فيها تيمور ـ النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٢٤٩ .

المقر المخدومي الأميني الحمصي[1] ، فلما انتقل هذا من توقيع حمص الى صحابة ديوان الانشاء بدمشق أراد أن يصنع يدا بيضاء عند ابن حجة فطلبه الى أبوابه العالية بدمشق فتأبى عليه ابن حجة فوجد عليه المقر الأميني الحمصي ، وبخاصة عندما نقل اليه عن ابن حجه كلام تحقق بعد ذلك عدم صحته فقال ابن حجة :

من بأسياف هجرهم كلمونا   ما عليهم لو أنهم كلمونا

وبعد طول ترداد في البلاد الشامية يعاوده الشوق لمصر ، فيرحل اليها سنة ٨٠١ ويلتقي هذه المرة بالشيخ زين الدين أبي بكر بن العجمي[2] فيسمعه ابن حجه بعض قصائد ، ويسمعه ابن العجمي بعض نظمه في المواليا[3] ، ولم تطل اقامته بمصر بل عاد الى بلاد الشام ، ويمّم هذه المرة شطر طرابلس الشام ، حيث كان فيها بعض أصدقائه من القضاة ، ففي سنة ٨٠٢ كان نائب دمشق (تنم الحسنى) فسولت له نفسه أن يخرج على طاعة السلطان الناصر فرج بن برقوق لصغر سنه ، والتفّ حوله نواب البلاد الشامية كنائب حلب وطرابلس وصفد ، وعقدوا النية على القيام بمحاولة انفصالية ، وامتنع نائب حماة فساروا جميعا لاخضاعه ، وحدث أن أهل طرابلس انقضوا على نائب الغيبة فيها وهزموه ، وهزموا النجدة التي أرسلها له (تنم الحسني) فاضطر تنم لاعادة نائبها الأصلي وهو الأمير (يونس بلطا) مع طائفة كبيرة من العساكر ، فسار اليها يونس ودخلها بعد أن هزم (ابن المؤمني) وكان من أنصار السلطان ، فركب ابن المؤمني البحر ، ومعه القاضي شرف الدين مسعود قاضي القضاة الشافعية في طرابلس ، يريدان القاهرة بمن معهما ، ونهب يونس بلطا أموال الناس كافة بطرابلس ، وفعل في طرابلس وأهلهامالم تفعله الكفرة ، وقتل نحو العشرين رجلا من أعيان طرابلس وقضاتها وعلمائها ، وأكثر من ألف من عوام المدينة ، فكانت هذه الكائنة من أقبح الحوادث التي حصلت في سنة ٨٠٢[4] ، ودخل ابن المؤمني وشرف الدين مسعود وابن حجة الحموي الديار المصرية واعتبروا أنفسهم لاجئين سياسيين لدولة السلطان في القاهرة ، بعد أن طاردتهم القوى الانفصالية في الشطر الثاني من السلطنة في اقليم الشام ، وبعد أن استقر ابن حجة في القاهرة كتب للدماميني رسالة شرح له فيها ما لاقاه من العنت وسماها (الرسالة البحرية) ، وحال الانفصاليون بينه وبين بلدة حماة وأصدقائه فيها ، وعلى رأسهم صديقه الحميم القاضي ناصر الدين بن البارزي ، صاحب ديوان الانشاء الشريف بحماة ، فأرسل اليه هذه القصيدة يتشوق لحماة ومطلعها :

يا طيب الأخبار يا ريح الصبا   يا من اليه كل قلب قد صبا
يا كاتب الاسرار يا من فضله   قد جمّل الدنيا وزان المنصبا

---

(١) هو المقر المخدومي أمين الدين الحمصي كان يلي توقيع حمص وانتقل الى صحابة ديوان الانشاء بدمشق .
(٢) هو زين الدين أبو بكر بن العجمي عين كتاب الانشاء الشريف بالديار المصرية ، له شعر جيد ، توفي سنة ٨١٥ (بدائع الزهور ص٣١١) .
(٣) التقديم ص٤٣ .
(٤) النجوم الزاهرة ج١٢ ص١٩

ولم يطل تشوقه لحماة ، بل رزقه السلامة و «الايابا» ، وبخاصة بعد رحيل تيمورلنك ، عن البلاد الشامية سنة ٨٠٣ ، وكتب له أن يرى الشام بعد حريقها للمرة الثانية من قبل تيمورلنك ولكنّ جزعه كان أقل من المرة السابقة ، لأن بلده ومسقط رأسه حماة لم تنج من أجتياح تيمورلنك لها ، ولقد ذهب له في هذه الفترة كتب كثيرة عبثت بها يد التتار اذ صرح في كتابه بلوغ الأمل أنه : «كانت تقاريظ المشايخ بين أوراقي ، وانما في محنة اللنك ذهبت مع الكتب»(١) فلذا انصرف الى وصف حماة وما ألم بها من دمار ووصف دمشق وما لحق بها من خراب في القصيدة التي مدح بها عمر بن الهدياني(٢) ، نائب حماة في شوال سنة ٨٠٣ فقال :

عمـــر تنبـــه للخلائـــق فارقدوا   متوســـدين الأمـــر لا تتعهدوا

وبعد أن عضّ الدهر دمشق وحماة بنابه ، توجه ابن حجة الآن الى الشمال ، وفي حلب تعرف على نائب البلاد الحلبية (علاّن) وأصبح امامه في حلب ، ولكن السلطان غضب على علان فأرسل له شيخ المحمودي نائب دمشق ، فهرب علان واختفى ابن حجة في حلب(٣) . وكان في ركاب شيخ المحمودي كاتب سره صدر الدين بن الآدمي صديق ابن حجة . وعلم بمكان اختفائه ، فكتب اليه صدر الدين :

قصدنـا حمـاة فلـم نلـق من   أردنا فلـم نرع عهـدا والاّ
وجئنـا الى حلـب خلفه   فان كان فيها اجتمعنا ، والاّ

فكتب اليه ابن حجة الجواب :

أمـولاي والله حال الجريض   دون القريض الـذي قد تولى
وأرجـو ـ وقـد عفـت هذي البلاد ـ   خلاصي بالصـدر منهـا والا

فقدّر الله بالسلامة ، وتوجهت في خدمته متنكراً إلى دمشق المحروسة(٤) . وفي سنة ٨٠٩ ينتصر دمرداش الحاكمي على الفرنجة الذين هاجموا ثغر طرابلس فيمدحه بقصيدة رائية من حماة ، وبعد نظم هذه القصيدة في حماه يتوجه إلى دمشق ، ويشرع في ممارسة الكتابة الديوانية ، فيكتب في دمشق سنة ١٨٠١ صداق السلطان الملك الناصر علي بنت (كمنبغا) الظاهري الحموي(٥) كما كتب بتعيين قاضي القضاة صدر الدين بن الآدمي الحنفي بقضاء قضاة الحنفية بدمشق ويتخذ هذه البلد ـ أعني دمشق ـ مقرا له . وتتأكد الصداقة وتعمق بينه

---

(١) بلوغ الأمل من فن الزجل ورقة ٣٤/ ٢
(٢) في النجوم الزاهرة ج١٢ ص٢٧٧ يسميه (عمر بن الهيدباني) ورواية السلوك (الهدباني) .
(٣) التقديم ص ١٦١ .
(٤) التقديم ص ١٦١ .
(٥) قهوة الانشاء ورقة (٧٦) مخطوط .

وبين صدر الدين فيوقفه في ذي القعدة من سنة ٨١١ على ديوان القيراطي[١] ، فيجيل ابن حجة النظر في هذا الديوان فينفي الغثّ ويثبت السمين فيخرج بنسخة منقحة من الديوان يسميها «تحرير القيراطي» وفي صفر من سنة ٨١٢ يلتقي في دمشق بالمؤ رخ الأديب المقريزي[٢] ، ويعجب المقريزي بابن حجة ، وقد قال في عقوده : «وهو أحد أدباء العصر المكثرين المجيدين ، وله في الأدب مصنفات[٣]» ثم يلتقي به بعد ذلك ، ولكن الدهر الذي طالما فجعه يأبى أن يتركه في بلهنية عيش ولم يشأ أن يهادنه فينزل به وبأصدقائه نكبة سنة ٨١٣ في دمشق ذاتها ، وإذا كانت مصائب قوم عند قوم فوائد ، فابن حجة لاختفائه عن الانظار ، وانصرافه عن مسرح السياسة انقطع للأدب ، فأفاد الأدب والشعر ، واعتكف في دمشق فترة حقق خلالها رغبة كانت تراود أحلام زميله صدر الدين بن الآدمي . فكان يقول : «أود أن أنتزع من الصادح والباغم ارجوزة مشتملة على أمثلة مرقصة ، وحكم بديعة»[٤] فانتهز ابن حجة فرصة اختفائه عند حلول ركاب الملك الناصر بدمشق . وحقّق هذه الرغبة فألف أرجوزة سماها : «تغريد الصادح» حاول أن يوفر فيها الشروط التي اشترطها ابن الآدمي .

وعندما كان ابن حجة في حلب مختفياً كان ابن الآدمي طليقاً ، أما الآن فالاثنان مختفيان فكتب ابن حجة لابن الآدمي يشكو له ضيق صدره من الاختفاء :

ضيقة الصدر أذابت مهجتي ... بعد ذاك البسط والعيش المرح
ويقيني صدقه لا بد أن ... يجمع الشمل بصدر منشرح

فأجابه صدر الدين :

رمك أطرب سمعي كيف لا ... وهو منسوب لبحر المنسرح
فبرغمي حين وافى مقبلاً ... لم أعانقه بصدر منشرح

ومن دمشق يذهب إلى حلب سنة ٨١٤ وهناك يطلعه الشيخ بدر الدين بن الضعيف على رسالة عاطلة فقرظها بتقريظ عاطل[٥] . ويبدو أن القدر أراد أن يهادن ابن حجة بعد هذه الفترة فسالمته الأيام وردت إليه استقراره بعد طول شتات في طول البلاد وعرضها ، وكأن الأوان آن ليتمكن من أن يجني ثمرات صداقاته

---

(١) برهان الدين القيراطي : هو ابراهيم بن عبد الله بن محمد بن عسكر بن مظفر بن نجم بن شادي بن هلال أديب شاعر . له ديوان شعر ولد ٧٢٦ وتوفي ٧٨١ .

(٢) الضوء اللامع ترجمة ١٤٤ ، والمقريزي هو أبو العباس ، تقي الدين ، أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن تميم بن عبد الصمد ، ويعرف بالمقريزي نسبة إلى حارة المقارزة ببعلبك ببلاد الشام ولد سنة ٧٦٦ وتوفي سنة ٨٤٥ .

(٣) الضوء اللامع ترجمة ابن حجة رقم ١٤٤ .

(٤) التقديم ص ١١٨ .

(٥) التقديم ص ٥٣٧ .

القديمة ، وتدفع الأقدار بشيخ المحمودي إلى أن يتسنّم سدة السلطنة ، في مستهل شعبان سنة ٨١٥ (١) » فلما تسلطن قرّب جماعة ممن حضر معه من البلاد الشامية ، فرقاهم إلى وظائف سنية ، فمنهم المقر الزيني عبد الباسط بن خليل ، والمقر الناصري محمد بن البارزي (٢) » وكان ابن البارزي هذا أثيرا عند شيخ المحمودي الذي صار يعرف بعد السلطنة باسم الملك المؤيد شيخ فنوه ببلديه تقي الدين بن حجة (٣) فأرسل الملك المؤيد يستدعيه ، فمثل بين يديه في شوال سنة ٨١٥ (٤) ونظم في مدحه قصيدة بهذه المناسبة ومناسبة لبسه للتشريفة حيث أصبح كاتباً في ديوان الانشاء في مصر ، على قافية الراء ، وهي أطول قصائده . إذ تبلغ نيفاً وثمانين بيتاً . ففرح ابن حجة بهذا المنصب العظيم والشرف الجليل ، واستفاضت شاعريته في ذلك اليوم المشهود ، وأنشد ارتجالا معترفا باليد البيضاء التي أسداها المؤيد اليه فقال :

أهلتنـــي في غربتـي وكسوتني ... حلــلا بهــا أفــق المعــالي والرضا
ورضيت مثلي في زمانــك منشئاً ... فعلمــت حقــا أنهــا خلــع الرضا

وبعد أن استقر ابن حجة في ديوان الانشاء بالقاهرة افتتح في حياته صفحة جديدة ، أبرز ما فيها أنها كانت سجلاً لحياة الاستقرار التي أخذ ينعم فيها بعد أن تقاذفته النوى نيفاً وأربعين سنة ، وفي هذه الحقبة الطويلة من حياته في ديوان الانشاء ترك لنا ثروة غزيرة من الشعر والنثر .

وفي القاهرة باشر عدة أنظار ، ورافق الملك المؤيد في حله وترحاله ، وعندما ذهب لبلاد الروم ، وحلّت ركابه فيها كان يرافقه ، ووصف رحلته الميمونة في رسالة استوعب فيها تلك الرحلة . وأرسلها بشارة إلى الديار المصرية ، وأمر الملك المؤيد ألا يقرأها إلا قاضي القضاة ابن حجر العسقلاني ، وقرئت في شهر رجب الفرد سنة ٨١٦ بالجامع المؤيدي والأزهر (١) ، وعاد معه من بلاد الروم إلى القاهرة مركز عمله . ومرّ ببلاد الشام دون أن يعرّج على حماه وفي نفسه شوق أيما شوق . فعندما يسافر ابن البارزي إلى حماة سنة ٨١٨ يرسل أحر أشواقه والي البلد الذي طالما جمعهما معا فقال :

خل التعلل في حمــى يبريني ... فهــو حمــاة هو الــذي يبريني

وفي هذه القصيدة بيت يشعرنا بأنه قد شارف الخمسين حيث قال :

إن جاء نظمــي قاصراً عن وصفه ... عذراً فهــذي نشطــة الخمسين
ونعــم كبــرت وبــان عجــزي انما ... كانــت مسرات اللقــا تصبيني

---

(١) بدائع الزهور ص ٣١٣
(٢) أنباء الغمر بأنباء العمر . ترجمة ابن حجة جـ ٢ ص ٨٦٣ (مخطوط) .
(٣) التقديم ص ٢٠٨
(٤) ثمرات الأوراق ص ١٤٣ .

وفي هذه الفترة كتب عشرات التقاليد والمراسيم والكتب الرسمية التي أملاها عليه المؤ يد ، وهي موجودة بكمالها في كتابه «قهوة الانشاء» .

ويرحل مرة ثانية مع الملك المؤ يد شيخ إلى بلاد الروم سنة ٨٢٠ ويعودان إلى حلب وفيها يكتب عدة ردود وأجوبة عن الملك المؤ يد إلى أمراء الأمصار الاسلامية ، ويرسم السلطان عدة مراسيم تنظيمية ، يمليها عليه منشئها ، ويبعث بها إلى الأمصار والأقطار وتستمر حاله على هذا الشكل من الدعة . فيعود إلى القاهرة ويسكن في الجيزة ، ومما يؤ ثر عنه أنه فتح باب بيته لأصدقائه وجعله ملتقى للأدباء ، وكتب على مدخله :

مددت على الطريق مديد ظلي	ليجتمع الصديق مع الصديق

وبقي على هذه الحالة حتى نكبه الدهر بموت ولي نعمته الأول ناصر الدين بن البارزي ، سنة ٨٢٣ بعد أن أخذ بيد ابن حجة لتسلق القمة ، فرثاه بأبيات منها(١) :

لفقدك يا بن البارزي تهدمت	بيوت المعالي ما لها من مشيد
وما خلب الأكباد حزن مبرّح	كحزن أبي بكر لفقد محمد

ولكنّ الملك المؤ يد شيخ ما إن يموت ناصر الدين البارزي كاتم سره حتى يختار ابنه كمال الدين لهذا المنصب وفاء لحق أبيه ، وتبقى منزلة ابن حجة كما هي في مطلع فترة تسلم كمال الدين لكتابة السر ، ولكن كمال الدين يصغي ، في آخر أيامه لكلام الوشاة ، ولخصوم ابن حجة ، فيتجافى عنه ، ويبعده عن المنزلة التي طالما حظي بها عند أبيه ، فيتجرع ابن حجة الغصص من سيده وابن سيده ، ولما تأزمت الظروف بينهما أعرض عنه وانصرف إلى مدح ابن مزهر في القصيدة التائية ، وعرّض بكمال الدين بن البارزي لأنه تنقّص من قدر ابن حجة فقال :

قالوا : بنو البارزي قد أبدى كما لكم	نقصاً بفضلك والحساد شمات
فقلت : إن بان نقصي في الكمال فلي	بدر يكلمني منه الكمالات
وإن يك نظمي قد ذوى بهم	ففي بني مزهر للعيد روضات

ثم تقلد صحابة دواوين الانشاء علم الدين بن الكويز ، وبالرغم من أن ابن حجة هو الذي سجّل بيده مرسوم تقليد ابن الكويز ، وهو الذي كتب صداقه عندما أصهر لابنة البارزي ، فإنه تنكر له لأن ابن حجة سبق أن سخر منه ببيتين من الشعر :

العلم ابن الكويز قال : معي	لطف وظرف حواهما الكرم
وقامتي بانة مهفهفة	فقلت : لا بانة ولا علم

---

(١) البيتان ليسا موجودين في ديوانه هما في تأهيل الغريب الشعري ـ باب المراثي .

وفي سنة ٨٢٤ نفسها انتقل الملك المؤ يد إلى جوار ربه ، فتوالت النكبات على ابن حجة ، فلهذا نكص نجمه عن الصعود ، وأزرى به ابن الكويز . فطمع به الشعراء المعاصرون ، واقتحمته عيونهم ، فلم تمش أحواله» ـ كما قال السخاوي(١) وهجاه كثير من الشعراء كابن الخراط وابن العطار ، والبدر البشتكي وغيرهم .

واستمر ابن حجة في ديوان الانشاء ، رغم وفاة ابن الكويز سنة ٨٢٦ ، ولكن نجمه لا يزال في هبوط ، ولبث في الديوان ينشيء للملك المظفر بن الملك المؤ يد ، ومن بعده أنشأ الملك الظاهر ، ثم لابنه الملك الصالح ، وأخيراً للملك الأشرف بارسباي ، وفي زمن الأشرف كتب ابن حجة بيده سنة ٨٢٧ تقليد ابن حجر بقضاء قضاة الشافعية ، ومكث بالديار المصرية حتى سنة ٨٣٠ ، حيث ملّ المقام ببلد نكبه الدهر فيها بحبيبين غاليين هما ابن البارزي والملك المؤ يد ، ثم اتبعهما بثالث وهو فلذة كبده وابنه (محمد) الذي اختطفته يد المنون ، ولم يكتمل عمره أربع سنوات ، فقد صرح بذلك في كتابه تأهيل الغريب فقال : «ورقة أبي بكر ليس لها قدرة على فقد محمد(٢) » ، ويبدو أنه كان يكنيه (أبا البقاء) ، فكتب في المرجع المذكور رسالة لأهله في حماة جاء فيها : «والصبر ـ أبقاكم الله ـ قد فني بعد أبي البقاء(٢) » «وأما رثاء الولد فإنه لا يخرج من بيوته إلا مندرجاً في الأكفان(٢) » قال :

وقائل ، قال ـ قد رأى ولدي ... لم يكتمل أربعا ولم أصبر :
هذا الذي قدر الاله له ... فالحمد لله هكذا قدر

وبعد موت ابنه أصبح حريصاً على العودة إلى مسقط رأسه ، فقال : « . . . ولم يقصد بها نعياً ، فان الروح بعد الولد لم يبعد ذهابها ، ولكن أراد المملوك أن تكون الحفرة بأول أرض مسّ جسمي ترابها(٣) » ولا ندري ـ هل كانت حياته الزوجية وهو في مصر شقية ، كما كانت في حماة اذ أعطانا صورة سيئة لحياته الزوجية فيها فقال :

في حماة تكدرت ... مذ تزوجت عيشتي
فأنا اليوم هارب ... من حماتي وزوجتي

هل صحيح أنه هرب من حماته وزوجته ، أم أن الشعراء يقولون ما لا يفعلون ؟! ومهما يكن من أمر فإنه عاد إلى البلد الذي طالما تمنى العودة إليه سنة ٨٣٠ ، وتذكر كتب التراجم أنه لازم الاشتغال بالعلم

---

(١) الضوء اللامع جـ ١١ ص ٥٣ .
(٢) تأهيل الغريب الشعري ـ المراثي جـ ٤ ص ٩٣ .
(٣) تأهيل الغريب الشعري جـ ٤ ص ٩٣ .

والخير[1] ، وهناك أتم تأليف كتابه «تأهيل الغريب» سنة ٨٣٥ ، وفي هذه الفترة عاد كمال الدين بن البارزي إلى ديوان الانشاء فطمح ابن حجة إلى العودة إلى مصر ولكن لم يتهيأ له ذلك وفي سنة ٨٣٦ لقيه ابن حجر العسقلاني بحماه وتأكدت الصحبة والمودة بينهما ، وسمع من نظمه ومن شرحه كثيراً . وفي شعبان من سنة ٨٣٧ اجتمعت عليه البرديّة والحمى في مرضه فقال :

بردية برّدت عظمي وطابقها سخونة ألفتها قدرة الباري
فامنن بتفرقة الضدين من جسدي ياذا المؤلف بين الثلج والنار

ولكن الله أبى أن يفرق بينهما ، واختاره إلى جواره في الخامس والعشرين من شعبان من السنة المذكورة .

ويذكر في تأهيل الغريب ما يلي : «وأوصي العبد أن يكتب على قبره بجانب المسجد الذي ساعد الله فيه على انشاء خطبته[2] :

يا غافر الزلات يا من عفوه ينهل بالرحمة من فوق السحب
بيتك قد جاورته بحفرة وأنت قد أوصيت بالجار الجنب

ويذكر صاحب تاريخ حماة «أنه دفن في تربة باب الجسر ، وبني على قبره قبة ، بقيت جدرانها إلى نهاية القرن الثالث عشر ، فعمل له بعض الناس حجارة على لحده حفر عليها أن هذا القبر قبر الغزالي ، والعامة الآن يزورونه باسم الغزالي ، ويجهلون أنه ابن حجة ؛ على أن الغزالي دفن في مدينة طوس ولا يعرف حماة[3] » .

صفاته وشهادات الناس فيه :

لعل أول صفة نطالعها في ابن حجة هي العصامية ، وذلك أن هذا الرجل لم يكن من أسرة ذات منزلة في العلم أو الأدب ، وكل ما عمله أبواه أنهما علماه القرآن الكريم ، ثم دفعاه إلى احتراف مهنة عقد الازرار ، ولكن نفسه أبت عليه ذلك ، وسمت همته إلى الاشتغال بالعلم والأدب ، وظل يثقف نفسه بنفسه ، ويلازم أهل العلم وشيوخ الأدب ، ويرحل من مصر إلى مصر ، ومن قطر إلى قطر ، ويتعرف على الفئة المثقفة من القضاة والكتاب وأرباب الأقلام حتى حذق الأدب وأصبح يكتبه ، فأول حسناته هي هذه العصامية التي بنى نفسه بنفسه فيها . وهي صفة جديرة بالاجلال والاحترام .

---

(١) الضوء اللامع جـ ١١ ص ٥٣ .

(٢) تأهيل الغريب الشعري جـ ٤ ص ٩٣ .

(٣) تاريخ حماة للصابوني ص ١٥٣ .

ومن صفاته أيضاً أنه كان جواب آفاق ، يحب الرحلة ويمل الاقامة ببلد واحدة مدة طويلة . وهذه الصفة خلقت فيه حب المغامرة ، فاختفى أكثر من مرة في دمشق وحلب وهرب مرة من طرابلس إلى مصر ، وشدد النكير على خصومه فسددوا عليه نبالهم ، وأفحشوا له في القول ، ولكنه بقي غير عابيء بهم .

وثالث صفاته أنه كان معجباً بنفسه ، فخوراً بتفكيره ، وجرّه هذا الاعجاب إلى الحط من قدر الآخرين والازراء بهم ، أحياء كانوا أم أمواتاً ، فصفي الدين الحلي وشعره وانشاؤه ليس بشيء في نظره ، وابن الكويزليس من الأعلام ، وأبرز ما يكون الازراء بالآخرين عندما يقرظ قصيدة أو رسالة ، أو حتى بيتاً من الشعر أو صورة بديعة أو نوعاً من أنواع البديع ظفر به أحد الشعراء . وعندما يصل إلى تقريظ شعره أو نثره يبلغ في ذلك القمة من الزهو والاعجاب ، فهو متنبي عصره ، وهو عسكري الصناعيين ، وإلى غير ذلك من النعوت التي كان يضيفها على نفسه ، والتي جلبت له كثيراً من المتاعب في آخر حياته حتى أن تلاميذه تنكروا له بعد اعجابهم به فترة طويلة من الزمن ، ودفعهم ذلك إلى تتبع مثالبه واظهارها ، وقد ذكر النواجي في كتابه الحجة قال : «حتى أنه قال مراراً في ملأ من أصحابه : أن مملكة مصر لم يصر لها حالة إلا به ، وقال مرة : لو شئت كل وظيفة لوليتها ، ولكني والله لو أعطيت الخلافة ما رضيتها . ونادى بباب الجامع الأزهر على رؤوس الأفاضل والأماثل ، كل من في المشرق والمغرب تحت خفي ونازل[1] . ولم يكن النواجي مثلاً سيئاً بتنكره لاستاذه ، بل سبقه في ذلك ابن حجة فقد كان تلميذاً عاقاً لشيخه عز الدين الموصلي ، ومن يقرأ (تقديمه) يدرك كم من لواذع الكلم صبها على بديعية شيخه ، وكم من المرات سفّه رأيه وازدراه ، فقيض الله له من ينقب عن عوراته ويؤلف كتاباً فيها . وبالرغم من هذا كله فقد قال عنه السخاوي : «كان إماماً عارفاً بفنون الأدب ، متقدماً فيها ، طويل النفس في النظم والنثر ، حسن الأخلاق والمروءة ، مع بعض زهو واعجاب ، ومداومة على خضب لحيته بالحمرة إلى أن أسّن»[1] . وقد أخذ عنه الأكابر ، وذكره ابن خطيب الناصرية فقال : «الإمام الأريب البليغ الفاضل الناظم الناثر إمام أهل الأدب في زمنه»[2] ، وقد قرظ ابن حجر العسقلاني كتابه الذي شرح فيه بديعيته فقال : «أشهد أن أبا بكر مقدم على أنظاره ، ولا أعدل في هذه الشهادة من أحمد ، وأجزم برفعة قدره على من انتصب لهذا الفن ولا أبلغ من حاكم يشهد»[3] ، وليست هذه هي الشهادة الوحيدة التي ساقها ابن حجر لابن حجة ، بل نفحه بشهادة أخرى عندما قدمت له التائيات الثلاث من نظم ابن نباتة والقيراطي وابن حجة ، فحكم لابن حجة بالفحولة ، واحراز قصب السبق ، وسيأتي الحديث عن شهادة ابن حجر مفصلاً ، ووصفه بعض المؤرخين فقال : «الإمام البارع والعالم الأريب ، رأس أدباء العصر ، وأعرفهم بفنون الشعر»[4] وقال السخاوي أيضاً : «ونظمه ونثره يفوقان الوصف ، وعندنا منهما جملة»[4] . وقال ابن حجر : «نعم الرجل كان»[5] . وقال المقريزي : «كان فيه

---

(١) الحجة في سرقات ابن حجة للنواجي ورقة ١/٤ .

(١) الضوء اللامع جـ ١١ ص ٥٣ .

(٢) في التكملة منقولاً من المرجع السابق .

(٣) تأهيل الغريب ص ٣٠٨ .

(٤) الضوء اللامع جـ ١١ ص ٥٣ .

(٥) أنباء الغمر بأبناء العمر جـ ٢ ص ٨٦٣ .

زهو واعجاب بنفسه ، وعلمه الأدب ونظمه كثير ، وهو أحد أدباء العصر المكثرين المجيدين وله في الأدب مصنفات»[١] . ويذكر صاحب شذور الذهب في أخبار من ذهب الحافظ ابن حجر سئل من شاعر العصر ؟ فقال : تقي الدين بن حجة[٢] وقال صاحب البدر الطالع : «وله يد طولى في النظم والنثر مع زهو واعجاب ، وقد يأتي في نظمه بما هو حسن ، وبما هو في غاية الركة والتكلف» [٣]

وبعد كل هذا يمكننا أن نضيف صفة لابن حجة أنه كان واسع الثقافة العربية ـ شأنه في ذلك شأن علماء عصره ـ وضرب فيها بسهم وافر ، فترك ديواناً شعرياً فيه ألوان كثيرة من فنون الشعر وضروبه ، وعرف الزجل ونظمه وألف فيه ، ولم يقصرّ على الموشح والمواليّا ، وهذه فنون سادت العصر . هذا بالإضافة إلى عمله الجليل في فن البلاغة والنقد وهو كتبه البلاغية ، وفي مجال القصة القصيرة التي كانت معروفة آنذاك ، جمع منها في ثمرات الأوراق الشيء الكثير ، ولم يترك لمعاصريه فناً ألفوا فيه إلا وألف فيه حتى في التاريخ ألف كتابه بلوغ المرام من سيرة ابن هشام والروض الأنف والاعلام ، وجوانب ثقافته أكثر من أن نتكلم عنها في هذه العجالة ، بل سنترك الفصول القادمة تتكلم باسهاب عن جوانبه الأدبية وبخاصة عن الشعرية والنقدية بشيء كبير من الاسهاب والتفصيل .

(١) الضوء اللامع جـ ١١ ص ٥٣

(٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب للعماد الاصفهاني ٧/ ٢١٩

(٣) البدر الطالع في محاسن من بعد القرن السابع جـ ١ ص ١٦٤

الفصل الثالث

آثاره ومصنفاته

ترك ابن حجة مجموعة كبيرة من الآثار ، بعضها نثري والآخر شعري ، بعضها من انتاجه ، وبعضها الآخر من مختاراته الشعرية والنثرية ، بلغ ما استطعنا الحصول عليه نيفا وعشرين أثرا ، غير المفقود الذي لم نعثر عليه ، ويمكننا تقسيم ما حصلنا عليه من هذه التركة الأدبية الى أقسام ثلاثة : الآثار النثريه ، والآثار الشعرية ، والآثار البلاغية النقدية .

القسم الأول - الآثار النثرية

في كلامنا عن آثاره النثرية نقسم الحديث الى قسمين ، القسم الأول ، الآثار الانشائيه التي كتبها هو في مناسبات مختلفة ، وهي ليست من باب تصنيف الكتب وجمع المعلومات المتصلة بالثقافة العامة ، وإنما قطع انشائية من انشائه وحده ، وهي نوعان أيضا ، رسائل اخوانية كان يبعث بها الى اخوانه وأصدقائه (كالرسالة البحرية[1]) التي بعث بها لبدر الدين الدماميني عندما هرب من طرابلس الى مصر ، ورسالة (ياقوت الكلام فيما ناب أهل الشام[2]) التي بعث بها الى فخر الدين بن مكانس ، عندما أحرق الملك الظاهر برقوق دمشق ٧٩١ ، و(رسالة السكين[3]) التي أنشأها لاظهار براعته في الوصف ولكي ينفرد بوصف نوع يتعلق بالكتابة كالسكين طالما انفرد غيره بوصف القوس والسيف والقلم ، ثم (رسالة وفاء النيل[4]) التي ألفها سنة ٨١٩ ، ويمكن أن يكون قد عارض بها القاضي الفاضل وابن نباته في موضوع وفاء النيل نفسه ، وهذه الرسائل لن نتحدث عنها هنا لأنها انتاج نثري خالص من نثر ابن حجة ، فلذا نستبعدها من حديثنا الآن ، وأما النوع الثاني من انشاء ابن حجة فهو كتاب وليس رسالة صغيرة كالرسائل السابقة ، ويصح أن يسمي ما فيه باسم

---

(١) يوجد منها نسخة ب (ليدن) بهولنده برقم ٣٦٦ ، وفي كتابه ثمرات الأوراق ص ١٣٤ ، وفي التقديم ص ٢٣ وتأهيل الغريب ، ص ١٠٤ ، ومكتبة الأزهر رقم (٦٢١) أباظه ، ٧٢١٦ ورقة ٨٧ - ٩٨ .

(٢) الرسالة موجودة في برلين رقمها ٩٧٨٤ ، وذكرها ابن حجة في ثمرات الأوراق ص ١٤٨ ، وفي قهوة الانشاء . والأزهر رقم (٦٢١) أباظة ٧٢١٦ / ورقة ٨٧ - ٩٨ ، وحقق هذه الرسالة الدكتور أحمد طربين ونشرها في ج ٤ المجلد ٣١ من مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق في عدد تشرين الأول سنة ٩٥٦ ، في بعض المراجع تسمي (ياقوت الكلام في أيام الشام) والبعض الآخر سماها (ياقوت الكلام في نار الشام) وبروكلمان يسميها (رسالة لابن مكانس) .

(٣) هانس ٢٣١ . ثمرات الأوراق ص ١٥٦ ، التقديم ص ٢٤ . وقهوة الانشاء . وضمن مجموعة أدب تيمور .

(٤) الرسالة موجودة في ثمرات الأوراق ص ١٣٣ ، التقديم ص ٥٢٧ .

رسائل ديوانيه ، وهذا الكتاب هو كتاب (قهوة الانشاء [1]) ، وقد ذكر ابن حجة انه الفه وجعله في خمسة مجلدات ، ألف الجزء الأول في الشام ، وثلاثة مجلدات أنشأها للملك المؤيد ، ومجلد أنشأه لمن جاء بعده ، وقد جمع هذا الكتاب تلميذه النواحي باذن منه ، ويبدو أن الصحبة كانت لا تزال قائمة بينهما إذ أنه أثنى عليه كثيراً أثناء جمعه لرسائل الكتاب ، وأما القسم الآخر من آثاره ومؤلفاته النثرية ، فهي تلك الكتب التي خلفها ، والتي ليست مقصورة على انشائه الخاص ، بل تتميز بالجمع من الكتب والمصنفات الأخرى التي سبقته والتي عاصرته ، ونثره فيها لا يزيد عن عبارات الجمع والربط بين مضمون هذه المؤلفات وسنتكلم على هذا النوع من الآثار بشيء من التفصيل .

وهي :

- ١ -

ثمرات الأوراق[2] : أودع ابن حجة في هذا المصنف حصيلة ثقافته من القصص والطرائف وغريب الأخبار ، وبديع الأجوبة ، ومتخيرّ النثر والشعر ، ولطائف استحسنتها العرب وأمثلة جرت على ألسنة القدامى والمحدثين ، والمتصفح لهذا الكتاب يدرك غزارة الكتب التي اطلع عليها المصنف ، واقتبس قصصه منها ، وعلى رأس هذه الكتب التي أطلع عليها كتاب (درة الغوّاص) لأبي محمد القاسم بن علي الحريري ، ويكثر ابن حجة من الأخذ منه ، ثم كتاب (الأذكياء) لأبي الفرج بن الجوزي ، وكتاب (وفيات الأعيان) لابن خلكان ، هذا بالاضافة الى حوالي أربعين كتابا صرح المؤلف بالأخذ منها ، وغيرها لم يصرح بها .

ومن حسناته أنه كان يذكر الخبر ، ويتبعه باسم المصدر الذي أخذ منه ، والكتاب ليس مبوبا أبوابا تندرج تحتها مجموعة القصص ، ولكنها قصص وطرائف وأخبار محشودة حشدا بدون تبويب أو تصنيف جزئي ، اللهم إلا ماجاء منها أحيانا عفو الخاطر، حيث يتذكر القصة ثم يتبعها بقصة تضارعها، وتسلسل القصص **من نوع واحد حتى يستكمل ما في جعبته منها ، الا أن هذا لا يمنع من أن تندّ عن ذاكرته بعض طرف من هذا الباب يأتي فيما بعد ليستكمل ذكرها ، وهو لا يكتفي بذكر القصص وعزوها الى أصحابها ، بل يذكر**

---

(1) نسخ هذا الكتاب موفورة ولكنها كلها مخطوطة ، اذ لم يطبع الكتاب حتى الآن ، ففي برلين نسخة رقمها ٨٦٤٤ وفي توبنغن بالمانية الغربية نسخة رقمها ٦٩ ، وفي ليدن بهولنده نسخة برقم ٣٥٣ ، ونسخة كمبردج رقمها ٥٣ ، وباريس رقمها ٤٤٣٨ ، وقد كانت في مكتبة الجزائر نسخة رقمها ١٨٩٨ ، ونور عثمانية في تركية ٤٣٠٨ ، وفي دار الكتب بالقاهرة عدة نسخ احداها كتبت سنة ٨٩٢ ورقمها فى التيمورية ٣٥ أدب ، والنسخة التي جمعها تلميذه النواجي رقمها ٤٣٨ دار الكتب المصرية ، واخرى برقم ٣٣٥ ، وفي التيمورية نسخة برقم ٧٣١ وفي المكتبة الأزهرية نسخة في مجلد رقمها (٢٤٦) اباظة ٦٨٥٢ .

(2) ظفر هذا المؤلف بعناية الكثيرين منذ قديم الزمان حتى حديثه . فقد نسخت منه مجموعة من النسخ لا تزال مخطوطة مبثوثه في مكتبات العالم ، ففي برلين نسختان برقم ٨٣٨٢ / ٨٣ ، وفي المتحف البريطاني نسخة رقمها ٣٩٧٩ ، وفي مكتبة غوته نسخ أرقامها ١١٥٢ / ٥٥ وفي باريس نسخة برقم ٣٥٢٩ ثم ٣٥٤٣ ، ونور عثمانيه رقم ٣٧٥٧ ، أيا صوفيا ٤٨٤٨ ، وفي مصر مجموعة من النسخ المخطوطة ، ففي مكتبة الاسكندرية نسخة برقم ٢٩ أدب ، وفي دار الكتب المصرية بالقاهرة عدة نسخ أرقامها ٦٢٧ / ٨٠٧ / ٨٠٩ ونسخة ضمن مجموع رقمه ٣٠٩ ، ونسخ أرقامها ٥٠٣٩ / ٤٣٨ / ٧٤٠ ، وفي برلين ذيل للثمرات رقم ٨٣٨٤ منسوب لمحمد بن السابق الحموي ، وكذلك في المتحف البريطاني ذيل كالسابق رقمه ١٧٦٦ وفي طلعة ثلاث نسخ أرقامها ٤٤١٢ / ٤٤١٥ / ٤٤٦٥ . وطبع الكتاب بالمطبعة الوهبية سنة ١٣٠٠ ملحقا به الذيل ، والذيل الذي كتبه ابراهيم الأحدب ، ثم جزء من تأهيل الغريب . وطبع في المطبعة التجارية ملحقا بالمستطرف للابشيهي، وكلفت وزارة الثقافة من اختار بعض طرائفه وطبع بعنوان «المختار من ثمرات الأوراق» .

بعض القصص المشابهة التي وقعت لمعاصريه ، وفي الكتاب بعض التراجم كتراجم المعتزلة أو ترجمة النضر ابن شميل أو أبي حنيفة ، ولا يتورع بعد هذه التراجم والأخبار الرزينة عن أن يذكر طرفا من أخبار الماجنين وشعرهم المجوني ، ولكنه يبقي قليلا اذا ماقيس بمصنفات غيره في هذا العصر ، وكثيرا ما تطل علينا شخصيته بين الحين والحين ليذكر شيئا من شعره أو نثره مقرونا بالزهوو الافتخار ، وخاصة اذا قارنه مع من سبقه من المتقدمين ومع كل هذا فكتاب ابن حجة خال من الأسلوب المسجع الذي عهدناه في انشائه وخاصة في قهوة الانشاء ، بل يورد الخبر أو يقدم له بأسلوب عادي لا سجع فيه . والخبر ـ في كتابه هذا ـ يتفاوت طولا وقصرا ، فقد يكون من القصر أنه لا يستغرق أكثر من سطرين ، وقد يطول حتى أنه ليبلغ بضع صفحات .

ومهما يكن فان ابن حجة في (ثمرات الأوراق) قد بدأ بذكر قسم يتعلق بقصص وطرف وملح تصلح للمحاضرات والقراءة المنفردة ، ولما نفدت قصصه رأى أنه من الخير أن يتبعها بقسم آخر من انشاء الكتاب ، فاختار نماذج بديعة من هذا الانشاء ، ثم أحب أن يختمه بقسم ثالث يذكر بعض وصايا تهم المشتغلين بالكتابة ، فتكلم على وصف القلم والداواة والسكين اللازمة للقلم وغيرها .

ويبدو أنه بعدما ألف الكتاب السابق وقعت بين يديه مؤلفات جديدة استخلص منها مجموعة طرائف وقصص ، وصنفها في ذيل جديد ألحقه بالثمرات ، ومن خلال المراجع التي صرح بها في الذيل ندرك أنها غير المراجع التي اعتمد عليها في تأليف الثمرات . وهذا يدل على غزارة اطلاع المؤلف على كتب الأدب والقصص والطرف . والثمرات الموجود بين أيدينا ألحق بذيل ثان صنعه ابراهيم الأحدب ، وجمع فيه قصصا كالتي جمعها ابن حجة ، ولكن في ابن حجة ميزة ليست في ابن الأحدب ، وهي أن ابن حجة حريص على ايراد أسماء المراجع ، ولكن ابن الأحدب قلما ذكرها وان كان أكثرها مستقي من قراءاته التاريخية وكتب التاريخ ككتاب ابن خلكان وابن شاكر الكتبي وغيرهما ، وأحيانا يذكر ابن الأحدب في الذيل بعض القصص التي ذكرها ابن حجة كقصة علية بنت المهدي مع خادمها (طل) .

ـ ٢ ـ

أزهار الأنوار[١] :

وهو كتاب نثري جمع فيه مجموعة من الطرائف والنوادر التي حصل عليها من خلال قراءته للكتب الكثيرة ، ذكر فيه طرائف قديمة وطرائف لمعاصريه ، وبعض قصص هذا الكتاب مكررة في ثمرات الأوراق أو في مصنفات أخرى .

ـ ٣ ـ

مجرى السوابق[٢] : جمع فيه ابن حجة كل ما استطاعت يده أن تصل اليه من نثر الأقدمين وشعرهم، والمعاصرين له في موضوع وصف الخيل المسومة ، وقد ذكر مضمون هذا الكتاب في كتابه الكبير بلوغ المراد من الحيوان والنبات والجهاد ، وكرر بعض ما ورد فيه في كتابه الآخر تأهيل الغريب ، وهو مصنف صغير

---

(١) منه نسخة مخطوطة في برلين برقم ٨٣٨٥ ونقلت بعد الحرب الى كوتنجن ، وقد حصلنا على نسخة مصورة منه .

(٢) منه نسخة في غوته برقم ١٣٣٥ .

أشبه برسالة في وصف الخيل .

- ٤ -

تأهيل الغريب النثري[١] : انظر الحديث عنه في تأهيل الغريب الشعري

- ٥ -

بلوغ المرام من سيرة ابن هشام والروض الأنف والأعلام[٢] :

وهو كتاب ضخم ، يختلف عن أكثر كتب ابن حجة بأنه كتاب تاريخ وسيرة أكثر منه كتاب أدب ، لخّص فيه ابن حجة أشهر السير التي كتبت عن الرسول (ص) وبشكل خاص سيرة ابن هشام ، والروض الأنف للسهيلي والأعلام للقرطبي ، والكتاب في عدة أجزاء ، وهو من المؤلفات القيمة التي تركها ابن حجة ، فهو وان كان مجرد جمع أخبار من كتب معاصريه وسابقيه من المؤرخين والمشتغلين بكتب السيرة الا أنه تحرى الدقة في ايراد الخبر ، وذكر وجهات نظر مختلفة للوصول الى صحة الخبر . ويبدو أنه اطلع على عدد غير قليل من كتب الحديث ليتحري مطابقة الخبر التاريخي مع ما أثر عن الرسول من قول أو عمل .

- ٦ -

بلوغ المراد من الحيْوان والنبات والجماد[٣] :

لقد ألف العرب كثيرا في الحيوان ، وعلى رأسهم الجاحظ في كتابه الضخم (الحيوان) ولكن تأليفهم فيه كان يجمع بين الحقيقة العلمية والطرفة الأدبية ، فيلجأ الكاتب الى حشد كل معلوماته العلمية عن الحيوان الذي يكتب عنه ، ثم يتبعه بما قيل في هذا الحيوان من أدب ، وما ورد فيه من أشعار ، واذا قفزنا من عصر الجاحظ الى العصر الذي عاش فيه ابن حجة طالعنا شيخ الكتاب في ذلك الموضوع كمال الدين بن عيس الدميري بكتابه المشهور «حياة الحيوان الكبرى» الذي ضمنه حديثا عن الحيوانات من الناحية العلمية والأدبيّة .

وقد كان كتابه هذا مثار حركة أدبية تأليفيه واسعة ، فقد ألف الدماميني كتابا اختصر فيه حياة الحيوان المذكور آنفا وسماه «عين الحياة» ثم جاء بعده محمد بن عبد القادر الدميري واختصر حياة الحيوان الكبرى ، وسمى كتابه «حادي الحسان» ولم يقف الحد عند هذين المختصرين بل عزّزهما السيوطي بثالث سماه «ديوان الحيوان» ، وجاء ابن حجة فنحا منحى جديداً في التأليف ، اذ أراد أن يوسع البحث لا أن يختصره ، فألف كتابه الكبير «بلوغ المراد من الحيوان والنبات والجماد» . فهو لم يقتصر في هذا المؤلف على الحديث عن الحيوان فحسب بل تعداه الى النبات ، ثم تجاوزه الى الجماد ، ولقد صرح ابن حجة أنه اطلع على كتاب الدميري وأعجب به ولكنه وجده ناقصا قال : «فاني طالعت كتاب حياة الحيوان للشيخ الدميري ، وتصفحت وجوه طروسه ، فرأيت محاسنه كثيرة ، غير أني وجدت فيه يسير نقص بالنسبة الى (كمال) الأدب . . وزدته خواص النبات والجماد ، فصار معدوم المثال بالموجودات الثلاث ، ولم أذكر من النبات غير

---

(١) الموجود منه الجزء الرابع فقط ، وهو مدرج مع الجزء الثاني من تأهيل الغريب الشعري برقم ٥٥١ دار الكتب المصرية .

(٢) يوجد منه نسخة واحدة في برلين رقمها ٥٩٦٨ حصلنا على نسخة مصورة تقع في أربعة أجزاء كبيرة .

(٣) لا توجد منه الا نسخة واحدة في مكتبة فيينا برقم ١٤٤٤ ، استطعنا الحصول على نسخة مصورة منها وهي تقع في ١٨٥ ورقة من القطع الكبير .

أنواع الزهر . . . ولم اخترمن الجماد إلاّ نوع الجواهر[1] » . ثم رتب الحديث عن الحيوان حسب حروف الهجاء ، وابتدأ بالألف فذكر (الأسد . الأبل) وهكذا . . وكذلك في القسم الذي خصصه للنبات رتبه حسب حروف الهجاء أيضا ، ثم أتبعه القسم الذي أفرده للجماد وهو مرتب بحسب حروف الهجاء أيضاً ، وبهذين القسمين الأخيرين يمتاز ابن حجة على الدميري ، اذ أن الدميري لم يذكرهما في كتابه بل جعله مقصورا على الحيوان . وحتى في الأنواع الحيوانية التي تناولها الدميري تناولها ابن حجة وزاد عليها إما بعض الخصائص العلمية أو بعض ماقيل في هذا الحيوان أو ذاك من الشعر ، لذا فكتاب ابن حجة أوسع وأشمل .

وفي آخر الكتاب يصرح بأنه فرغ من نسخه في العشر الأخير من شوال المبارك من شهور سنة تسع وعشرين وثمان مئة .

- ٧ -

ملتقطات ابن حجة[2]

هذا المصنف لم يذكره أحد من الذين كتبوا عن ابن حجة ، أو الذين صنفوا في التراجم ، أو في أسماء المؤلفات ، ولم يذكره (كارل بروكلمان) ولا (حاجي خليفة) والذي انفرد بذكره آلوارد ، ووصفه بأنه كتاب يتحدث عن الخليقة والمخلوقات . ذكر في مقدمته قول ابن حجة : «قيل : الخلق على عشرة أجزاء ، تسعة منها الشياطين والجن وواحدة منها الأنس ، ثم جعل الأنس مئة وخمسة وعشرين صنفا ، فالمئة منها يأجوج ومأجوج ، وخمسة وعشرون الخلق ، وأربعة وعشرون من ذلك كفار ، ومصيرهم الى النار ، وبقي صنف واحد من المسلمين من مئة وخمسة وعشرين صنفا . ثم ان المسلمين افترقوا على ثلاث وسبعين فرقة . . الخ» وفي ختامه ذكر (فصلا) قال النبي (عمّ) الصدقة مراتب ، صدقة بواحدة ، وصدقة بسبعين . . الخ وأما الصدقة ما يحصي عددها الا الله فهو يعطى العلماء والمتعلمين صدقة رسول الله (ص) . تمت[3] .

---

(١) بلوغ المراد من الحيوان والنبات والجماد ورقة ٢ .

(٢) يوجد منها نسخة في برلين ذكرها (آلوارد) في فهرسه في ج٢ ص ١٨٦ ورقمها في برلين ١٣٩٣ .

(٣) ذكر ذلك (آلوارد) في فهرسه ج٢ ص ١٨٦ .

القسم الثاني

الآثار الشعرية

فأما آثاره الشعرية فنقسمها إلى أربعة أنواع نتحدث في النوع الأول عن انتاجه الشعري وهو المشتمل عليه ديوانه ، أو جني الجنتين ، والثمرات الشهية من الفواكه الحموية والزوائد المصرية ، فهذه المسميات الثلاثة هي مظان شعره ، وهي ديوان شعره وان اختلفت أسماؤها . ويلحق بهذا القسم أربعة آثار أخرى ، وهي تخميس السهيلي ، ورشف المنهلين ، وأمان الخائف ، وتفصيل البردة ، وبالرغم من أن بعض هذه الآثار تحمل أسماء تجعل القارىء يتوهم أنها أسماء مؤلفات ضخمة إلا أنها في حقيقتها لا تعدو أسماء قصائد في ديوانه كان يحلو له أن يطلق عليها هذه الأسماء فظنها بعض من تحدث عن آثاره أنها أسماء مصنفات لابن حجة والحقيقة أن تخميس السهيلي هو قصيدة لابن حجة خمس بها قصيدة السهيلي العينية ليس غير ورشف المنهلين قصيدة لابن حجة خمس بها قصيدة عبد القادر الكيلاني ، وأمان الخائف قصيدة في مدح الرسول ، وتفصيل البردة قصيدة طويلة له خمس بها ميمية البوصيري المسماة بالبردة واصطفى لها الاسم (تفصيل البردة) حباً بالتورية .

النوع الأول

ديوان شعره

ديوان نظمي جاء وهو محرّر بدقيق نظم لفظه مستعذب
فإذا أتى لا تستقلّوا حجه وحياتكم فيه الكثير الطيّب

اضطرب مؤرخو الأدب في تعيين ديوان ابن حجة ، ونسبوا إليه أكثر من ديوان تارة ، وأخطأوا في التسمية تارة أخرى ، فمما قاله السخاوي أثناء عرضه لأسماء تصانيفه قال : «والزوائد المصرية نظم ، والثمرات الشهية من الفواكه الحموية ـ نظم أيضاً ، وجنى الجنتين ، وقطر النباتين ، وثبوت الحجة ، وقبول البينات ، وتأهيل الغريب في أربع مجلدات ، وتفصيل البردة ، وثبوت العشرة ، وديوان شعر بديع قال فيه :

ديوان نظمي جاء وهو محرر برقيق نظم لفظه مستعذب
فإذا بدا لا تستقلوا حجه وحياتكم فيه الكثير الطيب

. . . والخ»[1] ، ويهمنا من هذا الخبر ما أورده في أوله وفي آخره ، إذ ذكر أن له مصنفاً اسمه الزوائد المصرية ، وآخر اسمه الثمرات الشهية والفواكه الحموية ، وثالث اسمه جنى الجنتين ، وفي آخر الخبر يقول أن له ديوان شعر بديع قال فيه كذا . . ولا نريد أن نعلق على هذا الخبر الآن ، وإنما نستعرض ما كتبه حاجي خليفة في كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون فقال : «جنى الجنتين للإمام أبي بكر بن حجة الحموي المتوفي سنة ٨٣٧ جمع فيه المديح من شعره وشعر غيره ، وهو في سن خمس وثلاثين ، أوله : «الحمد لله الذي لا يحصر مجموع فضله ديوان . . . الخ»[2] وفي مكان آخر قال بعد قليل : «ديوان ابـن حجـة ـ هو أبـو بكر بن علي الحموي المتوفى سنة ٨٣٧ ـ وهو كبير فيه قصائد ومقاطع»[3] .

ثم جاء كارل بروكلمان وذكر أسماء تصانيفه . ومنها كتاب «الثمرات الشهية من الفواكه الحموية والزوائد المصرية «وجنى الجنتين» وغيرها ، وجاء بعده المؤلفون الذين صنفوا في الأعلام أو في المؤلفين فاضطربوا أيضاً في تسمية آثاره .

والواقع أن ديوانه هو كتابه «جنى الجنتين» نفسه ، والذي دفعنا إلى هذا الافتراض هو خطبة الديوان ، حيث يقول فيها : «الحمد لله الذي لا يحصر مجموع فضله ديوان . . .» إلى أن يقول « . . . وبعد ، فهذه أوراق في رياض الأدب زاهرة ، بل نجوم في سماء البلاغة زاهرة ، وقد حليت بها أوراقاً متفرقة بغير رابطة ، فأشار بعض المخاديم بجمعها فنظمتها عقداً لما حصل لها هذه الواسطة ، وما أحقها بقول القائل :

هذه للقلوب قوت وللأسـ ـماع قرط وللواحظ قرَّه
فاستلّـوا عقودهـا واكتبوا بسـواد العيون فوق المجره

وقد قرع السن قارع الأربعين ، خيفة من حلول الأجل ومسابقه الحين . . وسميتها جنى الجنتين . . الخ[4] » فمن الواضح إذا أن جنى الجنتين هو الديوان عينه ، ولكنه الديوان الذي ألفه وقد قرع السن قارع الأربعين وقد أردنا بهذا التحفظ الأخير وهو قوله : وقد قرع السن قارع الأربعين «لأنه عاش حوالي سبعين سنة ، وقال شعرا كثيرا بعد جمع هذا الديوان ، فلذا سيأتي فيما بعد مجموعة من النساخ ويحاولون جمع كل ما قاله من شعر بين دفتي كتاب يطلقون عليه تارة اسم ديوانه ، وتارة اسم جني الجنتين ، وتارة ثالثة يسمونه في المقدمة (جنى الجنتين) وفي الخاتمة يقولون انتهى ما كتبه ابن حجة من (الثمرات الشهية من الفواكه الحموية والزوائد المصرية) وغيرها .

ومما يدل على أن ديوانه هو جنى الجنتين نفسه وهو بعض شعره لا كلّه ، ما كتبه النواجي في كتابه «الحجة في سرقات ابن حجة» فالنواجي أخذ على عاتقه أن يتناول ديوانه قصيدة قصيدة ثم يبين ما فيها من سرقات ، ولهذا أعطانا صورة صحيحة لفهرس الديوان نراجعه اذا عز علينا الفهرس ، ومن المستحسن ـ لكي نشكل

---

(١) الضوء اللامع جـ ١١ ص ٥٣

(٢) كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون جـ ١ ص ٦٠٧

(٣) كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون جـ ١ ص ٧٦٤

(٤) خطبة ديوان جنى الجنتين ص ٣

فكرة عن الديوان ـ أن نثبت القصائد التي تناولها النواجي بالحديث لنحدد بالضبط ديوانه الأول قبل أن يلحق به النساخ قصائد ومقاطيع قالها ابن حجة ونظمها فيما بعد ، وهذا ثبت الديوان كما استخلصناها من خلال نقد النواجي لسرقتها :

١) الكلام على خطبة الكتاب ـ أي ديوان ابن حجة ـ
٢) قصيدته البديعية في مدح الرسول والتي أصبحت فيما بعد كتاب (تقديم أبي بكر)
٣) قصيدته الميمية في مدح الرسول المسماة أمان الخائف
٤) قصيدته الرائية التي امتدح بها قاضي القضاة علاء الدين بن أبي البقاء
٥) قصيدته الفائية التي امتدح بها القاضي مجد الدين بن مكانس
٦) قصيدته الدالية التي امتدح بها القاضي فخر الدين بن مكانس
٧)قصيدته الرائية التي امتدح بها القاضي أمين الدين الكاتب لسر الشام
٨) قصيدته النونية التي امتدح بها القاضي أمين الدين الكاتب لسر الشام
٩) قصيدته اللامية التي امتدح بها القاضي بدر الدين بن قاضي أذرعات
١٠) قصيدته العينية التي امتدح بها الشيخ نور الدين أبا الثناء محمود الشافعي الشهير بخطيب الدهشة بحماة
١١) قصيدته الرائية التي امتدح بها القاضي فتح الدين بن الشهيد
١٢) قصيدته الميمية التي امتدح بها الشيخ علاء الدين أيبك الدمشقي
١٣) قصيدته الميمية التي امتدح بها القاضي أبا بكر بن العجمي
١٤) قصيدته اليائية التي امتدح بها القاضي صدر الدين بن الأدمي جوابا عن أبيات أرسلها اليه
١٥) قصيدته الحائية التي امتدح بها الشيخ شهاب الدين أحمد بن يهودا الحنفي
١٦) قصيدته الميمية الساكنة التي امتدح بها القاضي جمال الدين عبد الكافي صاحب ديوان الانشاء الشريف بطرابلس
١٧) قصيدته الدالية التي امتدح بها القاضي بدر الدين بن الشهاب محمود كاتب سر حلب .
١٨) قصيدته اللامية التي امتدح بها القاضي ناصر الدين بن منهال عين كتاب الانشاء
١٩) قصيدته القافية التي امتدح بها القاضي شرف الدين بن صدقة بن منصور
٢٠) قصيدته الهمزية التي امتدح بها الشيخ علاء الدين الغزولي
٢١) قصيدته الرائية التي امتدح بها الأمير علاء الدين الطشلاقي أمير قطية
٢٢) قصيدته الرائية التي امتدح بها الأمير دمرداش الحاكمي
٢٣) قصيدته الرائية التي امتدح بها منطاش وهجا فيها الملك الظاهر
٢٤) قصيدته اللامية التي امتدح بها استدمر بن يعقوب شاه
٢٥) قصيدته الدالية التي امتدح بها الأمير عمر بن الهدياني أمير حماة
٢٦) قصيدته الميمية التي امتدح بها قاضي القضاة شرف الدين مسعود الشافعي
٢٧) قصيدته الهائية التي امتدح بها قاضي القضاة موفق الدين الحنبلي

٢٧) قصيدته الرائية التي امتدح بها قاضي القضاة شمس الدين بن مهاجر
٢٨) قصيدته الرائية المصغرة التي امتدح بها قاضي القضاة شمس الدين النويري
٢٩) قصيدته الدالية التي امتدح بها قاضي القضاة شمس الدين بن عباس الشافعي
٣٠) قصيدته الرائية التي امتدح بها قاضي القضاة تقي الدين بن الخيشمي
٣١) قصيدته الظائية التي امتدح بها قاضي القضاة علاء الدين القضامي
٣٢) قصيدته البائية التي امتدح بها المقر الأشرف العالي المرحومي الناصري محمد بن البارزي
٣٣) قصيدته الكافية التي امتدح بها برهان الدين بن جماعة
٣٤) المقاطيع

وبعد أن انتهى النواجي من نقده لهذه القصائد والمقاطيع يقول : «الكلام على القصائد التي نظمها بعد أن دوّن ديوانه»[1] ، وهذه عبارة صريحة تشير الى أن ابن حجة نظم قصائد لم تكن في ديوانه الأول ، ومن حسن حظنا أن النواجي قد عددها لنا وهي :

١) القصيدة الكافية التي امتدح بها ابن خلدون
٢) القصيدة النونية التي امتدح بها محمد بن البارزي
٣) القصيدة السينية التي امتدح بها الكمال بن البارزي
٤) القصيدة الفائية التي امتدح بها أمير المؤمنين المتوكل على الله عبد العزيز صاحب تونس
٥) القصيدة اللامية التي امتدح بها المقر الأشرف العالي الزيني ناظر الجيوش
٦) القصيدة التائية التي امتدح بها البدري بن مزهر

وهناك مجموعة من القصائد الأخرى قال النواجي انه سمع بها ولم تصل الى يده ومنها قصائده في مدح الملك المؤيد وهي غرر قصائده ، ولأنه قال هذه القصائد في مصر أحب أن يوري تسميتها «الزوائد المصرية» لأنه زادها الى ديوانه فكان فيها الخير ، كما في زيادة النيل خير لمصر ، وأما الثمرات الشهية من الفواكه الحموية ، فهي أية قصيدة من ديوانه ، فباعتباره سمى ديوانه جنى الجنتين فما أجدره بالتورية بقول «الثمرات الشهية من الفواكه الحموية» لأنها ثمرات مجتناة من جنانه ، ولذلك لم يكن مخطئا من كتب من النساخ في مطلع ديوانه «جنى الجنتين» وفي ختامه قال : انتهى ما اقتطفته من الثمرات الشهية من الفواكه الحموية . »

ولقد لفت نظرنا حاجي خليفة أثناء تعريفه لجنى الجنتين حيث قال : «جمع فيه المديح من شعره وشعر غيره» والواقع أنه كله من شعره ، باستثناء قصيدتين أوردهما ابن حجة ليظهر براعته في المعارضة والأولى لابن نباته رائية القافية ، والثانية لأحمد بن يهودا حائية القافية وكان يذكر بعض مطالع قصائد لابن نباتة والقيراطي والحلي والصفدي ليعارضها ، وباستثناء ذلك فالديوان كله من نظمه وليس لغيره فيه شيء ، وديوان شعره السالف الذكر متوسط الحجم فيه ما يقرب من خمسين قصيدة وعدد لا يستهان به من المقاطيع ، ولكن الذي

---

(١) الحجة في سرقات ابن حجة ورقة ٨٧/ ١ .

أزرى به وحاول أن يحط من شأن هذا الديوان تلميذه النواجي فقد تحامل عليه عندما شمر عن ذراعه ليبينّ سرقاته فيه ، وأول ما انقضّ عليه أحب أن يقلل من شأن هذا الديوان فقال : «ومن طالع ديوانه تحقق صدق ذلك ، وعلم أن تراجمه تزيد على نظمه بشيء كثير ، ومع ذلك فقد جاء حجمه في غاية الصغر ، حتى أنه ينقص عن عشرة كراريس ، فاذا أسقطت منه التراجم ونظم الغير ونثره ، صار دون الخمسة كراريس ، فاذا استعاد عليه أبناء الأدب بما اختلسه من أبياتهم، ورجع الى كل ذي حق حقه صار قليلا جدا، واذا اسقطنا المكرر وألقينا الخطأ واللحن والمعاني الفاسدة لم يبق شيء أصلا بل ربما فضل عليه ـ لا جرم ـ اعتذر عن صغر حجمه فقال :

ديوان نظمي جاء وهو محرر ... برقيق نظم لفظه مستعذب
فاذا بدا لا تستقلوا حجمه ... وحياتكم فيه الكثير الطيب

وعارضه بقولي :

ثقلت على كل الورى يا بن حجة ... بديوان شعر أتعب الناس حمله
فوا عجبا فيه الكثير وان بدا ... فكل بليغ في الورى يستقله

ولكن هذا من تحامل النواجي عليه كما سنرى .

النوع الثاني

المختارات من الدواوين

وبعد أن تكلمنا عن النوع الأول من أنواع انتاجه الشعري نتكلم عن النوع الثاني ، وهو النوع الذي نصب ابن حجة نفسه فيه للاختيار من شعر الآخرين ، من الذين أعجب بشعرهم ، فقد اختار من شعر ابن المبارية في كتابه المسمى (الصادح والباغم) اختار من أرجوزته الطويلة بعض الحكم ونظمها مع بعضها وسماها (تغريد الصادح) وكذلك أجال الطرف في ديوان القيراطي ، واختار منه أحسنه وسماه (تحرير القيراطي) وأعجب ببعض توريات شيخ شيوخ حماة عبد العزيز الأنصاري ، فجمعها وجعل لها زاوية في كتابه كشف اللثام وفي كتابه (التقديم) وسماها (زاوية شيخ الشيوخ) ، فهو في هذه المصنفات الثلاثة لم يزد عن كونه مجرد مختار ، يختار من شعر شاعر يعجبه ما يعجبه ، ويستخلص لنفسه أطيب ما جادت به قريحة الشاعر .

١ ـ تغريد الصادح

شاعت في العصر العباسي وما بعده فنون جديدة اتخذت من الرجز مجالا للتعبير عن بعض الأفكار ، تنظم في هذا البحر ، كالشعر التعليمي ، ونظم الحكم والمواعظ على ألسنة الحيوانات ، فمن الشعر التعليمي ألفية ابن مالك ومن الرجز الذي نظم على ألسنة الحيوانات كتاب كليلة ودمنة الشعري لابان بن عبد الحميد اللاحقي وبما دمنا قد ذكرنا كتاب كليلة ودمنة الشعري الذي ألفه اللاحقي فيجدر بنا أن نقف قليلا لأننا أوشكنا أن نصل الى الغرض الذي مهدنا له بهذا التمهيد ، وهو أن الأديب الشاعر محمد بن صالح العباسي المعروف بأن الهبّارية المتوفي سنة ٤١٥ ، قد نظم أرجوزة تختلف عن الأراجيز القديمة بشيئين : بطولها الذي يبلغ ألفي بيت من الرجز ، وبموضوعها الذي هو الحكم التي أجراها على لسان الحيوان تارة والحكماء تارة أخرى ، ولا بأس هنا أن ننقل كلمة ابن خلكان عنه قال : «من غرائب نظمه ـ يعني ابن الهبارية ـ كتاب الصادح والباغم نظمه على أسلوب كليلة ودمنة ، وهي أراجيز ، وعدد بيوته ألفا بيت ، نظمها في عشر سنين ، ولقد أجاد فيها كل الاجادة» [١] وكتاب الصادح والباغم كتاب نفيس لما يتضمنه من الحكم والتجارب وجوامع الكلم عرضها مؤلفه في أرجوزة واحدة ، ولذلك حق له أن يفخر بصنعه هذا ، وبأنه نهج فيه نهجا ليس بالمسلوك بل ابتدعه ابتداعا واخترع معانيه اختراعا ، فقال :

هذا كتاب فيه علم وأدب ... يفوق أنواع القريض والخطب
عملته لسير الملوك ... وموئل الملهوف والصعلوك
فجاء مثل الذهب المسبوك ... سلكت منهجا ليس بالمسلوك
في نظمه وسبكه ووضعه ... لا من كلام همتي في جمعه
بل ابتداعا لصنوف الحكمة ... بهمّة في العلم أي همة

ثم لا يكتفي بهذا القدر من التفاخر والاطراء لعمله ، فيعيد الكرة في خاتمته أيضا فيقول :

هذا كتاب حسن ... تحار فيه الفطن
قضيت فيه مدة ... عشر سنين عدة
بيوته الفان ... جميعها معان
لو ظل كل شاعر ... وناظم وكاثر
كعمر نوح الثالد ... في نظم بيت واحد
من مثله لما قدر ... ما كل من قال شعر

---

(١) مقدمة الصادح والباغم ص ٣

وربما لأن ابن المبارية تحدى في أبياته الثلاثة الأخيرة الشعراء أن يأتوا ولو برجز واحد مثله ، أقول ربما كان هذا التحدي هو الذي أغرى بعض الشعراء الذين جاؤ وا بعده فأعجبوا بأرجوزته واختاروا ما راق لهم منها وقدموا لها ببعض الأبيات منهم شهاب الدين الحلواني[1] ألف كتابا سماه «الناغم من الصادح والباغم» ثم ابن حجة الذي ألف «تغريد الصادح» الذي هو عمدة كلامنا الآن . يقول ابن حجة عن سبب تأليف كتابه «تغريد الصادح[2]» يقول في التقديم[3] : «وقد عن لي هنا أن أورد ما سارت في الخافقين حكمه وأمثاله ، وانقاد أهل الذوق السليم لطاعته لما ورد عليهم مثاله ، وهو تأليفي الذي وسمته بتغريد الصادح ، وما ذاك الا أن سيدنا ومولانا قاضي القضاة صدر الدين بن الآدمي نور الله ضريحه ، وجعل من الرحيق المختوم غبوقه وصبوحه ، كان يقول أود أن أنتزع من الصادح والباغم أرجوزه مشتملة على أمثلة مرقصة ، وحكم بديعة بشرط أن يكون البيت منسجما مع الذي قبله والذي بعده ولم يتيسر لي ذلك لصعوبة المسلك انتهى ، ولما قدر الله تعالى ما قدره من الاختفاء بدمشق سنة ثلاث عشرة وثمان مئة عند حلول الملك الناصر بها وأنا في خدمة المقر الاشرف القاضوي محمد بن البارزي الجهيني صاحب دواوين الانشاء الشريف بالممالك الاسلامية كان الصادح والباغم بين كتبه فنظر فيه يوما ، وذكر قول قاضي القضاة صدر الدين بن الآدمي ورسم لي بذلك ، فانتزعت له هذه الأرجوزة التي سارت على غرر أمثالها ، ولم يسمح الزمان لمؤلف بمثالها ، ومن سافر فيها نظره وكان الذوق السليم رفيقه ، علم أنها تضرب بها الامثال على الحقيقة ، وسميتها بتغريد الصادح ، وصدرتها من نظمي بأبيات تقوم مقام الديباجة والخطبة وهي :

الحمد لله الذي هذبنا	واختارنا للعلم اذ أدبنا
فان للآداب فضلا يذكر	فلا تخاطب كل من لا يشعر
يا مدعي الحكمة في كلامه	ومن يروم السحر في نظامه
خذ حكما وكلها أمثال	ليس لها في عصرنا مثال
ألفها ابن حجة للنجبا	لأن فيها رأس مال الأدبا
واختارها من مفردات الصادح	فكان ذا من أكبر المصالح
من كل بيت ان تمثلت به	سكنت من سامعه في قلبه
وقد تهجمت على الشريف	لكنني خاطبت بالمعروف
وجئت من كلامه بنبذة	تجلب للسامع كل لذة
وترفع الأديب ان تمثلا	فيها اذا خاطب أرباب العلا
من حكم تتبعها وصايا	مقبولة من أحسن السجايا

(١) الناغم من الصادح والباغم : نظم العلامة الأديب الشيخ أحمد بن أحمد بن اسماعيل الحلواني ، وهي رسالة تشتمل على عيون من الحكم ، جردها الناظم من كتاب الصادح والباغم الذي نظمه ابن المبارية ، أفردها المؤلف وزاد عليها أبياتا وأشطارا وألفاظا أبدلها من أخرى ووسمها بهذا الاسم .

(٢) نسخة موجودة في برلين رقم ٧٨٩٤ ، والقاهرة ٣٥٤ تيمورية أدب . دار الكتب الظاهرية بدمشق ٥٤٣١ عام .

(٣) التقديم ص ١١٧ .

من أول وأوسط وآخر ... جمعتها جمع أديب شاعر
حتى دنا البعيد للغريب ... وانتظم البديع بالغريب
وانسجمت في جمعها أرجوزة ... بديعة غريبة وجيزة
وكل من أنكر ما أحكمت في ... ترتيبها يكون غير منصف
فلينظر الاصل ليعرف السبب ... ويعترف ان كان من أهل الأدب
أول ما يرغب في استهلاله ... من نظمه الحكمة في مقاله

هذه هي الديباجة أو خطبة الكتاب ، نظمها ابن حجة ووضح لنا الخطة التي سيسلكها في اختياره لمقتطفات الصادح والباغم ، وهو اختيار قائم على جمع الأشياء والنظائر وشدها الى بعضها بحيث تؤلف بعض الوحدة يحوم عليها معنى واحد ، فابن الهبارية نظم الحكمة ولكنها جاءت متفرقة في أول الأرجوزة وفي وسطها وفي آخرها ، وكان صنيع ابن حجة يتمثل في شيئين : الأول أن يجمع الأبيات المتقاربة المعنى ويجعلها متتابعة ، والثاني أن يجعل البيت منسجما مع الذي قبله والذي بعده . وهذه العملية ، تحتاج الى الكثير من اعمال الفكر لجمع الشتات واعادة ترتيب الأرجوزة بشكل يجعل أبياتها بعضها آخذ برقاب بعض ، وكنموذج لهذا الانسجام بين البيتين مثلا يسوق لنا ابن حجة بيتين من صنع ابن الهبارية فيقول :

العيش بالرزق وبالتقدير ... وليس بالرأي ولا التدبير
في الناس من تسعده الأقدار ... وفعله جميعه ادبار

فابن حجة لكي يضمن وحدة المعنى وانسجام البيتين وتتاليهما ، جمع البيتين من الأرجوزة وبينهما مئات الابيات ، ثم يتوالى عمله في جمع الأبيات ، فيضع البيت :

لاتغتر بالحفظ والسلامة ... فانما الحياة كالمدامه

بجانب البيت

والعمر مثل الكأس والدهر القذر ... والصفو لا بد له من الكدر

ويزهو ابن حجة ـ على عادته ـ لأنه جمع بين هذين البيتين اللذين أحق بأن يجمعا فيقول : «انظر أيها المتأمل كيف اتبعت قوله : فانما الحياة كالمدامة» بقوله : «فالعمر مثل الكأس» ، وفي الختام يورد ابن حجة هذه الأبيات :

هذا الـذي ألفتـه واخترته ... من رجـز الشريف وانتخبته
وحرمـة الآداب يا أهـل الأدب ... أن الشريف قد أتانـا بالعجب
قلنـا جميعـا اذ سمعنـا رجزه ... كم قد أتـى محمـد بمعجزة
من كل بيت شطـره قصيد ... وكلنـا لبيتـه عبيد
فرحمـة الله له في الآخرة ... خاتمـة مع الهبـات الوافرة
ثم الصـلاة والسـلام دائما ... على الـذي للرسـل جاء خاتما

وبالرغم من أن رجز ابن حجة في هذه الارجوزة الطويلة لا يبلغ أكثر من عشرين بيتا فله مقاطيع كثيرة وقصائد كلها رجز تدل على مهارته في صنع الأراجيز واحكام نسجها ، سواء كانت الأرجوزة موحدة القافية أو متعددة القوافي بتعدد أبياتها .

٢ ـ تحرير القيراطي (١)

هذا الأثر ثاني أثر تركه ابن حجة من الآثار التي كان له فيها فضل الاختيار ، ذلك أن الشيخ برهان الدين القيراطي كان شاعرا كغيره من الشعراء يقع على الغث والسمين ، فلما وقع ديوان شعره بين يدي ابن حجة أحب أن يستخلص من ديوانه بضع قصائد هي خير ما أنتجته قريحة الشاعر ، فاختار له بضع قصائد وقدم لها بالمقدمة التالية التي نسوق قسما منها لنتعرف على دوافع ابن حجة في اختيار شعر القيراطي ومنهجه في هذا التأليف قال : «وبعد . فاني طالعت ديوان الشيخ الامام القدوة العلامة برهان الدين القيراطي وحررتـه بميزان العقل تحرير الذهب ، فوجدته قد مازج القطر النباتي بحلاوة ما حركه من نكت الأدب ، لكن في الثلث من ديوانه ، والثلث يعلم الله كثيره ، لأني رددت منه ما لم يخرج على صيارفة الأذهان ، واستعنت في ذلك بالناقد البصـير . . . واهتدمـت من قصائـده كل بيت أسس على غـير تقـوى ، وأبقيت السمـين ، واختصرت الغث لما فيه من الضعف والاقواء ، واخترت من المقـاطيع المطربـة ما يغنـي عن المواصيل ، وحذفت ما لم تكن حلاوته قاهرية ، ولا يصلح أن يكون من مقطعات النيل ، و طرحت القصائد التي لم يحرر فيها القيراطي غير الوزن والقافية ولكونها ـ مع ضعفها ـ لم تكن في اعرابها عن البديع شافية . وقد انفت لهذا الامام أن يتأخر ، وقد أتى بما لم تستطعه الاوائل ، أو يكون على مقابلة جوهره بهذا العرض منتظما في سلك قول القائل :

اذا كنـت ماتـدري سوى الـوزن وحده ... فقـل أنـا وزان ومـا أنـا شاعر

فجمعت له هذه الغرر المشرقة في حياة الأيام وسميتها (تحرير القيراطي) والله المستعان» (٢)
فالكتاب كما ذكر لنا ابن حجة كتاب مختارات من شعر القيراطي اختارها واستبعد من ديوانه الأصلي الغث

---

(١) موجود ضمن مجموعة مخطوطة في مجلد بدار الكتب المصرية رقم ٧٧٢٩ .
(٢) مقدمة تحرير القيراطي ص ٢ مخطوط .

وأبقى السمين ، ولم يزد على اختيار حوالي اثنتي عشرة قصيدة ومجموعة من المقطعات .

٣ ـ زاوية شيخ الشيوخ

إن ولع ابن حجة بالتورية يلاحقه الى كل مكان ، ففي أكثر من موضع ذكر بعض توريات أهل مصر الذين ساروا على طريقة القاضي الفاضل وجمال الدين ابن نباتة . ولكن العصبية الشامية أولا والعصبية الى حماه ثانيا دفعته الى التحيز الى بلديّة وشيخ البديع في عصره المسمى بشيخ شيوخ حماة عبد العزيز الانصاري فأفرد له في كتاب (كشف اللثام) وفي كتابه (تقديم أبي بكر) زاوية خاصة اكراما له وسمّاها (زاوية شيخ الشيوخ) واختار له روائع تورياته ، وقد حدثنا في مطلع هذه الزاوية فقال : « . . . فقد انتهى ما أوردته منوعا في التورية من الحلاوات القاهرية ، وقد تعين أن أفكه بعد ذلك بالفواكه الشامية ، واقتطف له من فروع شيخ الشيوخ ما يظهر به مزيّة الثمرات الحموية ، . . . فاخترت من أبيات قصائده ومواصيل مقاطيعه مايحلو به التشبيب ، وسميته (زاوية شيخ الشيوخ) علما بأنها زاوية يتأهل بها الغريب»[(١)] وهذه الزاوية التي أودعها في كشف اللثام كان قد ذكرها سابقا في تقديم أبي بكر ، ويبدو أنه أفردها في رسالة خاصة ، وهي لا تزيد عن أربع صفحات من القطع المتوسط .

النوع الثالث ـ كتب المعارضات

والنوع الثالث من آثاره الشعرية هي تلك المجموعات المتضمنة شعره وشعر أناس آخرين ، ويمثل هذا النوع كتابان أحدهما (بيوت العشرة) ، والثاني (قبول البينات) . أما بيوت العشرة فهو مجموعة من معارضات شعر شاعرين أحدهما ابن نباته والثاني ابن حجه ، ففي هذا المصنف ذكر ابن حجة خمس قصائد من غرر قصائد ابن نباته كالقصيدة الكافية التي مطلعها :

لثمت ثغر عذولي حين سماك   فلذ حتى كأني لاثم فاك

وأربع قصائد غيرها ، ثم اختار من شعره هو خمس قصائد من غرر شعره في معارضتها ، وأطلق على القصائد العشر اسم (بيوت العشرة) وهو لا يزيد في قوله عن : قال ابن نباته . فقلت أنا معارضا له .

ولم يصلنا من هذا الكتاب الا خطبته التي أوردها ابن حجة في (قهوة الانشاء) ، ولكن في هذه الخطبة اليسيرة بعض ملامح الكتاب التي رسمها ابن حجة في المقدمة فقال : «الحمد لله الذي أيـد (أبا بكر) بخلافة (محمد) وفضّله ، وقدمه على العشرة لأنه أول من أقر برسالته وصدق ترسله» وبعد مقدمة طويلة قال في آخرها : «واذا كان لابد لمحمد من خليفة فأبو بكر أحق بالخلافة المحمدية ، هذا مع علمي أن النبات

---

(١) كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام ص ٣٣ .

الحموي يحلو في مصر مكرره ، وقربه من القطر النباتي يعرفه الذوق السليم ولا ينكره ، وسميتها بيوت العشرة ، لأن القصائد خمس من نظمي وخمس من نظمه ، والتورية بين محمد وأبي بكر وبيوت العشرة لا تخفي على المستضيء بنور فهمه ، والله الموفق للصواب ، وبه المستعان واليه المآب . »

والثاني كتاب (قبول البينات) ، وهو يختلف عن بيوت العشرة اذ أن بيوت العشرة لم يشتمل على غير شاعرين أما قبول البينات ، ففيه ثلاث قصائد ثائية وحكمان لابن حجر العسقلاني وابن الجزري ، ثم حديث عن بقية من نظم الثائيات ، ولذا سأتكلم عنه مفصلا ومن الجدير بالذكر أن نقول أن هذه القصائد الواردة في كتب معارضاته قد اثبتها الشاعر في ديوانه (جني الجنتين) .

٢ ـ قبول البينات

لا أراني مضطرا للحديث مفصلا عن أثر من آثار ابن حجة مثلما أراني مضطرا للحديث مفصلا عن هذا الأثر ، لا لأن الأثر الذي نتحدث عنه من الضخامة ما يستحق كل هذا التفضيل ، اذ كل مافيه ثلاث قصائد أساسية ثم بضع قصائد ثانوية رأيت من المستحسن أن أضمها الى بعضها طالما يشملها موضوع واحد ، ولكن الذي دعاني الى التفضيل في هذا الأثر ، متحدثا عن كل مضمونه ، هو النقاش الذي دار حول محتواه ، ولكي نأخذ فكرة شبه تامة عن عقلية الأدباء في تلك الفترة ، ولنطلع على جانب من الأحكام النقدية التي كان ينتقد فيها الشعر ، وكيف كانت هذه الأحكام مطية للزلل في بعض الأحيان ، زللا مرده الى المحاباة ، وايثارا لصداقة ، والأمانة في مقاييس النقد والذوق تجعلنا نستبعد المحاباة وحتى لو كانت من شخص له منزلة في نفوسنا كابن حجر العسقلاني أو ابن الجزري أو غيرهما ، والذي دعانا أيضا للتفضيل في هذا الأثر الشعري الذي خلّفه ابن حجة كثرة ما أثير حوله من قضايا أدبية ، وقضايا أخرى كان لها أثر كبير في حياة ابن حجة لدرجة أنها كانت سبب خروجه النهائي من مصر الى بلده حماه تبعا لقول النواجي .

وقبول البينات هذا ، في أصله ثلاث قصائد شعرية احداها لجمال الدين بن نباته ، والثانية لبرهان الدين القيراطي والثالثة لابن حجه الحموي ، وهي ثلاث قصائد كل منها معارضة لسابقتها ، يحاول فيها صاحبها أن يحرز قصب السبق على من عارضه ، فالقضية تبقى سهلة اذا تحدثنا عن القيراطي وابن نباته ، فهي مجرد معارضة شاعر لشاعر آخر وعندما وجدت الثائيتان : ثائية ابن نباته والقيراطي وكلتاهما من القصائد الجيدة في تلك الفترة ، ومن خير قصائد الشاعرين وأطولها انبرى جماعة من الأدباء للمقارنة بينهما وتفضيل احداهما على الأخرى ، وكان حظ قصيدة القيراطي أوفى من حظ قصيدة ابن نباتة فحكم لها المتقدمون بحيازة قصب السبق وفضلوها على قصيدة ابن نباته ، ولكن لم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل لقد تعداه ، وبخاصة عندما شعر ابن حجة ببلوغ أشده في الأدب ونظم الشعر ، وقد كان معجبا بالشاعرين كليهما ، وهذا الاعجاب ، مع شيء غير قليل من الاعتداد والغرور دفعه الى معارضة القصيدتين ، فعزرهما بثالثة ، ثم طرح القضية على بعض أدباء العصر من أصدقائه ليحكموا ويقارنوا بين ثلاثة ، في هذه المرة ، لا بين اثنتين ، ولقد كان لابن حجة ما أراد ، فقد عرف على من يعرض دعواه لقد عرضها على صديقه ابن حجر

العسقلاني وصديقه الآخر ابن الجزري وحكما له بالتفوق على كل من ابن نباته والقيراطي . ولهذا سنترك ابن حجة يحدثنا عن السبب الذي حداه لهذه المعارضة ، قال في تأهيل الغريب :[1] «قلت : ويحسن هنا ايراد (قبول البينات) للمبرز في نظم الثاثيات ، اذ لدور الكاسات تسلسل في مناظر أبياتها ، ولشرب الأدب ميل الى الرشف من رحيق سلافاتها ، والذي أوجب هذه التسمية أن عدول الأدب قديما وحديثا شهدوا بترجيح ثائية الشيخ برهان الدين القيراطي رحمه الله تعالى ، على ثائية الشيخ جمال الدين بن نباته سقى الله ثراه ، والترجيح من قبل زيادة النكت الأدبية في القافية ، لا من قبل انسجام الألفاظ وحشمتها ، فان القصيدة النباتية من هذا القبيل مقدمة ، ورأيت جماعة من أهل العصر يقولون : ان هذه القافية صعبت على من يقتفي بعد الشيخين أثرها ، وان نكتها الأدبية تحجبت عن كل متأدب وأرخت سترها ، فعززت القصيدتين بثالث ، فهن ثلاث مالهن رابع ، وأقمت بينات البلاغة ، فحكم لي قبلة هذا الفن وامامه الذي هو لشمل العلوم جامع ، وصيغة الدعوى : «الحمدلله الحكم العدل ، يقبل الأرض وينهي ، انه انتصر بنباته الحموي لنباتي مصر وحلاوته ، وحرر مع القيراطي موازين الأدب بمعيار بلاغته ، والموجب ان جماعة من عدول الأدب بترجيح ثائية القيراطي تشهد ، وقد عارضته منتصرا لمحمد ، وأبو بكر أحق من تصلب لنصرة محمد ، وسميت هذا التأليف «قبول البينات للمبرز في نظم الثائيات» والمملوك يسأل الحكم لمن قبلت بيّنة تقديمه فيما ادعاه ، أعز الله أحكام مولانا قاضي القضاة» .

ومادامت القضية ستطرح على شكل دعوى ، وتطرح معها الحجج والبينات وستنتهي بصيغة الحكم من اللجنة المحكمة فلا بد من ذكر المستندات ، وخاصة أنها ستأخذ شكلا آخر عندما ينبري جماعة من الأدباء لمعارضة قصيدة ابن حجة هذه ، وستصدر أحكام لاحقة تستغلّ ثائية ابن حجة وتنقض الأحكام التي صدرت بحق ثائية ، فلهذا أجدني مضطرا لعرض نماذج من القصائد الثلاث ، ليشكل القارىء فكرة صحيحة عنها ، ويصل بعد القراءة الكاملة الى اليقين في مدى جودة كل منها ، ثم يعيد النظر في مدى صحة الأحكام التي أطلقت عليها : فالقصيدة الاولى لجمال الدين ابن نباته وهي ـ قال ابن نباته :

قضى وماقضيت منكم لبانات ... متيّم عبثت فيه الصبابات
ما فاض من جفنه يوم الرحيل دم ... الا وفي قلبه منكم جراحات
أحبابنا كل عضو في محبتكم ... كليم وجد فهل للوصل ميقات
غبتم فغابت مسرات القلوب فلا ... أنتم برغمي ولا تلك المسرات
يا حبذا في الصبا عن حبكم خبر ... وفي بروق الغضا منكم اشارات
وحبذا أزمن اللهو التي انقرضت ... أوقاته الغر والأعوام ساعات
أيام ماشعر البين المشتّ بنا ... ولا خلت من معاني الأنس أبيات
حيث الشباب قضاياه منفذة ... ولي على يد من اهوى ولايات
حيث المنازل روضات مدبّجة ... وحيث جاراتها غيد وفيات

(١) تأهيل الغريب الشعري ص ٣٠٨ مخطوط .

وانتقل من الغزل الى وصف الخمرة فقال :

ورب حانة خمار طرقت وما ... حانت ولاطرقت للقصف حانات
سبقت قاصد مغناها وكنت فتى ... الى المدام له بالسبق عادات
أعشو الى ديرها الأقصى وقد لمعت ... تحت الدجى فكأن الليل مشكاة

وهذا القسم من القصيدة جزء من المقدمة الغزلية ، وأما الغرض الأصلي في القصيدة فهو مدح كمال الدين ابن الزملكاني الذي مدحه بأنه :

حبر رأينا يقين الجود منه يده ... وأكثر الجود في الدنيا حكايات
سما على الخلق فاستسقوا مواهبه ... لا غرو أن تسقي الأرض السموات
ياشاكي الدهر يممه وقد غفرت ... من حول أبوابه للدهر زلات
ويافتى العلم ان أعيتك مشكلة ... هذا حماه المرجى والهدايات

ويستمر الشاعر في مدحه حتى لتصل أبيات القصيدة الى مئة وعشرة أبيات ، ولكننا أعرضنا عن ايرادها كاملة خشية الاطالة .

والقصيدة الثانية هي قصيدة برهان الدين القيراطي ، ومطلعها الغزلي يبلغ خمسين بيتا نكتفي بايراد الأبيات التالية منه . قال القيراطي :

مالابتداء صباباتي نهايات ... ياغاية مالعشقي فيك غايات
وياغزالا لنا في لحظ ناظره ... أسد ومن هديه للأسد غابات
ومن اذا ماتثني أورنا فله ... بالرمح والسيف في العشاق غارات
من لي به يوسفيّ الحسن ماقضيت ... من نفس يعقوبه بالوصل حاجات
ظبيء من الترك من هنديّ ناظره ... في كل جارحة منا جراحات
في كل حيّ قتيل من هواك فكم ... أضحى بطرفك في الأحياء أموات
ان مات انسان عيني في البكا غرقا ... ياقامة الغصن بحر الدمع قامات
رشاقة الغصن من اعطافه وله ... بأسهم اللحظ في العشاق رشقات
أبدى التبالة لما أن أصاب بها ... قلبي وللبلة في الدنيا اصابات
صفا فأبصرت وجهي في محاسنه ... والمرء للمرء فيما قيل مرآة

ثم انتقل من الغزل الى وصف الرياض والراح فقال :

تشوقتني ألفات الروض مائلة ... مع النسيم سكارى وهي دالات
ولي من الورق في أوراقها طرب ... كأنهن على العيدان قينات
يطوف بالشمس فيما بيننا قمر ... نيران خديه للعشاق جنات

جلى الحميا عروسا في الكؤوس لها | من الحباب عقود لؤلؤيات
طابت، فان تاه فيها عقل شاربها | هداه من نشرها المسكيّ نفحات
صهباء حيا بها في الدير راهبها | قوما لهم في ارتشاف الراح رغبات

وبعد وصف طويل للراح انتقل الى غرضه الأصلي وهو المدح ، وقد استرسل فيه فبلغ مدحه لتاج الدين السبكي وهو ممدوحه في هذه القصيدة حوالي أربعين بيتا .

وأما القصيدة الثالثة فهي قصيدة ابن حجه الحموي ، وقد تصدى فيها لمعارضة الشاعرين السابقين ونظمها ممتدحا بها بدر الدين بن مزهر ومطلعها :

لعجبه ولذيل الهجر شمرات | وللقلوب من الأجفان كسرات
وصار في درب وصلي من عوارضه | وأهيف القد دورات وفتلات
وتدعي الصون واو الصدغ عن نظري | يالائمي ولها في الكون عطفات
والخد مذ مال للتوشيح عارضه | بدت لنا من ثقيل الردف خرجات
والجفن ناعسة قد صار في كسل | عن انتصاري ، وعند الريق بردات
وقلت : عارضه يجري لينظر في | حالي فبان له في الخد وقفات
وقلت ناظره سيف أصول به | فلاح لي عنده في العزم فترات
والله لم يحل لي من بعد غرته | والردف بالشام جبهات وربوات

وشابه ابن حجة من عارضهم في الحديث عن الخمرة فقال :

والراح دق على فهمي تصورها | لكن لها ضاع في الكاسات نفحات
مذ أنشأتنا سجعنا في محاسنها | مغردين، وللانشاء سجعات
ومن يقل حركات الهم ماسكنت | فللحباب على التسكين جزمات

ولم ينس ابن حجة الحديث عن وصف الرياض ، ولكنه جاء متأخرا عن وصف الراح في تائيته على حين جاء سابقا لوصف الراح في تائيتي ابن نباته والقيراطي . قال ابن حجة بعد ان ذكر ثمانية أبيات في وصف الخمرة مستطردا الى وصف الرياض والأنهار والغصون والأطيار :

وجعفر النهر قلنا اذ أبان لنا | ربيع فضل به تبدو المسرات
تشرفت بك أدواح الرياض وبالـ | ـعلائم الخضر قلنا جعفريات
والغصن قد مدّ للتسليم ساعده | مع أن فيه لكف الريح صدعات
والطير تقرأ تجويدا وان وجب الـ | سجود كان لغصن البان سجدات
وفي أنامل أغصان الرياض لنا | تحركت من عقود الزهر سبحات

وبعد هذه المقدمة الغزلية التي أربت على أربعين بيتا تخلص الى مدح قاضي القضاة ابن حجر العسقلاني فقال :

قالوا : نراك بليغا قلت لي أدب ... له بأعلى بيوت الشعر طاقات
قالوا : واثبت هذا الأمر قلت : نعم ... لي عند قاضي قضاة العصر اثبات

ولكن ابن حجر العسقلاني لم يكن المقصود بالمدح ، والقصيدة نظمت بمدح بدر الدين ابن مزهر ، وما استطرده لمدح ابن حجر الا تملقا ، ليتقرب منه زلفى ، لينفحه بالحكم الذي ظفر به فعلا بعد نظم هذه القصيدة ، ويسترسل ابن حجه بعدها في مدحه لابن مزهر حتى يبلغ مدحه اثنين وعشرين بيتا ، ونعرض عن ايرادها خشية الاطناب ، ولكن هذا لا يمنعنا من ايراد نص الحكم الذي حكم به قاضي القضاة ابن حجر ، بعد نقده لهذه التائيات الثلاث ، يقول ابن حجة في قبول البينات : «نسخة ما حكم به مولانا قاضي القضاة شيخ الاسلام شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حجر الشافعي الناظر في الحكم العزيز بالديار المصرية ، وسائر المماليك الاسلامية المحروسة أعز الله تعالى أحكامه ، وأدام على المسلمين من سطور علمه وطروسها لياليه وأيامه : «لله الأمر من قبل ومن بعد ، الحكم بين النظراء . . انما يحسن ممن يماثلهم فيما به يقع الحكم ، وفي اقدام من لم يرتق الى تلك الطبقة نوع من الظلم ، ولا يرتاب لبيب ان كلا من الثلاثة رأس هذا الفن في زمانه ، وأنه لايوازنه أحد من أقرانه .

وثلاثة لثلاثة الراح استوى ... لك لونها ومذاقها وشميمها

ولكن لما كان امتثال الأوامر من بعض فنون الأدب ، واجابة الداعي ولا سيما على من ظنه يأمر أهل هذا الفن وانتدب ، ومرجع الحكم في هذه القضية الى الذوق السليم فأمكن القول ان لم أقل وجب ، فأقول مستعينا بالله متوكلا عليه ، ملتجئا في كل الأمور اليه : الذي تبنى عليه القواعد ، ويشهد به الذوق السليم الذي هو في هذا الفن أعدل شاهد ، أن الثالثة أرجح وزنا من الثانية ، ولولا حرمة الكمال والحياء من الجمال لقلت ان الثانية في الرتبة الأخيرة تالية ، لأن الأولى ، وان كانت من الثانية أكثر انسجاما ، والثانية وان فضلت على الأولى في الدقات الأدبية ابتداء أو اختتاما ، فالثالثة قد جمعت بين المعنيين ، وفازت بالحسنيين ، ونزلت في كل وجه من الأدب منزلة العين ، وقال لسان فحولتها عندلين كلام غيرها : للذكر مثل حظ الانثيين ، وقد أتت بما غض من الأزاهر النباتية ، والجواهر القيراطية ، وما فاق مجموعه كل فريد ، وراق مسموعه كل مجيد ، حتى قال كل من شهد مثلي ببراعته ، وطرب لتصوير براعته :

أقصى نهاية وصفي فيه معرفتي ... بالعجز مني عن ادراك معرفته

هذا حكم ابن حجر في هذه التائيات الثلاث ، وقد لاحظنا أنه فضل تائية ابن حجة على الآخرين ، ولكنه تفضيل أقل ما يقال فيه أنه اعتمد على لمسات خفيفة جدا في النقد وسطحية ، وموازينه التي استعملها هي الذوق ـ على حد تعبيره ـ ولكن معيار الترجيح كان قائما على أن (الثالثة أرجح وزنا من الثانية) وأريد أن أنبه الى أنه لا يقصد بالوزن الوزن العروضي لأن القصائد الثلاث من بحر واحد وقافية واحدة ، وانما أراد

بالوزن أنه لو وضعت محاسن الثالثة في كفة لرجحت على محاسن الثانية ، هكذا يزن المحاسن جملة لا تفصيلا ، دون أن يزن الجزئيات أو يدلل عليها أو ينقد الألفاظ أو التراكيب أو الصور أو أي عنصر من العناصر التي تنبني عليها القصيدة . واذا كان قد ساق شيئا من هذا القبيل فانما هو قوله : ولو لا حرمة الكمال والحياء من الجمال لقلت ان الثانية في الرتبة الاخيرة تالية ، لان الاولى وان كانت من الثانية اكثر انسجاما ، والثانية وان فضلت على الأولى في الدقات الادبية ابتداء أو اختتاما ، فالثالثة قد جمعت بين الحسنيين . . الخ» فالنقد الذي كنا نتوقعه نقد لا يقتصر على حرمة الكمال والحياء من الجمال ، ومجرد كلمة عابرة عن الانسجام والدقات الأدبية ابتداء واختتاما ، بل ينبغي ألا تحجبنا الصداقة التي تقوم بين الأدباء عن ابداء الرأي أيا كان وقعه ، بغض الطرف عن المحاباة وايثار الاصدقاء ، ولعل هذه المحاباة هي التي أطلقت لسان النواجي بالتعريض باحكام ابن حجر العسقلاني وبخاصة في هذه التائية قال النواجي : «سأل ابن حجة ابن حجر الكتابة على تائيته فأجاب سؤ اله ، وفضل قصيدته على قصيدة ابن نباته والقيراطي ، وسيلقى هذه الشهادة عند الله تعالى ،وإذا كان هذا فعله في الأحكام الشعرية فما ظنك بالشرعية ؟»(١)

واذا تركنا ابن حجر وطعن النواجي بحكمه ، لنقرأ حكما آخر لامام جليل من أئمة العصر وهو ابن الجزري الدمشقي ، قال ابن حجة في قبول البينات : «نسخة ما أفتى به مولانا قدوة العصر ، وامام الحفاظ شمس الدين ، رحلة الطالبين ، أبو عبد الله محمد بن محمد بن الجزري الشافعي الدمشقي ، فسح الله في أجله : الحمد لله الهادي للصواب؛ وقفت على هذه القصائد الثلاث البديعة المعاني ، ثم ابتدأت متأملا في الثالثة فوجدتها وحيدة ليس لها ثاني ، فأخذت في الاخلاص من القول وعوذتها من شر الناس بالسبع المثاني ، وكنت ممن أطاع الأمر بالتقوى ، وماعصى ، فانشد لسان الحال في الحال :

ألم تر أن السيف ينقص قدره … اذا قيل : ان السيف أمضى من العصا

ولاشك أن أبا بكر هو المقدم ، والقول قوله والحكم له مسلّم ، هو بكل فضل أولى وأحق ، والمثل في ذلك معروف أن الثالثة تقضي بالحق ، وهذا شيء واضح عند بسط القال والقيل :

وليس يصح في الأذهان شيء … اذا احتاج النهار الى دليل

قولي كقول امام العصر سيدنا … وهو غني عن الاطناب في صفته
أقصى نهاية وصفي فيه معرفتي … بالعجز مني من أدراك معرفته

نعم ، ولعمري ان الأمر كما قال سميه : العجز عن درك الادراك ادراك ، وكفى شاهدا لاشارته فيها الى نفور الظبا من الاشراك ، فانه أبقاه الله تعالى أبدع في الاستعارة وأحسن في الاستدراك ، والله تعالى يحفظه للأنام والأيام وليا ، كما جعله للآداب والأحباب عمدة وتقيا ، بمنه وكرمه ، وذلك بتاريخ العشر الأول من شوال سبع وعشرين وثمان مئة بالقاهرة المحروسة» .(٢)

---

(١) الحجة في سرقات ابن حجة ورقة ١٠٥ .
(٢) تأهيل الغريب ص ٣٠٨ .

وهذا الحكم لم يكن بأقل محاباة من سابقه ، حتى لقد كانت المحاباة هنا مزدوجة لصديقين احدهما ناظم القصيدة وهو ابن حجه والثاني مقرظها وهو ابن حجر ، ولم تكن الحيثيات التي أوردها ابن الجزري بأقل وهنا من الحيثيات التي قدمها ابن حجر بين يدي حكمه ، فعنصر التفضيل عنده أن هذه القصيدة من المسلم به ، أنها أجود ، واذا طالبناه بالدليل قال لنا : (لا يصح باذهانكم شيء اذا أحفتم بطلب الدليل) وقد عضد البيت الذي أورده ابن حجر ببيت آخر وكأنه يريد أن يقول فيه : اعفني من البرهان فالقول ما قال سيدي شهاب الدين ابن حجر ، هكذا تطلق الأحكام الأدبية يعني : «يد الله مع الجماعة ، وكفى الله الأدباء شر النقد ، اللهم اذا أردنا أن ننصف ابن الجزري قلنا انه ورد في نقده بعض الحكم المعلل كقوله : (أبدع في الاستعارة ، وأحسن في الاستدراك) ، ولكنه تعليل ضئيل . وعندما أتيح لابن حجة أن يظفر بهذه الشهادة من امامين شهيرين طار بها فرحا ، وزها خيلاء ، ومن الغريب أن النواجي يذكر لنا سببا آخر لنظم هذه القصيدة ، وهو غير السبب الذي رأيناه سابقا وهو مجرد معارضة ابن نباته والقيراطي . واذا صح ما أورده النواجي ، وهو يتحامل عليه كثيرا ، فان سبب نظم التائية هو الغيرة والحسد وقد تكون المعارضة شيئا عارضا كما هي الحال في كثير من قصائده ، فقد ذكر النواجي في كتابه «الحجة في سرقات ابن حجة» ما يلي : «واعلم أن هذه القصيدة المباركة كانت سبب دمار ابن حجة ، وهلاكه وانحطاطه الى الأرض ، وما ذاك الا أن شعبان الآثاري ، كان نظم تائية سافلة يقول في مطلعها :

لاحت على عذبات البان هالات ... وماس في الروض بالأكمام بانات

وامتدح بها قاضي القضاة جلال الدين البلقيني ، ثم لما ولي الشيخ ولي الدين العراقي القضاء غير فيها بعض الألفاظ وامتدحه بها أيضا ، ثم لما ولي ابن حجر غيّر بعض ألفاظها أيضا وامتدحه بها ، وأخذ لها ثلاث جوائز ، فلما بلغ ابن حجة ذلك لم يتمالك نفسه حسدا ، فجاء الي وقال : قم نتساعد على نظم تائية نعارض بها شعبان الآثاري ونسميها (سلخ شعبان) ، وكنت إذ ذاك متغيظا عليه في الباطن ، وعلمت أني أن وافقته على ذلك يدعيها لنفسه ، ولم ينسب اليّ منها شيئا كما هي عادته معي في جميع نظمه ونثره ، فقلت له : بعد الشيخ جمل الدين بن نباته والشيخ برهات الدين القيراطي ، ما ينبغي لأديب أن ينظم تائية ، فإنهما لم يبقيا لأحد في هذا الروى شيئا ، فخرج من عندي مغضبا ، وغاب مدة طويلة ، ثم جاء وفي يده كراسة ، وصار يحدثني وينظر فيها ، ويقول : ما يحل لأحد أن ينظم تائية بعد ابن نباته والقيراطي ، ثم يعيد نظره في الكراسة مترقبا أن أقول له : ما هذا ؟ فلم أكلمه في ذلك ، وخرج ولم يقرأها ، وهو آخر خروجه من عندي ، وإذا به قد نظم القصيدة القبيحة وادّعى فيها هذه الدعاوي العريضة ، وأساء الأدب على المتقدمين ، وقال فيها : إنه غلب ابن نباته والقيراطي ، وتوصل - بما ذكرناه - إلى أن كتب عليه ابن حجر ، وفضلها على القصيدتين المشار اليهما ، فكان ذلك سبباً لمعارضة القاضي زين الدين بن الخراطله بتائيته التي سارت بها الركبان لبلاغتها واستطراده فيها إلى الهجو البليغ ، ثم الزمني من لا أستطيع مخالفته بمعارضتها أيضاً ، فعارضته بتائيتي المشار إليها .

هذا هو السبب الذي ذكره النواجي لنا وأشار فيه لسبب نظم تائية ابن حجة ، ومهما يكن من أمر فانه

فتح لنا الباب أمام قصيدتين تاثيتين احداهما اسمها «النصرة على الخمرة» نظمها القاضي زين الدين بن الخراط ، والثانية «كف الخضيب» نظمها النواجي نفسه ، ولما كانت القصيدتان لهما مساس كبير بابن حجه وتائيته بشكل خاص وتصوران الاحداث الأدبية في تلك الفترة ، لكل ذا نجد نفسنا مضطرين الى ايراد القصيدتين لنضع بين أيدينا مجموعة من القصائد المتشابهة ذات الغرض الواحد ، والبحر الواحد والقافية الواحدة ، لتعطينا فكرة عن فن المعارضة وكيف فشا فشوا ذريعا في تلك الفترة ، ثم كيف كانت المعارضة تتخذ مطية لعدة أغراض وبخاصة في التائيتين الأخيرتين ، اذ أن أصحابهما يعتبرانها في المديح فالأولى في مدح المقر الاشرف البدري ، والثانية في مديح زين الدين عبد الباسط ولكنهما لم تكونا معارضتين لابن حجة بمقدار ما كانتا هجاء له ، ولهذا سنورد أبياتا من أول قصيدة ابن الخراط حيث قال :

يا بارقـا لي أهدتـه الثنيّات	عليك منـي مع الـروح التحيّات
هذا محياك بالأنـوار قد ظهرت	عليه من وجـه من أهـوى امارات
هل شافهتـك احبائـي لسر هوى	وقبلتـك ثغـور لؤلؤ يات
عليك لمعـة نور من مباسمهم	من أجلها شاقني منـك ابتسامات
حدّث وان قلت : ايه للحديث فنرد	ايها يداوي بهـا في القلـب آهات

وبعد أربعين بيتاً نسجها ابن الخراط في الغزل على هذا المنوال التفت ليتحدث عن وصف الخمرة فقال :

يطـوف بالـراح من ولـد انهـا رشأ	من سالفيه أمالتنـي السلافات
راح اذا ما ذكرناهـا بخاطرنا	تسري بأرواحنـا منهـا المسرات
فكيف لا نتهـدى تحـت الظـلام بها	والـكأس والـروح مصبـاح ومشكاة

ثم وصفها ووصف ساقيها بعشرة أبيات انتقل بعدها المقر الأشرف البدري فقال :

ان غاب بدري عن أفقي وحال فلي	بدربـه تشرق السبـع السموات
بدر الوجـود ولـكن كامـل أبدا	في النـيرات سرت منـه الكمالات
ماضي الارادة في سر يدبره	ما شاء فيه أمضتـه المشيئات
يا أيها الكامـل البـدر الـذى شرفت	بالسعـد منـه الليالي الأشرفيات
ها أنـت في مصر صدر الملك قدحفظت	أسراره بـك فيـه والمـروءات

ويطول مدحه الأشرف البدري حتى يبلغ خمسين بيتاً أخرى ، ولكن ليس في هذا جديد ، لأن كل الشعراء الذين نظموا التائيات السابقة قد تطرقوا للأقسام الثلاثة التي تطرق لها ابن الخراط ، وهي الغزل ثم وصف الخمرة والرياض ، وأخيرا المدح ، ولكن الجديد في قصيدة ابن الخراط هو الهجاء ، ذاك الهجاء الذي صبّه على خصمه في الأدب والشعر وديوان الانشاء ابن حجة الحموي ، فلنستمع اليه في القسم الأخير من تائيته يهجو ابن حجة ويزري بشعره وألفاظه ، وينعي عليه ادعاءه لمعارضته الآخرين وزعمه حوز قصب السبق عليهم فيقول :

قل لابن حجه قد قصرت عنه فقف — فكم لشعرك دون السمع وقفات
شهر مطالعه تحت الحضيض لها — عن بردها في رؤوس الناس نزلات
كأن ألفاظه في أرض أسطرها — مقابر ومعانيهن أموات
زعمت أنك قد عارضت من سلفوا — وبان بينكم في السبق غايات
صدقت ،ما لذي شهب مناسبة — مع الحمار المحنى أو مساواة
فوارعنا تواريك التي قبحت — في السمع سوء وفي الابصار سوءات

وختم قصيدته بأبيات مشيرا فيها الى غلطة الدهر التي قدمت ابن حجة عليه ـ وربما كان تقدم ابن حجة عليه في ديوان الانشاء سبب حقده عليه وهجائه هذا له ـ مستنجداً بالممدوح ، مستعديا له على ابن حجة فقال :

لا بدع قدمه دهري وأخرني — فربما قمرت بالبيدق الشاة
يا قاضي الأدب احكم لي فبيّنتي — من منطقي اتضحت منها القضايات

أما تائية النواجيّ نفسه المسماة «كف الخضيب» فالتورية في هذه التسمية معلومة لا تختفي على الأديب ، ولا تحتجب عن الأريب ، فقال في مطلعها :

حذار فالأعين النجل الكحيلات — مقرونة بأمانيها ، المنيات
سود وإن صلن بالالحاظ يوم وغى — فهن في القلب بيض مشرفيات
غادرن كل البرايا في مشاهدهم — قتلى وهن من الدعوى بريات
الله من سحر أجفان بها فتكت — فانهن ضعيفات قويّات

ويستمر النسيب حتى يبلغ ثمانية وثلاثين بيتا ، وهو يخالف سابقيه من أصحاب التائيات ، اذ أنه يعزف عن وصف الخمرة والسقاة والرياض وغيرها ، وكل أبياته السابقة في الغزل والوجد والهيام ينتقل بعدها مباشرة لمدح المقر الأشرف العالي النريني عبد الباسط ناظر الجيوش بالديار المصرية فيقول متخلصا من الغزل الى المدح :

وظل يخفق قلبي مثلما خفقت — لناظر الجيش في الأكوان رايات
أحكامه عند رب العرش نافذة — فالعزل طوع يديه والولايات
يا خائفا من صروف الدهر حادثة — ومن ألمت به يوما ملمات
يمم حماه ولا تقصد سواه فمن — وافاه في الحال حفته العنايات

ولو سرنا مع المديح لألفيناه يبلغ خمسة وأربعين بيتا ينتقل بعدها مباشرة لهجاء ابن حجة ، ويتواضع فيقول انني ما قصدت بهذه التائية معارضة فحلي التائيات ابن نباته والقراطي ، فهما قد حازا قصب السبق ولكنني عارضت من قصر شعره وطالت دعاويه ، وزعم بأنه شاعر الدنيا بلا منازع فقال النواجي :

وفي مديحك ما عارضت من بلغوا يوما ولا بان لي في السبق غايات
بلى وحقك قد عارضت من يده قصيرة ودعاويه عريضات
وقال : ما شاعر الدنيا سواي ولم تسمع لغيري في عصري مقالات
وقائل لي : صفه الآن قلت له : أصل دنيٌ ، وأخلاق ذميات
فقال : شيخ كبيرالقدر، قلت :نعم واليوم قد ظهرت منه خرافات
قالوا : اتق الله في شيخ وجاهته معروفة ، قلت :أيضا ، والمروءات
شيخ له في نظام الشعر قد عرفت قرائح هي في المعنى قريحات
وفي تصانيف أنواع البديع حوى صحائفا ، لو دروا قالوا صفيحات
وجاءنا بقصيد نظمه عجب فيها لغات ولكن حميريات

وقد أسرف النواجي في هجاء ابن حجة ، وأقذع له اقذاعا لم يقذعه شاعر آخر ، فلم يكتف بنقد شعره ونثره وبيان تقصير باعة ، بل وصفه (بالحمار المحنّى) وهذه الصفة طالما ألصقها به خصومه ، ولكن النواجي أمعن في استغلال هذه الصفة ، ولم يكتف بذلك بل تناول أخلاقه بالقدح والذم ، وشهر ببعض صفاته كصبغ لحيته بالحناء ، ووقوفه في حلقة بباب (اللوق) ينشد الزجل ويجمع الدراهم من الناس فقال :

قل للحمار المحنّى قد عقرت فما يرجى لدائك برء أو مداواة
مشيت مشيا قبيحا واشتغلت فلم تقل لك اليوم بين الناس عثرات
ونح عن ظهرك المحلول برذعة فيها لعقرك من هجري مسلات
ولم ـ اذا شئت ـ نفسافيك قد خبثت ولا تلمني فلا تجدي الملامات
واشرب بكأس هجاء قد سقيت بها فالناس بالناس والدنيا مكافاة
أما أنا لست صبيغا ولا وقحا ولا بغيضا ولا لي قط نزقات
ولا تسترت بالحنا ولا كشفت على عبيدي والغلمان عورات
ولم أك طرقيا لا ولا جمّعت بالأرض لي و(بباب اللوق) حلقات
ولا تعلمت زجا لا ولانسبت الى في النظم خرجات ودخلات

وبعد تهجم طويل عريض تناول فيه شعره وأخلاقه وصفاته أعرضنا عن ذكر بعضه لما فيه من الاقذاع الشديد استعدى عليه ناظر الجيش وطلب منه أن يطرده من بابه ، فقال :

يا ناظر الجيش لا تنظر اليه ودع شيطان انس له في القلب نزعات
وارحم بحقك ابناء القريض فقد شنت عليهم به في النظم غارات
واطرد حرامي أشعار له عرفت من قبل عند ولاة الشعر عملات
واقطعه عن بابك العالي فكم ظهرت في نظمه من بيوت الناس وقعات
وهذه حجة بالحق ناطقة قامت على جهله منها دلالات
ان قال : ان أبا بكر له ثبت الـ تقديم قلت وفي قولي بلاغات

نعـــم ، أبـــو بكر بالاجمـــاع قدمه (محمـــد) ولقـــد تكفـــي الاشارات

وبعد استعراض التاثيات التي لم تعد ثلاث لا رابعة لهن كما قال ابـن حجـة ، بل أصبحـت خمس تاثيات ، واذا تذكرنا أن شعبان الآثاري له تائية هي سبب المعارضة ـ كما قال النواجي ـ أصبح لدّينا ست تاثيات وإذا رجعنا الى الوراء في هذا العصر نفسه وجدنا أن كل هذه التاثيات الست قد عارضت ـ في الأصل على الأقل ـ تائية لابن النبيه[1] ، أدركنا مدى تغلغل المعارضات في أدب شعراء هذه الفترة ، حتى لا يكاد يخلو ديوان شاعر من عدد من القصائد التي عارض بها الآخرين ، ولا تهمنا هذه المعارضات ، فلها مكان آخر سنتحدث عنها بالتفصيل ، ولكن الذي يهمنا هو تائية ابن حجة ، أو بعبارة أصح كتابه هذا المسمى (قبول البينات) وما جرّه عليه من متاعب وما فتحته عليه من أبواب الهجاء ، واذا صح ما قاله النواجي فان كتاب (قبول البينات) كان سببا لتأليف (الحجة في سرقات ابن حجة) .

النوع الرابع ـ المختارات العامة

وأما النوع الرابع والأخير من آثاره الشعرية فهو كتاب (تأهيل الغريب) وأفردناه بالبحث عن المجموعات السابقة لأنه يختلف عنها بكونه لا يقتصر على شعر شاعر واحد كتحرير القيراطي مثـلا ، ولا على شعـر شاعرين متعارضين كبيوت العشرة التي شمل خمس قصائد لابن نباته وخمس قصائد لابن حجة ، وانما كتاب تأهيل الغريب جمع من كل روض زهرة لشعراء قدامى ومحدثين ، ورتبه مؤلفه على أبواب سنرى تفصيلها :

---

(١) قال ابن النبيه يمدح الاشرف :

أمام جيشك أنى سار أربعة نصل ونصر و آراء ورايات
وتحت غيل القنا فرسان معركة لها ثبات وفي الهيجاء وثبات
صفائح هي إذ دب الفرند بها صحائف كتبت فيها المنيات
إن مس شمس الضحى من لمعها رمدت كحلتها بالعجاج الأعوجيات
أين المفر لسرب الروم من أسد ضار له من رجاح الخط غابات
دمياط طور ونار الحرب موقدة وأنت موسى وهذا اليوم ميقات
ألق العصا تتلقف كل ما صنعوا ولا تخف ما حبال القوم حيات
لله من ثغر دمياط وبرزخها فتح له تفتح السبع السموات

تأهيل الغريب
المطبوع ص ٢٦٠

تأهيل الغريب (١) (٢)

وهو مصنف نفيس من المصنفات التي خلفها ابن حجة ، ويبدو أنه أنفق وقتا كثيرا في جمع مادته ، ويبدو أن هذا المصنف مقسوم الى قسمين : تأهيل الغريب الشعري ، وتأهيل الغريب النثري ، والذي يفهم من اختياره لتسمية هذا الكتاب أنه عنى بتأهيل الغريب ، جمع المتشابه من غريب كل فن وتأهيلها مع بعضها بعد أن كانت شاردة ، فالكتاب اذا مجموعة من المختارات الشعرية والنثرية أحيانا تربطها رابطة التشابه ، وتندرج تحت عنوان واحد صنفت في مجموعة من الأبواب ، هي (المديح والسلاح ، والخيل والرمح والفرس والحمير ، والهجو والشجاعة والكرم والمراثي والافتتان والفخر والغزل ، ووصف الدمع ، ووصف العذار والخال ، وغزل التورية والاحاجي والألغاز والاغزال البديعة وغراميات الشتات ، والربيعيات بما فيها من ورد ونرجس وبنفسج وريحان وآس وياسمين شومنشور وآذريون وسوسن ونيلوفرو شقيق ومطولات البساتين ، ونيل مصر ، والمياه والأنهار والدواليب والنسيم وذوات الأطواق والمجرة والنجوم والهلال والخمريات والاستدعاء ، والندماء وما يتصل بها من آداب النديم والغناء والألحان ومدح المغنيين ، ثم ذم االسماع ، ويتبع ذلك بالمواعظ والدعاء وأوقات الاجابة وأدعية االاجابة وانذار المشيب والخضوع والتوبة ، ثم يختم الكتاب بمجموعة كبيرة من الابيات المفردة التي تصلح شواهد يستشهد بها الكتاب أثناء كتابتهم وهي من الأبيات الشعرية التي ذهبت مذهب المثل .

ولا نعلم بالضبط متى بدأ ابن حجة يجمع مادة هذا الكتاب ، ولكن الذي نعلمه أنه انتهى من جمعه سنة ٨٣٥ كما صرح هو بآخر كتابه المذكور ، ومما يدل على ذلك أنه صرح في كتاب تأهيل الغريب النثري أيضا في آخر الاجازة التي أجازها لصدر الدين محمد بن هبة الله البارزي ، أجاز له أن يروى تصانيفه الأدبية ، وهي «جنى الجنتين ، والثمرات الشهية من الفواكه الحموية ، قطر النباتين من نظم العبد ونظم الشيخ جمال الدين ابن نباته ، بيوت العشرة ، تفصيل البردة ، رشف المنهلين ، كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام ،

(١) ونسخه متوفرة بكثرة ، ولكنها مبثوثة في مكتبات العالم ، في غوته بألمانيا برقم ٢١٥٦ وفي المتحف البريطاني برقم ٧٦٨ ، وفي الاسكوريال برم ٣٩٥ ، نور عثمانية باستامبول برقم ٣٧٠١ ، أيا صوفيا ٣٨١٥ «مختصر له» وفي دار الكتب بالقاهرة نسختان مخطوطتان الاولى برقم ١٦٠٤٢ زوهي نسخة كاملة لتأهيل الغريب الشعري ، والثانية برقم ٥٥١ يقال أنها بخط المؤلف سنة ٨٣٥ ، والموجود من هذه النسخة جزء ان الثاني والرابع ، والجزء الثاني في تأهيل الغريب الشعري أما الرابع فهو في تأهيل الغريب النثري .

وقد طبع الجزء الأول من تأهيل الغريب ملحقاً بثمرات الاوراق بالمطبعة الذهبية سنة ١٣٠٠ ، وتوجد نسخة مخطوطة بمكتبة معهد الاسكندرية الديني ونسختان مخطوطتان في المكتبة الأزهرية برقم ٧١١٧ أباظة و ١٨٨٧٤ وهما منسوختان عن نسخة دار الكتب وتوجد في مكتبة طلعت نسخة بعنوان «مختصر تأهيل الغريب» خطت سنة ٨٦٥ ولكن لدى الاطلاع عليها تبين أنها أوراق من نسخة ضاع أولها فسماها مصنفو الفهارس مختصر على حين هي نسخة ناقصة الأول ، ورقمها في مكتبة طلعت ٤٣٩٤ أدب .

(٢) أسم الكتاب المشهور «تأهيل الغريب ، وبذلك صرح في خطبة الكتاب ولم يذكر سواه ، ولكن وجد على غلاف الجزء الثاني من تأهيل الغريب الشعري الذي كتب بيد مؤلفه هذه العبارة» «الجزء الثاني من تأهيل الغريب في فقة الأديب. . . » وليست هذه التسمية بكاملها ببعيده عن ابن حجه إذ عرفت عنه أمثال هذه السجعات في تسمية كتبه فهناك «بلوغ الأمل من فن الزجل» و «كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام» و «بلوغ المرام من سيرة ابن هشام» و «الروض الأنف والاعلام» و «وبلوغ المراد من الحيوان والنبات والجهاد» .. الخ .

تقديم أبي بكر وهو البديعية وشرحها ثلاث مجلدات»[1] ، فهذه الاجازة تشهد ـ بعد سرد هذه المؤلفات ـ أنها كانت في آخر حياته .

والسبب الذي دعاه الى تأليف هذا الكتاب يمكن ايجازه بما يلي : يقول : «ان غريب الأدب قد مزقته يد الشتات ، وقد هزتني حمية الأدب الى لم شمله ، اذ غريب الأدب قد صار في هذا العصر من العنقاء أغرب ، وكم شن عليه الغارة متأدب ولم يتأدب»[2] ومنهجه في هذا الكتاب أنه يجمع المتاشبه من غريب الشعر ويؤهله ويبدأ بشعر القدامى ويتوخى في كثير من الأحيان التسلسل الزمني فاذا ما انتهى من عرض شعرهم في الفن المختار أورد شعر معاصريه وأكثر من ايراده ، وهو في كل ذلك يورد البيت أو البيتين والثلاثة وقلما تعدى ذلك ، ثم يصل الى شعره فيذكر منه بضعة ابيات ، وفي أثناء هذا العرض يطلعنا على سرقات الشعراء ، حيث يقول : قال فلان فأخذه فلان ، وابن حجة في هذا المصنف ليس جماعة فقط وانما ناقد تبدو شخصيته النقدية عندما يقول لك هذا شعر فلان وأغرب منه وأبدع قول فلان ، ولعل ذوقه النقدي يبدو أوضح من ذلك عندما يقول : هذا المعنى أخذه فلان من فلان ولكنه ولد فيه معنى جديدا أو زاد عليه أو أنقصه[3] وهو لا يختار الابيات الجميلة فحسب بل يتعرض أحيانا للأبيات السافلة في لفظها وتركيبها ويعلل أسباب ذلك ، وكثيرا ما يلتمس المبررات للشعراء القدامى الذين لم تسمح لهم معطيات بيئتهم بأن يجودوا الشعر أكثر مما جودوه أو أن يأتوا بالتشابيه أحسن مما أتوا بها . وابن حجة يعجب ببعض الشعراء فاذا دعاه المقام الى الاستشهاد ببعض شعرهم ساقه الاعجاب الى ايراد المزيد من مقطعاتهم في هذا الفن فقد ذكر من غريب المديح عند المتنبي ما يزيد عن مئة بيت ، وفعل مثل ذلك مع أبي تمام ، ومع المعري من القدماء ثم السرى الرفّاء من المحدثين .

وابن حجة لا شك أنه اطلع على مؤلفات من سبقه في هذا المضمار وهي كثيرة بعضها صرح باقتباسه منها مثل كتاب الحماسة لأبي تمام والعمدة لابن رشيق ويتيمة الدهر للثعلبي ، شواهد كتاب التسهيل ، ووفيات الاعيان لابن خلكان والعقد الفريد لابن عبد ربه ، وكتب مجموعة من أهل الأدب كالأصمعي والحافظ بن عساكر وابن الاعرابي وأبي هلال العسكري صاحب الصناعتين ، وبعضها الآخر لم يصرح به ، وبالرغم من أنه أخذ من كتاب الحماسة فثمة فرق بين اختيار أبي تمام واختيار ابن حجة اذ أن اختيار ابن حجة أوجز ذلك لأنه يختار من القصيدة ما يسميه (بالغريب) الذي قد يكون مقصورا على بيت واحد ، وهو عندما ينقل من كتاب يعمل ذهنه في النقل ، فمثلا نقل بضع أبيات وعزاها الى عبد الملك بن عبد الرحيم ثم قال وتنسب للسموأل ، على حين لم يقل أبو تمام أنها تنسب للسموأل فقط ، والأبيات يتنازعها الشاعران كما هو معروف ، والخلاصة ان اعتماده على حماسة أبي تمام كان كبيرا وخاصة عندما يصل الى باب الحماسة والمراثي فانه يأخذ كمية لا يستهان بها من هذين البابين . ولم تقتصر شواهده في هذه الفنون التي أهل غريبها على القصيد بل استشهد أحيانا بشيء من الزجل وبشيء من المواليا وبشيء من الدوبيت والفنون الشعرية التي

---

(١) تأهيل الغريب النثري ص ٣٤٧ .

(٢) تأهيل الغريب الشعري ، والمطبوع ص ٢٤٧ .

(٣) تأهيل الغريب الشعري ص ٣ ، ص ٢٤٩ ثم ص ٢٦١ .

عاصرته .

وأما تأهيل الغريب النثري وهو تأهيل الغريب في الانشاء فهو قد جمع فيه مجموعة من المراسيم والتقاليد التي أنشأها أيام كان كاتبا في ديوان الانشاء وبعضها موجود في قهوة الانشاء ، ثم أضاف اليها مجموعة تقاريظ قرظ بها فقهاء عصره كافيتّه وشيئا من شعره ثم أتبعه بفصل في الاجازات الأدبيّة .

ومن الجدير بالذكر أن نقول ان لتلميذه النواجي كتابا باسم «تأهيل الغريب» لكن ليس على هذا النمط لأنه رتّب قصائده على الحروف وذكر الأصيلي أنه اطلع عليه ، وقال : هذا ـ يعني تأهيل ابن حجة ـ أرق وأدق وأولى بالتسمية من تأهيل النواجي» .

وأما ما تبقى من آثار ابن حجة الموجودة وهي الآثار البلاغية متمثلة في كتبه التالية (تقديم أبي بكر) و (ثبوت الحجة على الموصلي والحلى لابن حجة) و (كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام) فسنتكلم عليها مفصلا في فصل خاص عندما نتناول الحديث عن ابن حجة الناقد البلاغي وآثاره البلاغية .

بلوغ الأمل من فن الزجل [1] يمكن أن نتبع هذا الأثر بآثاره الشعرية ، وهو الأثر الثاني من آثاره الزجلية ، اذ الأثر الأول هو مجموعة أزجاله التي تصيدناها من كتبه المختلفة ودرسناها في موضعها . وهو مصنف صغير الحجم ، تحدث فيه عن فن الزجل ، هذا الفن الذي بلغ الذروة في الفترة التي عاشها ابن حجة .

وابن حجة الذي ابتدأ حياته بنظم الزجل ، لا بدعة اذا رأيناه يؤلف مصنفا في هذا الفن ، لأن الزجل فنه المفضل في عنفوان شبابه ، وقد كان ابن حجة واضرابه من الزجالين يعقدون الحلقات في أيام معينة ، يتناشدون فيها الزجل ويتطارحونه بل كان ابن حجة يكتب التقاريظ الكثيرة على الزجل كما حدثنا هو في قهوة الانشاء .

وفي كتاب (بلوغ الأمل من فن الزجل) حاول ابن حجة استقصاء الآراء حول أولية الزجل ، ومن هو مخترعه الأول . فقال ابن حجة : «قيل ان مخترعه الأول ابن غرله وذكر أنه استخرجه من الموشح»[2] وهذا القول ينسجم مع النظرية التي تقول بأن الموشحات قد انحدرت ـ عن طريق خرجاتها ـ الى فن الزجل العامي . وقيل ان مخترعه الأول يخلف ابن راشد ، وهو امام الزجل قبل ابن قزمان ، وقيل بل هو مدغلّيس .

وطالع ابن حجة كتاب من ينسب اليه اختراع أول زجل ، وتعرف على قوانين الزجل عنده وهو (ابن قزمان) . وتحدث عن اللحن والاعراب في الزجل ، وفصل القول في الزجل (المزنمّ) وهو الزجل الذي يتوخى فيه ناظمه الاعراب والخروج عما رسمه أساطين هذا الفن من أن اعراب الزجل لحنه ، لأنه (لما نظم بلفظ العوام تمكن من أدب الطبع) . وحاول حصر العيوب التي ينبغي أن تتجنّب في الزجل ، وبخاصة الألفاظ المشرقية ، التي لا تنسجم مع الزجل ، حتى أن الاندلسيين أو المغاربة قالوا :

لله در الزجل ويامـا لقي   ما يوافق عمر ولسـان مشرقي

---

(١) يوجد منه نسخة مخطوطة في كمبردج برقم ١٤١ ، وحصلنا على نسخة مصوره عن نسخه مخطوطه بدار الكتب الظاهريه بدمشق .

(٢) بلوغ الأمل من فن الزجل ورقة ٢/١٧ .

وكما أن الألفاظ المشرقية لا تنسجم مع الزجل لكونه فنا مغربيا ، فلذلك المواليا لا توافقها الألفاظ المغربية ، لأنها فن مشرقي ، وبعد طواف طويل في استقصاء عيوب الزجل استطرد ابن حجة الى الحديث عن أئمة الزجل في المغرب والمشرق كابن قزمان ومدغلّيس وابن عميرو الشاطبي وابن جون من المغرب ، وابن مقاتل والأمشاطي وابن الطراح من المشارقة ، ويفهم من حديثه في كتابه هذا ان الزجل لم يكن مقصورا على الرجال دون النساء فقد فشا هذا الفن حتى نظمته النساء مثل أخت عبد المؤمن الأموي التي كانت أزجالها في ابن غرله وأزجاله فيها سببا لقتله ، وحاول ابن حجة أن يحدد المدن الأندلسية التي شاع فيها الزجل حتى أصبح لكل مدينة طابعها الزجلي المعروف مثل أشبيلية وقرطبة ومالقة .

واذا كنا نحن لا نقيم في عصرنا الحاضر كبير وزن للزجل فقد حدثنا ابن حجة في كتابه هذا أن المنافسة بين زجالي دمشق وزجالي حماة اضطرت السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الى التدخل فيها ، وتدخّل فيها جمال الدين بن نباته .

ويسير ابن حجه في كتابه مؤ رخا لفن الزجل منذ نشأ في المغرب حتى رحل إلى مصر والمشرق فقال : «ولما رحل الزجل إلى الديار المصرية ، ونظمه المصريون حلوا موارده بعذوبة ألفاظهم ورشاقتهم وزادوا محاسنها بالزوائد المصرية ، وكثرت حلاوته في الاذواق لما صارت قاهرية ، ثم تفكه بعد ذلك من أهل الشام بثمرات المعاني الشهية ، وحلوه بشعار التورية والنكت الادبية» (١) ، وقد أصبحت لهذا الفن بعض القواعد والاصطلاحات كتسمية القيم والراجح والطابق وغيرها . وذكر من الزجالة المشارقة مجموعة ممن عرفوا بطول الباع في الشعر كعز الدين الموصلي وجمال الدين بن نباته وصفي الدين الحلي .

وبعد أن يعرف أصل كلمة (الزجل) في اللغة والاصطلاح يقول : وقد قسمه مخترعوه إلى أربعة أقسام :

أ ـ الزجل : وهو ما تضمن الخمري والزهري

ب ـ البليق : وهو ما تضمن الهزل والخلاعة

جـ ـ القوقي : وهو ما تضمن الهجاء والذم

د ـ المكفر : وهو ما تضمن المواعظ والحكم

وأطلقوا على كل ما أعرب بعض ألفاظه من هذه الاربعة المزنم .

وقد كان ابن حجه يؤ رخ لهذا الفن ، ويسير في تأليف مصنفه هذا غير مفارق للروح النقدية التي عرفت عنه في تأليفه . حتى أنه يأخذ بعض المآخذ على امام الزجل ابن قزمان الذي وقع في أخطاء طالما نهى عنها ، وأخذ على ابن نباته عدم توفيقه في نظم قطعة الزجل الوحيدة التي نظمها في كل حياته ، لأنه 'أخذ هذا الفن أخذ مستعجل' كما يقول ابن حجه . 'وتناوله تناول عابر ، ولم يكن ضليعا فيه .

وقبل أن يختتم ابن حجه كتابه في الزجل أحب أن يعرف القارىء ببقية الفنون الثلاثة التي تشابه الزجل وهي :

١) المواليّا : ويسميه بعضهم (البرزج) لأنه يحتمل الاعراب واللحن ، واللحن فيه أحسن وأليق ، ويقول ابن حجة إن أهل واسط اقتطعوه من البحر البسيط ، وجعلوا كل بيتين منه أربعة أقفال بقافية واحدة ،

---

(١) بلوغ الأمل من فن الزجل ورقة ١٨ .

وتغزلوا به ومدحوا وهجوا ، والجميع معرب ، إلى أن وصل إلى البغاددة فزادوه باللحن سهولة وعذوبة ، ثم يورد ابن حجة السبب الثاني الذي انشئت من أجله المواليا ، وهو أن الرشيد لما نكب البرامكة أمر أن لا يرثوا بشعر ، قامت إحدى جواريهم وندبتهم بنظم عامي ، كان يتردد في آخره (واموالياه) فسمي هذا الفن مواليا .

٢) الكان وكان : وله وزن واحد وقافية واحدة ، ولكن الشطر الأول من البيت أطول من الشطر الثاني . ولا تكون قافيته الا مردفة قبل حرف الروى بأحد حروف العلة ، ومخترعوه البغداديون ، ثم تداوله الناس في البلاد ، وسمي (كان وكان) لأنهم أول ما اخترعوه لم ينظموا فيه سوى الحكايات ، فكأن قائله يحكي (ما كان وكان) إلى أن كثر واتسع طريق النظم فيه ، فنظموا فيه الرقائق والمواعظ والزهديات ، وأكثر منها ابن الحوزي والبغاددة .

٣) القوما : ويتحدّث عن وزنيه المشهورين ، ويقول ان مخترعيه هم البغاددة في دولة بني العباس في رمضان ، واشتقاق اسمه من قول المغنين للتسحير (قوما) ينبهون به رب المنزل ، ويذكرون مدحه والدعاء له ، واطلق عليه هذا الاسم وشاع . ثم كثر فيه النظم في الغزل والوصف وغيره ، وقيل ان أول من اخترعه (ابن نقطه) برسم الخليفة الناصر ، وقيل انه مخترع قبله ، وكان الناصر يطرب له ، وكان لابن نقطه ولد صغير ماهر في نظم القوما ، وأراد أن يعرف الخليفة بموت والده ليجريه على مفروضه ، فتعذر ذلك عليه . فصبر إلى دخول شهر رمضان ، ووقف في أول ليلة وغنى بصوت رقيق :

ياسيد السادات	لك بالكرم عادات
انا بني أبو نقطة	وأبي - تعش أنت - مات

فاستحضره الخليفة وأنعم عليه ، ثم نما هذا النوع من النظم وكثر وشاع ، واحتفظ بالاسم الأول الذي أطلق عليه عند نشوئه .

ثم يختم مؤلفه هذا بهذه التعريفات التي درسناها قبل قليل .

والغريب أن ابن حجه عندما تطلعت نفسه إلى القصيد وقرض الشعر عزف عن الزجل جملة واحدة : وصرح بعزوفه هذا فقال : « . . . ولم يحضرني فيه - أي الزجل - لكثرة الاعراض عن هذا الفن»[1] ومن هذه الجملة يفهم أنه ألف كتابه هذا بعد أن عزف عن نظم الزجل بمدة حتى أنه لم يستطع استحضار الشاهد وعزّ عليه ايراده عندما أراد الاستشهاد به .

ولم يكن ابن حجه أول وآخر من صنف في الزجل ، في ذلك العصر ، فقد سبقه صفي الدين الحلي بتأليف كتابه المسمى : «العاطل الحالي والمرخص الغالي» والواقع أن ابن حجه اطلع على هذا المصنف واستفاد منه كثيراً ، واعتمد عليه في حديثه عن تعريف الزجل وتاريخ نشوئه وأنواعه المختلفه ، وأولية الزجالين

---

(١) بلوغ الأمل من فن الزجل ورقة ١/١٢ .

الأندلسيين والمشرقيين ، ويبدو تأثره واضحا بهذا الكتـاب حتـى في القصص المنتزعـة من كتـاب الحلي ، والشواهد ذاتها التي أوردها الحلي وأخذها عنه ابن حجه ، وكتاب بلوغ الأمل لا يزيد عن العاطل الحالي الا بايراد بعض الشواهـد الـزجليه لزجالـين جاؤ وا بعـد الحلي ، وايراد بعض أزجـال ابـن حجـه نفسـه ، والا فالكتابان متشابهان تقريبا . وللنواجي كتـاب في هذا الفـن عنوانـه : «عقـود الآل ، في الموشحـات والأزجال» وأكثر من ذلك فقد ألف محمد بن مرزوق الرجوى كتابا شارك فيه ابن حجه في تسمية الكتاب ، فأطلق عليه أسم «بلوغ الأمل في بعض أعمال فن الزجل» .

وقبل أن أختم الحديث عن آثار ابن حجه أحب أن أقول كلمة صغيرة في آثاره المفقودة ، وهذه الآثار عددها الذين ترجموا له ، وذكروها من جملة مصنفاته ، ولكن يد الدهر عبثت بها فغيبتهـا عن الأنظـار ، ولـكن اختفاءها عن الأنظار ليس بمانع لنا من الحديث عنها تخمينا تارة ، ويقينا تارة أخرى ، وسنستبعد التخمين الذي لا يقوم على مبررات تسوغه ، فهذه الآثار تبلغ ثمانية بعضها في التاريخ ، وأكثرها في الأدب عامـة والشعر خاصة .

أما ما كان منها في التاريخ فهو (السير الشيخية) وأظن أن هذا المؤلف اشتمل على الأحداث التـاريخية والسياسية التي أسهم فيها بل رسم خطوطها الملك المؤ يد شيخ المحمودي ، الذي كان ابن حجه يعيش في كنفه ، وأغلب الظن أنه تحدث في هذا المصنف عن سيرة المؤ يد شيخ منذ كان نائبا لطرابلس فالشام فحلب حتى أصبح قائدا للجيش ثم سلطانا للمملكة ، وقد استدللنا على ذلك بما كتبه معاصر ابن حجة وهو الشيخ شمس الدين بن ناهض الشامي الشهير بالفقاعي ، ألف كتاب في سيرة الملك المؤ يد شيخ ، وقد طلب من ابن حجه وبدر الدين الدماميني أن يقرظاه له فقرظاه وكان ذلك سنة ٨١٨ أي بعد ثلاث سنوات من تولي المؤ يد شيخ للسلطنة ، وقد اطلعنا على تقريظه هذا في كتابه قهـوة الانشـاء ، وفيه تعـريض بنقص هذا المؤ لف ، وتلميح بأن ابن حجه في نيته عمل سيرة للمؤ يد شيخ ، وأظن ظنا قريبا من اليقين أن يكون هذا الكتاب (السيرة الشيخيه) هو الكتاب الذي كان يجول بفكر ابن حجه تأليفه ، وليس هذا بمستبعد فنحن نعلم أن ابن حجه حاول استيعاب فتوحات المؤ يد وانتصاراته بقصائده الشعرية كالدالية والرائيه ، فكيف لا يستوعبها نثرا ، والنثر أرحب صدرا للتاريخ من الشعر ؟

وأما ما كان من مؤ لفاته في الأدب فكتابه :

١) لزقة البيطار في عقر ابن العطار : وهو من الآثار التي نتيقن بأنها من شعره ، ومن شعـره الهجائـي ، وخاصة ما قيل في هجاء ابن العطار الذي ألف في هجاء ابن حجه كتابا سماه (حوائج العطار في عقر الحمار) ، وقد جاء في أول كتاب ابن العطار هذا قوله بعد البسملة والحمدلة ، «وبعد ، فلما أجابني أبو بكر بن حجة الحموي القطيم المعروف بالحمار المحنى عن قصيدتي الميمية التي هجوتـه بهـا بعشرين مقطوعا وسماها (لزقة البيطار في عقر يحيى بن العطار)كتبت هذه المقاطيع . . . » ثم أورد مجموعة من المقاطيع في هجائه ، وقد استفدنا من كلام ابن العطار الوارد في هذه المقدمة شيئا آخر وهو أن المقاطيع الواردة في كتاب لزقة البيطار التي هجا بها ابن حجة ابن العطار بلغت عشرين مقطوعا ، هي كل ما في هذا الكتاب .

ومن الجدير بالذكر أن نقول ان القاضي زين الدين بن الخراط قد صنف كتابا أيضا في هجاء ابن حجة سماه (سوط العذاب على شر الدواب) قال في مقدمته : «الحمد لله الذي زين الانسان باللسان الناطق ، وجعل أنكر الأصوات صوت الحيوان الناهق . . الخ» ولاندري هل أفرد ابن حجة كتابا خاصا أو كراسا في هجائه ، أم أنه أورد هجاءه في كتابه (لزقة البيطار) وان كنا نستبعد ذلك لأن (لزقة البيطار) مقصورة على ابن العطار على الأكثر .

وكم كان بودنا أن نحصل على كتاب (لزقة البيطار في عقر ابن العطار) حتى نستطيع أن نتعرف على كمية أكبر من هجاء ابن حجة ، لأن ما وقعنا عليه من هجائه في ديوانه ليس بكاف لاعطائنا الخصائص الفنية التي يقوم عليها هجاؤه .

٢) بروق الغيث : لقد كان ابن حجة ولوعا بمنافسة الصفدي ، وقد اطلع على آثاره ، وحاول تحديها ، فالمعروف أنه ما ألف كتابه «كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام» الا لما وجده من نقص في مؤلف الصفدي المسمى «فض الختام عن التورية والاستخدام» . وقد ألف الصفدي كتابا سماه (الغيث المسجم في شرح لاميه العجم) هذه اللامية التي ألفها الطغرائي ، وعكف الكثيرون على شرحها بل وتخميسها وتشطيرها أيضا ، وكان نصيب الصفدي أن شرحها في مصنفه المذكور ، ويبدو أن هذا الشرح لم يرق ابن حجة ، فألف كتابه الآنف الذكر وتلافى فيه ما وقع فيه الصفدي من أخطاء ، لأن اسم مصنف ابن حجة الكامل «بروق الغيث على الغيث الذي انسجم في شرح لامية العجم» .

٣) حديقة زهير : ونظن أن هذا المصنف لايعدو أن يكون مختارات من شعر بهاء الدين زهير ، والذي جعلنا نفترض أنه من شعر البهاء زهير لامن شعر زهير بن أبي سلمى مثلا اذ التسمية تقود إلى هذا الالتباس ، الذي جعلنا نفترض ذلك هو أن ابن حجة كان أحفل بشعر شعراء عصره ومن سبقه بقليل أكثر مما كان يحفل بشعر القدامى كزهير بن أبي سلمى والنابغة وغيرهما ، ودليل ذلك الاحتفال بمعاصرية أن صنع الصنيع نفسه مع برهان الدين القيراطي فاختار بعض شعره وسماه (تحرير القيراطي) ، وكذلك اختار من توريات شيخ شيوخ حماة المسمى عبد العزيز الأنصاري أحسنها وسماها «زاوية شيخ الشيوخ» فليس ببعيد أن تكون هذه الحديقة مختارات من شعر بهاء الدين زهير لا من شعر زهير بن أبي سلمى . وخاصة أن التسمية (حديقة) توحي بذلك ، لأن المعروف عن زهير بن أبي سلمى أنه شاعر الحكمة ، وتطغى على أوصافه أوصاف الصحراء والمهامه والقفاز ، وهذه لاتوحيها كلمة (الحديقة) التي هي ألصق بشعر بهاء الدين زهير منها بأي شاعر آخر .

٤ ـ ٥) بياض النبات ، وقطر النباتين ، وهما اسمان لمؤلفين لابن حجه ، وتخميننا أنهما مختارات من أجود شعر ابن نباته ، فابن حجه كما اختار للقيراطي ، وشيخ الشيوخ ما أحراه أن يختار لابن نباته بعض ما يعجبه من ديوانه ، واذا كان ذلك فنراه ينطبق على بياض النبات أكثر من قطر النباتين ، اذ أننا نظن أن قطر النباتين ليس مجرد مختارات لابن نباته وحده ، بل ربما شاركه شاعر آخر ، سار على الطريقة النباتيه ، فكما سمى ابن حجه القصائد التي عارض بها خمسا من القصائد المختارة من شعر ابن نباته (بيوت العشرة) فكذلك يحتمل أن ثمة قصائد أخرى لابن نباته ولشاعر آخر أطلق عليها أسم (قطر النباتين) وقد اتضح لنا أن هذا الشاعر هو ابن حجه نفسه لأنه قال في تأهيل الغريب : «قطر النباتين من

نظم العبد ونظم جمال الدين بن نباته[1] » ، وهذا دليل على ذلك .

٦) ناضج قلاقس : ونظن أن هذا المصنف يشبه مصنفاته السابقة ويؤ يدها ، وهو لا يعدو أن يكونِ مختارات من أنضج ما قاله الشاعر ابن قلاقس ، راقت لابن حجه فاختارها من ديوانه ، وضع منها هذا المصنف ، على عادته في الاختيار من دواوين شعراء العصر .

٧) لطائف التلطيف : ونظن أن هذا المصنف ليس مختارات شعرية فحسب بل ونثرية أيضا ، وربما فيه مجموعة من الطرائف والقصص القصيرة والحكايات التي تتسم باللطف ، وتزخر بالنكته والفكاهة ، وقد نجد له بعض الشبه في كتابه (أزهار الأنوار) أو (ثمرات الأوراق) . وربما حاكى فيها كتاب المستطرف من كل فن مستظرف للأبشيهى .

---

(١) تأهيل الغريب الثري ص٣٤٧ .

البَابُ ٱلثَّاني

ابن حجة الشاعر

الفصـــل الأول

بواكير نظمه

تجمع المصادر التي عرّفت ابن حجة على أنه عانى النظم في فترة مبكرة من حياته ، وتجمع هذه المصادر على أن أول نظم له كان زجلاً ، ويبدو أن قريحته جادت أول ما جادت بهذا النـوع من النظـم المسمـى بالزجل ، ولا غرابة في ذلك ، فابن حجه لم يكن متمكنا من اللغة تمام التمكّن ، كما لم يكن لديه ـآنذاك ـ الزاد الأدبي الذي يسعفه على نظم القصيد ، وحذق القريض ، ولكن بالرغم من النقص الذي يعانيه في أداة التعبير ، فالحافز إلى النظم ، والمشاعر الوجدانية متوفرة لديه ، فلهذا لم يترك نفسه وقريحته حتى تنضج ، ويتعهدهابالرعاية والعناية حتى تستكمل أداة التعبير ، بل آثر أن ينظم ويعبّر عن أحاسيسه ، ولو كان ذلك بهذا الفن الذي يسمّونه الزجل ، والزجل هو نوع من النظم ، وسيلة التعبير فيه اللغة العامية التي يتداولها سواد الشعب .

وقد تساءل الكثيرون عن نمو الزجل نمواً كبيراً في العصر المملوكي ، والتمسوا لهذا التساؤ ل مجموعة من الأجوبة ، والذي اعتقده أن العصور السابقة وأخص بالذكر العصر الجاهلي وصدر الاسلام كانت ثمة لغة واحدة ، يتكلمها الناس جميعاً ، ويكتبون بها ، ويتخاطب بها الخاص والعام ، ولم تكن هناك لغة فصحى رسمية مقصورة على الخواص ، ولغة عامية سوقية يتخاطب بها عامة الناس ، فاللغة السائـدة عنـد جميع طبقات الأمة من مثقفين وغير مثقفين هي اللغة الفصحى التي لا يتداول سواهـا . ويترتـب على هذا أن الشاعر أيّا كانت طبقته ، أو أيا كان نصيبه من الثقافة لا بد أن يقول الشعر بهذه اللغة الوحيدة التي يتساوى في معرفتها الجميع ، وإن كانوا يتفاوتون في فهم أسرارها .

أما في العصر العباسي والعصور التي تلت ، فقد امتزج الشعب العربي بعناصر مختلفة ، وتطعمت لغته الأصيلة بشيء غير قليل من لغات هذه العناصر المختلفة ، ثم أدى الأمر إلى وجود لغة ثنائية ـ إن صح هذا التعبير ـ: لغة رسمية فصحى ، كانت معرفتهـا رهنـا بالمثقفـين ، وشيوخ العـربيّة ، والمشتغلـين بالعلـم والأدب ، ودواوين الدولة ؛ ولغة ـ أو بتعبير أصح ـ لهجة مشتقة من اللغة الكبرى يعبّر بها جمهور الشعب عن حاجاتهم ومتطلبات معايشهم . وعندما كانت الظروف تهب بعض الناس من الطبقة الأخيرة موهبة الشعر يجد نفسه منساقاً إلى التعبير بهذه اللغة العامية ، وتعبيره المنظوم هذا يسمى الزجل . وعلى ضوء هذا الحديث يمكننا معرفة السبب الذي جعل ابن حجة يبدأ أول ما يبدأ بنظم الزجل والمواليا ، لأنهما الفنّـان اللذان لا يحتاجان من وسائل التعبير أكثر من اللهجة الدارجة ، التي كان يتقنها ابن حجـة وغيره من الناس في سن مبكرة من حياته .

وقد ذكر لنا معاصروه أنه عانى نظم الزجل قبل معاناته لنظم الشعر ، فقال معاصره ابن حجر : «ثم تعانى النظم ، فتولع أولاً بالأزجال والمواليا ، ومهر في ذلك وفاق أهل عصره ، ثم نظم القصائد»[1] ، وقال مثل هذا القول في مجمعه المؤسس[2] وكذلك قال السخاوي : «حتى تقدم في عمل الأزجال والمواليا ، ثم أقبل على نظم القصيد[3] » وقال العماد الحنبلي : «وعانى عمل الحرير يعقد الازرار ، وينظم الازجال ، ثم مال إلى الأدب ، ونثر ونظم»[4] ، ويبدو أن ابن حجة تقدم في هذا الفن وبرع فيه ، وبزّ أقرانه ، حتى أصبح إمامافيه ، ولولا طول باعه فيه لما ألف كتابه «بلوغ الأمل في فن الزجل» . ولقد حاول ابن حجة أن يرفع من منزلة الزجل فقال في تقديمه : إن الشيخ شمس الدين الصائغ قد أورد في شرحه للبرده شيئاً من محاسن الزجل واستشهد فيه[5] ، فهو - كما رأينا - يحاول رفع منزلة الزجل لدرجة أن بعض شراح الأدب أخذوا يستشهدون به ، وهذه سابقة توطد منزلة الزجل وترفعه إلى مصاف الشعر الذي يستشهد به ، حتى لقد كان ابن حجة في أول عهده بالنظم يأخذ معاني الشعراء ويحولها إلى زجل ، وقد صرح ابن حجة بأنه تصدى ، في مطلع حياته ، لنظّام الزجل وعارضهم ، فقال : «وسألني جماعة من مشايخ حماة ممن أدرك الحاج علي بن مقاتل - رحمه الله - وأنا إذ ذاك في عنفوان الشبيبة ومبادئ النظم أن أعارض لهم زجلاً من أزجاله»[6] .

وبعد أن اشتد ساعده في نظم الزجل ، وثقف اللغة ، ومارس الأدب ، وتطلعت نفسه إلى قرض الشعر ، ومعاناة القصيد ، انصرف إلى تحبير القصائد ، ويذكر لنا معاصروه أن أول تجربة شعرية علنيّة قام بها نظمه للقصيدة الكافية التي امتدح بها قاضي القضاة برهان الدين بن جماعة[7] ومر معنا مطلعها :

طربت عند سماعي وصف معناك	فكيف لو كان هذا عند مغناك
يا ظبية نفرت من مرتعي ورعت	حشاشة القلب عين الله ترعاك

وظاهرة تسترعي الانتباه هي أن ابن حجة نظم هذه القصيدة معارضاً بها قصائد الفحول من شعراء هذه الفترة ، كجمال الدين بن نباته والقيراطي والحلي . وبالرغم من أننا نأسف لهذه البادرة التي افترع بها قريحته وهي المعارضة لقصائد الآخرين ، لأن هذه الظاهرة ستلازمه في كثير من قصائده ، بالرغم من ذلك فإن هذه القصيدة قد لاقت من استحسان الأدباء والشعراء ما لم تلاقه قصيدة أخرى ، فما إن تلقفتها الأسماع حتى انبرى الشعراء والأدباء والقضاة والفقهاء يقرظّونها نثرا وشعرا في كل من مصر والشام ، فمن الذين قرظوها علاء الدين بن أيبك بأبيات من قصيدته :

---

(١) انباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر العسقلاني جـ ٢ ص ٨٦٣ (مخطوط)
(٢) المجمع المؤسس للمعجم المفهرس لابن حجر العسقلاني ص ٣٨٣ (مخطوط)
(٣) الضوء اللامع جـ ١١ ص ٥٣ .
(٤) شذرات الذهب للعماد الحنبلي جـ ٧ ص ٢١٩ .
(٥) التقديم ص ٦ .
(٦) بلوغ الامل من فن الزجل ورقة ٢١ .
(٧) قالها قبل سنة . ٧٩ .

نال ابـن حجـة رتبـة بمقامه ... ما لابـن حجّـاج اليهـا مرتقى
هذا هو النظـم الـذي من حسنه ... أضحـى على جيد الزمـان مطوقاً

ومن الذين قرظوها الشيخ محمود الشافعي خطيب الدهشة بحماة ، والقـاضي الفتحي الشـهيد ابـن الشهيد ، وأبو بكر بن العجمي ، ولا يسعنا في هذا المقام أن نورد كل التقـاريظ التـي وردت على هذه القصيدة ، والردود التي رد بها ابن حجة على هذه التقاريظ مع أنها من بواكير شعره ، وحسبنا أن نورد أسماء الذين قرظوا هذه القصيدة من غير من ذكرنا فمنهم (فخر الدين بن مكانس ، ومحمد بن الانصاري الحنفي ، وجمال الدين يوسف ، ومحمود الانطاكي ، وبدر الدين بن قاضي أذرعات ، وعبد الرحمن بن خلدون) وظفر الأخير برد على تقريظه بقصيدة كافية أخرى تعتبر من أوائل شعره أيضاً .

ولقد أطنبنا بعض الشيء في الحديث عن هذه القصيدة الكافية والتقاريظ التي قيلت فيها ، وما ذلك إلا لأن القصيدة ذات عدة آثار في شعره القادم ، منها أنه افتتح حياته الشعرية بالمعارضات وهذه سنّة سيسير عليها كثيراً في شعره ، ويقتفى أثرها في كثير من قصائده . ومنها أن كثرة التقاريظ على هذه القصيدة أعطت ابن حجة الشهادة على أول تجربة علنية قام بها ، كانت مشجعّة له لا أن ينهض من حماة إلى دمشـق ليحمـل قصيدته لابن جماعة ، بل تجاوز ذلك وحملها إلى مصر ، وهناك قرظها الكثيرون وشهدوا لشاعريته بالقوة ، ثم إن كثرة القصائد التي رد بها على التقاريظ متّنت عضده ، ورسّخت قدمه في فن القريض ، هذا بالاضافة إلى أنها فتحت له آفاقاً جديدة من الصداقات بين صفوف الأدباء والفقهاء والقضاة وأرباب الأقلام . ولا بد من وقفة قصيرة ـ ونحن نتحدث عن بواكير شعره ـ وعند هذه القصيدة بالذات وذلك أننا قلنا أنه عارض فيها جملة من الشعراء منهم جمال الدين بن نباته ، وصفي الدين الحلي ، وأريد هنا أن أقـول إن شعـر هذين الشاعرين هو أول شعر اطلع عليه ابن حجة وثقفه وتبصرّ فيه ، وطالعه مطالعة المعجب ، فقد ذكر ابن حجة حديثاً جرى بينه وبين استاذه قاضي القضاة علاء الدين بن القضامي مفاده أن ابن حجة عندما نظم قصيدته الرائية في مدح منطاش وهي متأخرة قليلاً عن الكافية لم يكن قد طالع سوى ديوان ابن نباته وصفي الدين الحلي ، وحتى تلك الفترة يصرح بأنه لم يطلع على ديوان المتنبي ، ولم يمتلكه ، ولم يره عند أحد[1] .

والتعليق الذي يترتب على هذا هو أن ابن حجة طالما تتلمذ على ديواني الشاعرين ، فاننا سنتوقع منه أنه سيسير على نهجهما ، وسينسج على منوالهما ، وسيقتفي أثرهما في الطريقة ، وحتى في ايثـارهما للبـديع ، وسيكون ابن حجة مخلصاً كل الاخلاص لشيخه الأول جمال الدين بن نباتـه . ويبـدو أن طول صحبتـه للديوانين غرست فيه مجموعة من الصور والتراكيب والطرائق لم يستطع التنازل عنها فيا بعد ، وبخاصة عندما أتيح له أن يطلع على ديوان المتنبي ، فبالرغم من اطلاعه عليه ، واعجابـه الشـديد به وبشاعـرية صاحبه ، لم يستطع الجري على نهجه ، ولا النسج على منواله ، وظلت صداقته القديمة لابن نباته تشده للطريقة النباتية ، ولم يستطع التفلت من سلطانها عليه ، ونرجح أن طول عشرة ابن حجة لديوان ابن نباته بخاصة في فترة مبكرة من حياته ، واعجابه بشعره ، جعله يتخذه المثل الأعلى له في الأدب نظمه ونثره ، وهذا

---

(١) التقديم ٥٠٤ .

الاعجاب الشديد جعل من ابن حجة تلميذاً مخلصاً بحق لابن نباته ، بل يعتبر امتداداً للطريقة النباتية ، التي هي بدورها امتداد للطريقة الفاضلية التي بالرغم من عنايتها باللفظ كانت تعير المعنى شديد اهتمام . وتوطدت أركان الطريقة الفاضلية بمجيء ابن نباته ، ثم بانضمام ابن حجة لها ، ويترتب على هذا أن شاعرية ابن حجة أسهم في نضجها ـ قبل أوانها ـ عاملان : الأول الزجل ، الذي لا يسمو في احكام صوره ولغته إلى مستوى الشعر الرصين . والثاني تتلمذه على ابن نباته قبل تتلمذه على المتنبي ، فلما أتيح له أن يطلع على جواهر شعر المتنبي ، كانت شاعريته قد قطعت شوطاً بعيداً في الطريقة النباتية ، ثم استقرت على هذه الطريقة ، ونضجت على هذا الشكل .

صحيح أن شعراء هذه الفترة كانوا يحبون المعارضة والتقليد ، ولكنه كان تقليداً للنموذج الأسوأ ، أي للشعر والأدب الذي لم يكن خير مثال يحتذى ، وكنا نريد من ابن حجة أن لا يرجع إلى الوراء قليلاً فيقلد ابن نباته والقيراطي والحلي بل كنا نريد منه أن يرجع كثيراً إلى الوراء ـ إذا لم يكن بد من الرجوع ـ فيقلد المتنبي وأبا تمام والبحتري ، فلو كان رجوعه ورجوع أمثاله من شعراء تلك الفترة خطوات أوسع من التي رجعوها لأعادوا للشعر العربي رونقه ، وللأدب زهوه ونضارته .

وما دمنا بصدد الحديث عن بواكير شعر ابن حجة فمن الجدير بأن نقول : إن من أولى القصائد التي نظمها في مطلع حياته أيضاً بعد الكافية السابقة الذكر ، قصيدته الرائية التي مدح بها «تمريغا الأفضلي» فقد ذكر لنا مناسبة هذه القصيدة في التقديم وقال : «إني كنت مدحت تمريغا الأفضلي الشهير بمنطاش ، ورياحين الشبيبة غضة ، ونشوة الابتداء تحث على دور كاسات الأدب ، وكان المشار إليه إذ ذاك كافل المملكة الحموية بقصيدة رائية ، سارت ببديع محاسنها الركبان ، واحتوت على معان لم أسبق اليها ومطلعها :[١]

الله أكبـــر جيش الظلـــم قد كسرا والحمـــد لله جيش العـــدل قد نصرا

---

(١) التقديم ص ٥٠٤ .

الفصــل الثانــي

أنواع نظمه

القسم الأول :ـ الزجل ـ الموشح ـ الدوبيت

لقد كانت آفاق ابن حجة رحبة واسعة ، لم تقتصر براعته في القول على ولوج الميدانين الفسيحين ميدان النثر وميدان الشعر ، بل كانت تمده موهبته في النظم بقوة حاول معها ولوج أنواع كثيرة من النظم ، كما كانت موهبته في النثر تمده بضروب مختلفة من النثر ، وتسعفه على تلوين اسلوبه النثري ، ولذلك فابن حجة لم يكن مجرد ناظم للقصيدة العربية فحسب بل تفنّن في طريقة نظمه ، وأعطانا ألواناً مختلفة مـن البراعة في التعبير الشعري ، وكما تنوع أسلوبه في تنوع أسلوبه في النظم ، فأول ما عرف نظم الكلام عرفه زجلاً ، ثم بعد أن حذقه تطلعت نفسه إلى نظم الموشح ، وبعض الادباء يعتبرون الموشح فناً وسطا بين الزجل والشعر ، لأنهم يقولون : ما الزجل إلا الفن الذي آل اليه أمر الموشح عندما تدنى إلى العامية عن طريق نظم الخرجات التي كان أصحاب الموشحات يستلطفون نظمها بالعامية ، ثم تدرج إلى ذروة فن التعبير الذي هو القصيد بشتى مستوياته التي تتراوح بين المقاطيع ونظم القصيدة الشعرية المستقلة المتميزه بوحدة الموضوع ، وبين التخميس والتشطير وغيرها .

ولما كانت دراستنا لابن حجة كشاعر تستلزم الحديث عن كل جوانبه الشعرية آثرنا أن نتحـدث ـ قبـل التفصيل في شاعريته ـ عن الفنون النظمية الأخرى التي ولج ميدانها وبـرع في بعضهـا كالزجـل والمواليا والموشح والـدوبيت ، والمخمس والمشطـر وغيرهـا ، ثم ننصرف بعـد ذلك مفصلـين في فنونـه الشعـرية المختلفة ، فأول فنون النظم التي نتكلم عليها هو :

ـ ١ ـ

الزجل : سبق أن تكلمنا في حديثنا عن بواكير شعر ابن حجة أن المؤ رخين من الأدباء وغيرهم قد أجمعوا على أن ابن حجة قد تعرف على فن الزجل قبل أن يتعرف على غيره من فنون النظم الأخرى ، وهنا لا بد لنا من كلمة عن زجل ابن حجة كنا ادخرناها لهذه المناسبة : لقد نظم ابن حجة الزجل في مطلع حياته ، وتدرب عليه لسانه في فترة مبكرة من العمر ، ونظمه ـ كما نظمه أغلب الزجالين في تلك الفترة ـ في موضوع واحد هو الغـزل ، ويكاد يكون الغزل أو النسيب هو الميدان الرئيسي لفن الزجل ، وان كان قد قيل في موضوعات أخرى غير الغزل فهي موضوعات فرعية كالزهد والحكم والهجاء ، والذي وصلنا من آثار ابن حجة الزجلية

أثران : الأثر الأول هو كتابه «بلوغ الأمل في فن الزجل» وقد تحدثنا عنه في آثاره الشعرية ولن نعيد الحديث هنا ، والأثر الثاني مجموعة أزجاله التي تصيدناها من كتبه ومصنفاته المختلفة ، وهي كثيرة .

أما زجله فيندرج تحت فن الغزل باستثناء قطعة زجل قالها في مدح الرسول (ص) سنفردها بالبحث بعد قليل . أما الزجل الغزلي فهو الذي يستأثر بجل أزجاله ، وهو زجل كل قصارى الزجال فيه تنحصر في محاسن المحبوب الجسدية ، من وصف للشعر المسدل حتى الأقدام ، وسهام المقل ، والحواجب التي تشبه القسي ، والثغر المفترّ عن جمان ، والخد الأسيل ، وألف القامة ، ولام الغذار ، وهيف الخصر ، وثقل الأرداف ، وامتشاق الساق وغير ذلك ، فإذا تجاوزنا هذه الأوصاف الجسدية ألفيناه يتحدث عن اعراض حبيبه عنه ، وتجنّيه عليه ، وما يترتب على ذلك من لـوعة الفراق ، واكتواء القلب بنيران البعاد ، وتلظّيه على جمر غضا البين ، غير ناس الحديث عن شماتة العذول ، وكل ذلك يسوقه الزجال في ثوب مزركش من التورية حينا ، والجناس والتضمين حينا آخر ، يلف كل ذلك تعبير باسلوب عامي ، مشبع باصطلاحات العصر وألفاظه وتشابيهه البيانية البدائية ، فلنستمع لابن حجة يقول : «وقد عن لي أن أثبت هنا زجلاً من أزجالي الخالية من العيوب ، ليتضح للطالب سلوك هذه الطرق الغريبة ، فمن ذلك ما نظمته وأزهار الشبيبة يانعة ، ومواردها عذبة وهو :(١)

ذا القاسي بلين قامتو	رقّ لي ونحوى عطف				

ذا القاسي بلين قامتو ... رقّ لي ونحوى عطف
وخلف ذا الغصن بالوفا ... ومحلا ليالي الخلف
وقال لي نظام سالفو ... خليّ الجيد هداك سلف
وماس تحت تزريد غدار ... يفوق حسن وشي البرود
تذكرت بان النقا ... وخضر عيش أيام زرود
تغزلت فيه اطربوا ... ومال من رقيق الغزل
وقال : خلي في وصف الخدود ... فاني كثير الخجل
استطردت في وصفها ... سارت مثل مسير المثل
فعود ياحبيبي وطيب ... لا تعدم محبك وجود
فمن وجنتك والثغر ... قصدو ياحبيبي ورود

أوردنا هذا النموذج من قطعة زجل لابن حجة ، وهي أطول من ذلك بكثير . وهذا هو نموذج آخر من زجل ابن حجة لنخرج بنتيجة نستخلصها من هذه النماذج قال :

من عذيب بارق ثغر خشفي ... رمت نهلة وأنا إليه ظمآن
دار وقال مالك سبيل عندي ... مادريت إني غزال عطشان
عارضو لما عشق خدو ... غرت من وجدي بقيت حاير

---

(١) بلوغ الامل من فن الزجل ورقة ١٤ .

جيت إلى طرفــو وناديت : احرســو وكون عليه ناظر
بعــد حــين أبصرت في خدو التقــى العــارض وهــو داير
وعليه قد دب بالسرقه جيت لطرفــو وقلــت : يا كسلان
هكذا هي عادة الحراس قال لي : اعذرنــي ، أنــا نعسان

هذه صورة أخرى من صور الزجل عند ابن حجة ، وهي من نوع الزجل الغزل ، الذي تكلمنا عليه قبل قليل ، وإذا كان في هذه القطعة فضلة من القول نقولها ، فهي أن ابن حجة يبدو في هذه الفترة من خلال زجله فجّ الصورة الشعرية ، يتطلع إلى رسم الصورة ، ويصبو إلى حسن التعبير ، ولكن الزخرفة والنزوع إلى التورية يقعدانه عن بلوغ ما يصبو إليه فتبقى صوره ليست عامية فحسب بل وتقليدية كل التقليد ، يلقي عليها التقليد ظلالا باهته لكثرة استعمال الناس لها ، فالطرف الكسول الذي شبّهه بالحارس النعسان ، صورة طالما تداولها الشعراء والزجّالة ، فتركوها وهي ترتدي مسحة القدم الخلقه ، وهذا ينطبق على أكثر صور ابن حجة لا في زجلة بل حتى في غرر قصائده ، فإذا امتدت يده إلى الصورة وتناولها تناولها خلقة أبلت جدتّها كثرة الأيدي التي تعاورتها ، قبل زمنه عامة وفي زمنه خاصة .

ومن عادة ابن حجه أنه عندما يلمس صلابة عوده في موضوع ، أو اشتداد ساعده في فن ، يقف منتصب القامة ، محدد اذرب لسانه ، ولسان حاله يقول : هل من مبارز ؟ فإذا لم يجد من يبارزه حقيقة تصوره خيالاً ، وانبرى لمبارزته والمبارزة في الشعر تسمى المعارضة ، وما أكثر ما عارض ابن حجه معاصريه واقرانه من الشعراء ، بل كان احياناً يتعدى الأحياء الى الأموات ، فيسقط على غرر قصائدهم وينبرى لمعارضتهم ، ولقد نستبق الحديث الآن اذا تكلمنا عن المعارضة ، فسنوفيها حقها في مكانها الخاص . ولكن سنتكلم عن معارضته في الزجل ما دمنا في الحديث عن الزجل ، قال : «وسألني جماعة ممن ادرك ابن مقاتل ان أعارض لهم زجلاً من أزجاله كان يتغالى به في المجالس كثيراً ، فعارضته ، وأثبت الزجلين هنا ليتفكه المتأمل في جنى الجنتين ويتنزه في حدائق الروضتين»[1] فزجل الحاج علي :

يا مليح الشبــاب يا حلــو الشمايل انّ عينيك تعمــل في قلبــي عمايل

فيهــا فتــرة يخطــر لمن هو يجهل
أنهــا سهلــة ، والمنــون منهــا أسهل
وربــاب الفضــل والتشــابيه بلشهل

قالوا : عينيك نرجس وصدغيك خمايل صبتهــا اسياف معقربــات الحمايل

(١) بلوغ الامل من فن الزجل ورقة ٢١ .

قيل : انســان هذا الــذي تثنــي عنوّ
وتقــول في مديحــك : انــوّ وانوّ
ما رأيت في الملاح مليح احلى منوّ

قلـت لو : لا ، وفتّش وقــايس وقابل وعلى هيئتــك ، هذا العــام وقابل
راح عذولي كما وصيتــو وجاني
وقـال : الله ، محبوبـك ابــن الفلاني
قلت : هو هو ، ومن قي عشقو بلاني
قال لي : ذاك الــذي أليف قد ومايل عنـد صحـاب المعقــول ليس لو مماثل

وزجل المعارضة قولي :

حبـي واصــل ، ناديت لو حــين راد يفاصل
لا تقاطــع بالحرمــة يا حبــي واصل

يا عــذار وعليش تسيل عنــد ذكرو
ويا ردفــو بكّ تزيد على خصرو

ويا طرفوكم ذا الكسل وانت ياشعرو

كم تخبي عرض لاصطباري تحاول لله أقصر لا كم في عشقو تطاول
في مديح ثغرو لي عقود جوهرية
وفي ريقو ألفاظي جت سكرية
وحين أسبع لي ظل شعرو عليه
وصار مثيلي وكيف لمدحو نقابل وقد أظهر فخري على كل قايل

ويورد ابن حجة تتمة هذا الزجل وهو طويل نجتزىء منه بهذا القسم ونكتفي به ، والمتأمل في الزجلين يقر في ذهنه أن قول ابن حجة يفوق فعله ، ولكنها شنشنة عرفناها من ابن حجة قديما .

والذي يطالع أدب ابن حجة للمرة الأولى قد يعجب عندما يقرأ هذه القطعة الزجلية ، لما تزخر به من التورية والزخرفة ، ولكن اعجابه هذا يزول عندما يستعرض نماذج من انتاجه الأدبي ـ كما سنتحدث عنه في الصفحات القادمة ـ بل حتى عندما نسوق هذه القطعة الزجلية التي نظمها ابن حجة في مدح الرسول ،

وأخذ على عاتقه أن يورى بجميع أسماء السور القرآنية في هذا الزجل ، فلنستمع اليه يقول :

يا محمد آيات هداك (فاتحة) باب هدى (الناس) ورب (الفلق) هداك

و (لاخلاص) مجدك نقول (تبت يد) من عاندك ومن عاداك

ويستمر هذا الزجل بيتا بعد بيت موريا بأسماء السور حتى يأتي على الأسماء كلها فيقول في ختام الزجل :

واصطفى من قديم (آل عمران) يابن آدم ومن ضلالك هداك

وفي عيد الأضحى نراك تذبح (بقرة) يجعلوها وسبعة فداك

وأظن أننا سنستغرب كل هذا الاهتمام بالتورية ، وسنقول انه كلّف نفسه وكلف فن الزجل أكثر مما يطيق ، ولكن ما دامت هذه القطعة الزجلية باكورة تعرفه على التورية فلذا أحب أن يفرغ فيها كل ثقافته القرآنية ، وعلى رأسها التورية بأسماء السور ، غير أننا نخطيء اذا اتهمناه بأن هذه القطعة الزجلية التي ورى فيها بأسماء السور هي الأولى والأخيرة ، فبالرغم من أنه يقول انها نسيج وحدها ، الا أنه سيتحفنا بمجموعة قطع من هذا القبيل ، فتلك وان كانت نثرا الا أنها تضرب على الوتر نفسه ، وتمتح من البئر عينها ، فمثلا يقول في تأهيل الغريب النثري : «ومما أنشأته على هذا المنوال . . خطبة ختم الروايح ـ أو التراويح ـ : نحمده على أن فتح (بفاتحة) هذا الكتاب أبواب الجنان ، وأيد حفاظ (البقرة) على أصحاب العجل ، واصطفى (آل عمران) ومدّ لرجال هذه الأمة و(النساء) (مائدة) الاكرام»[1] .

وتتوالى هذه الخطبة الى أن يقول في آخرها : «اللهم وأسألك بسيد (قريش) الذي بصرته بمعجزات قرآنك ، وقلت له (أرأيت) وأعطيته بعد ذلك (الكوثر) . . الخ»[1] .

وقد كنت أحب أن أقف عند هذا الحد من عرض هذا اللون الذي ساقنا اليه زجل ابن حجة الموري فيه بأسماء السور ، ولكن استيفاء للفكرة الواحدة أقول انه كرره في مدح المقر الأشرف الفتحي ومدحه بقطعة ضمنها تورية اسماء السور ، ولا لزوم لاثباتها .[2]

ـ ٢ ـ

الموشّح : والنوع الثاني من النظم الذي بدأه ابن حجة مبكرا هو الموشح ، والموشح ـ في عرف الأدباء ـ يقع في منزلة بين المنزلتين ، فلا هو في منزلة الشعر الرصين ، والنظم المكين ، المتصف بوحدة القافية والوزن ، ولا هو في منزلة الزجل الذي هو أقرب الى العامية منه الى الفصحى .

فابن حجة يحدثنا بأنه نظم موشحة وهو في حماة في «مبادىء العمر ، ورياحين الشبيبة غضة»[3] . ثم عندما اشتد ساعده في فن النظم أعاد النظر في الموشح المذكور ، وخاصة عندما سافر الى مصر سنة ٨١٥ . قال : «ووجدته ملحنا ، وأهل مصر يلهجون به ، وبتلحينه كثيرا ،[3] وهو موشح يمدح به قاضي القضاة علي بن القضامي ، قال من هذا الموشح :

---

(١) تأهيل الغريب النثري ص ١٥١ .

(٢) قهوة الانشاء والتقديم ٥٦٨ .

(٣) التقديم ص ٢٠٨ .

رقـم السـوالف يروى لي بمسنده | عن رقمتي حبّهـم يا طيب مورده
وثغرها قد روى لي قبل ما احتجبت | عن برق ذاك النقـا أيام معهده
والـريق أمسـى عـن المبرد | يـروى حـديث العـذيب مسند
عن الصفـا ، عن مذاق الشهد و العسل عن ذوق سيدنا قاضي القضاة علي
سألـت برد ما عنـدي من الكمد جلـدي | وقلـت : نار الجـوى قد اضعفـت
قالت : بريقـي اطفيهـا اذا التهبت | يا برد ذاك الـذي قالـت علي كبدي
وغرقتنـي بدمـع طرفي | وقالـت : اسمـع ، كفيت خلفي
ألـم تخف بلـلا ، ناديت يا أملي | «أنـا الغـريق فما خوفي من البلل»

بالله يابـرق ان أومضـت في الثغر | وحـارس اللحـظ في شك من الخبر
قف بالثنيات واذكرنـي اذا عذبت | تلك النهيلات للـوارد في السحر

وارسـل عليل النسيم خلفي | فـانـه قـوة لضعفـي
عسى تصحـح جسما بالفراق بلي | وربمـا صحـت الأجسـام بالعلل

والموشحة طويلة نسجها كلها على هذا المنوال . ولكن فن الموشح فن فسيح الرحاب ، متعدد الألوان تفنن فيه الأندلسيون كل التفنن ، وأكثروا من بحوره وبيوته وأقفاله وخرجاته ، ولهم فيه طرائق كثيرة ، فلا عجب اذا رأينا ابن حجة يحاول محاكاة بعض هذه الألوان الأندلسية ولكن على طريقة ناظم مشرقي : فينظم موشحة على طريقة صدر الدين بن الوكيل . يقول فيها :

تالله غدا صبـري عليكم فاني | والوجـد بقـي
والله ما كذبـت في الايمان | والعبـد تقـي
من بت به صبابـة يا أسفي | لو كان يفـي
قاسـوه بغصـن تائـه منعطف | بادي الهيـف
قلت : ابتداء قد سدتـم في السرف | ماالأمـر خفي
ان ماس بلـين قدّه الفتان | للمعتنـق
ماقيمـة مقصـوف غصـون البان | بين الورق
قالـوا : حكاه البـدر لما سفرا | ليلا وسـرى
والعقـل قال مذ أتـى معتذرا | ذا القـول مرا
قلت : انصرفوا ، فاين قول الشعرا | يا من شعرا
والنهـد غدا يروى عن الرمان | لـلمتّـق
والخـد روى محاسـن النعمان | لي من طرق
والبـرق غدا من ثغـره منهزما | لم يأو سما

والثغـــر يقـــول : مذ أزاح الظلما لما ابتسمــا
يا محتســب الجمال كن لي حكما ممــن ظلمــا

وتلي هذه الأبيات أبيات عديدة غيرها ، نمسك عن ذكرها كلها لطولها ، وحسبنا هنا عرض النماذج لتأييد ما قلناه لا للاستقصاء .

- ٣ -

الدوبيت : وأسبط تعريف له أنه بيتان من الشعر ، الأول مصرّع ، والثاني ينتهي بقافية الأول نفسها ، وفي ديوان ابن حجة عشرات المقاطيع التي يمكن أن ينطبق عليها هذا التعريف . ومما صرح به من قول الدوبيت قوله :

لما ملا الجبهــة بالأنوار لمنــاه على ذلك خوف العار
قال انصرفواسئمــت من بلدتكم والجبهــة من منــازل الأقمار
ومثلـه : مذأظهـرو رده لنـا ريحانه ناديت لتلك المقلــة الكسلانة
قد دب عذاره على وجنته قومي انتبهي ، قالـت : أنـا نعسانة

وليس وراء استعراض الكثير من النماذج شديد طائل . لذلك نكتفي بهذا القدر الذي أوردناه .

القسم الثاني
التخميس ـ التشطير والتضمين

عرف ابن حجة الشعر العربي ، وقرأه ، وتتلمذ عليه فترة طويلة قبل أن يحاول نظم القريض ، ولما كان ابن حجة يمثل الأديب في عصره أتم تمثيل ، لذلك لا بدع أن نراه يتفنن في النثر كما يتفنن في الشعر ، لأن ذوق العصر ، واتجاهه النقدي ، كان لا يعتبر الأديب أديبا الا اذا كان مكثرا في التأليف ، صاحب منثور يأخذ بمجامع القلوب ، وصاحب منظوم يتحدى السابقين واللاحقين فاذا ألف جاب آفاق الدنيا ، وعرّج على كل لون من ألوان الثقافة ، سواء في الأدب أو التاريخ أو المسيرة أو النقد أو الشعر أو البلدان أو الحيوان أو النبات أو الجهاد ، واذا انشأ النثر صبّ في قوالبه كل ما تسعفه به ثقافته من اطلاع ، مسبوكا في قالب التورية والسجع وغير ذلك . واذا نظم فلا أقل من أن يأخذ بشيء من أنواع النظم الدارجة كالزجل والمواليا والأراجيز ، ويماشي اتجاهات الشعراء آنذاك في التخاميس والتشاطير وغيرها . وهكذا كان ابن حجة يلم بكل هذه الأشكال . فبالاضافة الى القصيدة ، كان ينظم الشعر المرجز والمشطر والمخمس ، والفنان الأخيران نشطا جدا في هذه الفترة ، فما من شاعر الا شطّر وخمس ما راقه من الشعر ، وأعجبه من القصائد ، ولقد كانت في ذلك العصر قصائد بأعيانها منها تستحوذ على اعجاب الشعراء والمتأدبين ، فيعمدون الى تضمين أبياتها أو تشطيرها أو تخميسها كالبردة مثلا ، ولقد أخذ ابن حجة بقسط وافر من مثل هذه الفنون .

١ ـ **التخميس** : وتعريفه أن يأخذ الشاعر قصيدة يعجب بها فيعمد الى معارضتها ، فيأخذ كل بيت من القصيدة المخمسة ويمهد له بثلاثة أشطر من شعره ، ويجعل شطري بيت القصيدة المخمسة الشطر الرابع والخامس في قصيدته ، وينتقل من بيت الى بيت . وقد نشطت التخاميس كثيرا في القرنين الثامن والتاسع ، ولابن حجة باع طويل في هذا المضمار ، فقد خمّس البردة ، وخمس عينية السهيلي ، وخمس قصيدة الكيلاني وغيرها . وسنتناول هذه التخاميس بشيء من التفصيل :

(أ) تخميس البردة ، نظم البوصيري قصيدة طويلة ميمية القافية من البحر البسيط سماها (الكواكب الدرية في مدح خير البرية) وسبب نظمها ـ كما تذكره كتب الأدب ـ معروف مشهور ـ لا لزوم لاعادته ، ولكن الأهم من سبب نظمها هو ما تركته هذه القصيدة المطولة من أثر في الأدب العربي ، فلو أعرضنا عن شروح هذه القصيدة الكثيرة والتي لا أبالغ اذا قلت انه لا توجد قصيدة في الشعر العربي كله ظفرت بالشروح والعناية والتفاسير مثلما ظفرت به هذه القصيدة ، وما زخرت به هذه الشروح من اللغة ، ووجوه النحو والصرف ، والتخريجات المختلفة لاعراب بعض ألفاظها ، لو أعرضنا عن ذلك وعن المعارضات التي نظمت على هذه القصيدة ـ وما كان أكثرها ـ وأخذنا فقط المخمسات والمشطرات التي انشئت حولها لألفينا منها الشيء الكثير ، فمن أشهر المخمسات تخميس ناصر الدين الفيومي الذي يقول في مطلعه :

ما بال قلبك لا ينفك ذا ألم مذبان أهل الحمى والبان والعلم
وانحل مدمعك القاني بمنسجم «أمن تذكر جيران بذي سلم
مزجت دمعا جرى من مقلة بدم»

ولم يكن الفيومي هو الوحيد الذي خمس البردة ، بل خمسها نحو من ثمانين شاعرا ، وفي فهرس دار الكتب المصرية مجموعة من تخاميس البردة تشتمل على تسعة وستين تخميسا ولم يكن كل الذين خمسوها مصريين بل بعضهم من الشام ، والآخرون من العراق والمغرب . وهذا يدل على أنها شغلت الشعراء في أكثر الأقطار الاسلامية . فمن أهل الشام الذين خمسوها شهاب الدين أحمد بن مجد الدين سالم الأذرعي أول تخميسة

هل لي الى أثلاث البان والعلم من عودة فعسى أشفى من السقم

ومنهم أبو الفتح محمد بن ابراهيم النابلسي المعروف بابن الشهيد الدمشقي أول تخميسة

مابال جسمك لا يشفى من السقم ومالقلبك مصدوعا من الألم

وأما في العراق فقد خمسها شمس الدين محمد بن البصرى وأول تخميسه

أراك من عظم الأشواق ذا سقم متيماً مغرما لم تصح من ألم

ومن المغرب نقرأ تخميسا لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن الصائغ المغربي أوله :

يامن صحيح هواه موجب السقم ومن ثناه وجود الوجد كالعدم

ومن أقصى الشرق يشترك الشعراء بمثل هذه التخميسات فينظم الشاعر نجم الدين محمد بن عبد الله بن عبد القادر السكاكيني الشيرازي تخميسا سماه «الذخيرة المعدة في تخميس البردة» مطلعه :

يا هائم القلب بين البان والعلم وهامي الدمع حتى صار كالغنم

ولقد قرأ ابن حجة الكثير من هذه المخمسات ، ولكنه كان شديد الاعجاب بتخميس الفيومي الآنف الذكر ، فنشطت نفسه لمعارضته ، فألف قصيدته التي تذكر بعض المراجع أنها معارضة لقصيدة الفيومي ، على حين تذكر المراجع الأخرى أنها قصيدته المسماة (تفصيل البردة) وليس بمستبعد أن تكون هذه ، لأنه جعل صلب موضوعها البردة بأبياتها الاثنين والثمانين والمئة ، ثم (فصّل) على هذه (البردة) تخميسه ، وعلى قاعدته في التورية بأسماء قصائده ومصنفاته ، فلا غرابة أن يكون هذا هو التفصيل بعينه ، قال في هذه القصيدة :

لما مزجت دمي بالدمع من ألمي   وهمت في لجج الدمعين من سقمي
قالوا بعيش مضى مع جيرة العلم   «أمن تذكر جيران بذي سلم
مزجت دمعا جرى من مقلة بدم»
أم هل شدت ذات طوق شدو هائمة   أم من بروق بثغر السفح باسمة
أم عن شذا نسمة بالقرب ناسمة   «أم هبت الريح من تلقاء كاظمة
وأومض البرق في الظلماء من اضم»
وقلت انك عنهم رحت ملتفتا   والقلب عن هيمان الوجد قد سكتا
ومقلتاك لفيض الدمع قد أبتا   «فما لعينيك ان قلت اكففا همتا
ومالقلبك ان قلت استفق يهم»
كم رمت كتمان وجدي والدموع دم   لها انسجام وجمر القلب مضطرم
فقال لي من لحاني وهو مبتسم :   «أيحسب الصب أن الحب منكتم
ما بين منسجم منه ومضطرم
شبّب بوصفهم ان كنت ذا غزل   وبح بهم واشد شدو مرتحل
فأنت يامن يفيض الدمع في خجل   «لولا الهوى لم ترق دمعا على طلل
ولا أرقت لذكر البان والعلم»

وحسبنا هذه التخميسات الخمس من شعر ابن حجة ، وهي تخميسات خمسة ابيات فقط ، وأما قصيدة البوصيرى بتمامها فتبلغ (١٨٢) بيتا ـ كما قلنا ـ وعلى هذا فإن التخميس قد بلغ صحائف عدة ، جعلت ابن حجة يستكثرها ، وربما رآها تستأهل مصنفا مستقلا فأفردها بتسمية مستقلة وسماها «تفصيل البردة» وهي ـ لا شك ـ من خيرة قصائده ، رغم طولها ، ولعل الذين أرخو الأدب ابن حجة اطلعوا على هذه القصيدة حتى قالوا ـ بحق ـ إنه طويل النفس في التنظيم .

(ب) وليست هذه هي القصيدة الوحيدة التي أعجبته فخمسها ، بل ثمة قصائد أخرى ، ربما كان الدافع إلى تخميسها وتخميس البردة الدافع الديني ، فلنستمع اليه يحدثنا في تأهيل الغريب يقول : ' ذكر قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان ، في تاريخه أن دحية قال : أنشدني الامام العلاّمة أبو القاسم محمد بن محمد المعروف بالسهيلي ـ رحمه الله ـ هذه الأبيات التي أولها : «يا من يرجيّ للشدائد كلها» وقال انه ما سأل الله ـ عزوجل ـ أحد بها حاجة الا أعطاه ، وكذلك من استعمل انشادها قلت : سأل العبد جماعة بالديار المصرية أن أخمس هذه الابيات المباركة ، فأجبت الى ذلك تطفلا على بركتها ، بعدما أوقفوني على تخاميس لم يفتح لها من هذه الأبيات باب يدخل اليه منها ، ولكن حصل للعبد فتوح فقال :'[1]

(١) تأهيل الغريب الشعري ص ٣٩٨ .

قالــوا : عداك ، وأنــت لاتتسمّع
قد أضمــروا لك مصرعــا وتوقعوا
ناديت ، والأجفــان منــي تدمع

يا من يرى ما في الضمير ويسمع   أنت المعدّ لكل ما يتوقع

قل للأعــادى تقتصر من جهلها
فقسي أدعيتــي تصيب بنبلها
ونــداى ، ان هي شددت في فعلها

يا من يرجّى للشدائد كلها   يا من اليه المشتكى والمفزع
كم من خزائن في الممالك كالسفن
قالوا لخازنها : احترس فيها وصن
وأنا أقول ، وفي مقالي لم أمن
يا من خزائن رزقه في قول : لكن   امنن فان الخير عندك أجمع
مالي فعال بالصلاح جليلة
مالي صفات بالكمال جميلة
مالي صلات بالوفا موصولة
مالي سوى قرعي لبابك حيلة   فلئن رددت فأى باب أقرع

ويختمها بالتخميسة التي يصرح فيها عن طمعه بأن تناله بركتها فيقول :

وأنا ابن حجة صار نظمي حجة
في كل تخميس وحزت مزيّة
خمست أبيات السهيلي خدمة
فعلوت مقدارا ونلت معزة   وغدوت في بركاتها أتمتع

(جـ)وهناك قصيدة أخرى خمسها ابن حجة هي قصيدة الشيخ عبد القادر الكيلاني قدس الله سره قال ابن حجه

قالوا وسرى في الغرام يشبب
لك منهل في العشق منه تشرب
فأجبتهم واللفظ مني مطرب
ما في المناهل منهل مستعذب   الاولي فيه الألذ والأطيب
لي في الغرام مسائل منصوصة
وعليّ أخبار الهوى مقصوصة
والله ما للعاشقين خصيصة

ما في الوصال مكانة مخصوصة   الا ومنزلتي أعز وأقرب
صافيت أيامي ولذت بعفوها
والعين قد حرّمت لذة غفوها
فاذا تكدر مشربي من هفوها
وهبت لي الأيام رونق صفوها   فجلت مناهلها وطاب المشرب

وهو يصر على أن يذكر أسمه في نهاية كل قصيدة يخمسها ، لذا فهو يختتمها بالتخميسة التالية :

كأس المحبة قد أدير بخاطرى
أسكرت جلاسي بلفظ عاطر
وغدوت معروفا ببشر طاهر
وانا ابن حجة عبد عبد القادر   مابعد نظمي منهل مستعذب

وتذكر بعض المراجع أن هذه القصيدة هي المسماة «رشف المنهلين» وبعضها الآخر يسكت عن ذكر أسمها

ولدى استعراضنا لهذه النماذج من تخميسات ابن حجة يمكن أن نقول ان التخميس عنده نوع من المعارضة والتضمين بآن واحد ، ولكنها معارضة ناقصة ، لأن الشاعر المعارض ينسج قصيدته كاملة من صبغه أما المخمّس فيتكيء في خمسي قصيدته على تضمين شعر الآخرين ، هنا بالاضافة الى أن القصيدتين المعارضتين ينبغي أن تكونا من قافية واحدة ، على حين يكون التخميس متعدد القوافي ، أو هو أشبه بالأقفال والابيات في الموشح ، وفي هذا يتيسرّ على الشاعر المعارض أو بعبارة أدق المخمسّ ولكن ـ والحق يقال ـ إن الشاعر الذي يتصدى لتخميس قصيدة ما لا ريب أنه يبذل جهدا كبيرا في فهم الابيات التي يخمسها ، لكي يصنع لها التوطئة التي يروض بها ما شمس من المعاني ، لتمهد للابيات المخمسة تمهيدا لانشاز فيه ، فهي عملية صعبة ، وممارستها تحتاج الى الكثير من تقليب وجهات النظر ، ووضع الكلم في مواضعها المناسبة ، والشاعر في التخميسة بناء شديد الحذق ، يبني الشطر الأول ليمهد للثاني ، والشطر الثالث ممهدا لمجيء البيت المخمس مجيئا طبيعيا لا تكلف ولا تصنع في سياقه ، ومن هنا كانت الجهود التي تبذل في التخميس مغطية على النقائص التي تؤخذ على المخمسين ، وتكون شفيعا لهم في تقويم الصنيع .

٢ ـ التشطير والتضمين : وهو أخذ شطر من أشطر الشاعر وتضمينه في قصيدة شاعر آخر تضمينا مقصودا ملتزما ، وهذا يعود بنا ثانية الى البردة فلقد شاع التشطير بكثرة بعد نظم البردة ، والذين شطروها أكثر من الذين خمسوها . وممن شطروها أحمد بن شرقاوي ، وأحمد بن عبد الوهاب الجرجاوي ، وأحمد بن عثمان العوامي ، وغيرهؤلاء كثيرون ، وبعض هؤلاء الشعراء يعتقد أن تشطيرها مناسبة للتبرك بها ، وبمن قيلت فيه ، وقد تجلب لهم نفعاً كبيراً ورزقاً وفيراً ، ويحلو للدكتور زكي مبارك أن يؤيد هذه الفكرة ولكن على طريقته بروحه المرحة الفكهة فيقول : «وشطّرها أخيراً سعادة عبد العزيز بك محمد ومطلع تشطيره :

أمن تذكر جيران بذى سلم — فاضت شؤونك ملتاعا ببينهم
أم من فؤادك مكلوما لوحشتهم — مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

وقد نالته بركتها فعين وزيراً للأوقاف ، ولعله يخمسها فيعين رئيساً للوزراء»[1]

أما ابن حجة فإنه لم يتصدّ لتشطيرها بعد أن أنهكه تخميسها ، ولكنه شطر بعض قصائد المتنبي وخاصة قصيدته اللامية التي مطلعها :

أجاب دمعي وما الداعي سوى طلل — دعا فلباه قبل الركب والإبل

فمن تشطيرات ابن حجة قوله :

كحل بعينيك ، قالت وهي في خجل — «ليس التكحل في العينين كالكحل»
قالت وطلعتها كالشمس في خجل — «في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل»

وقد شطر أبياتاً من لامية كعب بن زهير في مدح الرسول (ص) قال :

قالوا: فلم قد تبلت القلب قلت لهم: — «بانت سعاد فقلبي اليوم متبول»
«وما سعاد غداة البين إذ رحلوا» — الامحال وأحلام وتضليل
ولم أقل ما سبا عقلي وهيّمني — «إلا أغن غضيض الطرف مكحول»

وبالرغم من أن ابن حجة يصرح في ديوانه بأن هذا الصنيع هو تشطير لأبيات فلان أو فلان ، فنحن نوافقه على أنها تشطير أبيات وليست تشطير قصائد ، وإذا كانت تشطير أبيات فهي تضمين أشطار معينة يزج بها الشاعر بين الحين والحين كما فعل في تضمينه لاشطار من أبيات علي بن الجهم فقال :

يفوق عيون الزهر فوق شطوطها — «عيون المها بين الرصافة والجسر»
وإن جزت في الرمضاء بين غصونها — «جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري»

ومن الطريف أن نذكر أن أحد أصدقاء ابن حجة كتب له رسالة شعرية ضمنها أشطاراً من قصيدة امرىء القيس ، ورد عليه ابن حجة ردا من الباب نفسه ، قال صديقه صدر الدين بن الادمي مضمنا بعض أجزاء الشطر :

---

(١) المدائح النبوية للدكتور زكي مبارك ص ١٦٦ .

أحــن إلى تلك السجــايا وأن نأت حنــين أخــي (ذكرى حبيب ومنزل)
وأهــدى إليهــا من سلامــي معطرا بمســك سحيق ((لابريّا القرنفل)
وأذكر ليلات بكم قد تصرّمت بذكر حبيب (لابدارة جلجل)
شكوت إلي صدري اشتياقا فقــال لي (ترفــق ولا تهلك أسّى وتحمل)
وقلــت له : إنــي عليل معوّل (وهــل عنــد ربــع دارس من معوّل)

فأجابه ابن حجة مضمنا الأشطار بكاملها :

سرت نغمــة منــكم اليّ كأنها (نسيم الصبــا جاءت بريا القرنفل)
وقلــت لليلي مذ بدا جنــح طرسها (ألا أيهــا الليل الطــويل ألا انجل)
جنــت ماحــلا ذوقــا فقلــت : تقربي (ولا تبعدينــي من جنــاك المعلل)
ورقّت ، فأشعار امرىء القيس عندها (كجلمود صخر حطه السيل من عل)
فقلــت : قفــا نضحــك لرقتهــا على (قفا نبــك من ذكرى حبيب ومنزل)

وأخيراً نقول في التشطير والتضمين ما قلناه في التخميس ، إذ أنهما ينطويان على عنصر ضعف في الشاعر ، لأنهما تكأة وكسل فكري ، وهروب من الاستقلال والابتكار قصارى الشاعر فيهما التلاعب بمنتجات أفكار الآخرين ، كما أنهما ينطويان على عنصر قوة وهو شدة حبك البيت بأن يوطيء الشطر الأول للثاني ، ويتلاحم المعنى في البيت الواحد بشطريه وكأنه لشاعر واحد ، وهذا الحبك لا يخلو من حذق ودقة في وصف الألفاظ وتتابع المعاني ، ومجيء بعضها ممهداً للبعض الآخر .

الفصل الثالث

فنونه الشعرية :

لقد عرف ابن حجة جميع الفنون الشعرية التي نظم فيها الشعراء الذين سبقوه والذين عاصروه ، ومثلها في شعره ، فالمدح والنسيب والوصف والهجاء والرثاء والاعتذار ، كلها كانت بعض أغراض ابن حجة ، وكانت له في بعضها اليد الطولى . والمتصفح لشعره عامة ، يجد أنه أخذ من كل فن من هذه الفنون بطرف . ونحاول الآن أن نتعرف على شعره في كل فن منها ، ومقدار ما بلغه من جودة في ذلك الفن ، وعلى رأس هذه الفنون يأتي المدح .

(١)

المدح :

مما لا شك فيه أن المدح قد استأثر بالقسط الأكبر من شعر ابن حجة ، ويكاد يستغرق أكثر قصائده الطوال ، وحتى ليكاد يبلغ حوالي ثلاثة أرباع ما تركه من الشعر وربما كان لنشأته الفقيرة أثر في ذلك ، فأول قصيدة وصلتنا من شعره كانت في المدح ، وتلتها قصائد أخرى ، تعتبر من أول ما قاله ، كلها كانت في المدح أيضاً ، ولقد مدح ، أول ما مدح أعيان بلده كالبارزي ، ثم لما أنس في نفسه القوة ، اشرأب لمدح الأعيان في قطر الشام كالقاضي برهان الدين بن جماعة ، وكان مدحه له امتحانا لشاعريته ، ولما تأكد من نجاحه بعد أن لاقي من الثناء الشيء الكثير ، أخذ يثني على من أثنى عليه ، ورد عليهم ثناءهم وتقريظهم بثناء وتقريظ من شعره ، ثم سما وواتته الفرص فمدح أمراء بلده كمنطاش الذي كان نائبا لحماة آنذاك ، ولكن نجمه الصاعد أخذ يتألق ويلمع عندما قربه محمد بن البارزي من الملك المؤيد ، وصار منشيء دواوينه ، فنفح ولبى نعمته الملك المؤيد وابن البارزي أبدع ما جادت به قريحته من قصائد ، ولكن قبل أن نعرج على هذا النوع من المدح يجب أن نقف عند نوع آخر من المدح برع فيه ابن حجة ، وترك فيه قصائد رائعة ، ومطولات بديعة ، ذلك هو المدح النبوي :

المدح النبوي :

لقد عرف المديح النبوي منذ بعث الرسول لأمة العرب هاديا ونذيرا ، وعرفه الشعراء في صدر الاسلام ، وفي العصور التي تلته ، حتى برز بعد ذلك فنا من فنون الشعر ، التي نمت على يد المتصوفين من الشعراء خاصة ، فهولون من التعبير عن العواطف الدينية ، وباب من الأدب رفيع ، لأنه لا يصدر إلا عن قلوب مفعمة بالأيمان ، ملأى بالأعجاب بشخصية الرسول الكريم .

واذا جاز لنا أن نعود الى الوراء ، لنتحدث ، بايجاز ، عن نشأة المديح النبوي قلنا ان جزوره الأولى قد عرفت في أواخر العصر الجاهلي ، فاذا صحت نسبة القصيدة الدالية للاعشى التي مطلعها :

ألـم تغتمض عينـاك ليلـة أرمدا وعـادك ما عـاد السـليم المسهدا

تكون من أول ما مدح به الرسول
ومن أولى هذه المدائح أيضا قصيدة تنسب الى أبي طالب عبد مناف بن عبد المطلب مطلعها :

خليليّ ما أذنـي لأول عاذل بصغـواء في حق ولا عنـد باطل
خليليّ ان الـرأي ليس بشركة ولا نهبـة عنـد الأمـور القلائل

وفيها يمدح الرسوم فيقول :

وأبيض يستسقـي الغمام بوجهه ربيع اليتامـي عصمـة للأرامل
يلـوذ به الهـلاّك من آل هاشم فهـم عنـده في نعمـة وفواضل

ومنحه أكثر من مدحة ، فله مدحة دالية يقول فيها :

ألا ان خـير النـاس نفسـا ووالدا اذا عد سادات البـرية أحمد
نبـي الالـه والـكريم بأصله وأخلاقـه ، وهـو الـرشيد المؤ يد
حزيم على جل الأمـور كأنه شهـاب بكفـي قابس يتوقد
من الاكرمـين من لؤ ي بن غالب . اذا سيم خسفـا وجهـه يتربد
عظيم الرمـاد سيد وابـن سيد يحض على مقـرى الضيوف ويحشد

فان صحت نسبة هاتين القصيدتين لأبي طالب كانت ـ بالاضافة الى الدالية المنسوبـة للاعشى من أوائـل ما مدح به الرسوم الكريم .
ولكن القصيدة التي تعنينا في هذا الباب ، والتي هي ألصق بمدح النبي ويهمنا الوقوف عندها بعض الشيء هي قصيدة كعب بن زهير التي قدمها بين يدي إسلامه ، بعد أن أهدر الرسول دمه ، قال في مطلعها :

بانـت سعـاد فقلبـي اليوم متبول متيم إثرهـا لم يفـد مكبول
ومـا سعـاد غداة البـين اذ رحلوا الا أغـن غضيض الطـرف مكحول

وبعد أبيات طويلة في الغزل ، ينتقل الى وصف الناقة فيصفها وصفا مفصلا ، ثم يقول وهـو وجـل من الرسول :

وقـال كل خليل كنـت آمله لا ألهينـك انـي عنـك مشغول
فقلـت : خلـوا سبيلي لا أبالكم فكل ما قـدر الرحمـن مفعول
كل ابن أنثى ـ وإن طالت سلامته ـ يومـا على آلـة حدبـاء محمول

فلما اطمأن ، وهدأ روعه اتجه الى مدح الرسول فقال :

ان الرسـول لنـور يستضـاء به ... مهنـد من سيوف الله مسلول
في عصبـة من قريش قال قائلهم ... في بطـن مكة لما أسلمـوا : زولوا
زالـوا فما زال انـكاس ولا كشف ... عنـد اللقـاء ولا ميل معازيل
شم العرانـين أبطـال لبوسهم ... من نسـج داود في الهيجـا سرابيل
لا يفرحـون اذا نالـت رماحهم ... قومـا ، وليسـوا مجاذيعـا اذا نيلوا
يمشون مشي الجمال الزهر يعصمهم ... ضرب اذا عرد السـود التنابيل
لا يقـع الطعـن الا في نحورهم ... وما لهـم عن حياض الموت تهليل

وهذه القصيدة طويلة ، وأهم من طولها هي أنها ذات أثر كبير في الأدب العربي عامة والعصر الذي ندرس أدبه وشعره خاصة ، وسيكون لها شأن يذكر عند ابن حجة بوجه أخص . فقد عكف الشعـراء على هذه القصيدة ـ كما فعلوا في قصيدة البوصيري التي تحدثنا عنها ـ فخمسوها وشطروها وعارضوها ، وأكثر من فعل هذا من شعراء عصر ابن حجة وبعده ، فمن الذين شطروها : عبد القادر الرافعي وأول تشطيره :

«بانـت سعـاد فقلبي اليوم متبول» ... والنـوم والسهـد مقطـوع وموصول
والجسـم بعـد سعـاد مدنف وصب ... «ميتـم إثرهـا لم يفـد مكبول»

ومن الذين خمسوها شعبان بن محمد بن داود المصري ـ وهو معاصر لابن حجة توفي سنة ٨٢٨ وله ثلاث تخاميس مطلع أحدها :

قل للعـواذل مهما شئتـم قولوا ... فليس لي بعـد من أهواه معقول
ناديت يوم النوى والدمع مسبول :
«بانـت سعـاد فقلبـي اليوم متبول ... متيم إثرهـا لم يفـد مكبول»

أما الذين شرحوها فيعدون بالعشرات ، وتفنن هؤلاء في انتقاء أسماء شروحهم مثل : «بلوغ المراد على بانت سعاد» و «الجوهر الوقاد في شرح بانت سعاد» ومن هؤلاء الشراح نفر من أعلام عصر ابن حجة في اللغة والنحو كابن هشام الأنصاري ، والسيوطي صاحب الشرح المسمى «كنه المراد في شرح بانت سعاد» ولم يقل عدد الذين عارضوها عن عدد الذين شرحوها ، ومن بين هؤلاء جمال الـدين بن نباته المصري ومطلع معارضته :

ما الطـرف بعـدكم بالنـوم مكحول ... هذا وكم بيننـا من ربعـكم ميل
يا باعثـين سهـاداً لي وفيض بكا ... مهما بعثتـم على العينـين محمول

وعارضها ابن سيد الناس اليعمري بقصيدة سماها «عدة المعاد في عروض بانت سعاد» والمطلع :

قلبـي بكم يا أهيل الحـي مأهول   وحبلـه بأمانـي الوصـل موصول

كما عارضها أبو حيان الأندلسي بقصيدة سماها : «المورد العذب في معارضة قصيدة كعب» ومطلعها :

لا تعـذلاه فما ذو الحـب معذول   العقـل مختبـل ، والقلـب متبول

فقصيدة وصلت الى هذه الرتبة من الشهرة ، ومن اهتمام الشعراء بها ، لا يعقل أن يمر بها ابن حجة مر الكرام دون أن يعارضها ، وهو من فحول فن المعارضة ، وخاصة ان اثنين من الذين طالما اقتفي أثرهم وعارضهم قد عارضاها ، وهما ابن نباته في معارضته الآنفة الذكر . وبرهان الدين القيراطي في قصيدة مطلعها :

جرح الجفون بقذف الدمع تعديل   والحب شاهـده المجـروح مقتول
قد أثبـت الحـب قاضيه وكان له   في مجلس الحـكم اثبـات وتسجيل
سـيرت جملـة أفـكاري فكان لها   بألـين الدمـع تمـزيق وتفصيل

فلذا جهد ابن حجة في معارضتها بقصيدة بلغت حوالي ستين بيتا ، سار فيها على نهج قصيدة كعب ومن عارضه ، ولكن شتان بين القصيدتين ، فقصيدة كعب رصينه ، متينة التراكيب دقيقـة العبـارة ، محكمـة النسج ، وقصيدة ابن حجة مفعمة بالتورية ، محشوة بالجناس والطباق ، زاخرة بالتضامين، التي أخذها بخاصة من كعب ، غير مقصر فيها عن الزهو والتفاخر ، وهو يبدؤ ها كما بدئت لامية كعب ، ومعارضاتها بالغزل التقليدي يقول في مطلعها :

في مقلتـي لعيون الشهـل تشهيل   ومـا لموتـى عنـد الخـد تقبيل
وسل قلبي بسيف اللحظ قلت له :   كلاهما لغـذاب القلـب مسلول
والجفن نفذ حكم السهم حين رمى   وللفـداء بهـذا الحـكم تسجيل
ضممـت صعدتـه مع رشف ريقته   حلا جنـاسي عسـال ومعسول
وقـال لي القـدلما أن جرحـت به   أبشر فعنـدي لهـذا الجـرح تعديل
فقـال للشعـر اشرح لي عدالته   فقال : عنـدي لهـذا الشرح تطويل
وقـد تجـاوز جسمـي حد كل ضني   وهـا أنـا اليوم في الأوهـام تخييل

ولا يكفيه التلاعب بالألفاظ بين جناس وطباق وايراد لمصطلحات شاعت في عصره كمصطلحات الفقهاء بل يعمد الى التلاعب بالاشطار فيضمن أشطارا من قصيدة كعب فيقول :

قالوا : فلم قدتبلت القلب قلت لهم   «بانـت سعـاد فقلبـي اليوم متبول»
قالوا : اقتنع بخيال الطرف قلت لهم   «ما الطرف بعدكم بالنـوم مكحول»

ويحلو له أن يتلاعب بالشطر بتمام لفظه ومعناه أحيانا ، وأحيانا أخرى بمعناه دون لفظه وأحياناً ثالثة بلفظه دون معناه ، وتارة أخرى بمعناه وبعض ألفاظه كقوله :

تبسموا فشكا القلب فقلت له — يا أيها البرق «اني عنك مشغول»
فلا أسالم سلمى ما حييت ولم — أسم اسما فيا أوصافها «زولوا»
«وما سعاد غداة البين اذ رحلوا» — الامحال وأحلام وتضليل
وكان للنفس وعد كاذب ومضى — «وما مواعيدها إلا الأباطيل»

ويودع هذا القسم من الغزل ليستقبل القسم الآخر وهو المدرج متخذا بيتين من الشعر لحسن التخلص هما :

يا من يشبب بالمبني ويطرب من — ذكر الرباب سماعا وهو موصول
الحق بأهلك واترك من تأهل بي — فلي بمدح رسول الله تأهيل

ويتخذ من هذين البيتين جسرا يعبر عليه الى مدح الرسول بعد أن لم يبق له في مديح الناس من أرب فقال :

لم يبق لي في مديح الناس من أرب — وليس عندي لذات الخال تأويل
والله والله هذا كله عرض — والجوهر الفرد مدح فيه مقبول
من ذا الذي يرتضي نيل الورى وله — «من الرسول باذن الله تنويل»
وورد مدحي أحلى في المناهل من — «صاف بأبطح أضحى وهومشمول»

وكل الذين مدحوا الرسول تطرقوا لوصف معجزاته ، وتحدثوا عن علو مرتبته بين الانبياء ، فهاهو ابن حجة يشير في مدحته الى شيء من ذلك ، قال :

الانبياء رؤوس قد سمت رتبا — وأحمد لهم تاج واكليل
وان هممنا بحصر المعجزات له — يفنى الزمان ولم يبلغ لها طول
منها بأن ضعيف الضب كلمه — وقبل مولوده[1] قد خافه الفيل
موسى وعيسى على ميثاقه وبه — قد بشر الناس توراة وانجيل

ثم عدد فضائل بعثته التي منها أنه أخرج الناس من الظلمات الى النور ، ونصره الله فكان نصرا مبينا للمسلمين فقال :

والآل والصحب والأنصار صار لهم — بنصرة الله اكرام وتبجيل
تهللوا في سما الهيجا بطلعته — «وما لهم عن حياض الموت تهليل»
حتى أقاموا منار الدين مرتفعاً — وصار للناس تكبير وتهليل

(١) مولوده : يقصد مولده .

ثم يختتم القصيدة بالتوجه إلى الله بالدعاء طالباً شفاعة النبي ، معرضاً باسمه «ابن حجة» تارة ضارعاً ببركة اسمه «أبو بكر تارة أخرى فيقول :

ياسيد الرسـل يا أقصى المراد ومن   لنـا عليه نهـار الحشر تعويل
يرجو «ابـن حجـة» أن لو حج ثانية   بحيث ينشدهـا والدمـع مسبول
فالصبـر قد قل والأشـواق زائدة   والعمـر لم يبـق من أيامـه طول
وقـد سميت (أبـا بكر) وتسميتي   عنـد الرسـول لهـا ـ والله ـ تنويل

فما دام اسمه (أبو بكر) ، ومدح الرسول بهذه القصيدة ، ودان بالدين الذي جاء به محمد (ص) فما أحراه أن يقبل دعاؤه بحرمة هذه الأشياء الثلاثة ، فقال :

فالاسم والمدح والاسلام قد فتحوا   باب السؤ ال وقالـوا : أنـت مقبول
والعبـد يرجـو بهـذا حسـن خاتمة   يا خاتم الرسل هذا القصد والسول
صلى عليك الـذي رقـاك منزلة   علياء فيهـا من الخـ[illegible]م جبريل
ماهب ريح الصبـا من طيبـة سحرا   وذيلـه بنـدى الخـيرات مبلول

هذه أغلب أبيات القصيـدة عرضناها شبه كاملة ، لتمثل لنا القصيدة الكاملة من مديحه ، ولنستـطيع وضعها بموضعها الصحيح بين القصائد التي شابهتها بالغرض والمنهج ، وإذا كان ثمة كلمة نقولها في هذه القصيدة ، فإنها لم تسم لمرتبة قصيدة كعب بن زهير ، ولا حتى لمرتبة القصائد التي عارضت قصيدة كعب والتي بدورها لم تدن من قصيدة كعب ، فكل هذه المعا رضات وأخص منها بالذكر قصيدتي ابـن نباتـة والقيراطي خديني ابن حجة ، قد نشأتا ـ مع قصيدة ابن حجة ـ في عصر كان يقيم للزخرفة والصنعة كل وزن ، لذا جاءت أماديحهم متمثلة بالزخرفة تنوء تحت أحمال الصنعـة ، وترسف تحـت أغـلال الصـور البديعية ، يهجم ناظموها على أبيات من سبقهم فيضمنونها ، ويستملحون العبارة فيقتبسونهـا ، ويحـرن عليهم المعنى فيتحايلون عليه ، وتجمح عليهم الفكرة السامية فيعمدون إلى الفكرة الخسيسة ويلبسونها ثوباً قشيباً من اللفظ فتأتي صارخة بتحميلها ما لا تطيق ، وما أوردته من الأبيات يعتبر أحسن حالاً مما عزفت عنه ، فلو أخذنا البيت التالي :

حلـوا عقودهـم بالجـزع فارتحلوا   إلى العقيق ، وأجـروا مدمعي لولو

هذا (اللولو) الذي جاء نشازا هنا ، التقطه ابن حجة من عقد (لولو) كان قد نظمه ابن نباتة قبله في المعارضة ، إذ قال هناك :

وبـارق من أعـالي الجـذع أرقني   حتـى دموعـي على مرجانـه (لولو)

فتأمل ما أبعد الفرق بين وقع هذه الكلمة في القرآن الكريم في قوله : «حسبتهم لؤلؤاً منثوراً»[1] وبين وقعها في التعبير النباتي والحموي الآنفي الذكر . . ولكنه تطور الأدب .

ولم تكن هذه القصيدة اللامية التي عارض بها ابن حجة كعب بن زهير هي القصيدة الوحيدة التي مدح بها الرسول ، فابن حجة يخرج عما ألفه شعراء العصر من كثرة أماديح الرسول ، وبخاصة عند الذين كان يرى فيهم المثل الأعلى الذي ينبغي أن يقتدى كجمال الدين بن نباتة ، وصفي الدين الحلي ، وبرهان الدين القيراطي ، فلابن نباتة ست قصائد نبوية وللحلي أربع قصائد أيضاً ، وللقيراطي أكثر من قصيدتين ، ذكرهما ابن حجة في (تحرير القيراطي) احداهما همزية مدح بها القيراطي الرسول (ص) ومطلعها :

ذكر الملتقى على الصفراء فبكاه بدمعة حمراء
ونهاراً بطيبة أبيض الوجه مضافاً لليلة غراء

وهي طويلة تزيد عن مئة بيت ، والثانية لامية قلنا أنه عارض بها كعباً وأوردنا مطلعها ولم يكن ابن حجة أقل شاعرية تجاه الرسول من هؤلاء ، فنظم أربع قصائد احداها اللامية التي تحدثنا عنها قبل قليل والثانية الميمية المضمومة التي سماها (أمان الخائف) وبعض المراجع تسميها (أمان الخائفين من أمة سيد المرسلين) وتجعلها مصنفاً خاصاً من مصنفاته والثالثة الميمية المكسورة وهي البديعة ، وسنترك الحديث عنها الان لنتحدث عنها بالتفصيل في مكان آخر ، والرابعة قافية القافية ، وسنتحدث الآن عن الميمية المضمومة والقافية . فأمان الخائف يستهل براعتها بقوله :

شدت بكم العشاق لما ترنموا فغنوا وقد طاب المقام وزمزم
وضاع شذاكم بين سلع وحاجر فكان دليل الظاعنين إليكم
وجزتم بوادي الجزع فاخضروالتوى على خده بالنبت صدغ منمنم
ولما رأوا أخبار نشر ثغوركم أراك الحمى جاء الهوى يتنسم

ومطلع القصيدة الثانية :

أغرد في أفنان وجدي بكم عشقا فلا تذكروا من بعد تغريدي الورقا
وذكر المصلى فهو جامع لذتي وأما التقى فالعبد في حبه أتقى
وان ضاع من أرض الحجازلكم شذى أراه بأرض الشام ينعشني نشقا
أرقق شعري حين أشدو بذكركم لعلكم ترضون أن تملكوا الرقا
وأذكر ليلات تقضت ببارق إذا شمت من تلقاء أرضكم برقا

---

(١) السورة ٧٦ الآية ١٩ .

يسير ابن حجة في مطلع هاتين القصيدتين على سنة الشعراء العرب بابتدائهم قصائد المدح بالنسيب ، حتى لو كان نسيباً تقليدياً ، ولكن ليس أي غزل يصلح لأن يتغزل به في مطالع القصائد النبوية ، فالنسيب ، كما يقول ابن حجة في قصيدته أمان الخائف مضمناً شطر المتنبي ـ كان يتقدم على المدح غالباً قال :

له النسب الأعلى فيا مادح الورى «إذا كان مدحاً فالنسيب المقدم»

والنسيب الذي يريده ابن حجة في مطالع القصائد النبوية ينبغي أن يكون محتشماً وقورا يتناسب مع جلال قدر الممدوح ، ولهذا يرسم للشعراء منهج الغزل إذا أرادوا أن يمدحوا الرسول في قصائدهم فقال : «إن الغزل الذي يصدر به المديح النبوي يتعين على الناظم أن يحتشم فيه ، ويتأدب ، ويتضاءل ويتشبب مطرباً بذكر سلع ورامة وسفح العقيق والعذيب والغوير ولعلع وأكناف حاجر ، ويطرح ذكر محاسن المرد ، والتغزل في ثقل الأرداف ، ورقة الخصر ، وبياض الساق ، وحمرة الخد ، وخضرة العذار ، وما أشبه ذلك ، وقل من يسلك هذا الطريق من أهل الأدب[1] هذه بعض الشروط التي اشترطها ابن حجة الناقد في الغزل الذي يتصدر مطالع القصائد النبوية ، ليترسم الشعراء خطاها أثناء مدحهم للرسول ، ولكن ، هل كان وفياً لهذه الشروط ؟ الواقع أنه كان وفياً لها .

وغزله في هذه المطالع ـ رغم طوله ـ كان خالياً إلى حد بعيد من ذكر حمرة الخد ، وخضرة العذار ، ورقة الخصر ، وثقل الأرداف ، وغيرها مما لايليق بالأدب النبوي وكانت جل معانيه تدور حول الشوق واللوعة والفراق والغرام والشكوى ، ففي الميمية قال :

فيا عرب الوادي المنيع حجابه وأعني به قلبي الذي فيه خيموا
رفعتم قباباً نصيب عيني ونحوها تجر ذيول الشوق والقلب يجزم
ويا من أماتونا اشتياقاً وصيروا مدامعنا غسلاً بها فتيمموا
منعتم تحيات السلام لموتنا غراماً ، فقد متنا فصلوا وسلموا

وهكذا يسير ابن حجة في قصيدته والتورية والتضمين رفيقاه ، فحيثما سنحت الفرصة يترك المدح لينقض على شطر يضمنه فتراه يقول :

وقالوا وقد أفصحت شعري بذكرهم : «أكل فصيح قال شعراً متيم»

وبعد هذا الغزل يخلص إلى المديح فيقول :

نبي بدا في جبهة الدهر غرة بسنته البيضاء والشرك أدهم
سراج منير قد هدينا بنوره وللشرك غيّ من دجى الليل مظلم
ومعدن در علمتنا صفاته وقد نظمت في عقدها كيف تنظم

---

(١) التقديم ص ١٤ .

وبعد أن يسترسل في وصف النبي ، وقد حسبنا أنه خلص من النسيب إلى المدح ، فإذا به يفاجئنا ببيتين يعتبرهما حسن تخلص ، يعبر بهما من نسيبه إلى المديح ، فيقول :

ويا من غدا في حب زينب هائماً ... وكان له عند الرباب ترنم
لحب ابن عبد الله أولى فإنه ... به يبدأ الذكر الجميل ويختم

فإذا قلنا : إنه كان وفياً لشروطه التي اشترطها في النسيب الذي يسبق المديح النبوي فإنانقول : إنه لم يكن مخلصاً لقواعده التي ذكرها عندما تحدث عن حسن التخلص ، ومهما يكن من أمر فإنه قد استرسل بعد هذا التخلص في ذكر صفات الرسول ـ على عادة الشعراء ـ ومعجزاته إلى أن يصل إلى الختام فيأبى إلا أن يصرح باسمه في آخر القصيدة فيقول :

وأشدوا بصوتي معلناً يا محمدا ... عليك (أبو بكر) بمدحك يقدم
عسى وقفة أو قعدة (لابن حجة) ... على بابكم يسعى لها وهو محرم
فقد جاء يشكو من ذنوب تعاظمت ... وحلمك في يوم الشفاعة أعظم
وقد ناله في عنفوان شبابه ... هموم وسيف الهم للظهر يقصم
عليك سلام نشره كلما بدا ... به يتغالى الطيب والمسك يختم

وظاهرة التصريح باسمه تكاد لا تفارقه في كل مدائحه ، وبخاصة النبوية منها ، فقد رأيناه يصرح باسمه في هذه القصيدة ، وفي تلك اللامية ، وكذلك في القافية يقول :

ولكن (أبو بكر) يرجو محمدا ... عساه بهذا الاسم يوم الظما يسقي
كراماته والمعجزات تجل عن ... حساب ، وقد أضحت لشمس العلا أفقا

ولكن ليس هذا بغريب ، ما دام اسمه أبو بكر ، وما دام ممدوحه محمد (ص) وما دام شاعراً مولعاً بالتورية ، فهذه مناسبات يتصيدها قل أن يجود بمثلها الشعر .

وفي قصيدته القافية ظاهرة أخرى تسترعي الانتباه ، وهي تصريحه بأن كل ما قاله في مديح غير الرسول إنما كان كذبا ومينا ، ويقسم على ذلك ، ويصرح بأكثر من ذلك ، بتوبته عن مدح الانام تعففا وترفعا عن اراقة ماء وجهه فيقول :

كذبنا ـ وحق الله ـ في مدح غيره ... ولكن مديحي فيه قد أظهر الصدقا
وقد تبت عن مدح الانام تعففا ... وإن عدت يوما لاأعيش ولا أبقى

ولكن توبة ابن حجة هذه لم تكن نصوحا ، وسرعان ما يحنث بقسمه ، إذ لا يطول الثبات على هذا القسم أكثر من ستة أبيات في القصيدة نفسها ، فإذا به يعود إلى مدح الانام ويمدح ابن البارزي . فبينما نظن أن القصيدة بتمامها في مدح الرسول ، فإذا به يفاجئنا بمدح ابن البارزي فيقول :

تطفلت يابن البارزي بمدحتي عليك ، لاني عبد بيتكم حقا
وعبد بيوت القوم ، أن رام أنه يناظرهم خان العهود وقد عقا

فما بال شاعرنا يقسم الايمان المغلظة ألا يمدح أحدا من الانام في أول القصيدة ، ويناقض هذا القول في آخرها ؟ ألأن الشعراء يقولون ما لا يفعلون ، أم أنها ايمان حانثه عرفناها كثيراً عند ابن حجة ؟

وليت الامر وقف عند هذا الحد ، فقد فعل ابن حجة في اللامية التي مدح بها الرسول ما فعله بالقافية من مثل هذا القسم ، فأقسم على أنه لم يبق له في مديح الناس من أرب ، وما مديح البشر الا عرض زائل ، وأما الجوهر الباقي فهو مديح الرسول فقال :

لم يبق لي في مديح الناس من أرب وليس عندي لذات الخال تأويل
ولم أقل ما سبا عقلي وهيمني إلا أغن غضيض الطرف مكحول
والله والله هذا كله عرض والجوهر الفرد مدح فيه مقبول

وليست هذه الايمان الحانثة مقصورة على أماديحه النبوية ، بل أورد قبلها في كثير من قصائده المدحية الاخرى ، ولما كانت تلك الاقسام خارجة عن نطاق المدائح النبوية فسنتكلم عليها في مكانها .

ولو عدنا إلى معاني هذه الاماديح فأوجز ما يقال فيها أنها مكررة في كل قصيدة من قصائد ابن حجة ، بل في كل قصيدة من القصائد التي قيلت في تلك الفترة ، فالهيكل العام لها ، هو مطلع غزلي ، يزخر بالغزل التقليدي ، وما يتطلبه من غرام وحنين وشوق ، هذا الشوق يبدأ شوقاً للحبيب المتخيل ، وينتهي شوقاً لبطحاء مكة وحاجر والمقام وزمزم ، يتلو هذا مدح لذات الرسول ، وتعداد لصفاته ، وسرد لمعجزاته ، ثم خاتمة متضمنة لأماني الشاعر ، مشفوعة بالدعاء عسى أن تنال ناظم الابيات شفاعة الرسول .

والمتتبع لهذه النبويات ، ولكثرتها عند الشاعر الواحد ، بل الشعراء الآخرين ، يمكن أن يرجع أسباب نظمها إلى الروح الصوفية التي كانت تستبد بالشعراء في بعض الاحيان وإلى يقظة الشعور الديني في أحيان أخرى ، بل وربما يمكن تفسيرها بردة الفعل للحياة اللاهية التي قد تجر الفرد أحيانا للانغماس في الفجور ، والاغراق في الملذات ، وتعاطي المحرمات ، من شرب للخمرة ، ومراودة للغلمان ، وتنكب لسواء السبيل ، فإذا ثاب الشاعر إلى رشده ، ووجد نفسه قد فرط في جنب الله ، وهبت عليه نفحة من يقظة الضمير ، بعد ولوغ في ارتكاب ما يحرم ، لم يجد خيرا من قصيدة ـ وهذه عدة الشعراء ـ يمدح بها الرسول لعلها تغسل هذه الادران التي لصقت بجسمه ، ولعله يجد عند نظمها طمأنينة لنفسه القلقة التي طال عليها الامد وهي مسرفة في الدنيا معرضة عن الآخرة ، ولعله يجد فيها تكفيراً لما اقترفته النفس الامارة بالسوء وهي تتمرغ في حمأة الرذيلة أيام كان يدعوها الشباب فتستجيب لدواعيه ، بل ويمكن تفسير ذلك أيضاً بانجذاب الشعراء نحو الرابطة الوحيدة التي بقيت لهم آنذاك ، وهي رابطة الاسلام ، التي ظلت يشتم الانسان منها رائحة العزة والكرامة بعد أن فقد العرب كل سيطرة على مقدرات حياتهم ، وأصبحت العناصر الاخرى المملوكية هي المتحكمة في مصائر المسلمين ، ولا تربط هؤلاء الشعراء بالفئة الحاكمة غير رابطة الاسلام ، الرسول هو الرابط المشترك الاعظم بين الطبقة الحاكمة والطبقة المحكومة ، فلا ضير إذا اختلف الشعراء على مدحه ،

وأشادوا بمزاياه لانها ثروة للمسلمين عامة ، وعسى أن يتخذوا منها في حاضرهـم ما سبـق أن أفادهـم في ماضيهم ، هذه الرابطة الاسلامية هي المثل الوحيد الذي كان يتغنى به الشعراء إذ أن رابطة كالقومية أو غيرها لم تكن معروفة آنذاك .

بوجه الاجمال فإن مدحه للرسول من الموضوعات التي أجاد فيها وبز شعراء عصره وكان الذين جاؤ وابعده يصرحون بمعارضته لعلمهم أنه أقوى من نظم في هذا السبيل ، ومن هؤ لاء الشاعرة عائشة الباعونية المولودة في القرن التاسع والتي أكثرت من المدائح النبوية فبالاضافة إلى أن لها تخميس البردة الذي هو دون تخميس ابن حجة ، لها قصيدة اسمها (لوامع الفتوح في أشرف ممدوح) وقصيدة أخرى بعنوان (فتوح الحق في مدح سيد الخلق) وثالثة بعنوان (نفائس الغرر في مدح سيد البشر) وكل هذه القصائد لا تسمو إلى قصائد ابن حجة في مدح الرسول من حيث السبك وقوة المعاني وجزالة التراكيب .

وفي ختام حديثنا عن المدائح النبوية لا بد أن نعيد للاذهان قولنا إنه نشأ حول مديح الرسول فن كبير ، نما وازدهر في هذا العصر ازدهاراً كبيراً ، وهو من البديعيات وقد أكثر منه شعراء هذه الفترة ، لا يكاد يخلو شاعر من بديعية يمدح فيها الرسول . ولابن حجة ـ كشاعر ـ قصيدته الميمية المكسورة ، وهي غير المضمومة في مدح الرسول وهي بديعيته التي مطلعها :

لي في ابتـدا مدحـكم ياعـرب ذي سلم ... براعـة تستهـل الدمـع في العلم
بالله سر بي فسـربي طلقـوا وطني ... وركبـوا في ضلوعـي مطلـق السقم
ورمـت تلفيق صبـري كي أرى قدمي ... يسعـى معـي فسعـى لكن أراق دمي
وذيل الهـم همـل الدمـع لي فجرى ... كلاحـق الغيث حيث الارض في ضرم

وهذه البديعية التي نظمها ابن حجة أثر من آثاره الشعرية ، لذا نوهنا هنا بها ، وكان من حقنا أن نوليها مزيداً من الدراسة ، لولا أن هذه البديعية ـ شأنها في ذلك شأن أكثـر البـديعيات ـ لم تبـق أثـراً شعـرياً فحسب ، بل صنف ابن حجة عليها كتابه المشهور (تقديم أبي بكر) الذي شرح فيه هذه البديعية شرحا استغرق مئات الصفحات وحشد فيه من الآراء البلاغية والنقدية ما سنبينه في مكانه ، ولذا لم نذكر الحديث عن البديعية كأثر فني شعري لأنها خرجت عن هذا المضمار إلى كونها نواة مصنف طغت فيه الناحية العلمية على الناحية الفنية ، فلذا سنفضل الحديث عنها وعن شروحها في فصل البـديعيات وهـو فصـل بلاغـي سنتحدث عنه بعد قليل .

أغراض المدح الاخرى :

سبق أن قلنا إن فن المدح هو الفن الذي ظفر من ابن حجة بقسط وافر ، حتى أن أكثر ديوانه في المدح ، ولذلك توهم صاحب كشف الظنون ، وظن أن ديوانه المسمى (جنى الجنتين) هو شعره الذي قاله في المدح .

وابن حجة ـ ككل شعراء هذه الفترة ـ كانت أماديحهم وسيلة من وسائل الارتزاق ، فكانت قصائدهم إما أن تدر عليهم الربح العاجل كأن يفوزوا بأعطيات الممدوح مباشرة ، بعد قصيدة يعددون فيها مناقبة ، أو تضمن لهم الربح الآجل ، وذلك بأن يأخذ الشاعر المغمور في نظم القصائد ، وبعد عدة قصائد يصبح شاعراً مشهوراً ، يدفعه شعره إلى أن يكون ذا شأن وقد يصبح من كتاب الانشاء في دواوين انشاء الدولة .

ولقد نشأ ابن حجة نشأة فقيرة ، مهدت نفسه إلى أن لا يرى عيبا في الارتزاق بشعره ، ولذلك أخذ يدبج قصائده ، ويمدح بها ذوي السلطان ، ومن كانت الدنيا بيدهم ، لعله إن لم يظفر بالكسب السريع أن يظفر بكسب صداقة قاض أو أمير ، قد تدفع به الظروف إلى تسنم مركز مرموق فينوه بمن كان يألفه في المنزل الخشن ، وتحسن أوضاعه ، ولقد ذكر لنا النواجي قصصا ، في أكثر من مناسبة ، مؤداها أن ابن حجة كان يسرف في التكسب بشعره ، منها تلك القصة التي رواها عنه ، وعزاها سبب نظم التائية ، فقد سبق أن ذكرنا ـ على لسان النواجي ـ أن سبب نظم التائية سبب مادي صرف ، إذ الدافع المباشر هو الغيرة من شاعر معاصر له اسمه (شعبان الآثاري) الذي نظم قصيدة تائية رديئة نال بها ثلاث جوائز ، هذه الجوائز أثارت غيرة ابن حجة فدفعته إلى نظم قصيدته التائبة معارضاً بها شعبان ممتدحاً بها بدر الدين بن مزهر[1] وفي مناسبة أخرى ذكر النواجي في تعليقه على بيت ابن حجة في الفائية وهو :

كذاك دنانير الوجوه لشقوتي وفقري إذا ما أعربتُ ليس تصرف

قال : «وقد بلغه أن ممدوحه أرسل لسراج الدين الاسواني مئة دينار جائزة قصيدة امتدحه بها ، فتمنى ابن حجة أن يكون مثله ، وكان ذلك سبباً لنظم قصيدته الفائية هذه التي امتدح بها الملك على الله عبد العزيز صاحب تونس ، وقد شكا له فقرة وفاقته في البيت السابق ، ولما نظم هذه القصيدة تدخل على قاضي ركب المغاربة ، وألزمه بحملها ، وايصالها إلى صاحب تونس ، فاستحى منه وأخذها[2] .»

فإذا كان النواجي صادقا فيما ينسب إلى ابن حجة ، دلت هذه القصص دلالة قاطعة على اسرافه في التكسب بشعره ، وعند ذلك تزول دهشتنا إذا قلنا إن أكثر شعره كان مديحاً ، وعلى هذا يقسم مديحه إلى قسمين ، القسم الاول سابق ، وهو ما كان ينظمه وينقحه ويدفعه إلى الممدوح فيجيزيه عليه حسن الجزاء ، والقسم الثاني لاحق ، وهو ما كان ينظمه اعترافاً بجميل من أسدى إليه معروفا ، أو صنع معه جميلاً ، وتحت هذا النوع تندرج كثير من قصائده التي نظمها ممتدحاً بها أصدقاءه والذين قرظوا شيئاً من شعره ، وأما من حيث الجودة فإن القسم الاول وهو الذي يدبجه لينال عليه العطاء كان أجود وأرصن ، وشاعرية ابن حجة فيه أغزر .

وأجود أماديحه ما مدح بها الملك المؤيد ، فهي أطول قصائده ، إذ تصل في بعض الاحيان إلى ما يزيد عن ثمانين بيتا ، يعدد فيها مآثره ، ويستوعب فيها فتوحاته ويمجد بطولاته ، وأحياناً يمدحه مقتصرا من مديحه على البيتين أو الثلاثة . ورغم طول بعض قصائده تدفعه نفسه إلى المزيد من القول لولا ضيق الوقت فيقول :

ولو ذكرت ملوكا خالفوك وقد أمنتهم ، لاطال الشرح ذكرهم
لكن نظمت لضيق الوقت مختصرا أوجزت فيه لكي لايحصل السأم

(١) الحجة في سرقات ابن حجة ورقة ١٠٥/٢ .
(٢) الحجة في سرقات ابن حجة ورقة ٩١ .

ولو تركنا الأسباب التي كانت تدفعه إلى نظم الشعر ، وتحدثنا عن عناصر المدح في شعره لرأينا في مدحه عناصر قديمة كالمدح بالكرم والعطاء ، وما يصل بذلك من تشبيه الممدوح بالبحر ، والسحاب الهاطل ، وأنه حاتم زمانه ، وأكرم أقرانه ، ثم يمدحه بالشجاعة ، وقد كانت عنصراً نامياً في تلك الفترة ، لأن الطبقة المملوكية كانت طبقة تؤثر حياة الفروسية ، وتتفنن في القتال ، وقد مدح ابن حجة أمراء عصره ، وقادة الجند بهذا العنصر ، ولكنه لم يكن طويل النفس في المدح بالشجاعة ، وأظن أن مرد ذلك لعدم خبرته بالحروب ، وعدم تمرسه بها ، ولم يكن يؤثر عنه أنه كان شجاعاً ، ولذلك سرعان ما يقفز في المدح من الشجاعة إلى عنصر آخر .

وثمة عناصر أخرى كان يمدح بها ممدوحيه ، فمن العناصر القيم الدينية وهي القيم التي كان يتقمصها الحاكم أمام محكومية ، إذ هي الرابطة التي تربطه بشعبه ومن هذه القيم الحج ، وتجهيز المحمل ، وتشييد المساجد والعمائر الدينية ، وحماية الاماكن المقدسة في مكة والمدينة وبيت المقدس ، ورعايتها والانفاق عليها ، مثلما كان يفعل السلطان كان يفعل الامراء ، وقد كان من رسالة الشعراء آنذاك أن يسجلوا بمداد الفخر حسن صنيع السلطان ، أو الامير ، أو الاشادة بهذه المأثرة الدينية ، فإذا حج السلطان أو أحد الامراء انبرى الشعراء ألسنة مدح فاتخذوا من هذا الصنيع مادة مدحهم ، فقد يحج السلطان نفسه في سنة من السنوات ، وعندما يعود يقبل عليه الشعراء مهنئين بالعودة مادحين هذه الخلال الحميده فيه ، وفي السنة التي يحج فيها السلطان تزداد رغبة الامراء والاعيان والناس في السفر إلى الحج ، وكذلك يزداد عدد الجند والامراء المرافقين له ، وقد يرافقه قائد الجيش وكاتب السر وناظر الجيوش ، وقد يحج ناظر الجيوش وحده ، كما فعل زين الدين ناظر الجيوش الاسلامية ، وبهذه المناسبة انبرى ابن حجة يمدحه بتلك القيم الدينية فقال بعد المطلع الغزلي :

من بعـد هذا العـام حج وانما	هام الحجـاز لبـره المتداول
وعـلا الدعـا من مكة وبأهلها	ومـن المجاوز والفقـير السائل
فتقبـل الله الدعـاء لأنه	قد كان ممزوجـا بدمـع هامل
ودعـاه رب العـالمين لبيته	برواحـل لم تحتفـل بمراحل
فالحجـر زمـزم والمقـام صفاله	والبيت قابلـه بلثـم مواصل
وسقـاية العبـاس عنـد وداعه	ذرفـت محاجرهـا بدمـع سائل
وبروضـة المختـار أثمـر قربه	ودنـا قطـاف القـرب للمتناول
والأشرفية خلفـت أعتابها	مذ بشروهـا بالحبيب الواصل
ولـو استطاعـت من تزايد شوقها	كانـت الى رؤ بـاه أول راحل
فالحمـد لله الممـن بعوده	لكثـير أيتـام وفقـر أرامل
يا زين دين الله يا مـن مدحه	يرويه بعـدي فاضـل عن فاضل

وحج أمير ظاهرة فردية يقتنصها الشعراء ليقولوا فيها شعرهم ، وثمة ظاهرة أخرى أكبر منها ، وهي ظاهرة تجهيز المحمل النبوي ، وقد كانت أقطار الأسلام الأربعة تجهز محامل في كل عام وهي مصر ، والعراق ، والشام ، والمغرب ، ثم عفى الزمان عليها ولم يبق إلا المحمل المصري وتحدد بعض كتب التاريخ أولية تجهيز المحمل بعصر الظاهر بيبرس ، ولكن هذه البدعة ازدهرت ونمت في زمن المماليك الشراكسة ، وصار المحمل يخرج في كل سنة شاقا وسط القاهرة في زينة حافلة ، وحفاوة تامة ، والحمالون يحملون على رؤ وسهم الكسوة حتى يصل الى خارج القاهرة ، وكانت العناية بصنع الكسوة بالغة ، وينفق السلطان في سبيل اعدادها مالا وفيرا ، ومن الايادي البيضاء التي قدمها الملك المؤ يد تجهيز لا المحمل المصري فحسب بل والمحمل الشامي أيضاً ، فاستحق شكر الناس وثناء ابن حجة فقال :

والمحمل الشامي بعد اللنك اذ ... حنت اليه شعائر ومشاعر
جهزته ، والناس قد هامت الى ... لبيك ربا ، والرؤ وس حواسر
طاب المقام وزمزم الحادي به ... لك بالحجارة وبالـ...اق بشائر

ولم تقتصر أيادي السلطان على تجهيز المحمل فقط ، وإنما كان يأمر بالكثير من أعمال البر ، ووجوه الاصلاح ، وعلى رأسها بناء المساجد ، وخاصة بعد أن ينكبها الدهر ، كما حدث للجامع الأموي على أثر هدم المغول له ـ فنشط الملك المؤ يد لاعادة بنائه بعد حريقه ، فانتهز ابن حجة هذه الفرصة لمديحه فقال :

والجامع الأموي بعد حريقه ... قد أمسى بعدك وهو روض زاهر
وعروسه في جلوة ، وبصحنه ... تلك الحلاوة والدعا المتواتر
لو أن مشتاقا تكلف فوق ما ... في وسعه لسعت اليك منابر

وليست هذه المأثرة هي المأثرة الوحيدة للمؤ يد ، فله مآثر أكثر من أن تكون مقصورة على مصر ، والشام أو على الازهر والجامع الأموي بل شملت رعايته الحرمين والأقصى ، فحمايته تتعدى مصر والشام الى الحجاز والقدس ، وهذه المأثرة جديرة بالتسجيل والتخليد فيقول ابن حجة من القصيدة نفسها :

يا حامي الحرمين والأقصى ومن ... لولاه لم يسمر بمكة سامر
والله ان نحوك ناظر ... هذا وما في العالمين مناظر
ملك من الأنصار قد أمسى لديـ ... ـن محمد وله الأنام تهاجر

ويبلغ المدح بالقيم الدينية أقصاه عندما يجعل من المؤيد رجلا يجمع وحدة المسلمين ، وينصر الدين الحنيف فيخاطبه :

ولميت شمل المسلمين بعزمة	بها صار شمل المشركين مبددا
فلا زلت للدين الحنيفي ناصرا	ودمت على كل الملوك مؤيدا

هذه القيم الدينية بشتى أشكالها يضاف اليها المدح بالكرم والشجاعة ، هي قيم قديمة في الشعر العربي ، والعنصر الذي يبدو أنه غاب من المدح في هذه الفترة هو عنصر المدح بالانساب ، فعهدنا بالشاعر العربي أنه يتخذ من نسب ممدوحه مادة غزيرة للمدح ، وكان ذلك أيام كان العرب يحافظون على أنسابهم ، ويعتزون بهذه الأنساب العربية ، ويعتبرونها من مفاخرهم .

أما في العصور التي تلت وخاصة في العصر العباسي والعصور التي تلته ، فضاعت الأنساب العربية ، وتداخلت وشائج القربى . ولم يعد الدم العربي دما عربيا خالصا ، وانساح العرب في عرض الدنيا وطولها ، ونشأت طبقة مهجنة ، قيض لبعضها أن يتسنم المناصب الكبرى ، فلم تقم لعنصر النسب كبير وزن ، اذا ذكرنا كل ذلك ووصلنا الى العصر المملوكي وجدنا أن الأمر أدهى وأمر ، فطبقة الحكام - الآن - لا تمت الى العرب بأدنى صلة ، فكلها عناصر أعجمية وافدة على بلاد العرب ، وأغلب حكام وأمراء هذه الفترة لا يحفظون من أنسابهم أكثر مما يرقى بهم الى أسماء آبائهم أو الجد الأول لهم ، واذا كان ثمة مزيد فهو انتسابهم الى التاجر الذي جلبهم من مواطنهم وعرضهم في سوق النخاسة أو نسبتهم الى الأمير الذي كانوا بخدمته ، ولكل هذا وجدنا أن المدح بالأنساب غير موجود ، وليس من الطبيعي أن يكون موجودا ، وقد جدت قيم جديدة أخرى استعاض بها الناس عن الاعتزاز بالأنساب ، وهي المهنة التي يعرف بها الشخص ففلان قاضي القضاة ، وفلان كاتب السر ، وفلان منشيء ديوان الانشاء الشريف ، وهذه القيم الجديدة حلت بعض الشيء محل القيم القديمة ، ولذا أصبح المرء يمدح بكونه قاضيا أو كاتبا ، ويستتبع ذلك أن العناصر التي يمدح بها ينبغي أن تكون من ملازمات المهنة كحذقه فن الترسل والانشاء ، والتمكن من الأدب والمعاني والبديع ، وما يتطلبه منصب القاضي من الخطابة والمنطق والعلوم الاخرى ، فلذا أصبحت هذه العناصر هي العناصر التي يستمد منها الشعراء مادة مديحهم ولما كان أغلب الذين مدحهم ابن حجة من أرباب الأقلام فلا غرابة أن نجد مدحه لا تقان صناعة القلم ، وحذق اليراع يستأثر بالكثير من شعره ، وما أكثر ما ورد ذكر اليراع والقلم في مدحه ، فاذا مدح عبد الكافي الشهير بابن الفتيان قال في مدحه :

ذو يراع أمسى فصيح لسان	صادقا ، في حلاوة الخط محكم
واستمدت أقصاب ذي الأرض منه	فأتت حلوة المذاقة في الفم

وكذلك ابن منهال :

أقلامه من مذمات مبرأة	وما جرت - قط - في قطع لاوصال
اذا تناولت الأقلام راحته	تقول : ما قصبات السبق الالى

وفي صفة أقلام ابن مهاجر يقول :

أقلام علم في بحار أكفه — يأتي كموج طرسه بجواهر
وكأنما لمع البراع بكفه — برق تألق في سحاب هامر

أما ممدوحه الأول محمد بن البارزي أولى من يمدح بأقلامه ، وهو صاحب ديوان الانشاء ، لذا قال في أقلامه :

أقلامك السمر الرشاق اذا انثنت — أبدت لنا سحرا حلالا طيبا
وسرى نسيم الذوق في قصباتها — فغدا بها بين الأنام مشببا
فلأجل ذا ان رجعت أقوالها — لم تلق إلا مرقصاً أو مطربا

وكذا في مديحه لشرف الدين مسعود ، ولبرهان الدين بن جماعة ، ولو ذكرنا كل ما قاله في الأقلام ومدح أربابها بها لطال بنا الحديث ، ولكن ربما يرد على الذهن أن وصف اليراع في عداد المديح لا يتجاوز البيتين أو الثلاثة ، كما رأينا ، ولكن الاستقصاء دل على أنه يطنب في وصف الأقلام في أماديحه ، فمثلا ، لو أخذنا هذه الأبيات من قصيدة يمدح بها علاء الدين بن أبي البقاء ، ويتحدث فيها عن يراعه فيقول :

له يراع سعيد في تقلبه — ان خط خطا اطاعته المقادير
محبر وبتحرير العلوم اذا — جرى يرى منه تحرير وتحبير
غصن عليه طيور العلم عاكفة — وجانس النور من أوراقه النور
وأشقر يده البيضاء غرته — له الى الرزق فوق الطرس تسيير
بل أسمر عينه الكحلاء تلحظنا — وهدب أجفانها تلك التشاعير
أو سهم علم بأطراف السطور غدا — عريشا وله في الضد تأثير
وقد أقام حدود الله في يده — ولاح في مهج الأعداء تشطير
قلنا ـ وقد لاح ـ هذا ذو الفقار بدا — لنا بكف علي وهو مشهور
كذا محابره سود العيون فان — دانت أياديه ، فهي الأعين الحور

والأبيات كما رأينا كلها في وصل اليراع ، باستثناء البيت الأخير فانه في وصف المحابر والمحابر من لوازم اليراع فلا نشاز اذا لورودها هنا ، واليراع هو وسيلة الكتابة والانشاء فلذا عندما يمدح ابن مكانس يمدحه بأنه عندما ينشىء رسالة ينشىء من يستمع اليها ، وأما نظمه فالدر ، ومعانيه فربات الخدور : قال :

وفي الترسل صدقنا رسائله — ينشي فينشي وينسى ذكر من سلفا
ونظمه الدر لولا أن سما رتبا — لودت الشهب أن تمسى له شنفا
ذوات خدر معانيه فان برزت — من البيان ، عليها أسبلت سجفا

ولا شيء ينشيه كالانشاء ، ففي مدحه للمقر الاميني أعجبته سجعات انشائه فمال بها سكرا قال :

وان طاف من انشائها كأس سجعة ... على سمعنا ملنا لانشائه سكرا

وفي مدحه لزين الدين ناظر الجيوش يتذكر إمام الانشاء الأول القاضي الفاضل :

وغدا بانشاء المكارم فاضلا ... والناس قد هاموا بانشا الفاضل

وقد يوقعه الإعجاب بشخص فيجعله أمام المنشئين كإعجابه بانشاء عبد الكافي الشهير بابن الفتيان صاحب ديوان الانشاء بالممالك الطرابلسية قال :

كاتب السر والذي في المعاني ... كم حديث بفعله قد تقدم
حين وافى للمنشئين إماما ... خلفه كم صلى بليغ وسلم
نظمه في الأسماع سحر حلال ... وهو أحلى من العتيق المحرم
نثره ودت العقول العوالى ... أنها في أسلاكه تتنظم
يا إمام العلوم يا من اذا قا ... ل مقالا كل الورى تترنم

وليس هذا أول كاتب سر صرح باسمه ، فابن البارزي ممدوحه المفضل هو كاتب السر الأول والخطيب المفوه ، فلا أقل من أن يظفر منه ببعض الأبيات تشير الى هذه الصفحات قال :

وكتابة منسوبة لكن الى ... غير الكمال وحقها لن تنسبا
واذا تسنم دورة من منبر ... لخطابة فابن الخطيب هنا هبا
يا كاتب الأسرار يا من فضله ... قد جمّل الدنيا وزان المنصبا

وهو يعجب بالخطيب إعجابه بالمنشيء ، وخاصة اذا كان الخطيب متمكنا من علمي البيان والبديع كما هي الحال عند ممدوحه محمود خطيب الدهشة الذي يشعر ابن حجة بتواضع أمام نظمه :

فهو مفتاح باب كل بيان ... بجنان ينشى بديع البديع
فاذا ما نظرت زهر معانيه ... تنزهت في زمان الربيع
ان أنا كان قد حلا عذب نظمي ... فهو من أصل ذلك الينبوع
ذو علوم تحجبت عن سواه ... فتسمت ذات الجناب الرفيع
ان علا عود منبر كاد يجري الـ ... ماء في العود من مسيل الدموع
وإذا قال خطبة تنشيء النا ... س بإنشاء ذلك التسجيع

وما دام ابن حجة شاعرا فهو يحب الشعراء من ممدوحيه ، ويثني عليهم بهذه الخصيصة التي خص الله بها الشعراء ، فأبو بكر العجمي :

له نظــام غدا منــه الشفــاء لنا لأنــه قد أتانــا فيه بالحكم
تمسـك الشعــرا منــه بطيب شذى مثلي فضاع الشـذى من طي نشرهـم
ورخصــوا بشـــذاه كل غالية والمسـك كاتبهـم من عنــد عبدهـم

أما ابن مهاجر فليس مجرد ناظم ، وإنما لديه من الكتب ما يغني عن الكتائب :

وكأنمــا لحظــات سحــر نظمه ترنــو اليك بهــا لحــاظ جآذر
يغنيك عن جمـع الكتائــب كتبه واللفــظ يغنــي عن حســام باتر

وأما ابن منهال فانه يمتاز عن سابقيه بحذقه للمنطق والنحو :

ذو منطــق لي قد أبــدت نتائجه مقدمــات الوفــا من غــير أشكال
ونحـــوه فيه تســـهيل لطالبه مغنـــي اللبيب بأفعــال وأقوال

ومن ممدوحيه من كانت صفاته كثيرة ، فهو متفرغ للعلم الشريف ، شاعر الفقهاء فقية الشعراء ، إمام في النحو ، مرجع في التفاسير ، خليل عصره في العروض ، وابن مقلة زمانه في الخط ، بز صفي الدين وابن الوردي ، وفاق المتنبي بحسن نظمه ، ذلكم هو ابن قاضي أذرعات :

تفــرغ للعلــم الشريف بعزمة بهــا صار لما أن تصــدر مشغلا
(فاشعر أهل الفقـه) أضحـى يعلمه و (أفقه أهـل الشعـر) ذوقـا تأصلا
وفي (النحو) لو أن ابن مالك حاضر له صار مملــوكا وان عز بالولا
وقد حاز فهما با (التفاسير) قد غدا على صاحـب الكشـاف سـترا مجللا
وفي الـوزن لو جاء (الخليل) موازنا تقطــع غبنــا قلبــه وتفعلا
وفي (الخط) انسان ابن مقلة لو رأى كتابتــه حقــا لكان تمثلا
وفي (النظم) لو أن (النباتي) حاضرّ لذاب ، هكذا القطر النباتي تعسلا
وأظهر تكرير (الصفي) وأبى الصفي وطــاب (لعــز الــدين) أن يتذللا
ولــو عاين الــوردي زهــر نظامه لقـال لهـذا الــروض وردي تذبلا
كذا المتنبــي لو أتــى في زمانه لكان لابوابــه صار مرسلا

ومن ممدوحيه من كان من أرباب السيف تارة وأرباب القلم تارة أخرى كشرف الدين مسعود الذي :

اذا هز في يوم الخطــوب فعامل وان هز في يوم الخطــاب فعالم
أمــام علــوم بالــرواية نافع له منـزل القـرآن بالفضـل عاصم
وكم من كنــوز في العلــوم موانع له فتحـــت لما غدت وهــو حاكم

وكل ما مر من مدح ابن حجة مقبول ، ولكن أن يمدح الرجال بالجمال ، فذلك هو النغم النشاز في هذه الانشودة مثال ذلك ما مدح به استذمر بن يعقوب شاه .

نبـي جمـال بل نبـي مكارم لنا في وفاكيل المكارم لم يقل : كلا
اذا ما عـلا من فوق أفـلاك ظهره تقـل ان بدر التـم في أفقهـا حلا

ولكن يشفع لابن حجة أن ذلك قليل جدا في شعره .

رأينا من كل ما مر معنا ان ابن حجة كان يمدح الرجل بما فيه من صفات حقيقية ، مبرزا الصفة التي حذق فيها أكثر من غيرها ، ولكن ثمة ظاهرة أخرى في مدحه وهي استثماره لاسم ممدوحه أو كنيته أو لقبه أو حتى عمله ، وادخال ذلك في العملية الشعرية ، ولو كانت الظاهرة لا تتعدى بضعة أبيات في قصائده المختلفة لتجاوزنا عنها ، ولكنها ظاهرة طالما رددها في كثير من قصائده ، مثال ذلك استثمار اسم ممدوحه قاضي القضاة علي بن أبي البقاء قال في مدحه :

قلنا وقد لاح : هذا ذو الفقار بدا لنـا بكف (علي) وهـو مشهور
فقلت : قد قر قلبي في دمشـق ولي من فضل (قاضي قضاة) الشام تقرير

وقال من قصيدة يمدح بها زين الدين بن العجمي :

كأنـه نظـم مولانـا وسيدنا شيخ الفضائـل (زين) العـرب والعجم

وفي مدحه لشرف الدين مسعود قال :

له قد غدا سعـد السعـود ملازما فسمـي (مسعـودا) بأسعـد طالع

وعند مدحه لأبي بكر بن العجمي قال :

وشيعـي همـي كلما رام بعدكم يحاربنـي ناديت لابـي بكر
لان (أبـا بكر) أمامـي وحبه غدا سنتـي ، وهـو المقـدم في الذكر

وثمة ملاحظة أخيرة على مدحه ، وهي أنه ما مدح انسانا ، وعاد الى مدحه مرة ثانية باستثناء ولـي نعمته الملك المؤيد وناصر الدين البارزي ، فقد ظفر كل واحد منهما بقصيدتين طويلتـين من شعـره ، وبعض المقاطيع مدح بها المؤيد ، فهل تفسير ذلك أنه ينقض بكلية شعره على ممدوحه ليبتز منه شيئا من المال . فاذا حصل على بغيته فترت همته تجاهه ، واستجمع قواه من جديد لينقض على ممدوح آخر ؟ لهذا السؤ ال بعض ما يرجحه في شعره .

والملاحظة الختامية التي ننهي بها موضوع مدحه هي أن هذه الظواهر التي تحدثنا عنها في مدحه لم يكن ينفرد بها وحده وإنما أكثرها ظواهر عامة شاعت عنده وعند غيره واستثمرها شعراء العصر ، وكانت من القيم التي أقاموا عليها مدحهم .

التهاني : وفي شعر ابن حجة فن آخر ، اشتهر في أدبه شعرا ونثرا ، وهو فن التهاني وشعر التهاني نوع من شعر المدح الذي يقوله الشاعر في مناسبات معينة تفرض نفسها كقدوم عيد أو التهنئة بمولود ، أو التهنئة بعودة مظفرا من معركة انتصر فيها الممدوح فينتهز الشاعر مثل هذه المناسبات ليقدم شعر الممدوحية ، . وقد ترك ابن حجة مجموعة كبيرة من التهاني بمناسبات متعددة ، ولكن أكثرها كان نثرا ، أورده في قهوة الانشاء بيد أن الذي يهمنا هنا ما جاء منها شعرا .

فمن هذه التهاني ما قاله بمناسبة شفاء الملك المؤ يد من مرضه ونظم قصيدة ميمية بعد أن أبل السلطان من مرضه ، وواكبت هذه المناسبة أكثر من مناسبة أخرى فصادف ذلك يوم مجيء ابنه عائدا من غزوة بلاد الروم مظفرا وقدوم العيد ، فكانت مجموعة من المناسبات جديرة بقصيدة من قصائد ابن حجة ، لذا قال مبتدئا بالتهنئة بالشفاء .

الحمد لله زال البؤس والألم ... وعوفي العدل والمعروف والكرم
حتى نسيم الصبا المعتل صح بكم ... وصار من بعد ضعف عنده شمم
وأعين الغيد قالت قد رضيت بأن ... يكون في وفي اجفاني السقم
فالشكر لله هذي منة حصلت ... بنشر فضل لنا في طيه نعم
وتستحق مقال ابن الحسين وما ... قدر ابن حمدان ان غالوا وان نظموا
نعم ، نعم أنت يا سلطان ملتنا ... اذا سلمت فكل الناس قد سلموا

ثم ثنى بالتهنئة بعودة ابنه ابراهيم مظفرا من بلاد الروم وقدومه مع قدوم العيد فقال :

وساق كل عصاة الروم خاضعة ... تمشي اليك وقد زلت بها القدم
والعيد وافى وابراهيم عاد الى ... حجر المؤ يد والأيام تبتسم
شبابه الغض قد زادت نظارته ... لكن ما قدامه قد شابت اللمم

وهنأ ابن حجة المقر الأميني بقصيدة بمناسبة حلول عيد الفطر فقال عن قصيدته التي زفها اليه بهذه المناسبة :-

تهنى بعيد جاء من غير وقفة ... لأول شهر قد تهلل بالبشرى

ومن التهاني نوع آخر يسمى البشائر ، فقد كان لابن حجة صديق يسمى أبو الحسن علي البهاء الشهير بالغزولي ، وقد حصلت بينهما جفوة ، وفي يوم من الأيام قدم على ابن حجة مبشر بعد طول مدة ، فكتب ابن حجة بشارة وأرسلها للغزولي وقال فيها :

مرحبا مرحبا بداعي الهناء ... ذهبت دولة الجفا والتنائي
وأتاني من الحبائب بشرى ... صادق النقل زائد في الذكاء
هب من حبهم فأحيا فؤادا ... كان بالهجر ميت الاحشاء

ومن تهانيه لأصدقائه تلك القصيدة التي كتب بها الى صديقه القاضي شرف الدين مسعود من حماة الى طرابلس مهنئا له بعوده الى وظيفته بعد أن أقصي عنها قال :-

أتـى الدهـر يبـدي عذره وهـو نادم ... ولـولا الـرضى عنـه أتـى وهـو راغم
رأى عزمـة منصـورة شرفية ... وأيدهـا سيف من الشرع قائم

وبعد أبيات طويلة في التهنئة والمدح يختم القصيدة بقوله : -

فأيامنـا أعيادهـا مستمرة ... تقضـت لديكم والليالي مواسم
فلا زلـت دومـا للمـكارم مثمرا ... ونحـن بهـذا السجـع فيه حمائم
ولازلـت مسعـودا وحكمـك نافذ ... ومدحـك في ايدي الزمـان خواتم

وهكذا أكثر قصائده في التهنئة . يختلط فيها المدح بالبشرى بالتهنئة ، ولذا أتبعناها بالمدح مباشرة .

الفخر : لقد سبق أن قلنا اثناء حديثنا عن حياة ابن حجة وصفاته وأخلاقه بأنه كان كثير الاعتداد بنفسه ، مختالا فخورا ، يزري بكثيرين من شعراء عصره ، ولهذا لا غرابة أن نجد في شعره لمحات كثيرة من الفخر والاعتزاز ، وتعريضات جمة بشعر الاخرين وأدبهم ، وهـذا الاعتـداد بنفسـه ، وما يستتبعـه من الازراء بالآخرين هو الذي دفع أدباء عصره الى مناهضته ، والانصباب عليه محاولين التقليل من قدره ويبدو أن ابن حجة كان فعلا مسرفا في هذا الاعتداد بلا حدود ، حتى أن النواجي ذكر عنه ما سلف ذكره في صفاته ، ومهما يقال في فخره واعتداده ، والتهم التي ألصقت به من قبل خصومه وتزيدهم عليه ، فالذي يهمنا هو تحليل هذا الفخر من خلال شعره وتبيان القيم الجديدة التي أخذ شعراء هذه الفترة يعتزون بها ، ذلك لأننا عرفنا عن الشعراء القدامى أنهم يفخرون بعراقة أنسابهم ، وعمق جذورهم في المشهور من القبائل ونقائض فرسان البلاط الأموي تستمد أكثر مادتها من هذه القيم ، وعندما آلت الأمور الى بنى العباس ، وتطـور المجتمع العربي الاسلامـي تطـورا بعيدا ، وتضعضعـت الأنسـاب بقيت هذه القيم مسيطرة على أذهـان الشعراء . واذا كانت تعوزهم عراقة الأصل العربي صليبة فلا أقل من تمثلها ولاء ، كما يتبدى بشكل واضح عند بشار ، وعند الكثيرين من الشعراء المولدين والمحدثين ، وعندما دالت دولة بنى العباس التي لم تكن تمثل النفوذ السياسي فحسب ، بل وتمثل عراقة النسب بانحدارها من أصلاب لها في الاسلام سابقة عميقة ، أقول عندما دالت دولة بنى العباس ، وتكالبت الأمم الوافدة من العجم والاتراك على الحكم ، وأصبحت السلطة والسلطان دولة بينهم ، وانحلت عرى الاعتزاز بالنسب العربي ، وأضمحلت الوشائح التي تربط الناس بالأرومة العربية الاصيلة . وأصبحت طبقة الحكام ، وخاصة في العصر الـذي نتحـدث عن أدبـه وأدبائه لا تمت الى العروبة بصلة ، وقد أصبحت في هذه الفترة ، والفترات السابقة لها أغلب الأسر والقبائل العربية العريقة أو المنحدرة من الأسرة التي أسهمـت في الحـكم ، وتـوسيع الامبراطـورية الاسـلامية . أصبحت عرضة لسهام المغيرين من المغول والتتار والاتراك ، لان المغيرين كانوا يخشون عودة اليقظة لهذه الاسر التي كانت تمثل البقية الباقية من العناصر العربية التي يمكن أن يلتف العرب حولها .

واذا كانت الانساب قد تضعضعت في العصر العباسي تضعضعا كبيرا ، فانها قد ضاعت انسابهم ، ولم يعد الشاعر حريصا كل الحرص على التماس النسب الصحيح له . ومن هؤلاء الشعراء شاعرنا ابن حجة ، وعودة أخرى لحياته تذكرنا بأن كل ما نعرفه من نسب ابن حجة ينتهي عند جده الأول ، وليس غير ، وان كان بعض الشعراء في هذه الفترة أخذوا يلفقون لهم أنسابا قد تكون موضع ريبة في صحتها الا أن ابن حجة لم يكن كذلك . وقد انسلخ عن كل القيم القديمة في الفخر ، فلا أصل عريق يعتد به ، أو يجعل له سابقة في الأدب أو النسب ، ولا شجاعة لديه تجعله كأبي فراس والمتنبي ولا غنى وفير يرقى به الى مرتبة حاتم وغيره ، فلذا خلا شعره من كل فخر يتصل بالاعتزاز بقومه وسراة قبيلته ، كما خلا من الاعتزاز والفخر بالشجاعة والكرم وما يمت اليهما بصلة ، واذا فماذا بقي لابن حجة ؟ وما هي قيم الفخر لديه ؟ وما هي العناصر التي كان يتخذها مادة لفخره .

وأخصر ما يقال في هذا المجال أن القيم التي مدح بها أعيان بلده وعصره هي القيم التي كان ينبغي ان يصطنعها لنفسه ، ويجعل منها مادة اعتزازه ، ولذلك انصب فخر ابن حجة على الافتخار بهذه القيم التي سادت ، وتواضع الناس عليها في هذه الفترة ، وأصبحت مجال اعتزاز وموطن فخر . ونصيب ابن حجة منها حذق الشعر ، والتفوق في النثر ، وحوك القصائد ، واحكام الترسل ، وما الى ذلك من هذه القيم ، لذا فلا أقل من أن يقول ابن حجة مخاطبا دمرداش الحاكمي : -

فان كنت سيف الدولة اليوم إنني	أنا المتنبي الان في معجز الشعر

وقد يغيظه حساده فيضطرونه الى الاغراق في الفخر ، فيقول مخاطبا ابن مزهر : -

والله ما شاعر الدنيا سواي ولم	تسمع لغيري في عصري مقالات
قالوا : نراك بليغاً ، قلت : لي أدب	له بأعلى بيوت الشعر طاقات
قالوا : وأثبت هذا الأمر قلت لهم :	لي عند قاضي قضاة العصر اثبات

واعتداد ابن حجة لا يعرف التواضع ، ولذا أكثر من هذا المعنى ، وهو أنه شاعر الدنيا فكرره في مدحه للقاضي زين الدين ناظر الجيوش المنصورة بالممالك الاسلامية ، وأزري بمن خاصمه فقال :

أنا شاعر الدنيا ، ومدحك شاهدي	وسمعت في الانشاء بديع رسائلي
والغير ان قاسوه بي من جهلهم	حاشاك قس ما يقاس بباقل

ولم يكتف بالاعتزاز بأنه شاعر الدنيا ، بل تعدى ذلك الى الفخر بنفسه بأنه منشيء العصر كما قال في قصيدته التي مدح بها المتوكل على الله صاحب تونس ، قال :

وقد قيل انـي منشيء العصر شاعر الـ	زمان وها قد جاءكم من يعرّف

ويستغل ارسال قصيدته هذه للمغرب ، وهو يعلم صلة لسان الدين بن الخطيب بالمغرب فيجعل من

نفسه ومن لسان الدين فرسي رهان في مدح أهل المغرب وبخاصة في فن التورية الذي يحذقه ابن حجة فقال :

ونظم التواري عندك اليوم عارف ... به ، ولسان الدين قد كان يعرف
فلم تر مثلينا وكم رام شاعر ... يورى نظاما فاعتراه التعسف

ولم يكن افتخاره بملكية الشعر أمام عامة الناس وخاصتهم ، بل أدعى ذلك أمام الملوك ، فما يؤثر عنه أنه خاطب الملك المؤيد بقوله :

فلا شاعر - والله - مثل ابن حجة يفتخر بأنه شاعر العصر ، ولكن أنى له كالمؤيد بتذوق شعره فيذيقه العزة فقال :

وأنا اليوم شاعر العصر لكن ... لم أذق من بعد المؤيد عزة

وقد يدفع الفخر ابن حجة الى الاعتداد بشعره ، فاذا كان المؤيد خاتم الملوك والسلاطين .فابن حجة خاتم الشعراء . قال

ختمت من برزوا بالشعر ثم بكم ... والله كل ملوك العدل قد ختموا
هذي بلاغة شعر كله غرر ... يود أنفس درّ فيه ينتظم

والمعهود في الشعراء أن فخرهم يتضاءل في ثنايا مدحهم ، وان تلاشت كل عناصر الفخر عندهم فافتخارهم بشعرهم يظل ماثلا ، وهذا ابن حجة عندما أقدم على مدح ابن البارزي دفعه الاعتزاز الى ان يجعل كل شاعر دونه مهما علت رتبته فقال :

لكن اذا ذكروا بديع مدائحي ... في البارزيّ فكل فوق دوني

وخشي ابن حجة أن ينتقده منتقد على هذا الاسراف في الفخر ، فاستدرك ليدفع الشك باليقين فقال :

ما القصد فخري انما أنا عبده ... فالشك أرفعه بحسن يقيني
الغصن يسقيه ، وغصن يراعه ... يسقى الورى لكن أنا ينشيني

ومن الغريب أن يقع ابن حجة في التناقض احيانا ، فبينما هو يفخر اثناء مديحه لابن البارزي هذا ، ويشير الى ان كل شاعر دونه ، اذا به يعتذر عن قصور شعره وضعفه لكبر منه فقال :

ان جاء نظمي قاصرا من ضعفه ... عذرا فهذي نشطة الخمسين

وان كان ابن حجة يفتخر بشعره عامة ، فهو يفتخر بقصيدته خاصة ، فهي تارة عروس يزفها للممدوح ، وتارة أخرى طفلة حموية لاكفء لها الا الممدوح ، ومرة ثالثة يجلوها حورية عيناء يحملها الى بيت ممدوحه ويترك له تقدير المهر ، ففي مدحه لابن أبي العلاء يقول :

خذها قصيدا حديث الجود صح بها   لأنه عنك بالاسناد مأثور
حوريّة الحسن ما تبدو لغيركم   فحسنها في خيام الطرس مقصور
قطر النباتي أضحى من حلاوتها   في ذوقهم ليس يحلو منه تكرير
عارضته في قوافيها فبان له   - بلا طويل - نهار العرض تقصير

وينتهز الشاعر قدوم العيد ليزف للمقر الأميني طفلة حموية لم يجد كفؤا لها الا الممدوح واذا كان بها من عيب فانما هو ان الشاعر لم يحسن زفافها والباسها ما يليق بالممدوح لضيق ذات يده فيقول :

فخذها عروسا طفلة حموية   ومولاي نعم الكفء فاستجلها بكرا
وان كنت لم أحسن اليك زفافها   فأسبل عليها من محاسنها السترا
قصيد قراها منك حسن قبولها   وصدق يقيني قاطع أنها تقرا
تهنى بعيد جاء من غير وقفة   لأول شهر قد تهلل بالبشرى
بأمن سلكت السهل في طرق نظمها   ومن خاف - لاتعجب - اذا سلك الوعرا
وأبيات نظمى بينات كثيرة الـ   معاني ولكن هذه الآية الكبرى

وهذه الطفلة الحموية كثيرا ما عرضها على البعول ، وبحث لها عن الأقران ، وربما جاءت في هذه المرة بأجمل زينتها ، فوصفها لنا وصفا مستفيضا لا نقع عليه في مكان آخر ، وزفها الى موفق الدين المرادي الخبيلي ، ويبدو أن الاستفاضة في الباسها أجمل ما عنده من الثياب ، وزخرفتها بأحسن ما تزخرف العروس لالغناه الان - فهو دائما فقير - ولكن لأنه يعرضها على ممدوح كثرت عليه العرائس من نوعها ، فاختار لها أحسن ما عنده من ثياب لعل ذلك يكون شفيعا لها فتظفر بالقبول قال :

خذها عروسا طفلة حموية   بحلى مدحك في البرايا تزدهي
في عطفها ميد الصبا وشرابها   مستعذب في الذوق لم يتسنه
بتغزل مذ غازلته عيونها   دع عنك عنترة ووصف المهمه
جاءتك في حلل الفصاحة تنجلي   قمرا على ذات القميص النوله
والله ما شببت في معنى بها   الا وأمسى كل قلب ملتهي
صفديهم لو ذاق طعم شرابها   بالاتسها الصفدي لم يتشبه
أو لو رأى السبكي سبك نظامها   طليت عليه بذلك السبك الزهي
في العلم قدرهما أجل وانما   جاريت نظمهما بحسن تفوه

وأتيت أسأل سيدي قاضي القضا ... ة الحكم في هذا بخاطره البهي
فاذا رأيت قصيدة قد قصرت ... عن شأو من قبلى لطول ترفهي
احكم عليها بخلعها من عصمتي ... يا خيلى فالخلع عندك ينتهي
لو شئت كنت مطولا في نظمها ... لكن أنفت من الغثيث الأشنه
وكرهت لفظ (الأصقه) و(الانفه) ... و (المدلهي والمدرهي والسمهي[1])

وحتى النويري الذي مدحه بالقصيدة المصغرة أبى الا أن يزف اليه عروسا (صغيرة) كما وصفها هو فخاطبه قائلا :

دوينك من عبيدك يا سيدي ... نظيم كالعقيد على النحير
قصيدة عربية خويدا ... تقول : ذويق مولانا مهيري
غريبة يتيمة بكيرا ... فعطفا لليتيمة البكيري
سويكنة خديرا من بديع ... نفيث السحر من ذاك الخدير
نفيس نظيمها لسويمعيها ... أحيلى من نسيمات السحير
قصيدة الصفى غدت لديها ... خويدمة على باب المشير
قليلة كثيرة المعاني ... بويدية لمولانا عذيري

ويعود فيزف للقضامي عروسا أخرى ، ولكنها بلا جهاز ، ورغم ذلك فهي تفوق ما صنعه الطائي والبختري قال فيها :

فخذها عروسا من ملاك فقيرة ... وحقك لولا الطرس كانت بلا مرط
وان لم أكمل بافتقاري جهازها ... اليك فبالستر الجميل لها غط
وان شملتها منك نظرة قابل ... تفق بعقود الحلى مادية القرط
وتسمو على الطائي قدرا بطائها ... وما أنا أعطيهم بما قلته خطى
ولو قرعت شمل الوليد بشعرها ... لشاب انذهالا رأسه وهو في القمط

وقد كنا في غنى عن ايراد هذه الأبيات الأخيرة ، لأنها لا تزيد في معانيها عن سابقات اذ أننا أوردنا نماذج كثيرة من اعتزازه بقصيدته ، لولا أن في هذه الابيات الأخيرة ظاهرة جديدة من ظواهر الاعتزاز والفخر عند ابن حجة ، وهي انه يقيم فخره أحيانا على الازراء بالآخرين والحط من قيمتهم الأدبية والشعرية ، وهذا النوع ليس قليلا في فخره ، وهو يقسم الى قسمين : قسم كان يزري فيه بالشعراء القدماء والأموات من باب التعريض بأن شعرهم لا يضارع شعره الذي قيل في مثل هذه المناسبات ، وهذا من باب التنطع ، ولم يكن له مردود كبير في حياة ابن حجة ، ولكن القسم الثاني وهو التعريض بمعاصريه من الشعراء والازراء بهم والحط من قيمتهم الشعرية والعلمية فقد جلب له الكثير من الخصومات ، وانبرى الكثيرون لهجائه .

---

(١) هذه الألفاظ من الألفاظ الغريبة الثقيلة التي أخذها على من عارضهم في استعمالها

وآخر بيتين قرأناهما قبل قليل فيهما تعريض بأبي تمام الطائي والبحتري ، وبأن قصيدته هذه ـ الطائية تسمو على ما قالاه ، وليس هذا فحسب ففي مدحه لابن الشهيد قال معرضا بالقاضي الفاضل والعماد الكاتب والازراء بهما قال :

يا فاضل العصر ما عبد الرحيم وما   بيسان أنت بك الأمصار تفتخر
وما العماد ونظم الفتح أنت هو   الفتح المبين وقد سارت لك السير

ورأينا كيف أنه يزهو بقصيدته المصغرة على قصيدة صفى الدين أيضا عندما قال : ـ

قصيدة الصفى غدت لديها   خويدمة على باب الستير

وقد أزرى بصفي الدين الحلي في أكثر من موضع فقال مرة : ـ

قالوا صفى الدين أشعاره   ما للورى في طرقها مشى
وهكذا انشاؤه مسكر   قلت لهم : والله ما أنشا

ورغم اعجابه بابن نباته ، فانه لم يسلم من لسانه بل شمله ما شمل غيره من الازراء فقال معرضا به ، وبأن ابن حجة حاز قصبات السبق عليه :

قطر النباتي أضحى من حلاوتها   في ذوقهم ليس يحلو فيه تكرير
عارضته في قوافيها فبان له   ـ بلا طويل ـ نهار العرض تقصير

وابن حجة يحمل الفخر بقصائد شعره أنى سار ، ويبثه في ثنايا منظومه ، فاذا تواضع ، ولم يقل انه شاعر الدنيا ، اتجه الى شعره فوصفه بأنه مسك يضوع شذاه في البرايا ، وعلى ممدوحيه ألا يقدموا أحدا من الشعراء عليه ، يقول مخاطبا ابن الفتيان :

يا امام العلوم يا من اذا قلـ   ـت شعرا كل الورى تترنم
ونظامي مسك يضوع شذاه   في البرايا لكن بمدحه يختم
لا تقدم غيري على بنظم   فأبو بكر الامام المقدم

وهو كثيرا ما يصرح أمام ممدوحه باسمه ، ويستغل هذا الاسم استغلالا كبيرا في شعره ويتخذ منه عادة للفخر ، للتوافق بين اسمه وأسم الصديق أبي بكر ، وما دام الرسول قد قدم أبا بكر في مناسبات كثيرة ، فما أحرى ممدوحي ابن حجة بأن يقدموه كما قدم ابو بكر ولذلك يتردد هذا المعنى في شعره كثيرا . من ذلك قوله :

سعت من (أبي بكر) لأحمد مدحة   وأحمد من أولى الورى بأبي بكر

وفي مناسبة أخرى قال :

به (أبو بكر) قد أضحى بمدحته   مقدما ما له في السبق تأخير

وكثيرا ما يقرن أسمه (أبو بكر) مع محمد فيصبحان متلازمين في النسب كقوله :

خذ مدحة من (أبي بكر) مقدمة   الى محمده والوصف محمود

وفي مكان آخر قال :

ويا ناصرا بالسيف دين محمد   بحقك لا تنسى حقوق (أبى بكر)

وحتى أنه يستغل تسميته هذه للاشارة الى تقدمه على خصومه فيقول :

فقل لخصمي (ابو بكر) له ثبت التقـ   ـديم دع شيعة بالغبن قد ماتوا

وما دام ابن حجة يستغل اسم (ابو بكر) في مدح الناس ، فما اجدره بان يستغله في مدح خير الانام ، لان اسم الممدوح له صلة باسم المادح ، فلهذا السبب كثر هذا المعنى في مدائحه النبوية ، ولم تخل واحدة منها من هذا المعنى وقد فصلنا هذا الاستغلال في المدائح النبيوية فلا نرى مبررا لاعادته هنا .

وهذه القيم التي اخذ ابن حجة يفتخر بها كالصنعة واستغلال الاسم عدة من لم يجد قبيلة يعتد بها او اصلا راسخا يعتز به ومثله في ذلك ، وقد اخذ يعتز ويفتخر بعمله وشعره وادبه واسمه مثل من لم يجد ماء زلالا (فتيمما) أو كانه تمثل بقول ابي الطيب :

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي   وبنفسي فخرت لا بجدودي
ان أكن معجبا فعجب عجيب   لم يجد فوق نفسه من مزيد
أنا ترب الندى ورب القوافي   وسمام العدى وغيض الحسود

ولكن هذه أبيات قدت على قدر المتنبي ولا تصلح لانسان سواه .

الوصف :

الوصف احد الفنون الشعرية التي لا يكاد يخلو منها انتاج شاعر ، قال ابن رشيق «الشعر الا اقله راجع إلى باب الوصف ، ولا سبيل إلى حصره واستقصائه وهو مناسب للتشبيه ، مشتمل عليه ، وليس به الانه كثيرا ما يأتي في اضعافه او الفرق بين الوصف والتشبيه ان هذا اخبار عن حقيقة الشيء ، وان ذلك مجاز وتمثيل»[1] .

وقد لا ينظم الشاعر قصيدة بعينها كاملة في الوصف ، ولكنه يكون في ثنايا المديح والرثاء والهجاء والنسيب وما إلى ذلك وقد يستبد بالشاعر منظر من مناظر الطبيعة الخلابة او ظاهرة من ظواهرها فيعمد إلى وصفها ، واستقصاء جزئياتها وتسجيل هذا بقلمه الشاعر .

والوصف ـ كبعض الفنون الأخرى ـ فن كان لشعر ابن حجة منه نصيب ، ولم تخل منه اماديحه واغزاله وقصائده في الشوق والحنين إلى بلاده ، ولكن اوصاف ابن حجة المستقرأة من خلال قصائده تتسم بصفة

(١) العمدة لابن رفيق ٢٩٤

السطحية فلم يكن متعمقا في الاوصاف مستقصيا لجزئياتها ، باحثا عن عناصرها ، مستفيضا في وصف هذه العناصر ، وانما كانت السطحية تغلب على اكثر اوصافه والسرعة وعدم التركيز هما الطابع لكثير من اوصافه وبالرغم من انه تناول موصوفات كثيرة كان من حقها ان تنال اكثر مما نالت من عنايته ، الا انه لم يكن يتخذ من موضوعاته الوصفية موضوعا قائما بذاته ، بل كانت تمر معه مرورا سريعا في عداد تركيزه للموضوع الاكبر ، الذي يشغل باله ، وهو موضوع المدح مثلا او الغزل او غيره .

ومن يدقق في اوصافه يجد ان اكثرها مادي محسوس ملموس ، سواء في اماديحه او في نسيبه ، ففي معرض مدحه لم تخرج تشابيهه للممدوح عن البحر اذا مدحه بالكرم وعن الاسد او الحسام اذا مدحه بالشجاعة . وفي معرض الغزل اقتصر على التشابيه المادية والاوصاف المحسوسة كالوجه والشعر والخد والعين وغيرها او شبيها بمشبهات محسوسة ايضا كالقمر والغصن والورد والسهم وغيرها ، ولقد كان للمرئيات وما فيها من الوان متجانسة او متضادة نصيب كبير من اوصافه كما كان للمشمومات والمسموعات قسم آخر من اوصافه ايضا ، ومن المرئيات كانت الألوان تحتل شطرا كبيرا من اوصافه سواء في الغزل الذي نجد فيه حمرة الخد او سواد الشعر او خضرة العذار وبياض الثغر وزرقة العين او في وصف الورود والازهار التي لا يقوم بها وصف إلا على الالوان وما فيها من تباين وانسجام وتضاد احيانا وتوافق احيانا اخرى ، ومن الاوصاف المرئية التي نالت عناية ليست قليلة من شعر ابن حجة في معرض المدح وصف اليراع والقلم وادوات الكتابة من محبرة وقرطاس وغيرها وقد وصفها في كثير من شعره وكان الوصف يتفاوت طولا وقصرا ، وقد يستغرق وصف اليراع عدة ابيات من قصيدته كما قد لا يستغرق اكثر من بيت واحد في قصيدة اخرى . ويتبع وصف اليراع ومستلزمات الكتابة وصف النظم والنثر والخط وكل عناصر المدح التي مرت معنا والتي كان يكثر منها بحكم عمله هو ككاتب في دواوين الانشاء ، او بحكم عمل ممدوحيه من القضاة او كتاب السر او غيرهم ، ولما كان اكثر ممدوحيه من رجال القلم ، وهو من رجال القلم ايضا ، لذا قلت اوصافه للسيف وما في معناه لاعراضه - الا في القليل النادر - عن مدح رجال السيف ووصف ما يتميزون به من آلات وادوات ولوازم ، ولذلك حرمنا في شعره من وصف المعارك ووصف سنابك الخيل وصليل السيوف ، وبريق الحراب ، وتزاحف الجمعين ، وما إلى ذلك ، اللهم الا ما وجدناه في بعض القصائد التي يتحدث فيها عن المعارك وما اقلها في شعره - وهو وصف عابر سريع للمعركة ، كما سمع عنها لا كما رآها ، فقال في معرض مدحه لدمرداش الحاكمي :

تجر العدى قهرا لخفض رؤوسها ... سيوفك حتى علتها اعرف الجر
وهذي قسي الحرب امسى ركوعها ... لديك ولم تبرح ملازمة الوتر
وتهتز اغصان القنابل فرحة ... فهل راجعت ايامها في ربى الدهر
ابا لهب يكنى سنانك في الوغى ... وتبت يدا الاعداء منه إلى الحشر
به تزجر الاقران منك قرانه ... فقل لبني لهب كذا صنعة الزجر
فأنت نهار السلم طائي عصرنا ... ولكن نهار الحرب ليث بني مضر
فسر في امان الله حزبك غالب ... وجيشك منصور وجندك في نصر

وكما قلنا انه يصف المعركة وصف من سمع بها لا من شاهدها عيانا ، وليس راء كمن شهد ، ولهذا جاءت اوصافه للسيف والقسي والسنان موجزة ، ثم تخطاها مسرعا إلى وصف ممدوحه بالكرم ولكنه لم يصف عمله في القتال والتزاحف والكر والفر ، والغبار المتصاعد من حوافر الخيل ، ولم يأتنا بالصور التي ترافق هذه العملية من لمعان السيوف وتناثر جثث القتلى والدماء المهراقة والفارس المليح ، والبطل المشيح وما إلى ذلك من الصور التي لا يستطيع التعبير عنها الا من شهد المعركة .

والذي يطالع شعر الفحول من الشعراء القدامى يحظى بالكثير من الاوصاف المعنوية التي يصف فيها الشاعر خفايا النفس ، ومكنونات الفؤ اد ، وما اكثرها في الغزل كوصف الهوى والوجد والهيام ، والشوق والحنين ، وفي المدح كالاعجاب بالممدوح ووصف ما يميزه من اخلاق وسجايا ، وحكمة وسياسة . كل هذه الاوصاف المعنوية لا نظفر عند ابن حجة بشيء منها . قد يكون وصف المعنويات اشد صعوبة من وصف الماديات ، والحديث عن كوامن النفس اعسر من مجرد وصف الاشياء الظاهرة ولكن الشاعر ما سمى شاعرا الا لغوصه على هذه الكوامن ، والاعتكاف على مشاعره يغرف منها ويترجم هذه المشاعر المعنوية إلى لغة الشعر ، وبراعة المشاعر تبدو في نقل الخاطرة او الفكرة او الاحساس المجرد إلى ذهن القارىء او السامع متخذا من الكلمة والعبارة والوصف وسيلة لهذا النقل ، وكلما امعن الشاعر في الغرف من زوايا نفسه وثنايا طويته وكان امينا صادقا في هذا الاغتراف والتعبير عنه ووصفه بأدق ما يمكن ان يوصف كان اقرب إلى الشاعر الحق منه إلى مجرد ناظم راصف للكلمات لا هم له إلا سياق الكلمات بنسق معين وتشكيل الجمل والعبارات وزجها في قوالب وزنية تعارف الناس عليها باسم العروض ولهذا قال ابن رئييق «وأحسن الوصف ما نعت به الشيء حتى يكاد يجعله عيانا للسامع»[1] ونقل عن قدامة انه قال في نقد الشعر «الوصف انما هو ذكر الشيء كما فيه من الاحوال والهيئات ولما كان أكثر وصف الشعراء انما يقع على الاشياء المركبة من ضروب المعانى كان احسنهم وصفا من اتى في شعره باكثر المعاني التي الموصوف مركب منها ، ثم بظهارها فيه وأولاها حتى يحكيه بشعره ، ويمثله للحس بنعته»[2] ولقد تعارف النقاد على ان أحسن الوصف ما استطاع به الشاعر تجسيد المعنويات وتجسيمها حتى ليقربها من البصر وكأنها اشياء مبصرة منظورة ، فهي من الوضوح بمنزلة تجعل المسموع مبصرا والى هذا اشار ابن رشيق عندما قال «وقال بعض المتأخرين ابلغ الوصف ما قلب السمع بصرا»[2] اذ هذه هي وظيفة الوصف لانه كما قال ايضا : «واصل الوصف الكشف والاظهار»[3]

ومن سوء حظنا اننا لانظفر بشيء من هذا لا عند ابن حجة فحسب بل ولا عند العدد الكبير من شعراء عصره ، ولا نريد ان نكلف شعراء عصر المماليك باشياء لا طاقة لهم بها ، فنطبق عليهم ما تعارف عليه عصرنا من اتجاهات نقدية ، ولكن نطالبهم ـ على الاقل ـ بان يكونوا مخلصين للفن الذي يتصدون له . واذا تصدوا للظاهرة ان يضاهوا فيها الاقدمين ان لم نقل يبزونهم فيها ، فمثلا لقد اكثر القدامى من وصف الابل والقفار وحمر الوحش والبقر ولا نطالب الشعراء بعد مرور ما يقرب من سبعة او ثمانية قرون ان يعيشوا بعقلية كعقلية اولئك القدامى ، ان لم يكن باجسامهم في بيئة فيها مثل هذه الموصوفات ، فاننا ان كلفناهم بوصفها

(١) العمدة لابن رشيق ص٢٩٥

(٢) نقد الشعر لقدامة بن جعفر ص١١٨

(٣) العمدة لابن رشيق ص٢٩٩

فانما نكلفهم من امرهم عسرا ، ونبه إلى هذه الفكرة ابن رشيق حيث قال : «وليس بالمحدث من الحاجة إلى اوصاف الابل ونعوتها ، والقفار ومياهها ، وحمر الوحش والبقر ، والظلمان والوعول ، فالاعراب واهل البادية لرغبة الناس في الوقت عن تلك الصفات وعلمهم أن الشاعر يتكلفها تكلفا ليجري على سنن الشعراء قديما ، وقد صنع ابن المعتز وابو نواس قبله ، ومن شاكلهما في تلك الطرائق ما هو مشهور في اشعارهم والاولى بنا في هذا الوقت صفات الخمر والقيان وما شاكلها ، وما كان مناسبا لها كالكؤوس والقناني والاباريق ، وتفاح التحيات وباقات الزهر إلى ما لا بد منه من صفات الخدود والقدود والنهود والوجوه والشعور والريق والثغور والارداف والخصور ثم صفات الرياض والبرك والقصور وما شاكل المولدين»[1] ولكن نقول ان ثمة موصوفات باقية منذ قديم الزمان حتى حديثه، معروفة في كل بيئة وبراعة الشعراء تبدو في حذقهم في وصف هذه الموصوفات المشتركة ، وتفاضلهم يكمن في مقدار تفاوتهم في اجادة هذه المعاني المشتركة وعلى سبيل المثال يمكننا المقارنة بين عدة شعراء في ظاهرة واحدة مشتركة كوصف الليل الذي لا يتغير بتغير الزمان والمكان ، ففي الجاهلية وصفه النابغة في بعض اعتذارياته فقال :

كليني لهم يا أميمة ناصب ... وليلٍ اقاسيه بطيء الكواكب
تطاول حتى قلت : ليس بمنقض ... وليس الذي يرعى النجوم بآيب

واكثر من وصف الليل حتى اخذ الناس يضيفون اسمه لليل فيقولون «ليلة نابغية» ويقصدون بذلك قسوة هذه الليالي على النابغة ، ونقصد بذلك ايضا قوة وصفه لليل ، نقفز من العصر الجاهلي اربعة قرون إلى العصر العباسي لنرى ابا الطيب المتنبي يقول في وصف الليل من الوزن نفسه ، والرويّ عينه مادحا طاهر بن الحسين قال :

اعيدو صباحي فهو عند الكواعب ... وردوا رقادى فهو لحظ الحبائب
فان نهاري ليلة مدلهمة ... على مقلة من فقدكم في غياهب

ونقفز قفزة اخرى ، اربعة قرون اخرى ايضا لنلتقي مع ابن حجة يصف الليل في مطلع قصيدة يمدح بها الكمال البارزي قال :

عاش الدجى وعلى عسعس ... والصبح مات وما تنفس
والليل ادهم طرفه ... في سلب نومي قد تفرس
لكنه زاد في ... تقطيبه وعلى عبس
طارحته برقيق اشعاري ... وقلت عساه يرأس
شق الاسنة من كوا ... كبه وعايرني وخمس
وسألت عن خبر الضحى ... برق الحما لما تجس

---

(١) العمدة لابن رشيق ص٢٩٦

فرأيت عضب لسانه متلجلجا في الجو اخرس
فجليت كأسي مسرعا فرأيت جنح الليل اشمس
انشق من غيظ وقال اظن ذا صبحا مدلس
فافتر ثغر صباحنا ونبا على بعد فانس
واتى وفوق جبينه فرج بحاجبه المقوس

هذه صورة وصفية من الصور الكاملة النادرة التي نقع عليها في شعر ابن حجة صورة الليل تجاوز فيها الشاعر عشرة ابيات ، وهذا ما لم نعهده فيه من الاطالة في موضوعاته ، ولكن قد يكون وصف الليل من الموضوعات التي تلاقي قبولا في نفس الشاعر فيطول فيها وإلى مثل هذا اشار ابن رشيق بقوله «والناس يتفاضلون في الاوصاف كما يتفاضلون في سائر الاصناف ، فمنهم من يجيد وصف شيء ولا يجيد وصف آخر ومنهم من يجيد الاوصاف كلها ، وان غلبت عليه الاجادة في بعضها»[1] واذا كان ثمة مجال للتفاضل بين القدامى والمحدثين فهو في اختلاف البيئة التي عاشها الجاهلي والشاعر في عصر ابن حجة ، فذلك عاش في مهامه قفر ، وصحار غبر ، وهذا عاش متنقلا بين رياض الشام الفيحاء ، وربى مصر الغناء ، فمن حقنا عليه ان نظفر ببعض الاوصاف لطبيعة بلاد الشام التي عاش فيها وبلاد الكنانة التي زارها واقام فيها ، والحق يقال أن ابن حجة لم يقصر في هذا فقد نفحنا بابيات كثيرة من هذا القبيل ، ووصف البلاد التي زارها ـ وان كان سريعا في بعض الاحيان ـ الا انه ـ على كل حال ـ صورة لطبيعة البلاد في تلك العصور ، فوصف من مصر رباها وهرمها ونيلها وارضها وما لاقاه في هذه الطبيعة من نواحي الجمال فقال :

ويا ربى مصر مراضع الحيا يرضعك الغيث بذاك المهد
كم ليلة قضيتها وانجم الـ جوزاء فوق جيدها كالعقد
والارض قد حالت برود وشيها يحير[2] في اوصافها ابن برد
وكوثر النيل يروق منظرا حتى كاني في جنان الخلد
وهند ماتخطر في أبرادها الا لمالت عذبات الرند
مصرية لكن يماني لحظها منتسب في فتكه للهند
آها له من لحظ سيف باتر زاد على عشاقه في الحد

في هذه الابيات تناول كثيرا من مناحي الجمال في مصر ، من جمال الناطق والساكت والنطق هو اهم ما يميز الانسان ، واعجب ابن حجة بنطق اهل مصر ولفظهم فقال :

مصري لفظ ساحرا بكلامه لكن سحر جفونه من بابل

وكرره بمناسبة اخرى فقال ايضا :

(١) العمدة لابن رشيق ص٢٩٥
(٢) هكذا في الأصل وفي اللغة حار يحار

مصري لفظ قد غدا لي قاهرا   ناديت رفقا بالحشايا قاهري

ولكثرة اعجابه باللفظ والكلام المصري كان يحلو له ان يصف كلامه ونظمه هو بالحلاوة المصرية فاذا وفق إلى الجمع بين حلاوة اللفظ القاهري ، وحلاوة المعنى الشامي فذلك هو العجب العجاب ، قال :

وخلتم ان نظمي قاهري   وفيه حلاوة المعنى زكية
ولولا قطركم بالشام مرت   حلاوته ولم تك قاهرية

ونترك هذا الاستطراد الذي قادنا اليه ابن حجة لنستوفي بقية الصور الجميلة في طبيعة مصر ونيلها ، وما اكثر ما تحدث الشعراء عن هذا النيل العظيم ووصفوه وخاصة عند وفائه وزياداته وفيضانه ، ولابن حجة بعض الابيات في النيل ووفائه قال :

ومصر رأت نيل الوفاء بكفه   أشارت إلى هذا الوفا بالاصابع

وعندما يمدح ممدوحه لا يجد ما يصفه به خيرا من النيل وما يفيضه على الناس من عطاء فيقول مادحا ابن العجمي :

بحر تحلى به النيل السعيد لذا   صارت زوائده احلى من الحلم
وبعد ما آل للاهرام قال لنا :   لقد سللت شبابي من يد الهرم

ومن الملاحظ في البيت السابق انه تعرض للاهرام ، وقلنا : هذه فرصة طيبة لنظفر بوصف للهرم ولكن سرعان ما انصرف عن وصف الهرم واشتغل باحكام الجناس ما بين الاهرام والهرم والطباق الذي استدعاه الهرم مع الشباب ، فحرمنا هذا الالتفات من فريد وصف للهرم ، ولنبحث عن بيت آخر ذكر فيه الهرم فلعلنا نقع على بعض الوصف له ولن يطول بحثنا ، فانا واجدوه في قصيدته التي يمدح بها ابن حجامة في قوله :

من بعد بعدك مصر نالها هرم   وما صفا قلب ذاك النيل للشاكي

ولكن هذا البيت وما به من هرم ونيل لا يبل الغليل ، فلنبحث في مكان اخر وفي قصيدته في مدح المؤيد نجد ذكر النيل والاهرام فلنحط رحالنا لنستمعه يقول :

والنيل ماطل بالوفا عمدا ولم   يفرح باكناف الخطيري خاطر
ودنوت للاهرام بعد سباتها   ورجعت عادلها الشباب الزاهر
واقمت في مصر فكنت عزيزها   لكن ذكرك في البرايا سائر

في كل هذه الابيات لن نظفر بطائل ، ولم يعطنا ابن حجة لا صورة كاملة ولا ناقصة لوصف الهرم او النيل ، وما دمنا لم نظفر بشيء ، وهذا كل ما قاله في الهرم والنيل فلنبحث عن وصفه لنوروز في مصر ، فهذا الموسم من المواسم المشهودة في مصر قديما وحديثا ، ولقد اكثر الشعراء من الحديث عنه ، ولكن ابن حجة لم يزد على قوله في المؤيد

ففي مصر نوروز الذي جاء بالوفا　　　وبالشام نوروز الخؤ ون الذي اعتدا

فكنا نتوقع ان يستفيض بوصف نوروز ووفاء النيل ، ولكن الجناس بين نوروز الربيع ونوروز الحافظي قد الهاه عن ذلك .

هذا كل ما وقعنا عليه من شعر ابن حجة في وصف مصر ورياضها ورباها ونيلها واهرامها وكان من حق الدارس لأدبه أن يظفر بقسم أكبر مما ظفر به ، لانه أقام في مصر مدة طويلة وخبر أرضها وتمتع بجمالها ، وقد ظفرت بلاد الشام بشعر أكثر من وصفه ، ذلك بالرغم من أنه كان يحب مصر ، الا أن حبه لبلاد الشام وعلى وجه الخصوص حماه كان أكثر وقد صرح هو بهذا الحب فقال :

وأنعـــم بمصر نسبـــة ، لكن أرى　　　وادي حمـــاه ولطفـــه لي أنسبا

ويحن كثيرا لطبيعة بلاد الشام ونزهها ، فلذلك ترددت كثيرا في شعره فقال :ـ

يا ساكنـــي وادي دمشـــق لبعدكم　　　عينـــي غدت عينـــا وقلبـــي صادي
وأنـــا غريب في بلادي بعدكم　　　وكذاك نظمـــي يا أهيل الوادي

ثم قال :

نزه الشـــام هام قلبـــي اليها　　　لســـت أرضى بالبســـط والنيق منزه

وان كانت الشام عامة قد حازت من شعره بعض الشيء فان حماه خاصة قد حازت من شعره كل شيء فهو ان غاب عنها حن اليها لانها مراتع صباه ، ومرابع لهوه . فلذا يقول :

عرج على وادي حمـــاه بسحرة　　　متيما منـــه صعيدا طيبا
وأحمـــل لنـــا في طي بردك نشره　　　فبغـــير ذاك الـــطيب لن نتطيبا
لله ذاك السفـــح والـــوادي الذي　　　مازال روض الانس فيه مخصبا
أرض رضعـــت بهـــا ثدي شبيبتي　　　ومزجـــت لذاتـــي بكاســـات الصبا

وبالرغم مما بذله في هذه الأبيات من جهد ، فان الجهـد الاكبـر في وصف حمـاه ونواعيرهـا وعاصيهـا ورياضها قد بذله في القصيدة التي أرسلها إلى شيخه القضامي من طرابلس إلى حماه ، قال متشوقا إلى مغانى حماه ، واصفا هذه المغاني :

بوادي حمـــاه الشـــام من أيمـــن الشط　　　وحقـــك تطـــوى شقـــة الهـــم بالبسط
بلاد اذا ماذقـــت كوثـــر مائها　　　أهيم كأنـــى قد ثملـــت باسفط
وصـــوب حديثـــى مائهـــا وهوائها　　　فان أحـــاديث الصحيحـــين لاتخطى
بمعصمهـــا ان دار ملـــوى سوارها　　　فما الشـــام بالخلخـــال أو مصر بالقرط

وترخـــى علينـــا للغصـــون ذوائبا | يسرحهـــا كف النسيم بلا مشط
ومـــذ مد ذاك النهـــر ساقامـــد ملجا | وراح بنقش النبـــت يمشي على بسط
لوينـــا خلاخيل النواعـــير فالتوت | وأبـــدت لنـــا دورا على ساقـــه السيط
ويا أسطـــر النبـــت التـــي قد تسلسلت | لصفحتهـــا لازلـــت واضحـــة الخط
منـــازل أحبابـــي ومنبـــت شعبتي | وأوطـــان أوطـــارى ورضى سخطى

وما زالت حماة تستأثر بطوال القصائد من وصف ابن حجة ، ففي قصيدته النونية وصف طبيعة حماة وصفا مفصلا دقيقا ، فالنبات والغصون والشطوط كلها مستوعبة في هذه القصيدة ، وهي طويلة تجتـريء منهـا بابيات الوصف فقط ، قال واصفا طبيعتها :

والنبـــت يضبطهـــا بشـــكل معرب | لما يزيد الطـــير في التلحين
والغصـــن يحـــكى النـــون في ميلانه | وخيالـــه في الماء كالتنوين
قالـــوا : تسلى عن ثمار شطوطها | فاجبـــت : لا والتـــين والزيتون
يالائمـــين على شريعتهـــا لكم | في ذاك دينـــكم ولي انـــا ديني
ويشـــط شرعـــايا لنـــا كم اشرعت | اعوادهـــا وتثقفـــت باللين
لكن اذا اشتبـــكت رأيت الظـــل قد | القتـــه مضطربـــا شبيه طعين
وخيال ضوء الشـــمس في تدويره | يحـــكى فم الطعنـــات في التكوين
وعيونهـــا كم قال هدب نباتها | ماللنباتـــي مثـــل سرع عيوني
يانازلـــين حمـــى حمـــاة نعمتم | فيهـــا صباحـــا نوره يهديني

وفي كل قصيدة من قصائده في حماة يعطينا اوصافا لمعالم جديدة منها ، فاذا كان قد اعطانا في النـونية السابقة وصفا للعاصي والنبت حوله والغصون المائلة على غدران النهر وخيال الشمس من خلال الغصون ، فانه يعطينا في هذه الرائية اوصافا جديدة لمعالم جديدة ، فنواعير القاسمية والجسر ، ومعاهد بين المسجدين والجزيرة كلها معاهد جديدة تشده إلى حماة وتربطه بها ، وقد صرح بكل هذه المعاهد في الرائية التي امتدح بها ابا بكر الخيشى قال من قصيدة طويلة حسبنا ايراد ابيات الوصف فيها

هواي بسفـــح القاســـمية والجسر | اذا هب تدرو ان ذاك الهـــوى عذري
ولي ثم بـــين المسجـــدين معاهد | بهـــا هدمـــت تلك المعاهـــد من صبري
يروق امتـــداد الجسر والقصر فوقه | فيحلـــو طبـــاق العيش في المد والقصر
وقـــد اصبحـــت تلك الجـــزيرة جنة | الـــم تنظـــروا الانهـــار من تحتهـــا تجري
تفـــوق عيون الزهـــر فوق شطوطها | «عيون المهـــوى بـــين الرصافـــة والجسر»
وان جزت في الرمضـــاء بـــين غصونها | «جلبن الهـــوى من حيث ادري ولاادري»
وعـــاص رحيب الصـــدر قد خر طائعا | ودولابـــه كالقلـــب يخفـــق في الصدر
وقـــد اشبـــه الخنســـاء نوحـــا وانه | وهـــا دمعـــه قد صار يجـــري على صخر

فآهـاً على وادي حمـاة تاسفا خلافـا لمن قد قال اهـا على مصر
فكم مربـى فيهـا حلاوة ليلة فكانـت شبيه الخـال في وجنـة العمر

وحسبنا من هذه القصيدة هذه الأبيات ، وقد بنا نود ايرادها اوجز مما اوردنا ، لولا انه كل ما اوردناه في الوصف ، وهو موضوع حديثنا الآن ولم يقتصر على وصف حماة في قصائده بل له مقطعات كثيرة في وصفها ، وفي وصف مرجها ونواعيرها ورياضها فمما قلله في مرج حماة الذي كلما تذكره هيج احزانه :

ذكرت احبتـي بالمرج يوما غفـوت ادمعـي نـيران وهجى
وبـت اكابـد الاحـزان وحدى وكل النـاس في هرج ومرج

ومرج حماة هذا يقايسه بالمقياس في مصر ويرجحه عليه ، بل ويرجحه على غيضة دمشق فيقول :

مرج حـماة بنواعيره زاد على المقياس في روضته
واغتـاظ فيروز دمشـق لذا فقلـت لاافـكر في غيضته

وقال ابن حجة : «وجلست يوما في قطاف السفرجل على عين الغيضة الموصوفة بست الشام مع جماعة من اهل العلم والادب ، فنظم كل منهم ما يليق بذلك المقام على قدر مقامه ، فنظمت قولي»[1] :

تقـول ست الشـام لما غازلت بعينهـا فانعشـت حيـاتي
وانتعشـت بمرجهـا وبرزت نهـدا حلا لانـه نباتى
خذنـي بغـير ضرة فانني بديعـة في الحسـن والصفات
واستجلنـى عروسـة يتيمة شـامية وعش بلا حمـاة

والواقع ان حب حماة ملك عليه فؤاده فوصفها وصفها ، وجعلها جنة الله يدخلها (العاصي) والطائع فقال :

حمـاة في بهجتهـا جنة وهـي من انعـم لنـا جنة
لاتيأسـوا من رحمـة الله فقـد ابصرتـم العـاصي في الجنة

وما دامت حماة جميلة فكل ما فيها جميل فثمارها وازهارها وانهارها واطيارها كلها جميلة ومن ثمارها وصف المشمش الحموي المسمى بالسلطاني فقال :

قال سلطانـى حمـاة عندنا اجلسـوه هذا تانـي في الصدور
مشـمش ال الشـام تقـوى وجهه يوم نقـع فهـو قد أضحـى وزيرى

(١) التقديم ص٤٢١

وابن حجة طاف كثيرا في بلاد الشام فلذا كثر وصفه للاماكن التي طاف بها ، فعندما عرج على حمص ، وجلس في روضه من رياضها مع قلة من رجال الادب أحدهم شيخه القضامى فأنشد بعض أهل الادب بيتي ابن خطيب الموصل في جزيرة حمص وهما :

جزيرة حمص كعبة اللهو أصبحت ... يطوف بها دان ويسعى لها قاص
لها حلة من نبتها سندسية ... تعلق في أستار أذيالها العاص

فقال قاضي القضاة ابن القضامى استعارة اللهوة للكعبة فيها أساءة للأدب ,والتورية في العاص ممكنة من غير هذا الطريق فأنشد ابن حجة ارتجالا :

جزيرة حمص لم تكن قط كعبة ... يطوف بها دان ويسعى بها صاص
ولكنها للهو والقصف حانه ... ألم تنظروها كيف جاورها العاصي؟

وقد أقام فترة في طرابلس فوصف وادى رشعين وعينه بظاهر المدينة فقال :

أرض وادى رشعين مفتوحة ... العين لها نقطة على النيرين
ماحللنا هناك الا وقالت ... أجلسوهم على محاجرعينى

ويظاهر طرابلس يربض وادي آخر اسمه وادي المنافس ، وصفه ابن حجة ببيتين من الشعر قال :

وادى المنافس من مغنى طرابلس ... بطيب أنفاسه أيدي نفائسه
وكاد يلحق بالشقرا .وأبلقها ... فلا تلوموا اذا قوى منافسه

وبالقرب من طرابلس توجد مدينة بعلبك ذات الآثار التاريخية المترامية في القدم ، مَرَّ بها ابن حجة ولكنه لم ترقه الآثار بمقدار ما راقته رأس العين ومرجه فوصفه أيضا قائلا :

ولما نزلنا بعلبك تفكهت ... عيوني وأذواقي وصلت على البين
وطالبتها يوما برؤية مرجها ... وخضرته قالت على الرأس والعين

وأوصاف بلاد الشام ومصر كثيرة في شعر ابن حجة ، وشعر معاصريه ، وهي في نثرة أكثر منها في شعره ، ولكن اكتفينا بما ورد منها في النظم فقط دون أن نعرج على النثر وقد شاعت آنذاك ظاهرة تسترعي الانتباه وهي أن بعض الادباء المصريين يتصدون لوصف بلاد الشام كما فعل الدمامينى بوصفه لغوطة دمشق ، فيقابلهم أدباء الشام بوصف طبيعة الديار المصرية كما فعل ابن حجة في وصفه للنيل ورباه ورياضه ولكن أكثر هذه الرسائل التي كان يتبادلها الادباء كانت قطعا نثرية وهي خارجة عن نطاق عملنا .

وبعد هذا الطواف في بلاد الشام وبلاد مصر والتعرف على طبيعتها من خلال أوصاف ابن حجة لها نعرج على نوع آخر من الوصف نال حظا وافرا من شعر ابن حجة ، وأكثر منه ، كما أكثر منه شعراء عصره ، وأعنى بهذا النوع وصف الزهور ، وأكاد أقول انه لا يوجد نوع من أنواع الزهور الا ولابن حجة في وصفه أبيات كثيرة ، ولا غرابة ، فان ابن حجة قد طاف في الدنيا كثيرا وتعرف على انواع كثيرة من هذه الزهور ، يضاف الى ذلك أن لابن حجة كتابا سماه «بلوغ المراد من الحيوان والنبات والجهاد» وفي هذا المصنف الضخم تحدث عن النباتات وقصر حديثه فيها على الزهور وأنواعها ، وما قاله الشعراء فيها منذ قديم الزمان حتى حديثه ، وماقاله فيها معاصروه وما أكثر ما قالوه ، حتى أن بعضهم كان يؤلف رسائل طويلة في المحاورة بين نوعين من أنواع الزهور كالورد والنرجس ، ثم يحكمان نوعا ثالثا وهكذا من القصص الرمزية التي كثرت في تلك الفترة على لسان الزهور ، ولو استقصينا كل ما قاله ابن حجة في وصف الزهور والورود والرياحين لكان مصنفا صغيرا ، ولكن حسبنا أن نورد هنا نموذجا واحدا لوصف كل نوع من أنواع الزهور فله في النرجس :

حدائق الروضة الغناء نرجسها ... عيونه بدموع الطل قد رقصت
هنا الى رشف ثغر الناس من فرح ... «فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت»

والورد وهو سيد الزهور لا بد أن يكون في الطليعة قال فيه :

كم وردة بيضاء قد ... حكمت لنا مذ أزهرت
طلعة بدر كامل ... «والشمس فيها كورت»

والآس جدير أن يحظى ببيتين أيضا :

عوارض الآس ابدت في موشحها ... نظما باغصانه للنبت خرجات
وقد حلالى بأوراق ملوزة ... وللملوز في الدنيا حلاوات

والاذريون الذي يشبه البرق اذا لمع

كأن آذريونها ... ونوره قد أبهجا
وميض برق لامع ... في جنح ليل قد دجا

ويعجبك الشقيق بلونه الاحمر المنقط بالاسود فنتساءل عن هذه النقطة السوداء في البقعة الحمراء :

سألت الشقيق الغض عن نقطة بدت ... على خده والروض فيها تعطرا
فقال : سواد المسك هام بوجنتي ... وقد أكثر التقبيل فيها فأثرا

وصورة وريقات السوسن الملتفة حول بعضها تذكره ببيت لابن الرومي يصف غانية فيضمن شطره في وصف السوسن :

بدا سوسن الروض المدبج ازرقا   واصفر يعلو طوله فوق مبيض
كأن الربى أرخت ذيول غلائل   «مصبغة والبعض أقصر من بعض»

وقد يجمع الشاعر بين اكثر من نوع من انواع الزهور في بيته فيقول :

اصابع المنشور مدها   لقرص خد الورد من بعد القبل
هزله الزنبق رمحا عاليا   فالراية البيضا عليه لم تزل

ووصف الازهار كثير جدا في شعر ابن حجة ولكن اكتفينا بنموذج واحد لكل او بعض الانواع لنكون على بينه من امر وصفه ، غير ان ابن حجة لم يقتصر على وصف الزهور دون ان ينظر لبعض مظاهر الطبيعة الاخرى فيصفها ومنها الناعورة والبحيرة والفوارة والطير الساجعة على الاغصان والنسيم العليل ، فمن وصفه للفوارة قال :

فوارة المولى لديها ادب   وقلبها لما صبا في بحرته
جاء النسيم نحوها مسلما   فنهضت قائمة لخدمته

ووصف النسيم العليل فقال :

انت لطيف يانسيم الصبا   واللطفماينسب الااليك
واحمل لنا من حاجر نفحة   وبعد هذا لم نثقل عليك

ووصف الطبيعة التي اسهمت يد الانسان في صنعها القلاع والبروج ومنها قلعة الكرك فقال مشيدا بعزيمة الملك المؤ يد الذي فتحها :

وفتحت بالكرك المنيعة قلعة   الله اكبر ما علاها طائر
ذات البروج علت علوا واحتمت   من طارق وبها النجوم سوافر

ووصف في غزله ملامح الجسد وصفا ظاهريا سطحيا ، وقد كرره في اكثر نسيبه ، وما اكثر ما سمعنا اوصافه للعارض وللخال وللقد ولكنها لاتعدو ان تكون نسخة مكررة في كل مرة ، فعلى سبيل المثال لناخذ وصفه لاعتدال القوام وتشبيهه بالالف فنجده يقول

قوامه في اعتداله الف   سبحان من مده ومن مشقه

وفي مكان اخر قال :

وهمت في الفات من قدودهم   بدرية عليها من الاصداغ همزات

وفي مكان ثالث قال :

من قدة الالفـي مع لام عارضة | وميم مبسمـه قد صرت في الم
ولو تركنا النسيب الى الرثاء لوجدناه يكرر المعاني ذاتها فقال في رثاء المؤ يد من قصيدة مطلعها :

الف القد مدها لي بعزه | وعليها من عطفة الصدغ همزه

وهذا التشبيه يكثر في شعره حتى ليكرره اكثر من ثلاثين مرة : ويكرر مثله ما قاله في الخال وقلبه في العارض وقلبه في بقية محاسن الجسد كالوجه والعين والشعر وغيرها .
والملاحظ على اوصافه انها كلها مكررة ليس فيها من المخترع الا القليل جدا كقوله

وترخـى علينـا للغصـون ذوائبا | يسرحهـا كف النسيم بلا مشط

فقد كتب بجانب هذا المعنى في ديوانه انه مخترع وكرر هذا القول في التقديم وفي كشف اللثام ، واذا كان هذا المعنى مخترعا فقد ابلى جدته عندما استعمله كثيرا فقد كرره في مدحه القصامى قال :

ومـا ذاك الا ان ايتـام فكرتي | غدت بعـد تسريح العلائـي بلا مشط

وهذا دأبه دائما يقع على المهنى او يخترعه ، او يخترعه سواه فتتناوله الايدي حتى تذهب رونقه ورواءه وتمزق ديباجته وكساءه .
ومن الجدير بالذكر ان نقول إن أدق الاوصاف واحسنها واغناها بالصور تلك التي وقعنا عليها في رسالته لابن مكانس يصف له فيها حريق الشام على يد الظاهر برقوق ، وقد شمل وصفه كل الجزئيات وطال نفسه في تعداد اوصافها فاذا اردنا ان ننصفه بالاجادة والدقة فهذا الوصف قد اجاد وبرع فيه ولكنه قطعة نثرية ليست من صميم عملنا .

النسيب :

كان من حقنا ان نبدأ بالحديث عن الغزل قبل الحديث عن المدح ، لأن ابن حجة وغيره من الشعراء كانوا يجعلونه مقدمة لمديحهم ، ومطية لكثير من الفنون الشعرية ، ولكن لما كان المدح هو المقصود ، وهو الذي عليه المعول ، اثرنا تقديمه ، حيث إن الغزل الذى اتانا به ابن حجة لم يكن الا غزلا تقليديا صرفا يسوقه دائما بين اماديحه ، ومذهب تقديم الغزل على المديح في مطالع القصائد مذهب قديم سار عليه الشعراء منذ الجاهلية ، وبرر النقاد تقديمه على المديح ليتخذ منه الشاعر مدخلا جميلا الى نفس الممدوح كما يرى ابن سلام في طبقاته

وما من شاعر منذ قديم الزمان حتى حديثه الا وللنسيب حظ وافر من شعره ولكن يتفاوت الشعراء في حظوظهم فبعضهم اذا قال النسيب عبر عن تجربة نفسية عاناها ، وتصرف باحوالها ، وطال تقليب وجهات نظره فيها ، فعبر عن هذه التجربة بصدق ، وجسـد شعـوره واحاسيسـه بدون زيف وهـذا هو النسيب الصحيح ، والبعض الاخر وجد آباءه واجداده من الشعراء يسير على التمثل بهذه الظاهرة والتشبه بالمحبين فهو على آثارهم مقتد ، وهذا هو الغزل التقليدي وما اكثره في الادب العربي عامة وفي ادب ابن حجة خاصة ، ولقد انحدر الينا هذا التقليد من عصورنا الادبية السحيقة وبقى تقليدا ماثلا في عصر ابن حجة

وحتى في العصور التي تلته

وحتى في الغزل التقليدي نفسه تفاوتت حظوظ الشعراء منه فبعضهم كان يتغزل مقلدا ولكن لايخلو غزله من لفتات رائعة تقرب الغزل التقليدي من الغزل الاصيل وبعضهم الاخر كان يتغزل مقلدا ولكنه كان مخلصا كل الاخلاص للتقليد وحيثما اتجه وتفوه فاحت رائحة التقليد من ثنايا كلامه وهذا البعض الاخر اكثر ما يكون متمثلا في العصر الذى ندرس ادبه الان ومن بين شعرائه ابن حجة فغزله كله تقليدي يدفعه في مطالع مدحه ولم نقع له على قصيدة واحدة او ابيات او مقطعات اثر عنه انه قالها في الغزل الخالص ، النابع من احاسيسه الخاصة فهل كان له من نشأته الفقيرة ما يشغله عن الغزل والانصراف وراء الصبابة التي هي من لوازم المترفين ـ احيانا كثيرة ـ من ابناء المجتمع ؟ قد يكون ذلك ولكن ليس هذا بشرط مانع ، لاننا كثيرا من سمعنا عن شعراء كانت افئدتهم تتالم من الفقر ، وقلوبهم تقطر من الحب ، واشعارهم تكاد تنطق بما تفيض به نفوسهم من مصابه ، ولا نستطيع ـ بعد هذا ـ ان نتبين الاسباب التي جعلته يعزف عن الغزل .

ولو عدنا الى شعره الغزلي لا نجده شعرا في الغزل التقليدي فحسب بل قصارى الشاعر فيه وصف محاسن الجسد فقط ، وصف المحاسن المادية ، العيون الوجه . الشعر الجيد ـ الصدر . . . الخ ولم نقع له على اوصاف تعدى فيها المحاسن الخلقية الى المحاسن الخُلقية ، فمن يبحث عن غزل يصف فيه الشاعر المزايا والاخلاق والسجايا ـ ايا كانت هذه السجايا ـ فانما يبحث عن عنقاء مغرب ، وحتى في الاوصاف الجسدية لم يتعد ماقاله القدماء بل معاصريه فالوجه بدر تم والثغر درر وجواهر ، والعيون والاجفان سهام ونبال والجيد ولا كجيد الظبى ، والساق ولا كعمود الرخام ، وامتشاق القامة يعلوها السالف المعقرب كغصن البان وعلى رأسه عصفور ، وان تذكر مهنته الكتابية قال كألف فوقها همزة . وناهيك بهذه التشابيه من تقليد .

والذي يقرأ انتاج اديب من ادباء هذا العصر قد يقع على صور ادبية غزلية يحسبها جميلة ومبتكرة ولكن اذا اتيح له ان يطلع على انتاج الاخرين من شعراء العصر هاله الامر لما ظنه مبتكرا جميلا ، حينما يعلم كم تعاورت هذه الصورة مجموعة من الايدى ابلت جدتها وشوهت جمالها .

وقد كنا نتوقع شيئا آخر من شعراء هذه الفترة وان كانوا صادقين في غزلهم وهو : ماهو وقع هذه المحاسن التي يصفونها في شعرهم على نفوسهم ؟ لم يحدثنا ابن حجة ولا في بيت واحد من شعره عن تجاوبه اورد فعل احاسيسه لهذه الصور الغزلية التي طالما زجها في نسيبه .

ولكن مادمنا في تحليل عمل الشاعر وتسجيل ماله وما عليه في موضوع كموضوع الغزل ، فمن الحق ان ننصف ابن حجة فإنه كان مخلصا لفنه الغزلي في مطالع المدائح النبوية ، ولما اشترط من شروط ينبغي على الناظم ان يراعيها اثناء نظمه ، وقد اخذ على بعض الشعراء الذين اخلوا بشروط الاحتشام في غزلهم الذي يتقدم مدح الرسول(١) .

وليت ابن حجة طبق كل مقاييسه النقدية على شعره ، لظفرنا منه بشعر يعتبر خير شعر انتج في عصر المماليك ، ولكن ابن حجة الهاه العمل في ديوان الانشاء عن تنقيح شعره وصقله او تقليد او تقليد الاحسن

(١) انظر حديثنا عن ابن حجة الناقد التطبيقي

من شعر الفحول ليكتسب ملكة الابداع وهو يعرف هذه الحقيقة كما سنرى في نقده وحديثه عن تكوين الملكة بالمطالعة والاكتساب ، وصقلها بالتنقيح والتهذيب وشاعرنا يسرف في بعض الاحيان اسرافا كبيرا في النسيب في مطلع قصيدته ، لدرجة انها تستغرق كمية كبيرة من شعره في القصيدة الواحدة ففي مدحه لابن مكانس بلغت المقدمة الغزلية (٢٧) بيتا من اصل (٤٧) والمقدمة الغزلية في الثانية بلغت (٥٠) بيتا وقصيدته التي رد بها على ابن الادمي لتقريظه رسالته (ياقوت الكلام) كلها غزل يتخلل غزلها تعريضات في الثناء عليه . ولعل من الاسباب التي اسهمت في طول المقدمة الغزلية كثرة تكرار بعض المعاني واعادتها بشكل يختلف بعض الشيء عن السابق . ففي قصيدته التي امتدح بها علاء الدين بن ابي البقاء تغزل بالعارض في البيت السادس فقال :

وحمـرة الخـد ابـدت خيط عارضة　　　فخلـت كأس مدام وهـو مشعور

واعاد الغزل بالعوارض في البيت الثاني عشر من القصيدة نفسها فقال :

لكن بمهـد زرود يا عوارضه　　　علي ان ضعـت من عظـم الصبـا دوروا

وهذا كثير في شعره فبينما نجده يتغزل في القد في مطلع القصيدة وينتقل منه الى التغزل بالخصر وغيره اذا به يعود الى التغزل بالقد مرة ثانية وقد يكون مرة ثالثة ايضا وبين الاولى والثانية بضعة ابيات وهذه العملية مما شانها ان تطيل الغزل في القصيدة الواحدة ، وبمقابل هذه الظاهرة نقع على ظاهرة عكسية وهي أنه احيانا بقصر نفس في الغزل ، وقد يكون مرد ذلك الى تركيز جناس او طباق ، فيجمع عدة موصوفات في بيت واحد فهو يتغزل بالخصر والردف والجسم والشعر ببيت واحد فيقول :

الخصر والـردف معـدوم وموجود　　　والجسـم والشعـر مقصـور وممدود

ولكن ليس طول المقدمة الغزلية في مدائح ابن حجة مأخذا عليه ، فهـذه الظاهـرة معروفـة في شعـر القدامى ، ويجدها ابن رشيق عيبا من عيوب الغزل ، قال في العمدة : «ومن عيوب هذا الباب أن يكثر التغزل ويقل المديح ، كما يحكى عن شاعر اتى نصر بن سيار بارجوزة فيها مئة بيت نسيبا وعشرة ابيات مديحا ، فقال له نصر : والله ما أبقيت كلمة عذبة ولا معنى لطيفا الا وقد شغلته عن مديحي بنسيبك ، فان اردت مديحي فاقتصر في النسيب ، فغدا عليه فانشده :

هل تعـرف الـدار لام عمرو؟　　　دع ذا ، وحبـر مدحـة في نصر

فقال نصر : لا هذا ولا ذاك ولكن بين الامرين[1]

ولعل ابن حجة لم يسمع بهذا النقد ، فبينما كنا نجده يجعل المقدمة الغزلية تصل إلى خمسين بيتا ، إذا به ـ ربما عن غير قصد ـ يفعل في قصيدته التي مدح بها استدمر بن يعقوب شاه ما فعله مادح نصر بن سيار ، فيقول في مطلع قصيدته .

---

(١) العمدة لابن رشيق ص ١٢٣

دعوا ذكر ذات الخال والمقلة النجلا   فحسن ابن يعقوب له الشرف الاعلى

واحياناً تند منه بعض القصائد المدحية فتاتي خالية من النسيب البتة وخاصة مطولاته كتلك التي مدح بها الملك المؤيد شيخاً والتي شرع فيها بالمدح من البيت الاول قال :ـ

كاس المنية في البرية دائر   والكون بالملك المؤيد زاهر

ورغم أن هذه القصيدة تبلغ أبياتها أربعة وثمانين بيتاً لا تقع فيها على بيت واحد من الغزل ومطولته الدالية الثانية التي مدح بها الملك المؤيد تزيد أبياتها على ستين بيتا وليس فيها بيت واحد في الغزل أيضاً ويقيني أن هاتين القصيدتين الكبيرتين اللتين لا تضاهيمها قصيدة في شعره ما خلتا من الغزل إلا لأن الملك طلب منه أن يستوعي في كل قصيدة منهما مجموعة من الفتوحات التي قام بها ، ولهذا أثر ابن حجة الدخول في موضوعه مباشرة ، لأن موضوعه بما فيه من عناصر كثيرة لا يتسع لمقدمات غزلية من شانها أن تطيل في القصيدة وتبلغ حداً تمل معه القصيدة لطولها ، هذا بالاضافة إلى أن مثل هذه القصائد التي تنظم في مدح الملك كانت تلقى القاء امامه على مسمع من رجالات الدولة ، ولذا يتوخى إلا تفرط في الطول لكي يسأم الحضور ، ومن القصائد التي عزف فيها عن الغزل أيضاً قصيدته في مدح الحاكمي قال في مستهلها .

قرأت بحمد الله في سورة النصر   وأعداك تتلو في التغابن والحشر

وإذا أمعنا النظر في هذا المطلع والمطلع السابق وجدنا أن براعة استهلاهما كانت مدحا بالقيم الدينية ، واعراضاً عن الغزل لأن مقام السلطان والامراء في هذا الاحتفال الرسمي لا يليق معه الغزل ، وانما تليق به القيم الدينية التي تربط السلطان المسلم بشعبه المسلم .

ومن خلال بحثنا في قصائده ، وجدنا ظاهرة جديدة في قصيدته السينية التي امتدح بها كمال الدين بن البارزي ، وهي انه لم يبدأها بمطلع غزلي ، ولم يهجم على موضوعه مباشرة بل لجا إلى وصف الليل فقال :

عاش الدجى وعلى عسعس   والصبح مات وما تنفس

وقد مر قبل قليل . قولنا إن ابن حجة لم يكتف بالغزل التقليدي ، بل كانت هذه العناصر تقليدية أيضاً ، والأوصاف التي وضعت بها تقليدية شاعت بين شعراء عصره إن لم نقل بين الشعراء عامة ، وهذه الصفات كلها تزاحم عليها الشعراء وقتلوها تكريراً واعادة . وقليلة هي المعاني الغزلية الجديدة عند ابن حجة ، حتى إنَّه ليفرح بها كثيراً عندما يقع عليها ، ولذا يشهر بها في مؤلفاته ، وكلماته ، وكلما أوردها أوردها مشفوعة بقوله : «وهذا معنى مخترع» أو «وهذا معنى انفردت به» ولم ينسج أحد على منواله كقوله مقطوعة من بيتين هما :ـ

قال نهد الحب : صفني ، إذ غدا   قاعدا في الصدر ملحوظاً موقر
قلت : إذا برّز في تحقيقه   أنت بالتحقيق ـ والله ـ مصدر

ثم أتبعه قائلاً : «وهذا معنى مخترع لم أسبق اليه»(١)

---

(١) جنى الجنتين ورقة ٦١/ ٢

ومن العيوب التي تؤخذ على ابن حجة في غزله اغراقه في التذلل لمحبوبته المتوهمة والحق أن بعض النقاد أشاروا إلى أن الشاعر أو المحب كلما أمعن في التذلل للمعشوقة كان ذلك أليق ، قال قدامة بن جعفر في نقد الشعر : «يجب أن يكون النسيب الذي يتم به الغرض هو ما كثرت فيه الأدلة على التهالك والصبابة ، وتظاهرت فيه الشواهد على اظهار الوجد واللوعة ، وما كان فيه من التصابى والرقة أكثر مما يكون من الخشن والجلادة ، ومن الخشوع والذلة ، أكثر مما يكون فيه من الاباء والعزة ، وأن يكون جماع الأمر فيه ما ضاد التحافظ والعزيمة ، ووافق الانحلال والرخاوة ، فإذا كان النسيب كذلك فهو المصاب به الغرض[1] .

ولكن ابن حجة تجاوز حدود المعقول من التذل ، فقد قال في قصيدته الكافية متغزلا :

ياكعبة الحسن طاف العبد يسأل أن ... يكون من فوق حر الوجه مسعاك

فهو يبذل حر وجهه لتطأه محبوبته ، والذي يبدو أنه ما بذل حر وجهه هذا لعشيقته المتخيلة إلا بعد أن أخذ تصريحاً باستحسان ذلك من بعض نقاد الأدب ، وذلك لأن ابن رشيق ذكر في عمدته : أن ابن عتيق سمع قول عمر بن ابي ربيعة :

بينما ينعتنني أبصرنني ... دون قيد الميل يعدوبي الأغر
قالت الكبرى : أتعرفن الفتى ؟ ... قالت الوسطى : نعم هذا عمر
قالت الصغرى : وقد تيتمها ... قد عرفناه ، وهل يخفى القمر

قال له : أنت لم تنسب بهن ، وانما نسبت بنفسك ، وانما كان ينبغي لك أن تقول : قالت لي ، فقلت لها : فوضعت خدى فوطئت عليه[2] .

فالشيء الذي أراده ابن ابي عتيق ولم يفعله عمر فعله ابن حجة ، جزاه الله ـ عن معشر الرجال ـ بما يستحق .

وثمة ظاهرة اخرى نحب أن نناقشها في غزل ابن حجة وهي أننا نستطيع أن نقطع بأن كل شعره كان تقليدياً ، ودليل ذلك الاسماء التي كان ينتحلها لمن يتغزل بهن أما من واحدة من اللواتي تغزل بهن ذكر اسمها ؟ والجواب أن اللواتي ذكر اسماءهن لا واحدة بل هن كثر ، ولكن يقيننا أيضاً أنها اسماء متخيلة ، ونعود فنلمس العذر لابن حجة في هذا التخيل أيضاً ، لأنه سار على نهج قدامى الشعراء في هذا السنن ، فلقد ذكر ابن رشيق في عمدته وقال «وللشعراء أسماء تخف على السنتهم وتحلو في أفواههم ، فهم كثيراً ما يأتون بها زوراً ، نحو : ليلى وهند وسلمى ودعد ولبنى وعفراء وأروى وريا وفاطمة ومية وعلوة وعائشة والرباب وجمل وزينب ونعم وأشباهن ولذلك قال مالك بن زغبة الباهلي ، أنشده الاصمعي :

وما كان طبي حبها غير أنه ... يقام بسلمى للقوافي صدورها

وأما عزة وبثينة فقد حماها كثير وجميل ، حتى كأنما حرما على الشعراء ، .... وربما أتى الشعراء بالاسماء الكثيرة في القصيدة الواحدة اقامة للوزن ، وتحلية للنسيب كما قال جرير :

---

(١) نقد الشعر لقدامة بن جعفر ص ١٢٣/ ١٢٤

(٢) العمدة لابن رشيق ص ١٢٤

أجد رواح القوم ؟ بل لات روحوا   نعم كل من يعني بجمل مبرح

ثم قال بعد بيت واحد :

إذا سايرت أسماء يوما ظعائنا   فأسماء من كل الظعائن أملح (١)

وأسماء هذه التي اتخذ منها جرير عشيقة متوهمة لاقامة الوزن وتحلية النسيب - على رأي ابن الرشيق - هي التي اتخذ اسمها ابن حجة للتورية بالاسماء والافعال والمصطلحات النحوية والصرفية فقال :

قد أعرب الوجد عن (اسما) بأفعالي   بالله لا تسمعوني لحن عذا لي
والحال فيه حلا والوجد منتصب   وكيف لا وهو منصوب على الحال

ويذكر (ايماء) مرة ثانية ، ولكن الدافع لا يزيد عن اقتناص لفظة مجانسة لها قال :

فلو نباهيك (اسما) ما (سمت) أبدا   وذكر عليا بوطا عند ذكراك

وحتى (هند وسلمى) يتخذ من اسميهما وسيلة للجناس عندما قال :

بعد (هند) وبعد (سلمى) تعطشت إلى كل ألعس ألمى
وفؤادي يقول لا تسل الري من الريق بعد هند وسل ما

وهنالك أسماء كثيرة يستعملها ابن حجة في غزله كزينب وليلى والرباب والعامرية ولكن هذه الاسماء غالباً ما تكون مطية للبديع ، واقامة للوزن ليس غير .

وما دمنا في معرض حديثنا عن النسيب عند ابن حجة فمن الجدير بالذكر أن نقول انه قد فشت في عصره ظاهرة المجون والغزل بالمذكر فشوا ذريعا ، ولم يبق شاعر إلا وقد اخذ بقسط من هذا الفن الجديد ، والحق أن ابن حجة كان يترفع عن المجون ، ولم يذكر في ديوانه كله الابضعة أبيات من هذا القبيل ، على حين أن ظاهرة المجون كانت تستغرق صفحات كثيرة من دواوين غيره من الشعراء ، وأما الغزل بالمذكر فقد نقع على نماذج منه في وصف السقاة والتغزل ببعض الغلمان وحتى هذا النوع من الغزل يبدو فيه التقليد وليس أصيلاً في نفسه ، ولم يقله عن نوازع في نفسه كما هي الحال عند بعض شعراء زمانه .

وفي ختام كلامنا عن النسيب عند ابن حجة نقول بما قال به ابن رشيق من أن «حق النسيب أن يكون حلو الالفاظ رسلها ، قريب المعاني سهلها ، غير كز ولا غامض ، وأن يختار له من الكلام ما كان ظاهر المعنى لين الايثار ، رطب المكسر شفاف الجوهر ، يطرب الحزين ويستخف الرصين» (٢) والحق أن في بعض غزل ابن حجة بعضا من هذا ، وأما ما قال به ابن رشيق نقلاً عن الحاتمي قوله : «من حكم النسيب الذي يفتتح به الشاعر كلامه ، أن يكون ممزوجا بما بعده من مدح أو ذم ، متصلا به ، غير منفصل منه ، فإن القصيدة مثلها مثل خلق الانسان في اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه في صحة

---

(١) العمدة لابن رشيق ص ١٢٢
(٢) العمدة لابن رشيق ص ١١٦

التركيب ، غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه ، وتعفي معالم جماله ، ووجدت حذق الشعر ، وأرباب الصناعة من المحدثين يحترسون من مثل هذه الحال ، احتراساً يحميهم من شوائب النقصان ، ويقف بهم على محجة الاحسان [1] فاني أراه يصدق كل الصدق على غزل ابن حجة الذي يسرقه بين يدي أماديحه فيحكم مزجه بما بعده ، ويراعي وحدة القصيدة بتلاحم جزئي الغزل والمدح ، وعلى الأخص في غزلة الذي يقوله في المدائح النبوية .

(٦)

الرثاء : لقد مدح ابن حجة كثيراً ، حتى إن أكثر ديوانه كان مديحاً ـ كما قلنا ولكنه رثى قليلاً ، وقليلاً جداً ، حتى إن مجموع أبيات الرثاء في شعره لا يصل إلى العشرين بيتا ، ولا أدري ما هي الأسباب التي حدت بابن حجة لأن يكون نساء للفضل منكراً للعرفان ، فحق كل ممدوحية الذين ملأ بمدحهم ديوان شعره لم نجده يرثي سوى المؤ يد ، ورثاه بأبيات قليلة لاتتناسب مع منزلته وحبه في قلبه .

وإننا لتستغرب كيف أن ولي نعمته وصديقه الحميم ناصر الدين بن البارزي ، لم يظفر منه ولا بقصيدة رثاء واحدة ، ولا حتى بأبيات من قصيدة ، رغم أنه مدحه بأكثر من ثلاث قصائد ، وأغرب من ذلك أنه كان للشاعر ابن يسمى محمد وقد توفي طفلاً وللطفل شفقة وحنان تثيران كوامن المشاعر ، ومع ذلك لم نقع له على قصيدة في رثاء أبنه المذكور ، وكل ما وقعنا عليه قطعة نثرية أرسلها لأهله يخبرهم فيها بوفاة ابنه ، ويضمنها بعض أبيات في الرثاء من شعر الآخرين ، وأغلب الذين مدحهم أدركتهم المنية قبله ، ومع ذلك لم نقع على بيت واحد له في رثائهم ، فهل كان ذلك لقلة اخلاص فيه للاصدقاء ؟ أم أنه كان يتطير من شعر الرثاء ، أم أن عاطفته كانت تنضب بمجرد أن يفكر في الرثاء ؟ أم أنه كان لا يحسن الرثاء ؟ أم أنه قال رثاء وأودعه مصنفاً مستقلاً وضاع هذا المصنف فلم يصلنا منه شيء ؟ كل هذا ممكن ولكننا لانسطيع ترجيح سبب على آخر .

ولكن دعنا الآن ندخل في فن الرثاء عنده لنمتحن هذا القليل القليل منه ، ونقف على أفكاره فيه ، فنجد القصيدة الوحيدة التي قالها في الرثاء هي قصيدته الزينية التي رثى بها الملك المؤ يد ، ويقول أنه عارض بها ابن نباته ، **ومطلع قصيدة ابن حجة** في رثاء المؤ يد قوله :

الف القد مدها لي بعزة ... وعليها من عطفة الصدغ همزة
ماس واللحظ حارس بسنان ... قد بدا فوق صعدة مهتزة

ومطلع قصيدة ابن نباته التي عارضه فيها قوله :

رشقتني من اللحاظ بغمزة ... وتثنت كصعدة مهتزة

وقبل أن ندخل في تفاصيل قصيدة ابن حجة في الرثاء ، لابد لنا من الوقوف بعض الشيء لنقول : إن قصيدة ابن نباته هذه قالها في مدح الصاحب شمس الدين موسى ، وإذا كانت القصيدة في المدح فمعنى ذلك أن المطلع الغزلي ينسجم في أولها . وكذلك اختيار ابن نباته للقافية الزينية المتبعة بالهاء الصامتة ينسجم أيضاً مع الغزل والمديح ، ولكن الغزل الذي وجدناه في زينية ابن حجه والقافية التي اختارها لا ينسجمان مع

(١) العمدة لابن رشيق ص ١١٧

موضوع الرثاء ، فالنسيب في أولها ينافي الرثاء في اخرها ، لأن الغزل لهو ، والرثاء فن موضوعه الجد والرصانة ، وقلما وقع في شعر القدامي نسيب في مطلع الرثاء ، وليت ابن حجة مر على هذا النسيب مروراً عابراً وانتقل بسرعة إلى الرثاء ، بل الذي حصل أنه وقف عند هذا الغزل وقوفاً طويلاً ، استغرق تسعة عشر بيتاً ، على حين لم يستغرق الرثاء الصرف سوى خمسة أبيات ، وبين الرثاء والنسيب خمسة أبيات في تمجيد ماض المرثي ، ولو اعتبرنا الابيات العشرة كلها في رثاء المؤ يد لما كانت وافية بحق مليك كانت القصيدة من أماديحه تبلغ نيفا وثمانين بيتاً ، وكل ما قاله في رثائه لا يزيد عن كونه رثاء للشاعر نفسه الذى حط به الدهر بعدما أعزه المؤ يد ، وأصبح ضعيفاً يطلق الاهات على شيخه الراحل وهذه أبيات الرثاء بتمامها نبدؤ ها من بيت التخلص من النسيب إلى الرثاء قال :ـ

وأنـا اليوم شاعـر العصر لكن ... لم أذق من بعـد المؤ يد عزة
كان للملك منـه عرض مصون ... أظهـر الدهـر بعـده فيه نبزه
كان قد سل أمس للأمـن سيفا ... كف عنـا كيد الزمـان وأرزه
كان للعـدل ثوب خز جديد ... فرق الجـور [illegible] ذلك خزه
وأرى الدهـر بعـده ذل يتم ... وبـه أنفس الـورى مشمئزة
كان لى في حمـاه اقطـاع عز ... كيف لاأنتخـي وأحفـظ خبزة
عظـم الله أجـركم مات أهـل الـ ... ذوق فابـكو الفقـد تلك المعزة
كان للمسلمـين كنـز أمان ... فبـدا مانـع وحجـب كنزة
فسقـى الله تربـة ورعاه ... وحمـاه وصانـه وأعزه

هذا كل ما جاء في رثاء المؤ يد ، وكما قلت : إن الراثي في هذه الابيات يرثي عزة المتداعي ، وأمانيه التي لم تتحقق ، وعزته السليبة ، وليست الأبيات رثاء حقا للمرثى .

والذي يؤ يد ما ذهبنا إليه من أن ابن حجة كان لا يحفل بالمرثى بمقدار ما يحفل بما يناله منه ، وقد ولى عنه الآن ما كان يناله ، الذي يؤ يد هذا قوله في رثاء فخر الدين بن مكانس ـ وليس ثمة قصيدة في الرثاء وانما هي أبيات عارضة في عداد مديحه لابنه مجد الدين ابن مكانس ـ قال :

قالت : لقد مضى فخرك من بين الورى ... وقـد قعـدت عن طلاب المجد
ولـو رحلـت طالبـا لفضله ... نلـت بفضـل الله كل قصد

ففخر الدين بن مكانس الذي مدحه وهو على قيد الحياة بقصيدته الفائية التي بلغت أبياتها سبعة وأربعين بيتاً . لا يظفر منه ، وهو طريح في رمسه بأكثر من عبارة في شطر بيت «قالت لقد مضى فخرك من بين الورى» وقد أردفها بما يجول في نفسه من أغراض «وقد قعدت عن طلاب المجد ، . . ولو رحلت طالباً لفضله لنلت . . كل قصد» لانستطيع هنا أن نقول إن هذه الظاهرة هي داء شعراء ذلك العصر ، فقد وجد بعض الشعراء حتى من الذين اقتدى بهم ابن حجة كانوا مخلصين كل الاخلاص ، في الدار الاخرة ، لمن مدحوهم في الدار الدنيا ، كابن نباته وصفي الدين الحلى وغيرهما . ولكن ابـن حجـة كان منفـرداً بهـذه

الظاهرة .

وهناك نوع آخر من الرثاء نقع عليه في شعر ابن حجة ، ذلك هو ما اصطلح عليه دارسو الأدب باسم رثاء المدن الزائلة . وقد كثر في تلك الفترة التي واكبت عصر ابن حجة وخاصة في الأندلس ، التي كانت تتداعى مدنها الواحدة تلو الاخرى . وكان شعراؤها يبكون مجد العرب الزائل في تلك البقاع ، ويندبون الحضارة الاسلامية التي أخذت معاول الفرنجة في تهديمها ، وقصائد أبي البقاء الرندي خير شاهد على ذلك . والمدن التي يرثيها ابن حجة ليست من نوع المدن الزائلة التي تسقط من أيدي المسلمين لتتلقفها يد الطامعين ، ولكنها مدن أغار عليها الطامعون فنهبوها وسلبوها ـ وقوضوا ما بها من حضارة ثم غادروها قاعاً صفصفاً ، فوقف أمامها الشعراء يندبون ما كان لها من مجد منهار وحضارة مضاعة ، وقد كانت مدن الشام وغارات المغول المتتابعةوحرق التتار لهذه المدن موضوع رثاء ابن حجة . فهو يرثي دار السعادة بحماة قائلاً :

دار السعادة كان قد حل الشقا ... فيها وجاورها زمان أسود
واليوم تنشد مذ حللت بربعها ... أهلا بعيش أخضر يتجدد
وإذا نظرت إلى البقاع وجدتها ... تشقى كما يشقى الرجال وتسعد

وما نال حماة من المغول لا يعادل جزءاً من الف جزء مما نال دمشق على أيديهم فقد غادروها تلتهمها النيران ، وتتطاول إلى قمم المآذن فتعانقها . فيتأسف ابن حجة على شامة الدنيا ويرثيها قائلاً :

هذي دمشق الشام عين بلادنا ... وعلى محاسنها الخناصر تعقد
قد صيرتها المغل قاعاً صفصفاً ... هذا وفيها نارهم لاتخمد
وتهدمت أركانها بحريقهم ... ووعيدهم ظلما وكم تتهدد
وتعددت في عصرنا نكباتها ... مما دهاها والانام تعدد
لهفي على ذات القصور وقد غدت ... ذات القبور وشملها متبدد
لهفي على الاموي معبدنا غدا ... جهل التتار بهدمه يتعبد
لهفي على تلك المساجد أصبحت ... دمنا وليس بها مصل يسجد
لهفي على علمائها ومدارس ... درست وفيها العلم كان يشيد
لهفي على كتب العلوم تجلدت ... لحريقهم فذوت وكم تتجلد
لهفي لربات الخدود وسبيها ... وخدودها بدموعها تتخدد
لهفي لاطفال تنادي خيفة ... ياليت أنا قبل ذا لانولد

ولقد عرف الشعر العربي رثاء المدن الزائلة والمنكوبة قبل الاندلسيين ، وقبل شعراء عصر المماليك . فرثاء ابن حجة لمدينة دمشق يذكرنا برثاء ابن الرومي لمدينة البصرة التي اجتاحتها ثورة الزنج المشهورة في قصيدته الميمة التي مطلعها :ـ

ذاد عن مقلتي لذيد المنام ... شغلها عنه بالدموع السجام
أي نومٍ من بعد ماحل بالبصرة ... ماحل من هنات عظام

وابن الرومي يكثر من اللهفة على ما كان للبصرة من ماض مجيد ، وما حل بها من دمار كاكثار ابن حجة من اللهفة في قصيدته السابقة .

وبوجه عام يمكننا أن نقول إن الرثاء في شعر ابن حجة كان أقل بكثير مم كنا نتوقع فالاخلاص الحق يتطلب منه أن يذرف ولو دمعة وفاء واحدة عندما يبلغه نبأ رحيل صديق من أصدقاء العمر إلى الملأ الأعلى ، والدمع طالما سكبه لمجرد ذكرى العشيقات المتخيلات يجمد في عينيه عن التسكاب ، وتجف مع دمعه قريحته ، وتجف مع دمعه قريحته ، وكأن مداد قلمه يتمثل بما قاله أبو فراس «ولكن دمعي في الحوادث غالي» .

الشوق والحنين في شعره :

منذ أن عرف الحياة ، وأدرك أنها جهاد في سبيل العيش ، وحل في هذا المكان يعقبُهُ ترحال عنه ، عرف الشوق والحنين طريقه إلى قلب ابن حجة ، ولقد حكمت الأيام عليه أن يكون جواب افاق في أيام شبيبته ، فقد انتقل من حماة إلى طرابلس إلى دمشق ، ومكث في كل منها فترة ليست بالقصيرة وذاق فيها مرارة البعاد عن الوطن واكتوى قلبه بنار الفرقة ، ومع كل هذا لم يلق عصا الترحال ، بل زاده وأمعن فيه وكانت همته هذه المرتسمو إلى آفاق بعيدة ، وحقق هذه الأماني عندما استدعاه صديقه محمد بن البارزي إلى مصر وعينه في ديوان الانشاء ، وبالرغم من أنه ارتاح لهذا العمل إلا أن الشقة التي أصبحت تفصله عن مسقط رأسه غدت واسعة فكان بينه وبين الدهر ثارا أبي إلا أن يقتص منه بالشتات عن الاوطان ، والبعد عن الأحبة وقد عبر عن هذا فقال عاتباً على الدهر :

قررت لي طول الشتات وظيفة	وجعلت دمعي في الخدود مرتبا
وأذقتني فقد الأحبة والهوى	والأهل والأوطان في زمن الصبا

فإذا كان ابن حجة في مصر حن إلى بلاد الشام ، وما بها من معاهد ورياض ، وإذا كان ببلاد الشام نفسها جذبة الحنين إلى حماة ، وإلى مراتع صباه فيها ، وما أكثر ما حنّ اليها ، حتى لا تكاد تخلو قصيدة من قصائدة من بضعة أبيات في الحنين اليها ، وكثيراً ما كان الشوق يسيطر على حواسه ومشاعره تصرفه عن كل شيء فلا عجب إذا سمعناه يعتذر لأحد ممدوحيه عن الاستمرار في الشعر ، لأن شوقه لحماة شغله عن صناعة القريض ، فقال معتذراً :

عذرا فهذا نظم من قلبه	فارقه نحو حماة وراح
وجسمه بالشام قد رام أن	يطير لكن قص منه الجناح

وربما كان هذان البيتان أقصر قطعة في الشوق والحنين قالها ابن حجة ، فمن يتصفح قصائده الأخرى يجد بها أقساما طوالا من الشوق والحنين . ففي قصيدته التي على روى الطاء قال متشوقاً :

بلاد اذا ما ذقت كوثر مائها	أهيم كأني قد ثملت بأسفنط
سقى دوحها ان قل دمعي سحابة	مطنية بالدمع منهلة النقط
ولذ عناق الفقر لي بغنائها	وفي غيرها لم أرض بالملل والرهط

نعمت بها دهرا ولكن سلبته برغم وهذا الدهر يسلب ما يعطي
وقد شط عني شكلها وتباعدت جرى مدمعي نهرا على ذلك الشط
أمثل شوقا شكلها في ضمائري فتتبع عيني ذلك الشكل بالنقط

فشوقه الى حماة ملك عليه قلبه ، ورغم أنه نال في مدينة طرابلس من العز والجاه ما لم يكن يناله في حماة ، إلا أنه يؤثر الفقر في حماة على الغني في غيرها . وفي طرابلس هذه نظم قصيدة أخرى غيرها أرسلها الى شيخه الخبش ، ضمنها لشواقه وحنينه الى بلد ، قائلا :

فاها على وادي حماة تأسفا خلافا لمسن قد قال : آها على مصر
فكم مربي فيها حلاوة ليلة فكانت شبيه الخال في وجنة العمر
وفي غيرها قد صرت أقضي لياليا تمر بلا نفع وتحسب من عمري
فان كان قدري في طرابلس علا وقد لقيتني وهي باسمة الثغر
فان فراق الألف والخل والهوى وفقد الحمى والأهل صعب على الحرّ
بلاد بها نبطت على تمائمي وحزت بها ما حزت من رفعة القدر

ويبدو أن الشاعر قد لاقى محنة في بلد اضطرته الى النزوح وارتياد مكان آخر يجد فيه العزة والكرامة ، ويعتبر هذه المحنة من غلطات الدهر ، ورغم أنها محنة صعبة على القلب إلا أن شوقه وجنينه الى ذلك البلد الذي نيطت عليه تمائمه فيه جعله يغض الطرف عن أساءة الدهر ، ويصفح عنه فقال :

وان كنت فيها قد أصبت بغلطة من الدهر اني قد صفحت عن الدهر
فيا ساكني مغنى حماة نعمتم صباحا ، ولو ألغيتم في الهوى ذكرى
فؤادي وودي مثلما تعهدونه ولكن صبري عنكم عاد كالقبر
وقد كنت أخشى هجركم قبل بعدكم فلما بعدتم قلت : أها على الهجر
وان خلت في ميدان نظمي تشوقا تسابقني حمر المدامع بالنثر

وان كانت الأبيات السابقة تشعرنا بتشوقه لحماة عامة ، فالأبيات التالية تشعرنا بشوقه لشيخه الذي طالما تردد عليه ، وطالما أجله واحترمه ، وصداقة العلم تبقى على مدى الأيام ، فلذا يقول :

يعزّ على قلبي فراق مقامه وها أنا من بعد المقام بلا حجر
مدحتك لكن زاد مدحي صبابة اليك وأذكى جمرة الشوق في صدري
وجدد لي وجدا وما كنت ناسيا ولكنه تجديد ذكر على ذكر

واذا كان ابن حجة بتشوق لشيخه ، فما أحراه أن يتشوق لولي نعمته وراعيه : محمد بن البارزي ، فاذا زار ابن البارزي حماة اجتمع فيه حبيبان الى قلبه ، فكيف لا يتشوق اليها واليه ؟ وقد عبر عن هذا الشوق اليهما بقوله :

عرج على وادي حماة بسحرة ... متيما منه صعيدا طيبا
أسرع الى وداو في مصر به ... قلبا على نار البعاد مقلبا
لله ذاك السفح والوادي الذي ... ما زال روض الأنس فيه مخصبا

وهو يصرح في هذه القصيدة بأنه بالاضافة الى حبه الكبير لمصر إلا أن حماة تجذب قلبه اليها فيقول :

وانعم بمصر نسبة لكن أرى ... وادي حماة ولطفه لي أنسب
أرض رضعت بها ثدي شبيتي ... ومزجت لذاتي بكاسات الصبا
يا ساكني مغنى حماة وحقكم ... من بعدكم ما ذقت عيشا طيبا
وقد التفت الى يا دهري بطو ... ل تعتبي ، ويحق لي أن أعتبا
قررت لي طول الشتات وظيفة ... وجعلت دمعي في الخدود مرتبا
وأذقتني فقد الأحبة والهوى ... والأهل والأوطان في زمن الصبا

ولم تكن هذه هي القصيدة الوحيدة التي كتبها متشوقا لالفيه ابن البارزي وحماة ، بل ثمة قصيدة أخرى أرسلها اليه ، وقد توجه البارزي صحبة الملك المؤ يد ، واستقل الركاب بحماة في فصل الشتاء عند العودة من قلح شأفة الأعداء عام ٨١٩ وكان ابن حجة قد تأخر عن اللحاق بركب المؤ يد ، وأقام بالقاهرة ، فأرسل الى ابن البارزي هذه القصيدة يتشوق الى حماة وعاصيها فقال :

خل التعلل في حمى يبرين ... فهوى حماة هو الذي يبريني
وأطع ولا تذكر مع العاصي حمى ... مما في وراء النهر ما يرضيني
والله ما أنا آيس من قربها ... بالله صدقني وخذ بيميني
قالوا : أتسلو عن ثمار شطوطها ... فأجبت : لا والتين والزيتون
فالعين قد أبقت بقايا أدمع ... وهناك أجريها برجع حنيني
فاحذر ملامي عند فيض مدامعي ... فالدمع دمعي والعيون عيوني
بالله يا أهل الحنين اذا بدا ... ترجيعكم بحنينكم واسوني
يا عين خل العز بعد فراقهم ... وارث لذلي في الغرام وهوني
فأهيل ذاك السفح بعد بعادهم ... لم أرض سفحا غير سفح عيوني
وتكونت نار اشتياقي في الحشا ... بفساد تكويني فدع تكويني
ولوقة فيكم أظن بأنكم ... حنيتم طربا لرجع حنيني
برهان شوقي قد أقمت دليلة ... بسني بحوث مع ضياء الدين

كل ما مر معنا من أبيات في التشوق كان الشاعر بتشوق فيه الى حماة ، ولكن لم يكن دائما حب الديار هو الذي شغف قلبه ، بل حب من سكن الديار ، حب الأصدقاء والأخلاء فهو يتشوق اليهم ولو كانوا خارج حماة ، فها هو الآن في حماة وخلانه في وادي الشام لذا يرسل اليهم هذه القصيدة من حماة فيقول :

يا ساكني وادي دمشق لبعدكم عيني غدت عينا وقلبي صادي
وأنا غريب في بلادي بعدكم وكذاك نظمي يا أهيل الوادي
هذا وسيف البين يقرع مهجتي واذا أتاني العاذلون أغادي :
من لم يبت والبين يقرع قلبه لم يدر كيف تفتت الأكباد
لله أيام تقضت لي بكم بالواد بين وقرب ذاك النادي
والشمل مجتمع وحبي حاضر والدار داري والبلاد بلادي

وقد كتبت الاقامة عليه بمصر هذه طويلة ، وكلما فكر في العودة الى حماة انهالت عليه شواغل الحياة وتكاليفها ، فحالت بينه وبين تحقيق أمنيته هذه ، ولما طال عليه المقام في القاهرة التمس مِمَّنْ بيدهم الحل والعقد ان يأذنوا له ولو بخمسة أشهر يقضيها في البلد الذي طال تشوقه اليه ، بعد أن برح به الشوق ، فقال من قصيدة يمدح بها القاضي زين الدين ناظر الجيوش بالممالك الأسلامية ويترفق له :

لكن حماة الشام أذكر دوحها وبهذه الذكرى تهيج بلابلي
لم لا وتلك الأرض منبت مغرسي ومنازهي ومواطني ومغازلي
فاشفع بحقك لي بخمسة أشهر أقضي بها أربي بعود عاجل
فالشوق صير مهجتي لسهامه غرضا ، فيا حزني لشوق قاتل

ولم يسمح له القاضي زين الدين ، وبقي يكايد الشوق في مصر ، وامتد به العمر والبقاء في القاهرة ، حتى مات صديقه الحميم محمد بن البارزي ، ثم تبعه بعد فترة وجيزة مليكة المؤ يد فازداد قلقاً في مصر ، وشوقاً إلى حماة ، وحتى في رثائه للمؤ يد أبدى شوقه إلى العودة ، وأيقن أنها أصبحت قريبة فقال :

غير أني إذا ذكرت حماة قال طرفي : قد حل أن أتنزه
طال شوقي وقد تطرفت للرحلة عن مصركم واحتاج وكزه
نزه الشام هام قلبي إليها لست أرضى بالبسط والنبق منزه

ومع ذلك فإن الدهر أبى أن يسالمه ، ومكث بعد وفاة سيديه حوالي ست سنوات بمصر وعندما أزمع الرحيل في سنة ٨٣٠، أزمع ولم تكن في نيته العودة ، ثم رجع إلى البلد الذي طال شوقه إليه وكأن لسان حاله يقول :

وألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالاياب المسافر

وبقي في حماة ولم يرحل عنها .

وهناك نوع آخر من التشوق والحنين في شعر ابن حجة ، وهو التشوق إلى أماكن لم تكن موجودة في أرض الشام أو في مصر ، وإنما هي في الحجاز كالجزع والعقيق وبأرق ويثرب ، وهو يكثر من التشوق لهذه المعاهد ، وأظن أن في تشوقه هذا أحد أمرين الأول هو الشوق التقليدي الذي سار عليه أكثر الشعراء في القديم والحديث وهو الأرجح ، والثاني الدافع الديني الذي يشد نفس الشاعر إلى هذه المسميات وحبه للرسول الذي يرفرف خيال شخصه فوق هذه الأماكن ، ويلحق بهذا السبب أمر آخر وهو أنه حج ذات مرة وتعرف على هذه الأماكن فأصبحت قطعة من ذكرياته .

الاعتذار والعتاب والاستعطاف :

الاعتذار فن من فنون الشعر العربي ، عرفه الأدب منذ القديم ، ومنذ أن قال النابغة اعتذارياته للنعمان ، والشاعر بحكم التصاقه بمجموعة من الناس يمدحهم تارة ، ويرثيهم تارة أخرى ، فقد يأتي من يحسده على منزلته التي وصل إليها ، ويوغر صدر الممدوح ، فيجفو مادحه وتنقطع الصلة ، فيبادر الشاعر إلى بسط اعتذاره ، وتصحيح ما قد فرّط في جنب الممدوح ، ليخطب وده من جديد ، ويستمر على موالاته ، وقد ولد الاعتذار في شعر ابن حجة في فترة مبكرة من نظمه للشعر ، فقد ذكر لنا أنه نظم قصيدة اعتذار يرجع تاريخها إلى حوالي ٧٩٢ ، وهي ما كتبه ابن حجة لصديقه المقر الأشرف الأميني صاحب ديوان الانشاء بدمشق ، فمدحه أيام كان هذا المقر كاتباً للسر في حمص بقصيدة رائية قال في مطلعها :

سرت في دياجي الشعر ياطلعة القمرا فعوذتها بالليل والفجر والأسر

وقال ابن حجة في التقديم بمناسبة اعتذارياته ، «إن المقر المخدومي الأميني الحمصي لما انتقل من توقيع حمص إلى صحابة ديوان الانشاء بدمشق ، فقصد نقلتي من حماة إلى أبوابه العالية بعد أن كانت كؤوس الانشاء دائرة بيننا ، وقد نقل إليه كلام عني تحقق بعد ذلك عدم صحته فكتب إليه هذه القصيدة[1] منها :

حبكم فرضنا وسيف جفاكم قد غدا في بعادنا مسنونا
والحشا لم نخن عهود وفاكم واسألوا من غدا عليكم أمينا
قد شعرنا بمدحكم فكبتنا حاسديه من حيث لا يشعرونا

ومن اعتذاره لاصدقائه ما كتبه لمجد الدين بن مكانس ، بسبب تأخر ابن حجة عن مدحه فمدحه بقصيدة دالية ، اشتملت على عدد غير قليل من أبيات الاعتذار ، جاء فيها :-

يا بن الكرام الكاتبين والذي بلغت في نواله أشدي
عذرا عن التأخير في مدائحي فانني أبطأت لا عن عمد
لما غدا فعل زماني لا زما في جوره من كثرة التعدي
والعذر في سرد قصيدة واضح ألم أقدر سيدي في السرد
فلا برحتم أفق كل رتبة تخدمكم طوعا نجوم السعد

وعلاقته بأبن البارزي كانت دائما وثيقة الصلة ، وقد قيض لابن البارزي أن يسافر لحماة بلد المادح والممدوح ، وكان من حق ابن حجة أن يرافقه ، ولكن الظروف شاءت أن تقعد ابن حجة في القاهرة ، ويسافر ابن البارزي بدون شاعره ، فأرسل ابن حجة قصيدته معتذرا عن التأخير فقال :

ديني عظيم لانقطاعي عنكم فلأجله في مصر لا تبقوني
وعجزت ضعفا عن وفا دين اللقا فترفقوا بفؤادي المرهون

(١) التقديم ص ٩٤

فعسى يزول ظلام بعــدي عنكم | وأرى ضياء القــرب من شمسين
هذي غراميات صب ماله | أرب بتــورية ولا تضمين

وتسمتر هذه القصيدة على هذا النحو من الاعتذار تارة ، والمدح تارة أخرى ، والاعتداد تارة ثالثة ، وبالمناسبة أقول ان اعتداد ابن حجة واعتزازه بنفسه جعل هذا الاعتداد يطغى على الاعتـذار ، لان شأن الاعتذار أنْ تتضاءل فيه شخصية المعتذر أمام شخصية المعتذر اليه ، وبهذا التضاؤ ل ما كان يطمئن اليه ابن حجة ، ولطالما اعتد ابن حجة في نظمه وشعره ، ولكنه أمام ابن البارزي يطأطىء رأسه ، ويعترف بتقصيره حتى في النظم فيقول :ـ

ان جاء نظمــي قاصرا من ضعفه | عذرا فهــذي نشطـة الخمسين
ونعـم كبــرت وبــان عجـزي انما | كانــت مسرات اللقــا تصبيني

وعندما قدم ابن خلدون لمصر أقبل عليه شعراء العصر يمدحونه ، ويشيدون بما فيه من عبقرية ونبوغ ، وتأخر ابن حجة عنْ مدحه فترة . ثم أقبل عليه وعرص بتأخره طالبا العذر منه عن هذا القعود ، وفي حلم ابن خلدون ما يتسع لقبول هذا الاعتذار فقال :

وان كنت قد أحجمت عن بعض وصفه | ففي حلمه يرجى قبول اعتذارك

فيما عدا ذلك لم يكن لابن حجة اعتذاريات مشهورة أو مغمورة ، فهو كما قلت يطغى اعتـداده على اعتذاره ، ولذا جاء اعتذاره ضئيلا مبثوثا هنا وهناك .

العتاب :

ينشد الانسان في هذه الحياة السريعة ، وفي رحلة العمر القصيرة ، صداقة النـاس ويصطفـي من بعضهم أناسا يجعلهم موطن سرّه ، ومشاركيه في الأفراح والأتراح ويتمتع بصداقتهم أمدا طويلا ما دامت كؤ وس الصداقة دائرة بينهم ، فاذا حصل بينهم بعض الجفاء ، وتوقف سيل المودة عن التدفق ، وظهرت في سماء الصداقة بعض السحب فما أن يقيض لهذه السحب أن تنقشع ، حتى يأخذ الأصدقاء في استئناف ما بدؤ وه من الصداقة ، وقبل الاستئناف تسبقه فترة محو لكل ما علق في النفس من كآبة ، وفي القلب من صدأ ، وهذا يسمى العتاب . وكان ابن حجة حريصاً على استمرار الصداقة مع من صادقهم ، فإذا تجافوا عنه نفحهم بقصائد عتابه ، مذكرا إياهم بخالص الود ، وصافي الاخاء ، وعتابه كان في مناح ثلاثة .

الأول عتاب الأصدقاء والخلان . ومن تربطه بهم رابطة الوفاء بالمودة ، والثاني عتاب للحبيب الذي لم يخلص للوداد ، وترك القلب مجرحا ومضى في سبيله ، والثالث عتاب للدهر وهو الذي يبطش ولا يرحم ، ويضحك اليوم ليبكي غدا . فمن النوع الأول الذي هو عتاب الأصدقاء ما كتبه ابن حجة لصديقه المقر الأشرف الأميني صاحب ديوان الانشاء بدمشق ،

من بأسياف هجرهــم كلمونا | ما عليهــم لو أنهــم كلمونا
أغلقــوا باب وصلهــم فتــح اللـ | ـه لهــم بالهنــاء فتحــا مبينا
ملـكوا رقنــا فصرنــا عبيدا | ليتهــم بعــد رقنــا كاتبونا

وماكتبه عاتبا على كمال الدين البارزي الذي تنكر لصديقه ابن حجة بعد أن نعم زمانا طويلا بصداقة أبيه ناصر الدين ، ولطالما مدحه بقصائد منها السينية المقيدة القافية ولكن الوشاة اجتمعوا حول كمال الدين وأوغروا صدره عليه فأظهر له الجفاء . فلهذا عتب عليه ابن حجة ، وأظهر هذا العتب على شكل تعريض في القصيدة الثانية قال :

قالـوا: بنـو البـارزي قد أبـدى كمالكم   نقصـا بفضـلك والحسـاد شمات
فقلـت: ان بان نقصي في الـكمال فلي   بدر يكملنـي فيه الكمالات
وان يك روض نظمـي قد ذوى بهم   ففـي بنـي مزهـر للعبـد روضات

وعندما التفت اليه ابن مزهر وواسى جراحه ، اعترف بهذا الفضل منه ، والاحسان والانصاف ، فأشار إلى هذا الانصاف من قبل ابن مزهر والى الحيف والظلم من قبل ابن البارزي فقال :

انصفتنـي من أعـز النـاس منزلة   عنـدي . وقلـت : كلام الحتف سقطات
ان كانـوا قد جرحـوا فضلي، وعيشكم   في القلـب من ظلـم ساداتـي جراحات
وقـد حبسـت عنـان العتـب من أدبي   وفي الحشـا من سنـان الجـور وخزات

أما عتاب الحبيب المتجني فهو قليل في شعر ابن حجة ، ففي المقدمة الغزلية لمدح فخر الدين ابن امكانس قال :

عاتبـة ودموعـي غـير جارية   لأن دمعـي من طول البـكا نشفا
فقال : لم أرو وكف الدمع قلت له :   حسيبـك الله يا بدر الدجـى وكفى

وعندما عاتبه حبيبه على هجره له ساق له أعذاره وعتبه عليه وقال :

قالـوا نزورك لكن أنـت هاجرنا   فقلـت : هذا محـال كلـه زور
والله لم أتغـير عن محبتكم   يومـا وان كان جسمـي فيه تغيير

أما عتابه للدهر فنوع كثر في شعر ابن حجة ، وقد رأينا بعضه قبل قليل ، فمنه عندما عتب على الدهر للغلطة التي غلطها نحوه ، ولكنه صفح عن الدهر فقال :

وإن كنـت فيهـا قد أصبـت بغلطة   من الدهـر إني قد صفحـت عن الدهر
فإن فراق الأهـل والخـل والهوى   وفقـد الحمـى والأهـل صعـب على الحر

ولم يهادنه الدهر رغم صفحه عنه ، بل كثيراً ما كان يمعن في تفريقه عمن يحب . فلذا يقول :

والله إن لم القهـم مِـنْ بعدها   فعلى زمانـي لم أزل متعتبـا
وقـد التفـت إلي يا دهـر بطو   ل تعتـب ، ويحـق لي أن أعتبا
وأسرتنـي لكن بحـق محمد   يا دهـر كن في مخلصي متسببا

وأصر الدهر على محاربته ، وإن كان يعطيه باليمين حينا فإنما ليسلبه بالشمال حيناً آخر ، فلذا قال :

نعمت بها دهراً ولكن سلبته ... برغم وهذا الدهر يسلب ما يعطي
وسبحة جمع الشمل كانت لبابها ... منظمة لكن قضى الدهر بالفرط

ويبقى الدهر على خصومته حتى يقيض الله له بعض الأصدقاء يخففون من وقع مصائب الدهر عليه قال :

من اساءات دهري كنت منقبضاً ... لكن به غفرت تلك الاساءات
وكان ظني أن الناس قد ذهبوا ... وجئته فرأيت الناس ما ماتوا

والذي يظهر من عتابه للدهر أنه كان يزداد في شعره ويبرز بصورة أوضح عندما تنزل به كارثة أو يجحف الدهر بحقه ، أما إذا سالمه كف عن عتابه ، وخلا عتاب الدهر من شعره .

هذه مجموعة من الصور في عتاب ابن حجة بعضها كان موجها للاصدقاء ، والآخر موجها للحبيب والقسم الأخير كان موجها للدهر الذي لم يسالمه وأصر على معاداته .

الاستعطاف :

ويتبع الاعتذار والعتاب نوع من الشعر قريب منه ، وهو الاستعطاف . وفي شعر ابن حجة منه نموذجان : الأول قصير لا يتجاوز البيتين . والثاني طويل يشمل القصيدة بكاملها . أما القصير منهما بيتان وردا في قصيدته اللامية التي مدح فيها زين الدين ناظر الجيوش يستعطفه ويطلب منه أن يكون حكما بينه وبين الشعراء الذين سددوا سهامهم عليه آنذاك ، فقال :

فاحكم فديتك ان مدحي قصة ... وقعت ببابكم يشرح مسائل
والله لا أمدحكم لاجازة ... وأنا بجدواكم مجير القائل

ومر معنا قبل قليل أيضاً أنه استعطفه ليمنحه اجازة خمسة أشهر ، فقال هناك :-

فاشفع بحقك لي بخمسة أشهر ... أقضي بها أربي بعود عاجل

أما القصيدة الطويلة التي نظمها في الاستعطاف فهي القصيدة الرائية التي استعطف بها الأمير علاء الدين الطشلاقي الذي كان نائباً لقطية ـ ولا يمكن أحد من الجواز فمن مصر إلى الشام وبالعكس إلا بجواز مرور منها . فهي مذم الدرب لا يمكن الدخول إلى مصر إلا منها ، وكان بها مكان أخذ المكر من القادمين إلى مصر وقد اندثرت ولم يبق إلا اطلالها .

ويبدو أن ابن حجة كان قد يمّم شطر مصر ومر بهذه القرية فاستوقفه نائبيا علاء الدين ، ومكث فترة طويلة فيها . فكتب إليه يسأله حسن التخلص من ذلك المكان الخبيث . ويستعطفه باطلاق سراحه عاجلاً منها : قال :

مولاي عبدك ملّ من طول السرى فعسى برأيك أن يكون مدبرا
وأماته الألم المصيب لطعنه فغدا بتابوت المحار مصبرا
ميتا بأثواب السقام مكفنا أضحى على نار الرمال مصبرا
وبغير جرم صمت عن أكل وعن شرب ، وقد صار الفؤاد مفطرا
ولبعد أوطاني وقرب مذلتي من فيض دمعي لاتسل ماقد جرى
وتلونات الدهر حظي سودت في سفرتي فلقيت موتا أحمرا
وبغربتي لم ألق يوما أبيضاً هذا وكم فارقت عيشا أخضرا
ياأيها البطل الذي بفعاله يوم الحروب لقد نسينا عنترا
والله مابـاشرت قط وظيفة تسمى ، ولا عانيت عمري متجرا
كلا ولاأنا من ذوي المال الذيـ ـن سموا ولم أر غير نظم جوهرا
لكن سمعت بأن مصرا جنة أضحى لها النيل المعظم كوثرا
فأتيت أدخلها لأني قبل ذا قدمت يا مولاي من طول السرا
ووردت من حر الهجير جهنما وبعثت من قبر المحار كما ترى
لم يبق لي إلا دخول جنانها فامنن عليّ فليس قولي مفترى
فاسمح برؤيتها ويا رب الندى بالله لا تجعل جوابي : لن ترى
لا زلت أفقا للعلى واذا دجت ليلات همي كنت فيها مقمرا

وقد أوردنا هذه الأبيات على طولها لما فيها من دلالة واضحة على الاستعطاف الذي تجسد في هذه الأبيات من شعر ابن حجة .

الألغاز والأحاجي :

بقي بين أيدينا بضعة أغراض أخرى من شعر ابن حجة ، تعتبر أغراضاً أقل من ثانوية ، لقلتها في شعره ، ولأنها لا تشكل غرضاً متميز المعالم ، واضح الرسوم ، ومن هذه الأغراض الالغاز والاحاجي ، وهذا الغرض من الشعر بزغت بذوره قبل هذه الفترة ، ولكنه نما وترعرع وأينع على يد شعراء هذه الفترة ، وقد أكثروا منه ، وتباروا في انتاجه وتطارحوه وتحلوا بنظمه ، وقلما خلا شعر أحدهم من شيء من الألغاز والأحاجي ، ويبدو أن للفراغ الذي كان يعيشه بعض الشعراء ، والتظاهر بالبراعة والضحالة الفكرية ، نصيبيا كبيرا في نظم هذا النوع ، والتفرغ لصيد شوارده ، والظاهر أن ابن حجة لم يكن لديه الفراغ الكافي ليستكثر من هذا النوع ، بل شغل في الديوان عن الانصراف لمثل هذا الفن ، وإن وجد في ديوانه منه بعض الشيء ، فإن الضرورة وحب المطارحة والتفكه ببعض ساعات الفراغ القليلة قد أملى عليه بعض الأبيات في هذا الفن وقد كان نظمه فيه متفاوتا ، يقصر حتى يصل إلى البيتين ، ويطول حتى يصبح قصيدة فمن النوع الأول ما كتبه صديقه محمد بن البارزي ملغزاً في سكر نبات قال :

أقاضي الأدب احكم لي فذا أدبي خلا مذاقا ، ووقع لي بتحسين
واقبل شهادة ما أهديته تر من تصحيف معكوسة ثان يذكيني

ورسم ابن حجة بالحل والجواب ، واتبعه بلغز آخر في (القطر) وهو السكر المذاب :

أهـديت لغـزا حلا ذوقـا مكررة ... فانحـل مدحـك في قلبـي بتمكين
وفـزت منـه (بسـكر) في مصحفه ... (بيان) معنـاه للابـداع يهديني
فحـل منـه لنـا لغـزا مجانسة ... يحـل أحشـاء أرضينـا فيرضيني
يرادف اسـم ربـاب وهـو يطربني ... هذا وتصحيفـه في العيد يأتيني
حلـو رقيق بلا حشـو لذائقه ... لان قطـر النباتـي عنـه ينبيني

وأنشد المقر الشهابي بطرابلس وحماه ببعض غيطانها لغزا في قصب السكر لابن قاضي نيله وهو :

وحالبـة دار حكي الخمـر لذة ... ونشرا ، يروي شربهـا ويقوت
يعيش إذا لم يبـد فيهـا فإن بدا ... فمهجتهـا في اثـر ذاك تفوت
فلـم ترعينـي مرضعا في مثالها ... من الخلـق تسقـي درهـا وتموت

ونظم ابن حجة في ذلك اليوم هذا اللغز ، وهو أحلى من قصب السكر الملغز فيه قال :

وعسالـة تبـدو بغيـر أسنة ... ولا طعن فيها وهي داخلة الصدر
ممشقـة هيفـاء حلـو قوامها ... به يطـرح المران في المهمـة القفر
يلـذ قبيل العصر في الظهـر رشفها ... وبـرد لماهـا من أليم الجـوى يبرى
وإن سقيت ماء سقتـك سلامة ... بطيب مزاج وهـي طيبـة النشر
على عودهـا كم للربـاب مواقع ... وموصولهـا يغنـي عن النـاي والزمر
وإن قطعـوا موصولهـا شببـت به ... أولـو الـذوق تشبيبـا شفـى غلـة الصدر
وتلغزهـا لكن إذا ما تكررت ... لذوقـك بعد الحـل تحلـو على القطر
فيا من حلا ذوقـا وحلى بدائعه ... وفي عقـد الالغـاز يا نافـث السحر
فلا زلـت في حل وظعـن مؤملا ... لكل غريب جاء حتـى من الشعر

ولم يقتصر ابن حجة على الالغاز بقصب السكر بل تعداه إلى الألغاز بالكرمة فقال من قصيدة طويلة نختار منها هذه الأبيات :

أخبرونـي عن فاضـل بأصول ... وفـروع يسمـو على كل فاضل
أسبـغ الله ظلـه فهـو ظل ... سابـغ وافـر مديد وكامل
وأبـو محجـن يقـول : ادفنوني ... تحتـه أن أتانـي الموت عاجل
كم الينـا قد مد كفـا نديا ... صيـر العيش أخضرا في المنازل
فيه حلـو وفيه مرك يبدو ... عنـد تحـريف عكسـه المتماثل
وبـلا أول ترى فعـل أمر ... واقلـب الفعـل منـه فالأمـر حاصل
وتـراه طورا سلافـة راح ... ولـدر الحبـاب فيه حواصل

لك منه فواكه وشراب كل عصر إليك تلقاه واصل
فتفكه من حلة في قطوف دانيات لكل آت وراحل
وأقم تحت ظله فهو لغز ظله ظاهر على كل قائل

وله ألغاز كثيرة منها ما جاء في الدرة كقوله :

أي شيء من الجمادات يلفي وتراه من بعد ذا حيوانا
وترى ذلك الجماد عزيزا غاليا منه رصعوا التيجانا
وتراه عند الملوك عظيما وبتصحيفه حقيرا مهانا
عكسه في تصحيفه زد بنقص والمعمّى هنا فكن يقظانا
وبتحريفه تؤدب من شئت إذا كان يجهل العرفانا
فافترسه إن كنت في الحل ليثا فهو لغز عن حله قد أبانا

ومن استعراض هذه الالغاز نصل إلى الملاحظة التي قلناها قبل قليل ، وهي أن ألغازه قد تكون بضعة أبيات وقد تكون قصيدة تصل إلى ثلاثين بيتاً كقصيدته في السكر التي اخترنا منها بعض الأبيات ، ويلاحظ أيضاً أن الشاعر في هذا النوع من الشعر ـ شأنه شأن غيره من الشعراء الذين طرقوا هذا الباب ـ يلجأ إلى التصحيف والتحريف والعكس والتجنيس ، وهذه المسميات ضروب من علم البديع الذي لا أقول نما وازدهر في هذه الفترة بل : وأينع حتى فسد ، ولذا لا غرابة أن نجد هذا الفن البديعي حقلاً خصباً للالغاز والأحاجي وحتى الألغاز والأحاجي صارت ضرباً من ضروب البديع نفسه ، كما أشار إليه مقعدو قواعد البديع في هذه الفترة كابن حجة وغيره ، وأما دواعي نظم الالغاز فهي كما أسلفت الفراغ الذي ينفق فيه الأدباء والجلسات الشاعرية التي كانوا يجلسونها ، ولكنها جلسات لا تجعلهم يشعرون بحق فينتجون النوع الرفيع من الشعر ، وانما ينتجون هذا النوع التافه القائم على المغالطات ، وخلق المزالق الفكرية ، والتعمية الشعرية ، التي لا تهدف إلى أكثر من قتل الوقت أولاً ، والتسلية بالهاء الفكر بترهات ثانياً ، وإظهار الحذاقة والبراعة . ثالثاً ، ومن الجدير بالذكر أن نقول إن ابن حجة لم ينفرد بهذا النوع من بين شعراء عصره بل لعله كان أقلهم اسهاماً في هذا الفن .

الخمريات :

شعر الخمريات شعر قديم ليس من مستحدثات عصر المماليك ، وانما هو قديم قدم الشعر العربي ، نعرفه في شعر الأعشى وامرىء القيس ، ولقد كان للاسلام نظرة معروفة في الخمرة وشاربها ، ولذا ضمر الشعر الذي يتحدث عن الخمرة ، طوال عصر صدر الاسلام وشيئاً من العصر الأموي ، ولكن ما إن جاء العصر العباسي ، بملاهيه ومجونه وكثرة الاسراف في هذه الاتجاهات فيه ، حتى برز شعراء أكثروا من ذكر الخمر ، حتى لقد نظموا فيها القصائد المستقلة ، ان لم نقل الدواوين المستقلة في هذا اللون ، وأمامهم أبو نواس وابن المعتز ، ولو قفزنا إلى عصر المماليك لوجدنا كثيراً من الشعراء قد قالوا في هذا الغرض حتى أن النواجي وهو تلميذ ابن حجة قد صنف كتابا ضخما سماه (حلبة الكميت) قصره على وصفه الخمرة وأسمائها ، والسقاة والأواني ، وجمع فيه ما استطاع جمعه من الأشعار التي قيلت في الخمرة ، وقدمه لشيخه ابن حجة وظفر منه بتقريظ على هذا المصنف ذكره في قهوة الانشاء ، وفي هذا الكتاب أشعار كثيرة في الخمرة من شعر معاصريه ، ويبدو أن ابن حجة من الذين تعاطوا الخمرة وعاقروها فلذا جاءت في شعره فقال :

أتى بها عاصرها في كأسها ... مشرقة باسمة الثغر
وقال : هذي تحفة في عصرنا ... قلت : اسقنيها يا امام العصر

والذي يتضح لنا أنه كان خبيرا بشرب الراح ومجالسه ، يدل على ذلك قوله في آدابها :

صونوا الراح عن مرج ... فوا الانس الاملي
. إن جئتم بها صرفا ... فلم أشرب عليها الما

وقد كان ابن حجة ـ كما يصرح ـ يجد راحة في تعاطي الراح ، ودليل ذلك ما قاله :

في حب كأس لامني ... من ليس يدري حالتي
فقلت : دعني إنني ... وجدت فيها راحتي

وقال :

لما غدا راحي نحيلا باليا ... وكاد أن لم يك في الزجاج
فجئته مستقصيا أغراضه ... وجدته معتدل المزاج

والذي يستقصي كل شعر ابن حجة يجد شواهد كثيرة على هذا النوع المسمى بالخمريات .

الهجاء : نكاد لا نقع إلا على القليل القليل من الهجاء مما بين أيدينا من شعر ابن حجة ، وإن كنا قد وقعنا على قصيدة في الرثاء في شعره ، فإننا لم نقع على قصيدة في الهجاء ، وكل ما تناثر في شعره الموجود أمامنا من الهجاء لا يعدو بضعة أبيات ، ولا ندري ، هل أفرد شعره الهجائي بديوان آخر أو بكراس آخر ، ووقع بعد موته بيد خصومه فمزقوه وحرمونا منه ؟ والذي نعرفه أنه كانت بينه وبين معاصريه من الشعراء خصومة كبيرة ، وقد قالوا في هجائه شعراً كثيراً ، حتى إنهم اضطروا إلى جمعه في مصنفات قائمة بذاتها ، تشتمل على هجائه . كمصنف يحيى بن العطار المسمى «حوائج العطار في عقر الحمار» ومصنف زين الدين بن الخراط

المسمى «سوط العذاب على شعر الدواب» ونعرف أيضاً أن ابن حجة ألف مصنفا في هجاء ابن العطار وحده سماه «لزقة البيطار في عقر يحيى بن العطار» وهذه المصنفات الثلاثة لم تصلنا ، ولكن مضمونها لا يعدو تراشق الهجاء بين الشاعرين الأولين من جهة ، وابن حجة من جهة أخرى ، وقد تسرب إلينا شيء من مضمون كتابي ابن العطار وابن الخراط ، نقله عدو ثالث لابن حجة هو النواجي في كتابه الذي شهر فيه بسرقات ابن حجة ، واقتصر من هجائه الكثير على ما وصف به ابن حجة من صفة (الحمار) لأن ابن حجة كان يلقب بالحمار المحنّى ، لأنه كان يخضب لحيته بالحناء ، وقد جمع النواجي عددا كبيراً من الأبيات التي هجى فيها ابن حجة منها ما قاله البدر البشتكي وابن الخراط ، وابن العطار وغيرهم .

وعندما صنف ابن حجة كتابه «لزقة البيطار في عقر ابن العطار» وأودع فيه كل ما هجا به ابن العطار أجابه ابن العطار قائلا :

يا حمارا عقرته بهجائي ... فتشفى (بلزقة البيطار)
قسما ما شفتك إلا وفيها ... أثر من حوائج (العطار)

ثم قال مخاطبا زين الدين بن الخراط :

اركب حمارك زين الدين وامض بنا ... لباغضيه ليهجوه بما شاؤ وا
ولا تخف منه تقصيرا وعاقبة ... وشربة ، فهو همّاز ومشاء

وهذا قليل من كثير مما هجى به ابن حجة ، وكان عليه أن يدفع هذا الهجاء بهجاء آخر مثله إن لم يكن أشد منه ، ولكن كل شعره الذي بين أيدينا لا يشتمل إلا على القليل القليل من الهجاء ويبدو أن هجاءه قد جمعه في كراريس خاصة وفقدت مع الأيام عن قصد أو غير قصد ، ولو أتيح لنا الاطلاع على ما هجى به وما هجا به لألقى ذلك كله ضوءا واسعا على هذا الانتاج من شعره .

ونعود إلى الهجاء الذي وقعنا عليه في ديوانه ، وهو ضحل جدا لا يمثل أي اتجاه ولا يعطي فكرة لا كاملة ولا ناقصة ، فمنه ما قاله في هجاء العلم بن الكويز :

العلم بن الكويز قال معي ... لطف وظرف حواهما الكرم
وقامتي بانة مهفهفة ... فقلت : لا بانة ولا علم

ومن هذا النوع من الهجاء الفاتر ما قاله في صفي الدين الحلي :

قالوا صفي الدين أشعاره ... ما للورى في طرقها ممشى
وهكذا انشاؤه مسكر ... قلت لهم : والله ما أنشا

وعندما مدح شمس الدين بن مهاجر عرض بابن الخراط الذي هجاه بقوله :

نسب الأفاضل لابن حجة سرقة ... فقلت : كفوا عن ملامة شاعر
هذا حمار غارة في فنه ... ولكم له في النظم دقة حافر

فقال ابن حجة أثناء مدحه لابن مهاجر معرضاً بابن الخراط الذي هجاه بالبيتين السابقين :

كم من حمار منهم واقفته وصدمته ، فيقول : وقعة حافر

وخلاصة القول في هجائه إنَّ ما بين أيدينا ليس بكاف لاطلاق حكمنا عليه ، ولعلنا نظفر ببعضه في يوم من الأيام ، فنضيف خصائص هجائه إلى بقية خصائص ابن حجة الفنية .

- ١٢ -

الحكمة : كل الأغراض التي تكلمنا عنها سابقا لها شواهد مؤ يدة من شعر ابن حجة ولكن عندما نصل إلى الحديث عن الحكمة في شعره لا نظفر بشاهد واحد ، ولذا يبدو لأول وهلة أنه من الغريب أن نفرد شيئاً من البحث للحديث عن غرض مفقود في شعر ابن حجة ولكن إذا عز علينا أن نجد شواهد من شعره فليس معناها أنه عدو الحكمة ، يجانبها في شعره ونثره ، كلا . بل إنه يتضح من مصنفاته أنه كان ولوعا بها كل الولوع ، بدليل أنه يذكره في كتابه (تقديم أبي بكر) تحت عنوان (ذكر ارسال المثل) ، وقال في تعريفه : «ذكر ارسال المثل نوع لطيف في البديع»[١] ثم زاده تعريفاً فقال : «وهو اتيان الشاعر في بعض بيت بما يجري مجرى المثل من حكمة أو نعت أو صفة أو غير ذلك مما يحسن التمثل به»[١] . وقد استقصى ابن حجة ما جاء على شكل حكمة في القرآن الكريم والحديث الشريف وشعر زهير والنابغة وبشار وأبي تمام ، وذكر عن ابن أبي الاصبع في كتابه المسمى بتحرير التحبير أنه استخرج أمثال أبي تمام وحكمه من شعره فوجدها تسعين نصفاً ، وثلاث مئة بيت ، وأربعة وخمسين بيتاً ، واستوعب أمثال المتنبي فوجدها مئة وثلاثة وسبعين نصفاً ، وأربع مئة بيت ، وتحدث ابن حجة عن أمثال الطغرائي في لامية العجم ، ثم لولوعه بالحكمة أحب أن يجمع حكمة المتنبي الواردة في شعره فأفرد لها قرابة أربع عشرة صفحة من صفحات التقديم ذات القطع الكبير ، ثم ألحقها بما اختاره من حكم ديوان الصادح والباغم وأمثاله ، ولحرصه على الحكمة أوصى الكتاب باستعمالها وتدبيجها في أثناء انشائهم ليزداد جمالاً ، ومع كل هذا الولوع لم يستطع ابن حجة أن يأتينا ـ في شعره ـ ببيت واحد من الحكمة . ولا نعلم بالضبط ما هي الأسباب التي صرفته عن قولها ، وإحكام نسجها . ألأن الحكمة تحتاج إلى إعمال العقل في المعنى ، وفن ابن حجة يصرفه إلى اعمال العقل في اقتناص التورية والجناس والطباق . ؟ أم أن فن الحكمة غرض تقصر عنه شاعرية ابن حجة . ؟ أظن أن العامل الأول هو العامل الأقوى الذي جنب شاعرية ابن حجة أن توغل في فن طالما أحبه وحض الناس عليه .

---

(١) التقديم ص ١٠١ .

الخصائص الاسلوبية في شعر ابن حجة

يكتب الأديب ما يكتب ، وينظم الشاعر ما ينظم ، وهمه أن يعبر عن الفكرة ، وهدفه أن يسجل الخاطرة ، ثم يأتي الدارس والناقد بعد ذلك ، فيمعن النظر في صنيع الأديب ، أو يجيل الفكر في صنعة الشاعر ، فتستوقفه ظواهر معينة ، وتلفت نظره بعض الظواهر البارزة أكثر من غيرها ، وتتكرر هذه الظواهر ، وتتوالى في صنيع الأديب وتصبح ملازمة لشعره وانتاجه الأدبي ، وقد تكثر عند هذا الشاعر وتقل عند ذاك ، وتبدو واضحة جلية عند أديب ، وغامضة خفية عند آخر ، فتكرار هذه الظواهر ، وميله ـ قاصدا أو غير قاصد الى الاستكثار منها ، ورغبة في بساطة التعبير ، أو زحفه وراء الزينة والزخرفة ، أو اسرافه في رسم الصورة الشعرية المتأنقة التي قد يوفق أحيانا اليها وقد لا يوفق في أحيان اخرى ، كل ذلك يعطينا ما يسمى بالخصائص الأسلوبية عند الشاعر .

وهذه الخصائص التي تولد وتبدأ بالنمو مع بواكير شعر الشاعر أو انتاج الأديب لا تلبث أن تكون سمة ملازمة لأدبه طوال حياته الأدبية فيا بعد ، ويسير الأديب في رحلة العمر الطويلة وهي ترافقه ، وعندما تتكامل وتبلغ أشدها تفرض وجودها ـ إنْ خيراً وإنْ شراً ـ على أسلوب الأديب وتلازمه ملازمة لا يستطيع الفكاك منها ولو جهد في سبيل ذلك ، ويضطر للخضوع لهذه الخصائص فتسم أدبه وشعره ، وتطبع انتاجه بطابعها الخاص .

فلكل شاعر اذا طابعه المعين المميز الذي يميز انتاجه عن انتاج غيره من الشعراء والمشتغلون بدراسة الأدب والنقد تترسب عندهم مجموعة من الأحكام اكتسبوها بعد طول معاناة الدراسة والنقد ، يستطيعون بها معرفة وعزو الانتاج الى أصحابه ، لما وقر في نفوسهم من خصائص تنطبق على هذا الأثر الأدبي ، فبعد طويل الدراسة والمرافقة لشعر شاعر تتكشف جل خصائصه الأسلوبية ، فاذا ما عرض علينا أثر أدبي مشابه تبرز فيه أكثر الظواهر الأدبية التي استنبطناها من شعر الشاعر وانتاج الأديب عزونا ذلك الأثر الى ذلك الأديب ، ونحن على قسط غير قليل من اليقين .

وابن حجة مارس قول الشعر منذ حداثة سنه ، وقد اكتسب منذ طفولة شعره خصائص وميزات رافقته ولازمته حتى كف الموت لسانه عن قول القريض ، ومهما تكن هذه الميزات ، ومهما تكن نظرة عصرنا الحاضر اليها وتقويمه لها فانها فرضت نفسها على شعر ابن حجة وانتاجه الأدبي ، وبالرغم من انني مضطر للأعراض عن بقية خصائصه الأسلوبية في انتاجه النثري التأليفي منه والديواني فيمكنني القول بايجاز إن له خصائص متنوعة في نثره .

وقبل أن نبدأ بتعداد خصائص ابن حجة في شعره ، ودراسة هذه الخصائص أحب أن أشير الى أن كثيراً من انتاج ابن حجة الشعري خلو من الصورة الشعرية الرائعة والتأليف الشعري الجميل الذي يقرب الكلام المنطوق من الشعور ، وعهدنا بالشاعر المجهد انه يملأ الكلمة بالشحنة العاطفية التي تخرج بها من مجرد كلمة الى شعر مستساغ فيه جمال التعبير ، وروعة التصوير وجلال الفن ، ورونق الأبداع وهذه صفات كانت تنقص شعر ابن حجة في جل انتاجه ، مع أنه كان ينزع في نفسه الى شيء من ذلك ، ويحاول تنميق الشعر وتحبيره وشحنه بالعاطفة ولكن استعداده الفطري كان يقف به دون ذلك فهو ـ كما قلت ـ ينزع الى الشعر

البديع ، ويعجب به ويكبر قائليه ، ولكنه عندما يعتكف ليقول الشعر تخونه شاعريته ، قال في تأهيل الغريب نقلا عن الصابي أنه قال :

أحب الشعر يبتدع ابتداعا وأكره منه مكرورا مشاعا

ومهما يكن من أمر ، فابن حجة قد قال الشعر ، وكانت له فيه خصائص وسمات نحاول ان نأتي على دراستها في هذه الصفحات القليلة .

التورية :

فمن أبرز الخصائص عنايته الشديدة بالتورية ، وافراطه في اقتناصها ولقد صرح في أكثر من مصنف من مصنفاته بأنها كانت مذهبه ومذهب من سار على طريقهم ونهج منهجهم ، وقد كان يعجبه من الشعر ما زخر بالبديع بعامة والتورية بخاصة وباب التورية الذي افتتحه الشعراء من قبل ثم وسع فتحته القاضي الفاضل وابن نباتة وولجه ابن حجة باب واسع ، كان يتسع لكل ما زخرت به ثقافة هؤلاء الأدباء من جوانب في القرآن والحديث الشريف والنحو واللغة والبلاغة والعروض ومصطلحات الفقه والمنطق وغيرها ، ولا أريد أن أقف طويلا عند كل باب ، وآتي بالشواهد من شعر ابن حجة وحده عليه لأنها شواهد غزيرة وكثيرة يستغرق تعدادها والتعليق عليها عشرات الصفحات ، ولكن حسبي من كل نموذج منها شاهد أو شاهدان ، خشية الاّ يطول الشرح ، فعلى سبيل المثال كان الأدباء يحفظون من كتاب الله جله إن لم يكن كله عن ظهر قلب ، وهذا المحفوظ الغزير ومنزلته في النفس جعلتهم يلجؤ ون الى التورية مستفيدين مماورد في القرآن الكريم ومصطلحاته والعلوم التي نشأت حوله ، فمن تورياته ببعض عبارات القرآن قوله :

خاطبنا العاذل عند الملام بكثرة الجهل فقلنا : (سلام)
اخترته مولى ويااليته لو قال : (يا بشراى ، هذا غلام)
حور معانيه لكنها من طرسه (مقصورة في الخيام)

يقتصر على التورية ببعض آيات أو عبارات من كتاب الله الكريم بل لجأ في عشرات المواضع الى التورية باسماء السور القرآنية . من ذلك قوله :

قرأت بحمد الله في سورة (النصر) واعداك تتلو في (التغابن) و (الحشر)
(اذا جاء نصر الله والفتح) (زلزلت) عداك (برعد) الخوف يا ملك (العصر)
رددت ملوك الأرض عنه بخسيفة نقول وحق (العصر) (انا لفي خسر)
(أبا لهب) يكني سنانك في الوغى و (تبت يدا) الاعداء منه الى (الحشر)

والتورية باسماء السور القرآنية وجدت في نثره مجالا متسعا أكثر من شعره .

وتعدت توريته اسماء السور القرآنية الى اسماء الكتب التي ألفت حول تفسير القرآن وشرحه ، ذلك توريته بكشاف الزمخشري قال :

ورب آيات حســنٍ أحكمــت ولها دون الستائــر (كشــاف وتفسير)

ومثل هذا كثير جدا في شعره ، ولكننا أخذنا على عاتقنا ان نوجز في الشواهد قدر المستطاع ، ولذلك سنخرج من تورياته في القرآن وعلومه ومصطلحاته الى الحديث ومصطلحاته أيضاً ، وقد استغل في هذا المجال اسماء المشتغلين بالحديث كالضحاك والزهري وعطاء وبشر ، واستغل مصطلحات الحديث كالمسلسـل والمسنـد فقال :

قالـت : رواة محاسنــي قد (سلسلت) أخبارهــا لك (مسنــدا عن مسند)
ثغري عن (الضحاك والزهـري) روى عن (بشر) وجهــي وهــو نيل المقصد
فانقــل حديث الحســن عنــي مسنداً وعــن ابــن عبــاس حديث السؤ دد

ومن الجدير بالذكر ان نقول إن ابن حجة كان يحكم التورية في هذه المسميات مثل :

إمام علــوم بالــرواية نافع له منـزل القــرآن بالفضــل (عاصـم)

واذا كان قد وجد في كتاب الله وكلام رسوله مصطلحات كثيرة تصلـح للتـورية فانـه قد وجـد في النحـو مصطلحات أكثر ، واشتغاله في النحو لا يقل عن اشتغاله في القرآن والحديث فكان زاده وفيراً فيه ، واسماء أقسام النحو ومصطلحاته تمده بكثير من التوريات فعندما يتغزل بالعيون وما فيها من إغراء وتحذير بذكره هذا بمبحث الاغراء والتحذير في النحو ، وتقوده المزاوجة اللفظية الى التعريف والتنكير وهما من مصطلحات النحوأيضاً . فيقول في مطلع قصيدة :

(اغــراء) لحظــك مالي منــه (تحذير) ولا (لتعــريف) وجــدي فيه (تنكير)
ومــن اياديــه يعطينــا بلا قدر فما (لا عرابــه) في الفضــل (تقدير)

وعندما يمدح شخصا يشيد بما فيه من عطف وتوكيد لبذل المعروف بذكر هذا بالتوابع فيقول :

ومـن نفسـه (عـطف) و (تـوكيد) رأفةٍ بلا (بــدل) أكرم بهــذي (التوابع)

وكما استغل الكشاف في التورية من أسماء كتب التفسير للقرآن استغل مؤ لفات النحو كالتسهيل ومغنـي اللبيب وغيرهما فقال :

ونحــوه فيه (تســهيل) لطالبه (مغنــي اللبيب) بافعــال وأقوال

ومثل هذه التوريات جم وفير في شعره وحسبنا لها ما اوردناه لننتقل الى لون آخر من مصطلحات الفقه وقد درج فيها آنذاك بعض مصطلحات ترددت كثيرا على السنة الناس مثل (الجـرح ، التعـديل ، القـذف ، الشهادة) ففي مطلع قصيدة مدح بها فخر الدين بن مكانس قال :

والطرف صار بسيف السهد (منجرحا)　　و (شاهد) الدمع (بالتجريح) قد (قذفا)

وقال :

فيا لقضاة الحي (عادل) حبسه　　(بتجريح) قلبي في الهوى قد (تعدلا)

أما مصطلحات البلاغة فإنه غير متطفل عليها ، إذ هي مجال عمله ، وهو ابن بجدتها فيكفينا بعض النماذج منها .

ففي الطباق قال :

(طابقت) رقة جسمي بالجفا عبثا　　فما (طباقك) إلا رقة وجفا

وفي الجناس محرفة ومصحفة قال :

ولما أراني الشعر وهو (مذيَّل)　　وجانب ذاك الصدغ وهو (مطرف)
بدا بخمار من خمار بريقه　　فقلت لهم : هذا (الجناس المحرف)
وفي كفه قد اصبح الجود خاتما　　ومنه رأينا حاتما (يتصحف)

أما في النشر واللف والتكميل وحسن الختام والترصيع فقد قال :

من محياه والزلال ومسك الخـ　　ـال والثغر ياشيوخ البديع
انظرو في (التكميل) (واللف والنشـ　　ـر) و (حسن الختام) و (الترضيع)

ولم تفته التورية في اللغة وما الف فيها من معجمات كقوله يصف اسنان محبوبته :

صحاح در جاز في ثغره　　لاتنكروا (للجوهري الصحاح)

وما دام هذا ولعه بالتورية فلا يعقل أن يخلو علم العروض من بعض توررياته . قال يمدح ابن خلدون :

(بسيط) مديحي فيه قد جاء (كاملا)　　(مديدا) (سريعا) بالندى (المتدارك)

وكرر هذا المعنى موريا باسماء بحور الشعر في مديحه ابي الثناء خطيب الدهشة قال :

فضله (وافر) طويل) (مديد)　　(كامل) جاء بالوفاء (السريع)

ولما كانت قراءاته التاريخية من كتب التاريخ والقرآن قد امدته بفيض كبير من القصص فلا بد أن ترد التورية في بعض هذه القصص . فمما قاله في مدح المقر الاميني :

له قلم آمنت بالله أن بدا　　وسطر فوق الطرس في نظمه سطرا
(رأيت عصا موسى بكف محمد　　وقد لقفت اقوال من صنع السحرا)

وهو عليم بالخصومة المذهبية بين علي واشياعه من جهة وابي بكر وسنته من جهة اخرى ، فأحب أن يستغل هذه الظاهرة التاريخية بتوريته فقال :

وشيعـــي همـــي كلما رام بعدكم	يحاربنـــي ناديت يالابـــي بكر
لأن أبـــا بكر أمامـــي وحبه	غدا سنتي وهـــو المقـــدم في الذكر

وقد ملكت عليه التورية كل نفسه حتى إن أسماء الشعراء جاءت مواراة في شعره ففى موطـن الغـزل استغل اسم النابغةالجعـدي وورى به عن الشعر ، واسم ابن نباتة وورى به عن الريق ، واسم ابن الوردي وورى به عن ورد الخد ،

وشعرهـــا الطائـــل قلنـــا له	اتـــت لنـــا (نابغـــة يـــا جعـــدي)
وريقهـــا قال (النباتـــي) أنا	وخدهـــا قال (أنـــا ابـــن الوردي)

وقد افرط في التورية ايما افرط عندما ورى لا باسماء الشعراء ، بل وبأسماء الكتب والمصنفـات التـي صنفت في عصره وقبله ، فقال :

(مقاتل فرسان) الهوى قد قرانا و(عشاقه) لم تقر غير (المصارع)

تورية باسم كتاب (مقاتل الفرسان) و(مصارع العشاق) ، وورى بالقطر المجلس وهو مصنف لابن نباتة قال :

وحلت على ابن نباتة وغلت على (القطر المجلس)

هذا قليل من كثير ، وغيض من فيض مما قاله ابن حجة في التورية وهي احدى خصائصه في شعره وليست خاصة التورية هي الخاصة الوحيدة من خصائص شعر ابن حجة ، فبالأضافة إلى أنها هي المسيطرة وهي أبرز الخصائص إلا أنها تشاركها خصائص كثيرة أخرى استنبطناها من شعره من هذه الخصائص أن الشاعر قال أكثر ديوانه في المدح ، وقلما خلت قصيدة من قصائده من النسيب ، وليست هذه هي الخاصة التي أريد أن أشير اليها وإنما أريد أن أشير إلى أن القصيدة تبدأ بحسن المطلع وهو المقدمة الغزلية والتي قد تقتصر على البيتين أو الثلاثة ، أو الأربعة بل تمتد إلى العشرة والعشرين وتصل إلى الثلاثين أحياناً ، ثم يليها بيت أو بيتان يجعلهما الشاعر وسيلة لحسن التخلص ، فإذا تخلص إلى غرضه الأصلي الذي غالباً ما يكون مدحا أطنب في هذا القسم حتى استنفد ما في جعبته من كلام . فختم القصيدة بيت أو بيتين هما ما يسميه (حسن الختام)

فالمطلع الذي كان يبتدىء به ابن حجة قصائده غالبا ما كان يتوخى فيه الجمال والابداع ، وكان يحشد له كل قواه الشاعرية والفكرية لينسجم مع الشروط التي اشترطها ابن حجة في (براعة الاستهلال) وذلك بان يكون البيت منسجم الشطرين وخاليا من التعقيد ، موافقا لمقتضى الحال ، بريئا من العيوب التي عابها نقاد البلاغة والأدب على الرديء من براعات الاستهلال . فلهذا كان يحشد ابن حجة كل قواه ويزج بها في مطلع القصيدة ، وما ذلك إلا لأنه يدرك ان المطلع هو عنوان شاعرية الشاعر وهو الذي يعطي الانطباع الأول عن الشاعر ان خيرا أو شراً ولذلك سعى وجهد في تدبيج مطالعه ، ومع عنايته الشديدة بتوخى الكمال فيها فلم يكن ليطمئن لهذه المطالع ، ولم يركن لرايه فيها بل كان يعرضها على غيره من النقاد ليثقفوها له . وقد حدثنا النواجي عن شيء من هذا ولكن نريد ان نستبعد التحامل من قصة النواجي ونأخذ الظاهرة وننقدها موضوعيا فقد قال النواجي ان ابن حجة له قصيدة تسمى (المدفونة) وسبب تسميتها بالمدفونة انه قال في مطلعها .

أبا النصر قد سموك يا قاهر العدي ... ومن بعد هذا لقبوك المؤ يدا

فلما عرضها على أستاذه ناصر الدين البارزي سفه هذا المطلع وقال له : كيف تخاطب الملك بقولك (سموك) يقصد سموك من السم ، ولن يكون جزاؤك باقل من جزاء جرير يوم مدح عبد الملك بن مروان بقصيدته التي مطلعها (أتصحو أم فؤ ادك غير صاح) . ويتمم النواجي تحامله عليه فيقول : ومن يومها دفن ابن حجة القصيدة ولم يظهرها ولذلك سميت بالمدفونة . وكنا اتفقنا على استبعاد التحامل ، فالحقيقة ان القصيدة لم تدفن وجل ما فعله البارزي مع ابن حجة انه نصحه باستبدال كلمة (كنوك) بـ(سموك) وحجته في ذلك سوء تأويل المؤ ولين وخاصة أن العصر عصر اسراف في التورية والتوجيه والتأويل والغاز وغيرها والقصيدة انشدت في حضرة الممدوح باحتفال مشهود ، فالشاهد الذي نستخلصه من القصة ان ابن حجة كان حريصا على حسن مطالعه ويبذل قسما كبيرا من جهده الفني في براعة الاستهلال ، فمن استهلالاته البارعة ما كتبه لابن الفتيان قال :

بين سفح اللوى وذاك المخيم ... طنب الوجد في فؤ ادي وخيم
حبذا منزل طراز شبابي ... كان من المسرة معلم
ورعى ذلك الزمان الذي كا ... ن ربيعا والهم فيه محرم

ومن براعات استهلاله التي صرح فيه واستشهد بها على براعة الاستهلال في تقديمه قوله يمدح صدر الدين ا بن الآدمي :

وصلت ولكن بعد طول تشوق ... ودنت وقد رقت لقلبي الشيق
فتملت من طرب برجع حديثها ... فكأنما قد نادمت بمعتق

ونترك براعة الاستهلال لنتحدث عن حسن التخلص وهي ظاهرة كانت تستأثر بقسط كبير من فنية ابن حجة بحكم ربطها بما قبلها وبعدها واحكامها ادق من احكام براعة المطلع لأن حسن التخلص يتوخى فيه ربطه بما قبله الذي قد يكون غزلا وبما بعده الذي قد يكون مدحاً ، وعملية الربط هذه لا تخلو من صعوبة ومن خصائص ابن حجة في حسن تخلصاته أنه وأن يتخلص احيانا من الغزل إلى المديح بشكل طبيعي ، وهذا ليس عليه غبار .

فمن حسن تخلصه الجيد الذي ليس فيه اشارة الى حسن التخلص قوله بمدح ابن عباس

قالت وقد قبلتها في جيدها ... تصبو الى غيري وتخلص من يدي
فأجبت حين تقلدت بمدامعي ... يا هند خوضي في دمي وتقلدي
قالت : رواة محاسني قد سلسلت ... اخبارها لك مسندا عن مسند
ثغري عن الضحاك والزهري روي ... عن بشر وجهي وهو نيل المقصد
فانقل حديث الحسن عني مسندا ... وعن ابن عباس حديث السؤدد
قاضي القضاة ومن غداالعلم الشريـ ... ـف بعلمه يزهو بعطف اميد

ولكنه في احيان اخرى يأبى الا ان يصرح بانه يتخلص فيقول مثلا لصدقة بن مسعود

قصــدت باب الحبيب والرقبا　　علي من خيفــة الهــوى حنقة
قالــوا : فما تبغــي فقلــت لهم :　　حتى تخلصت : ابتغــي (صدقة)

فهذا التخلص رغم التصريح به تخلص فيه براعة بمقدار ما فيه من تورية ، ولا يقل عن حسن تخلصه هذا جمالا حسن تخلصه في مدح شيخ الشيوخ برهان الدين بن جماعة قال في اخر المطلع الغزلي :

قالت اراك فصيح الوقت قلت لها　　(لثمت ثغر عذولي حـين سماك)
قالت : اتخلص من عشقي فقلت لها　　بمـدح شيخ شيوخ الوقـت انساك
قاضي القضاة الذي من جاء يقصده　　فيا حوائجــه ما كان اقضاك

وظاهرة التصريح بالتخلص ترافقه كثيرا في شعره فها هو ذا في مديحه لفتح الدين ابن الشهيد يقول بعد المطلع الغزلي :

فودعـت ساعة التسـليم قلـت لها　　وعنـد صفـو الليالي يحـدث الكدر
فالدهـر إن سد في وجهــي مذاهبه　　بالفتـح عنــد قتــال الدهــر انتصر
نعم خلصت بفتح الـدين من محني　　تخلصــا جاء منــه الــدر يعتذر
وقلــت لي في مدحــه قصص　　قد حاوت شعــرا فيه وهــم زمر

وفي قليل من الاحيان كان يتخلص بدون ان يذكر عبارة التخلص كقوله في مدح ابن حجر العسقلاني :

قالــو نراك بليغــا قلــت لي ادب　　له باعلى بيوت الشعــر طاقات
قالوا : واثبت هذا الامـر قلـت لهم　　لي عنـد قاضي قضـاة العصر اثبات

ولكن تخلصه يصبح ثقيلا عندما يصر على حشد عبارة حسن الابتداء وحسن التخلص وحسن الختـام كقوله :

أحببتــه متأدبــا ونظمــت في　　(حسن ابتدائي) منـه نظـم المرقص
فأشـار في (حســن الختــام) أجبته　　(حســن الختـام) يكون بعـد تخلص

فالمعنى على رداءته وقبحه جاء مثقلا بالمصطلحات التي نحن بصدد دراستها .

حسن الختام : والذي صنعه في حسن التخلص صنعه في حسن الختام ، اذ لا تكاد تخلو قصيدة واحدة من بيت يشعر القارىء بحسن الختام ، ذلك لانه يصرح في البيت بكلمـة أو بعبـارة تشعـر بأن القصيدة قد انتهت ، وهذا هو ختامها ، فمثلا يختتم قصيدته بالبيت التالي :

ونظامي مسك يضوع شذاه　　في البرايا لكن بمدحك يختم

فهذه كلمة جاءت في آخر البيت تعرب عن حسن الختام الا أنه في أحيان أخرى لا يرضى بهذا بل يصرح بعبارة (حسن الختام) كما في قصيدته الكافية حيث قال :

فلا برحت ختام المسك تعرب عن حسن الختام بكف غير مساك

الشواهدعلى هذا النوع كثيرة ، ولا تكاد تخلو منها قصيدة ، الا القليل القليل كقوله يمدح ابن مهاجر ، يختتم القصيدة بقوله :

لا زلت في عدد المفاخر اولا ومديح وصفك ماله من آخر

القافية : ما دمنا ندرس خصائص أسلوب ابن حجة في شعره فمن الجدير بالذكر أن نقف عند ظاهرة من أهم الظواهر الاسلوبية في شعره ، وهي ظاهرة القافية ، ومعلوم لدى الشعراء ان الناظم اذا كان يتمتع بحرية كبيرة فانما هي حرية اختيار القافية ، والظروف التي تفرض على الشاعر اختيار القافية لا حصر لها ، ولا تخضع لتحديد ، وأمام الشاعر أبواب للقوافي بعدد أربعة أمثال حروف الهجاء ، يلج منها ما يشاء ، ولكن تتحكم بالشاعر ظروف معينة فتجعله يختار قافيته ، ويؤثرها على غيرها لغرض في نفسه ، ومن خلال استعراضنا لشعر ابن حجة استطعنا أن نعزو سبب اختياره للقافية للاسباب الاربعة التالية :

على رأس هذه الاسباب سبب يفرض نفسه على الشاعر ، وهو اسم الممدوح ، فمن طبيعة ابن حجة أنه يرغب أن يجعل قافيةً من قوافي قصيدته ، متضمنة اسم الممدوح أو كنيته أو اسم قبيلته أو مذهبه ، وهذه الرغبة في جعل اسم الممدوح قافية لبيت تلزمه أن يجعل جميع قوافي القصيدة على هذا الروى ، فتأتي قافية القصيدة منسجمة مع اسم الشاعر ، وهذا الصنيع صنعه في كثير من قصائده ، فتراه يجعل قافية القصيدة على الراء المكسورة لانه سيضمن قافية بيت منها اسم ممدوحه ابن مهاجر ، لذا قال في مطلع القصيدة :

والله ما هب النسيم الحاجري الا تعثر مدمعي بمحاجري

وعندما رغب في تضمين اسم الممدوح في القافية وجد نفسه قد مهد لذلك فقال :

هاجرت أقصد من يهاجر للعلا دانيه فهو مهاجر ابن مهاجر

واذا أراد أن يمدح صدقه بن مسعود ، جعل رويها على القاف ليوطىء لمجيء اسم الممدوح حيث يقول في التخلص :

قالوا : فما تبتغي ؟ فقلت لهم حتى تخلصت : ابتغي صدقه

ومن أطرف ما قاده اليه هذا الالتزام ، أنه عندما نصب نفسه لمدح النويري وأراد أن يجعل القافية رائية لتوطىء لاسم الممدوح ، جاء بقافية ليست رائية فحسب بل وتوخى فيها أن تكون الكلمة على وزن (فعيلي) فاضطر تجاه هذا الالتزام أن يصغر جميع ألفاظ القصيدة تأدبا - كما قال - فابتدأالقصيدة بالمطلع التالي :

طريفي من لييلات الهجير مقيريح الجفين من السهير

وبعد مقدمة غزلية كلها على هذا الطراز ، وصل الى بيت القصيد ، وهو ايداع اسم الممدوح قافية للبيت قال :

نويري الخديد كوى قليبي فصحت من الحريق يا (نويري)

ولو استعرضنا بقية قصائده لوجدنا هذه الظاهرة تلعب دورا كبيرا في فرض القافية على الشاعر ، فقصيدته اللامية المكسورة اختار لها هذه القافية لانه مدح فيها (ابن منهال) . وجعل قصيدة على الدال المفتوحة لانه مدح فيها الملك (المؤيد) ليتاح له بين الحين والحين أن يذكر اسمه في قصيدته ، وهذا فعلا ما حدث ، اذكر

اسمه عدة مرات فيها فقال :

أبا النصر قد كنوك ياقاهر العدا ومن بعد هذا لقبوك المؤ بد

وفي بيت آخر كرر اسم الممدوح فقال :

أنوروز لو حاربت مثلك ربما ظفرت ولكن قد عرفت المؤ يدا

وفي الختام ذكر اسمه مرة ثالثة فقال :

فلا زلت للدين الحنيفي ناصراً ودمت على كل الملوك مؤ يداً

ويقيني أن التزام الشاعر تضمين اسم الممدوح وجعله قافية متمكنة يبنى عليها روي القصيدة له ما يبرره في ذلك العصر ، وما ذلك إلا أن شعراء تلك الفترة تلاعبوا كثيراً في قصائدهم واتخذوا من القصيدة الواحدة وسيلة لامتداح أكثر من شخص ، فمما يؤ ثر عن شعبان الأثاري ، أنه مدح ثلاثة من ممدوحيه بقصيدته التائية المشهورة ، فلذا كان الشاعر بتضمين اسم ممدوحيه في القافية ، وأقول في القافية لا في أي مكان آخر من البيت ، يعطى الممدوح ضماناً بأن القصيدة مقصورة على مدحه ، ولن يستخدمها الشاعر في مدح انسان آخر غيره .

وثمة سبب آخر يفرض نفسه على الشاعر ، عندما يريد أن ينظم قصيدة ، ويضطر إلى اصطناع قافية بعينها ذلك هو سبب المعارضة ، فالشاعر المعارض تقتضيه شروط المعارضة أن يتخذ بحر القصيدة المعارضة وقافيتها رسوماً يهتدي بها ، ولا مناص له من اصطناع قافية القصيدة التي عارضها ، ولما كان ابن حجة كثير المعارضة ، فلذا كثرت قصائده التي يشبه في قوافيها قصائد شعراء آخرين ، فقصيدته الرائية المضمومة ما جاءت رائية مضمومة إلا لمعارضة قصيدة تشابهها لابن نباتة ، والتائية المضمومة أيضاً لأنه عارض فيها أكثر من شاعر كلهم التزم كون القافية تائية مضمومة ، مثل القيراطي وابن نباتة وابن النبيه وغيرهم ، وعارض ابن نباتة في القافية المكسورة التي مدح فيها ابن حجة ابن خلدون فقال :

تمذهبت في هجري بطول مطالك فمن شافعي في الحب يا بنة مالك

قال ابن نباتة في مطلع قصيدته :

رضيع الهوى يشكو فطام وصالك فداوي بني الحب يا بنة مالك

وعارض كعب بن زهير في اللامية المضمومة ، والمتنبي في الميمية المضمومة ، والدالية المطلقة ولولا الإطالة لأوردنا نماذج كثيرة .

ويوجد سبب آخر يملي على الشاعر اختيار القافية ، وهو تضمين بيت من شعر شاعر معين ، وهذا التضمين إذا كان شطراً ، أو كان عجز بيت ، اضطر الشاعر إلى اتخاذ قافية هذا العجز المضمن قافية لقصيدة قد تطول حتى تصل إلى عشرات الأبيات ، وهذا السبب له مظهر آخر يجعل الشاعر يختار قافيته لا لأن الشطر المضمن فرض عليه قافيته ، ولكن لأن البيت المضمن هو الذي فرض عليه القافية على الشاعر ، ولتوضيح ذلك نقول : إن الشاعر عندما يريد نظم قصيدة في موضوع ما قد تتبادر إلى ذهنه مجموعة من المعاني وبخاصة من معاني الشعراء السابقين أو المعاصرين للشاعر ، فيلجأ الشاعر إلى سرقة بعض هذه المعاني . كما هو شأن أكثر المعاني المسروقة في هذا العصر الذي نتحدث عنه ، وقد تكون السرقة

سرقة لفظ ومعنى أي ما يسمى بالتضمين ، وبمعنى آخر أن الشاعر يعجبه بيت من شعر شاعر آخر فيجد أن هذا البيت مطابق لمقتضى الحال الذي ينظم هو فيه فيدخر بيت الشاعر المقلد ، ويشرع في نظم القصيدة متوخياً أن يضمن بيت الشاعر المقلَّد بكامله بما فيه قافيته ، ولكي يمهد لهذه القافية المسروقة يجعل قوافي كل القصيدة على قافية البيت المضمن نفسها ، بل تقوم القصيدة وهي متوخية أن تكون قافيتها قافية البيت المضمن ، ولكي نزيد الشرح وضوحاً نقول : ان ابن حجة أراد أن ينظم قصيدة يمدح بها الملك المؤيد ويشيد بانتصاره على نوروز الحافظي الذي تمرد في الشام وخرج على طاعة سلطان مصر ، رغم أن المؤيد أكرمه ، فلم يزده الإكرام إلا تمرداً وتمادياً للؤم طباع فيه ، فذكره ذلك ببيت المتنبي الذي يقول فيه :

فإن أنت أكرمت الكريم ملكته وان أنت أكرمت اللئيم تمردا

وعندما تصدى ابن حجة لمدح المؤيد والتعريض بنوروز تذكر البيت ، وأدرك أنه ينسجم مع مقتضى حال نوروز مع المؤيد ، وهذه الذكرى حفزته إلى أن يجعل البيت شاهداً على حكاية الحال ، فلماذا لايضمنه بكامله في قصيدته ؟ وإذا كانت تعترض تضمينه صعوبة وهي القافية ، فلماذا لايجعل الشاعر قصيدته كلها على الدال المطلقة ليضمن للبيت المضمن ولادة طبيعية غير قسرية ، إذا ما شاء تضمينه في لحظة من لحظات نظم القصيدة ، فلهذا شرع ابن حجة في نظم القصيدة واضعاً نصب عينيه قافية دالية مطلقة ، وفي هذه القصيدة بالذات وفق لإصابة عصفورين بحجر واحد ، وهما تضمين اسم الممدوح ـ كما مر معنا ـ وتضمين بيت من شعر المتنبي ينطبق على مقتضى الحال فقال :

أبا النصر قد كنّوك يا قاهر العدا
ومن بعد هذا لقبوك المؤيدا
فللنصر وللتأييد قد جئت ثالثاً
فلا تعجب ان صرت في الدهر أوحدا

وبعد بضعة أبيات قال عن نوروز :

من الناصر السلطان دهر أحميته وما ازداد ذا الشيطان إلا تمردا
(فإن أنت أكرمت الكريم ملكته وان أنت أكرمت اللئيم تمردا)

بل أباح لنفسه ألا يجول في حمى المتنبي فحسب بل جال في حمى طرفة والأعشى ، وأخذ أبياتهم ، وبلمسة فنية جعلها تنسجم مع قافيته فقال :

ولما نشرت العدل في الأرض فأخرت بمنشورها لما أتاها مجددا
(وأبدت لك الأيام ما كنت عالماً وجاءك بالأخبار من لم تزودا)

هكذا (من لم تزودا) ثم قال بعد بضعة أبيات :

وآنس أهل الشام نورا وبهجة فأنشد أعشاهم وقد سار واهتدى
(أبرق بدا من جانب النور لامع) والايد السلطان سلت مهندا

ويشير ابن حجة في هذه ويشذب تلك قبل أن يضمها الى حيله ، ويصنع منها خلقا سويا ، وان كان مؤلفا من أمشاج شتى ، يؤلف بينها ببراعة لصنيعه في هذه القصيدة التي أشرنا اليها يقول عن نوروز المتمرد بعد اكرام المؤيد له :

ولــم يبــق فيه للصنيعــة موضع		وللسيف فيه موضــع قد تمهدا
(ووضع النـدى في موضـع السيف بالعلا		مضر كوضـع السيف في موضــع الندى)

ولكي لا يظن ظان أن هذه القصيدة التي تلاعب بها ابن حجة هي الوحيدة في ديوانه ، وحديثنا يشعر بأن هذه الخاصة من خصائصه الكثيرة في شعره ، وفعلا فقد صنع مثل هذا الصنيع في كثير من قصائده ، ففي الميمية التي مدح بها شرف الدين مسعود بناها على قافية الميم المضمومه متوخيا تضمين بعض أبيات المتنبي فقال في مطلعها :

أتى الدهر يبدي عذره وهو نادم		ولولا الرضا عنه أتى وهو راغم

وبعد بضعة أبيات أورد بيتا من شعره مهد فيه تمهيدا محكما لبيت المتنبي فقال :

فأنشدت بيت ابـن الحسـين مضمنا		كأن لســان الدهــر بالحــال عالم
(على قدر أهل العـزم تأتـي العزائم		وتأتــي على قدر الــكرام المكارم)

ويكفي هذان المثلان على أن ابن حجة كان يختار قافية قصيدته لكي يجعل من القصيدة معرضاً لبراعته في تضمين حكم الآخرين يضمنها بإحكام في قصيدته بدون أن يكون ثمة تنافر في القافية .

ولكن ولوع ابن حجة بالتضمين ، وشغفه الشديد به ، وخاصة إذا كان الشطر أو البيت المضمن مطابقاً لمقتضى الحال التي يتحدث عنها ، أو ينزل بمنزلة المثل ، فانه لا يعدل عنه بديلاً ، فيقع عليه ، ويعضُّ عليه بالنواجذ ، فإذا وجد أن قافية الشطر المضمن لا ينسجم مع قافية البيت أو قافية القصيدة ، لن يعجزه أن يغير أو يحرف في القافية الاصلية ليجعلها منسجمة مع قافية قصيدته مثال ذلك ما أورده في مدح ابن نهـال في القصيدة اللامية قال :

بنــو كلاب أعــاديه فإن نبحوا		أقـل لهـم منشــدا من غــير اهمال
لو كل كلــب عوى لقمتــه حجراً		لاصبـح الصخــر (مثقــالا بمثقال)

ويفعل هذا الصنيع كثيراً في أبياته المضمنة ، فإذا أنس المعنى الذي يريده في البيت ضمنـه ، وطوعـه للقافية كقوله يصف الجامع الاموي ، ومئذنته ومنبره قال :

والجامع الاموي بعد حريقه | أمسى بعهدك وهو روض زاهر
وعروسه في جلوة وبصحنه | تلك الحلاوة والدعا متواتر
«لو أن مشتقا تكلف فوق ما | في وسعه لسعت اليك منابر»

وأصل الشطر الثاني : «في وسعه لسعى اليك المنبر» جعله ابن حجة «لسعت اليك منابر» كما رأينا .

والسبب الرابع لاختيار ابن حجة قافية معينة ، هو رغبته في استمداد كلمات تصلح لأن تكون قوافي من قصيدة مشابهة ، وللتوضيح أقول إنَّ الشاعر بحاجة إلى عشرات الكلمات المنتهية بحرف القافية المفروضة ، وقد تعجز حصيلة الشاعر اللغوية عن مده بهذه المفردات ، وبخاصة إذا كانت القصيدة طويلة ، أو تحتاج إلى قواف كثيرة من حرف واحد ، فيلجأ بعض الشعراء إلى قصيدة مماثلة لشاعر ما ، ويشرع في نظم قصيدته على رويها ، فإذا عجز عن مفردة ما للقافية هرع إلى القصيدة المماثلة في قافيتها لقصيدته يأخذ منها قوافيه ، ويرصعها في شعره ، ومصداق ذلك من شعر ابن حجة ما رأيناه في الميمية المضمونة التي مدح بها المؤ يد ، وسبب اختياره لها ـ بالاضافة إلى التضمين ـ أن للمتنبي وغيره قصائد طويلة ميمية يمكن أن تمده بألفاظ دالية يستفيد منها إذا ما دعت الضرورة إلى ذلك .

وإذا أردنا أن ننصف ابن حجة نقول إنَّ في ديوانه بعض القصائد لم يكن اختيار قافيتها يخضع لعامل من العوامل السابقة ، وإنّما كان يختارها اختياراً حراً لا أثر للتقييد عليه ، القسم : من الخصائص الاسلوبية الشائعة في شعر ابن حجة اكثاره من استعمال القسم ، ولكن هذا الاستعمال يأتي في كثير من الاحيان مجانبا لشروط البلاغة ، ويفقد التركيب دقة إحكام ، إذ يلجأ الشاعر إليه لا للتأكيد على المقسم به ـ كما هو المقصود من تركيب القسم ـ وإنّما يحشوه حشوا لاقامة الوزن فبعض الشعراء الذين تنقصهم صنعة إحكام الرصف ، وتوخى الدقة في التعبير يلجؤ ون إلى حشد كلمات وعبارات زائدة عن المعنى المراد التعبير عنه ، كالجار والمجرور ، والظرف ، والقسم ، وما إلى ذلك . ولدى ابن حجة من هذه التعابير أشياء كثيرة ، فمن الجار والمجرور الذي كان يحشده بدون مبرر إلا ضرورة اقامة الوزن قوله :

فمت كمدا موت الحسود بحسرة | فلا رحم الرحمن فيك لك الأجرا

وحسبنا هذا التنويه لنعود إلى الحديث عن القسم ، فهو كثير الوقوع متنوع الدلالات ، فمن الدلالات كون القسم لا مبرر له إلا إقامة الوزن قوله :

كتمت ـ والله ـ رؤ يا طيفه فبدا | لرؤ يتي من عبير الخال تعبير
وقوله وقد غدا جسمه ماء برقته | علمت ـ والله ـ أن القلب منه صفا

فالشاعر يزج بالقسم بمناسبة وبغير مناسبة .

وثمة دلالة أخرى في أقسام ابن حجة ، وهي أنه يكثر من القسم على أنه لن يمدح غير الممدوح ، وقد يظن المرء أن هذا صحيح ، وأن الشاعر قد ارعوى عن نظم الشعر ، ولكن لا يلبث أن يحنث بقسمه فيمدح ممدوحاً آخر ، وثالثاً ورابعاً وخامساً ، وهو مع كل ممدوح يوهمه بأنه لا يمدح سواه ، ففي القصيدة الرائية

التي امتدح بهاالـملكالمؤ يد ، أقسم على أنه لن يمدح سواه فقال :

والله ، بعدك لست أمدح في الورى ملكا ولا ملكا ولا أنا شاعر

وصدقنا وقلنا : ربما بدا للرجل أن يعزف عن اراقة ماء وجهه على أعتاب الناس ، ولكن طالعنا بعد فترة بمديحه لزين الدين ناظر الجيوش ، وبالغ في مديحه حتى إنَّه جعل منه فريد عصره ، ووحيد زمانه الـذي لا يمدح سواه ، وأقسم على ذلك بقسم ذكرنا بالقسم الذي أقسمه للمؤ يد فقال :

مافي الزمــان سواك بمــدح فاستمع قولي فإنــي قلــت غــير الباطل
والله بعدك لسـت أمـدح في الورى بشرا لأنــي في غنى عن باخل

ويظن المرء أن توبته عن مدح الناس ستكون هذه المرة توبة نصوحاً ولكن يشده المرء عندما يراه يعود إلى مدح الناس ويدهش لانه يكرر القسم بأنه لن يمدح أنساناً سوى الممدوح فهو عندما يمدح المتوكل على الله صاحب تونس يقول :

وحقـكم قد عدت عن مدح غيركم وفـالله لم أحنـث وهـا أنـا أحلف

ولكنه يحنث ويمدح الكثيرين . فهذه بعض دلالات القسم في شعر ابن حجة تشكل لكثرتها ، خاصة من خصائص أسلوبه الشعري ويلحق بالقسم وحشده بلا مبرر الجار والمجرور ، واستخدامه لاقامة الـوزن ضرورة أخرجت الشاعر أحياناً عن قواعد اللغة ، ذلك لأنه كان يعدي بعض الافعال بحروف جر وهي متعدية بنفسها كقوله :

أذكرتنا لعلى في وقائعه وفي الفتوحات قد أذكرتنا عمرا

فهو قد عدى فعل (أذكر)باللام وهو يتعدى بنفسه ، وآية ذلك أن الشاعر نفسه قد عدى الفعل ذاته في عجز البيت بدون لام . ومثل ذلك كثير يند عن الاحصاء .

التكرار : نظم الشعراء القدامى شعرهم قصائد كثيرة ، وبعضهم تجـاوز ما خلفـه من الشعـر مئـات الصفحات وقد يقع للشاعر الفحل المعنى المبتكر فيرصعه في شعره ، ويتنافس الشعراء بكثرة ما في شعرهم من المبتكر ، وعلى هذا مضى الشعراء القدامى والمحدثون ، وحتى ابن حجة كان يعجبه قول الصابي :

أحب الشعر يبتدع ابتداعا وأكره منه مكرورا مشاعا

ورغم حبه للمبتكر وكراهيته للمكرور المشاع فما جاء أكثـر شعـره إلا مكروراً مشاعـاً ، وللمـكرور نوعان : نوع ابتكره شعراء عصره أو من جاء قبلهم ، فجاء هو مكرر لما قالوه ، وهذا كثير في شعره يمكن تتبعه وسنتحدث عنه في السرقات الشعرية ، والنوع الثاني ما كان يكرره هو في شعره ، والمثال الذي جمع النوعين قوله يحن إلى حماة :

بلد به نيطت علي تمائمي وبه عرفت مزيتي وتوجهي

فهو مأخوذ من قول ابن مياده :

بلاد بها نيطت على تمائمي　　وقطعن عني حين أدركني عقلي

ولم يكتف بسرقة الشطر الاول بتمامه ـ فليس هذا موضع الحديث عن السرقة ـ بل موضع الحديث عن التكرار ، فقد كرر هذا المعنى بلفظة في مكان آخر وقال :

بلاد بها نيطت على تمائمي　　وحزت بها ماحزت من رفعة القدر

ومن المعاني التي سرقها وأكثر من تكرارها قول ابن النبيه :

رنا وانثنى كالسيف والصعدة السمرا　　فما أكثر القتلى وما أرخص الاسرى

سرقة ابن حجة فقال :

أقامت لنا سوق القتال بطرفها　　فما أكثر القتلى وما أرخص الاسرى

فنحن نرى كيف سرق عجز البيت بمعناه ولفظه وحروفه ، ولما اضطر إلى تكريره مرة أخرى لمسه برقة فأخر وقدم لتسلم له القافية فقال :

أقام لنا سوق القتال مسعرا　　فما أرخص الاسرى وما أكثر القتلى

ومن المعاني المكررة وصْفُهُ ليراع ممدوحه بقوله :

فالغصن يسقيه وغصن يراعه　　يسقى الورى بسحاب رزق هاطل

كرره في قصيدة أخرى ولم يزد سوى أن غير بعض الالفاظ لتستقيم له القافية فقال :

فالغصن يسقيه وغصن يراعه　　يسقى الورى لكن أنا بنشيني

ومن المعاني المكررة قوله :

وإن ذكرت زمانا ضاع من عمري　　ولم أهاجر اليه صحت ياأسفا

وفي قصيدة أخرى كرر المعنى واللفظ باستثناء كلمة القافية فقال :

فإن ذكرت زمانا ضاع من عمري　　ولم أهاجر إليه صحتياندمي

وفعل الفعلة ذاتها في قصيدة أخرى فقال :

فإن ذكرت زمانا ضاع من عمري　　ولم أهاجر إليه صحت ياحزني

والمعاني المكررة في شعره أكثر من أن نأتي عليها كلها كوصف قوام المحبوب (بشمعه في قالب حسن) أكثر من تكرار هذه الصفة ، وقلم الممدوح (غصن عليه طيور العلم عاكفة) ولعل أكثر المعاني دورانا على لسانه ذلك المعنى الذي وصف فيه اعتدال قوام المتغزل بها بالالف ، وعطفة صدغها فوقه كالهمزة، فهذا التشبيه التمثيلي كان من التشبيهات الاثيرة لديه المكررة في شعره منه قوله :

ألف القد مدها لي بعزة　　وعليها من عطفة الصدغ همزة

وقوله في قصيدة أخرى :

وهمت في الغات من قدودهم　　بدت عليها من الاصداغ همزات

وعندى أن تكرار المعاني في شعر الشاعر دليل على ضحالته الشعرية ، وعجز عن الابتكار ، والتكرار كسل فكري ظاهر ، فالشاعر بدل أن يلجأ إلى توليد المعاني واختراعها ، نجده يعيش عالة على مبتكرات

غيره أو على القليل من مبتكراته ، ثم أخذ يجتره ، فإذا اجتره أكثر من مرة ، أصبح من المعاني المدخرة الجاهزة ، فإذا ما دعت الضرورة إلى معنى معين ، أطل المعنى القديم برأسه من غلالة الفكر فاستغله الشاعر بعد أن وجده جاهزاً ، اللهم إلا من بعض تغيير يدخله عليه ليتلاءم مع الوزن والقافية ثم يزجه في القصيدة الجديدة .

أضف إلى ذلك أن ثمة خاصة كانت تستبد به وتسيطر عليه أثناء النظم وهي لوازم مهنته كمنشيء في ديوان الانشاء ، فهو دائماً يعيش في جو السطر ، والصفحة . والنقط والاشكال والاعجام فلذا قال :

ويا (أسطر) النبت التي قد تسلسلت (لصفحتها) لازلت واضحة (النقط)
ولا زل ذاك (الخط) بالطل (معجما) ومن (شكل) أنواع الازاهير في (ضبط)

ثم قال :

(وكتبت) بالهندي فيهم (أسطرا) وصدورهم تحت الدروع (مساطر)
فرع على أصله المعروف (نسخته) قد (قوبلت) ليس في (تصحيحها) سقم

المقطعات :

ومن خصائصه في شعره كثرة المقطعات ، وحظها منه كثير حتى لتكاد تبلغ ثلث ديوانه والمقطوعة الصغيرة تتألف من بضعة أبيات ، إمّا أن ينظمها الشاعر ارتجالاً - كما عودنا ابن حجة على ذكر ارتجالياته - لمناسبة استدعتها ، أو أنه ينظمها متمهلاً . والمقطوعة غالباً ما تنتهي بنكته أو طرفة أدبية ، أو تورية جميلة ، وكان ابن حجة يجيد نظم المقطعات ويضمنها مليح التوريات ، ويؤخذ على الكثير من مقاطعه أنها مسروقة المعنى أو مسروقة اللفظ في بعض الاحيان ، ومن أغراض هذه المقاطيع التسلية بالالغاز والاحاجي وهي أغراض اشتغل بها شعراء العصر ونظموها فيها الكثير من مقطوعاتهم ، وكان نصيب ابن حجة من هذه الاغراض ضئيلا ، لانه وجد في التورية متنفساً عن كل هذه الفنون ، إذ إن التورية رياضة عقلية تسمو على الالغاز والاحاجي .

وأهم الضرورات ما يؤخذ على ابن حجة في أساليبه الشعرية أنه كان يكثر من الضرورات الشعرية فبعضها من النوع الذي يقع فيه كثير من الشعراء كصرف ما لاينصرف ، أو مد المقصور وقصر الممدود ، وهذه تغتفر له ، ولكن الذي لا يغتفر اخطاؤه اللغوية والنحوية مثلاً كجزمه الفعل المضارع لوقوعه جواب إذا وهو كثير عنده كقوله :

هواي بسفح القاسمية والجسر إذا هب (تدروا) أن ذاك الهوى عذري

وقوله :

وإذا سئلت (أقل) لمن هو سائل إني لاعلم ما تقول وإنما

وهناك أخطاء صرفية وكلمات عامية ، ولكن أبرزها خطيئة ظاهرة مكررة كثيرا وهي أنه لا يفك إدغام الحرف الاخير من الكلمة المشددة الآخر عند اسنادها إلى ضمير المتكلم ، بل يسير على ما سارت عليه العامة

من جعل الادغام ياء كقوله :

وصيرت جسمي كالخلال نحافة — و(عديت) هذا من جميل فعالك
و(لميت) شمل المسلمين بعزمة — بها صار شمل المشركين مبددا

ويبدو أن هذه الظاهرة كانت عامة عند بعض أدباء تلك الفترة ، فقد وجدنا مثلها عند ابن تغري يردي في تاريخه (النجوم الزاهرة) وكان يكررها كثيراً .

ومما يدلنا على كثرتها في ديوان ابن حجة أن النواجي عندما ألف كتابه (الحجة في سرقات ابن حجة) أحصى الضرورات التي لجأ إليها في (جنى الجنَّتين) فوجدها (٣٢٥) ضرورة . في القصائد التي وقف عليها فقط .

ويمكننا في هذا المقام أن نعرض بعض وجهات النقد التي نقد بها النواجي شعر ابن حجة لانها تشتهر ببعض خصائصه الاسلوبية ، ولكن تشتهر بالسيء منها . فقد أنصب نقده على سرقة البيت وتتبع ابن حجة في سرقاته وبين مواطن سرقته ومكانها ، كما يبن ما في البيت من خطأ ، وما فيه من معان ناقصة وقبيحة وأشار إلى المعاني المكررة ، وعدد الضرورات ، وأبان الحشو والكلمات التي استعملها في غير موضعها فحديثه عنها حديث عن جزء من أسلوب ابن حجة في شعره .

الباب الثالث

ابن حجة الناقد

الفصل الأول
الناقد البلاغي

واكب النقد الأدبي الأدب العربي منذ نشوئه . وفي أدبنا الجاهلي بعض الأحكام النقدية التي عاصرت أوائل ما حفظ الينا من بواكير الشعر ، ولكنها كانت أحكاما نقدية عابرة ، تتميز بالسرعة ، وعدم تقصّي الأسباب ، واطلاق الأحكام النقدية غير المنهجية ، والتي منشؤها الانفعال المباشر السريع ، وأقل ما يقال فيها : إنها جزئية وذاتية وليست من العموم بمكان ، وهذه الصفة تنطبق على الأحكام النقدية التي أطلقت على الشعراء منذ العصر الجاهلي حتى عصر صدر الاسلام والعصر الأموي . ولكن عندما جاء العصر العباسي ، وما حمله معه من خصب في الفكر وتنوع في الثقافة ، واطلاع أشمل وأعم ، ودخلت في الاسلام عناصر مختلفة العقلية ، انحدرت اليها من عناصرها الأولى طرق معينة في التفكير . أقول : عندما جاء العصر العباسي كما وصفت أخذ النقد يتجه نحو العموم ونحو المنهجية أكثر من ذي قبل ، وظهر بعض النقاد في هذه الفترة لا يلقون الأحكام على عواهنها ، بل يتحرّون ويستقصون ، ويحاولون اقامة أحكام النقد على أسس متينة ، وقواعد سليمة ثابتة ؛ وقد أفلحوا حينا ، وتعثروا وتقعّروا حينا آخر ، فما أن كاد يبرز النقد السليم في ذلك العصر ، ومحاولة التعبير عن هذا الجمال ونقده حتى تسربت الى النقد عناصر أخرى ، ظنها النقاد الأوائل من صميم النقد ولوازمه ، ولكنها كانت من مشوبات النقد ومشوهاته ، وأقصد بهذه المشوبات البلاغة التي ما إنْ خطا النقد بعض الخطوات حتى رافقته واختلطت بأحكامه ، ومازجته ممازجة لم يتح لها الافتراق الا في العصر الحاضر .

وما دام امتزاج البلاغة بالنقد قد بلغ هذا المبلغ من التلاحم والاتصال فلا غرابة إذا رأينا ابن حجة وهو من متأخري المشتغلين بالبلاغة والنقد ، يمزج النقد بالبلاغة في كثير من مؤلفاته .

ولهذا فإننا اذا بحثنا عن ابن حجة الناقد نقدا أدبيا خالصا فاننا لن نجده ، وإذا بحثنا له عن مؤلفات مستقلة في النقد الأدبي الخالص فاننا غير عاثرين عليها أيضا ، ولكن هذا لا يعني أن ابن حجة لم يترك لنا آراء نقدية خالصة . كلا بل أستطيع أن أقول إن ابن حجة يكاد يكون ناقد القرن التاسع الوحيد ، والذين يدرسون تاريخ النقد لايمكنهم أن يمروا بنقد القرن التاسع دون أن يلتقوا بابن حجة الذي لا يمثل اتجاه النقد في القرن التاسع وحده ، بل ويمثل اتجاه النقد في قرنين سابقين ، وعدة قرون لاحقة ، ومهما تكن قيمة آرائه النقدية فهي كأدبه وأدب رجال الفكر في تلك الفترة ، تمثل مرحلة في تطور الأدب والنقد لا بد من رصد خصائصها ، واستقصاء صفاتها ، وتسجيلها في عداد خصائص الأدب وتطوره عبر القرون ولكي ننصف ابن حجة ونضعه في موضعه من النقاد يجب أن نقول ان آراءه النقدية لم تكن كلها في النقد الأدبي الخالص . بل كانت في النقد الأدبي تارة ، وفي النقد البلاغي تارة أخرى ، وآراؤه في النقد البلاغي تفوق مرات ومرات آراءه في النقد الأدبي الصرف ، ولم يجيء النقد الأدبي الخالص الا في ثنايا حديثه عن النقد البلاغي ، وفي معرض آرائه البلاغية ومناقشتها ولذلك سنتحدث عن هذين النوعين من النقد في انتاج ابن حجة النقدي :

النقد البلاغي :

ليس جديدا أن نقول إنَّ القرآن الكريم الذي أنزل بلسان عربي مبين كان الباعث الأول للحركة العلمية والنشاط التأليفي في علوم اللغة العربية منذ القرن الأول للهجرة ، وليس جديدا أيضا أن نقول إن مجموعة من علوم العربية قد نشأت حول تفسير القرآن المجيد ، وتفرعت فبلغت فروعا عدة وتشعبت على مر الأيام ، وتبعا لمقتضيات الظروف ، ولما تتطلبه عقلية العناصر الجديدة التي اتخذت الاسلام دينا ، والعربية لغة ، رغم تفاوتها في فهمها للغة العربية وبالتالي للقرآن الكريم ، ولتيسير فهم هذا الكتاب الذي نزل هداية للناس كافة عربيهم وعجميِّهم نشأت مجموعة من العلوم تهدف الى بيان أحكام هذا الكتاب وتيسير فهمه للعناصر غير العربية بشكل خاص . وعملية التيسير هذه استدعت وجود علوم جديدة لم يكن العرب أنفسهم يعرفونها من قبل . لأنهم كانوا أدرى بلغتهم وبأدبهم وبمناحي تعبيرهم دون أن تكون هناك قواعد أو أصول يتعلمها أبناء العربية .

ويهمنا من كل هذه العلوم علم البلاغة ، ويبدو أن هذا العلم أعسرها ، ولكنه ألصقها بفهم المعجز من كتاب الله العزيز ، واذا سايرنا هذا العلم في خطوات تطوره وجدنا أنه بلغ الكمال أو كاد في قرون عدة قبل عصر ابن حجة ، وتفرع منه علم اتسع كثيرا وبلغ كماله أو زاد في عصر ابن حجة ، وهو علم البديع ، وخاصة عندما أسهم فيه نظام البديعيات وشراحها بالاضافة الى مؤلفي كتب البلاغة والعلوم المتصلة بها .

ومن الجدير بالذكر أن نقول ان البديع كأثر فني موجود في الأدب العربي منذ عرف للعرب أدب ، ففي شعر الجاهليين وخطابتهم وأمثالهم وحكمهم ووصاياهم نماذج من فنون البديع مبثوثة هنا وهناك ولكن ينبغي أن نلفت النظر الى أن هذه الألوان من البديع كانت تقع للشاعر او الخطيب في أثناء نظمه للشعر أو تحبيره للخطبة دون قصد أو تقعّر وللعفويّة فيها نصيب كبير ، وبالرغم من وقوعها ـ على عفويتها ـ كانت لا تقع الا نادرا ، وقد ينظم الشاعر القصيدة في شهر ، وينقحها في ثلاثة أشهر دون أن يكون للبديع عناية كبيرة أو صغيرة في تدبيجها وتنقيحها ، وفي القرآن كان الهدف مخاطبة عقول الأمة والتأثير في وعيها فان جاءت الصورة البديعية في التعبير زادته خيرا على خير ، وان لم تأت فيه لم تنقص من بلاغته شيئا ، ولكن اذا تركنا الأدب القديم ، وولينا وجوهنا شطر الأدب في مطلع القرن الثالث ألفينا العناية بالبديع تصبح مقصودة لذاتها ، وغدا الشاعر يقتنصها ويعنى بها أكثر من عنايته بالمعنى نفسه ، ولهذا أخذ الأديب يتجه اتجاها لفظيا أكثر من أن يتجه اتجاها معنويا ، كما هو المقصود من رسالة الأدب .

ومما سبق ندرك أن البديع كأثر فني كان موجودا منذ وجد الأدب ولكن كعلم للبديع فيه التعريفات والحدود والتقسيمات والتفريعات فذلك ما تأخر وجوده الى ما بعد صدر الاسلام بقرون .

وقد ألفت منذ القرن الثاني حتى القرن التاسع الذي عاش فيه ابن حجة عشرات المؤلفات في البديع وتحدثت عن أنواعه وأجناسه وألوانه ، وتفاوتت ايجازا وتفصيلا ، وعندما أتيح لابن حجة أن يصنف شرحه على بديعيته كان قد اطلع على الكثير من هذه المؤلفات التي تحدثت عن أنواع البديع . وقد أعجبه بعضها فاستقى مادة شرحه فيها ، ولم يعجبه الآخر فأعرض عنها ، ولكنه في اقباله على بعضها واعراضه عن البعض الآخر كان يتمتع بذوق الناقد البلاغي يأخذ من هذا الكتاب لسبب ، ويترك رأي مؤلف ذلك الكتاب لسبب ، ويصوب رأي فلان ، ويسفه رأي فلان آخر ، ويستحسن رأي زيد ، ويستتفه رأي عمرو ، كل

ذلك عرضه في كتابه الكبير «تقديم أبي بكر» الذي ناقش فيه الأنواع البديعية نوعا نوعا وعلق عليها ، وسنتحدث عنه وعما تضمنه من نقد بلاغي بعد حديثنا عن البديعيات .

البديعيات :

لقد نشط التأليف في البلاغة وعلومها في الفترة التي عاشها ابن حجة ، وقد ألفت في هذه الفترة كتب كثيرة في علم المعاني والبيان والبديع ، وبالرغم من أنها لم تكن أكثر من شروح وتعليقات أو مختصرات للكتب التي ألفت في القرون السابقة الا أنها كانت تعير البديع من العناية أكثر مما أعارته اياها الكتب والمصنفات المتقدمة . وفي القرن الذي عاش فيه ابن حجة ألّفت كثير من كتب البديع ككتاب (المصباح) الذي ألفه السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني (٨١٦)هـ ، وهو شرح القسم الثالث من المفتاح وهو قسم البديع ، وألف محمد بن قرقماس (٨٨٢) كتاب (التبيان شرح بديعية البيان) . وتوالى التأليف في أنواع البديع حتى ألف أبو البقاء الأحمدي الشافعي (المطلب المنيع في أنواع البديع) وفرغ من تأليفه ٩١٦ .

ومن خلال أسماء هذه المؤلفات نلاحظ شدة العناية بالتأليف في فن البديع ، وامتدت هذه العناية المفرطة الى ماهو أبعد من ذلك . فقد شرع علماء البلاغة يؤلفون لافي البديع ذلك الفن الكبير المشتمل على عشرات الأنواع البديعية فحسب ، بل ضيّقوا التخصص في التأليف في جزئيات علم البديع . وبمعنى آخر فان دائرة التأليف في البلاغة قد ضاقت حتى أصبحت تأليفا في نوع واحد من البلاغة وهو البديع ، ثم ضاقت دائرة التأليف في البديع فأصبحت تأليفا في بعض أنواعه . فمثلا قصر بعض العلماء تأليفهم على نوع (التضمين) وألف به كتابا مستقلا (كالدر الثمين في محاسن التضمين) تأليف عبد الله بن سلامه الادكاوي ، وألف أمين ظافر كتابه (غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات) وألف أحمد الجرجاني كتاب (الكنايات) ، وفي بديع الاكتفاء ألف النواجي كتابه (الشفاء في بديع الاكتفاء) أما النوعان اللذان ظفرا بمجهود أكبر فهما الجناس والتورية . فقد تبارى علماء البديع في التأليف في هذين النوعين ، ففي الجناس ألفت عدة كتب منها (جنان الجناس للصفدي) و (فكاهة الجليس في أنواع التجنيس) للقاياتي ، و (نفائس الانفاس في علم الجناس) وغيرها من المصنفات مثل (ازالة الالتباس للتفريق بين الاشتقاق والجناس) لبدر الدين الحمداني المولود سنة ٦٠٢ كما ألف في التورية ما هو أثر من ذلك ككتاب (كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام) لابن حجة الحموي ، و (فض الختام عن التورية والاستخدام) للصفدي . و (رائق التحلية في فائق التورية) لأبي جعفر أحمد بن علي بن خاتمة الأندلسي ، وفي الاقتباس فقد اعتزم ابن حجة على تأليف كتاب يسميه (رفع الالتباس عن بديع الاقتباس) ولكننا لا نعلم ما هي الأسباب التي حالت دون تأليف هذا الكتاب ، والأمنية التي لم تسمح الظروف لابن حجة أن يحققها حققها الجلال السيوطي فألف كتابا سماه (رفع الباس وكشف الالتباس في ضرب المثل من القرآن والاقتباس) .

والذي يلحظ هذه العناية ، وذلك الولع بالفنون البديعية لا يستغرب نشوء فن شعري كان الهدف الأول منه تقعيد قواعد البلاغة بشكل عام وقواعد البديع وفنونه بشكل خاص ، فالقرن الثامن الهجري شهد نشاطا كبيرا في التأليف في علم البلاغة وتمخض عن ولادة فن البديعيات .

والذي يتبادر للذهن هو السؤال التالي : متى نشأت البديعيات ، وعلى يد من من الشعراء ولدت أول بديعية هذه المنظومة التي أطلقت عقال عشرات الشعراء فيما بعد لكي ينظموا في هذا الفن الجديد ؟

وللاجابة على هذاالسؤ ال نقول ان مؤ رخي البلاغة ودارسي الأدب اختلفوا في تحديد أول بديعية ، وبالتالي اختلفوا في أول بديعي سن للشعراء هذه السنة الأدبية ، فالدكتور زكي مبارك يعزو ـ بشيء غير قليل من الجزم ـ نشوء أول بديعية الى الشاعر ابن جابر الأندلسي ، ويربط نشوء البديعيات ببردة البوصيري ٦٩٦ وبعد موته بسنتين ولد أبو عبد الله محمد بن أحمد المعروف بابن جابر الأندلسي ، وكان ضريرا ، ولكن لم تمنعه تلك العاهة القاسية من الرحلة الى المشرق ، فدخل مصر والشام واستوطن حلب . . وقد افتتن ابن جابر بقصيدة البردة وظهر أثرها في شعره . . . وقد شغل نفسه بمعارضة البردة ، ولكن أي معارضة ، لقد ابتكر فنا جديدا هو (البديعيات) وذلك أن تكون القصيدة في مدح الرسول ، ولكن كل بيت من أبياتها يشير الى فن من فنون البديع ، ومطلع هذه البديعية :

بطيبة انزل ويمم سيد الأمم ... وانشر له المدح وانثر أطيب الكلم

وقد رأى معاصرو ابن جابر قيمة هذا الفن الجديد فتقدم صديقه أبو جعفر الإلبيري بشرح بديعيته واعترف له بالسبق اذ قال في مقدمة الشرح «نادرة في فنها ، فريدة في حسنها ، تجني ثمار البلاغة من غصنها ، وتنهل سواكب الاجادة من مزنها ، لم ينسج على منوالها ولا سمحت قريحة بمثالها»[1] وقبل أن نغادر هذا الرأي للدكتور زكي مبارك لا بد لنا من التعليق عليه ، وهو أنه يعزو ابتكار فن البديعيات لابن جابر الأندلسي ثم عدد بعد ابن جابر أسماء الشعراء الذين نسجوا على منواله في صنع البديعيات فقال : «وفي عصر ابن جابر وضع صفي الدين الحلي المتوفى سنة ٧٥٠ قصيدة سماها (الكفاية البديعية في المدائح النبوية) وأنشأ عز الدين الموصلي المتوفى سنة ٧٨٩ بديعيته . . . الخ .»[2]

وفي تعليقناعلى رأي الدكتور زكي مبارك نقول إننا أميل إلى اعتبار صفي الدين الحلي أسبق من ابن جابر في نظم أوائل البديعيات ، أما قضية الابتكار فنرجح أنها سابقة على كل من الشاعرين كما سنتحدث بعد قليل ، وأما حجتنا في ترجيح أسبقية الحلي على الأندلسي فهي أن الحلي توفي قبل ابن جابر بثلاثين سنة ، وهذا السبب ليس بمرجح كاف ، ولكن دعنا نستمع الى الاسباب التي حدت بالحلي الى تأليف بديعيته لعلها تلقى ضوءا يساعدنا على هذا الترجيح ، ولعلها تضع بين أيدينا الخيوط الاولى التي ان تابعناها وصلنا الى حقيقة في هذا الشأن .

فالحلي يذكر في مقدمة شرحه لبديعيته بانه اعتزم على تأليف كتاب في البلاغة ، وهذا الاعتزام ينسجم مع الحركة الناشطة في التأليف البلاغي في عصره ، لولا أن علة لازمته فعدل عن تأليف كتاب في البلاغة الى تأليف منظومة يجعلها بمثابة كتاب لقواعد فن البديع فلنستمع الى كلامه في مقدمة شرحه للبديعية يقول :

« . . . وعزمت أن أؤلف كتابا محيطا بجملها ، اذ لا سبيل الى الاحاطة بكلها ، فعرضت لي عله طالت مدتها ، وامتدت شدتها ، واتفق لي أنني رأيت في المنام رسالة من النبيﷺ تتقاضاني المدح وتعدني البرء من الاسقام ، فعدلت عن الكتاب الى نظم قصيدة تجمع شتات البديع ، وتتطرز بمدح مجده الرفيع ، فنظمت مئة وخمسة وأربعين بيتا من بحر البسيط تشتمل على مئة وخمسين نوعا من محاسنه ، ومن عد جملة أصناف

---

(١) المدائح النبوية للدكتور زكي مبارك ص ١٦٨ .

(٢) المدائح النبوية للدكتور زكي مبارك ص ١٦٩ .

التجنيس بنوع واحد ، كانت عنده العدة مئة وأربعين نوعا ، فان في السبعة الأبيات الأوائل منها اثنا عشر صنفا منه ، وجعلت كل بيت منها شاهدا ومثالا لذلك النوع ، وربما اتفق في البيت الواحد منها النوعان والثلاثة ، بحسب انسجام القريحة في النظم ، والمعتمد على ما أسس البيت عليه ، ثم أجليتها من الأنواع التي اخترعتها ، واقتصرت على نظم الجملة التي جمعتها ، لأسلم من شقاق جاهل حاسد ، أو عالم معاند ، فمن شاقق راجعته الى النقل ، ومن وافق وكلته الى شاهد العقل ، وألزمت نفسي في نظمها عدم التكلف ، وترك التعسف والجري على ما أخذت به نفسي من دقة اللفظ وسهولة وقوة المعنى وصحته ، وبراعة المطلع والمنزعة وحسن المطلب والمقطع ، وتمكن قوافيها ، وظهور القوى وعدم الحشور فيها ، بحيث يحسبها السامع غفلا من الصنائع ، ولم أرسل مثل هذه الدعوى عارية عن بيّنة ، فقد قيل الاخير يتعقب النظر فانظر أيها المتأمل الناقد الأديب ، والعالم الأريب ، الى غزارة الجمع ضمن الرياقة في السمع ، فإنها نتيجة سبعين كتابا ، لم أعد منها بابا ، فاشتغل بها عن حشو الكتب المطولة ، ووعر الألفاظ المقلقلة :

ودع كل صوت غيرِ صوتي فانني أنا الطائر المحكي والآخر الصدي

وأعوذ بالله أن أكون ممن زكى نفسه ، أو مدح فهمه وحدسه ، وانما أشرت الى حسن الاختيار لا الى الاحسان في الاختبار ، وقد قيل : اختيار المرء شاهد عقله ، وشعره شاهد فضله»(١) ، وقبل أن تتسرع فتحكم على بعض النتائج من خلال هذه المقدمة البسيطة لا بد لنا من استعراض بعض ما كتبه أيضا في مقدمته تلك لتعلم من أين استقى مادة بديعيته . واذا كانت قصة منامه هي الدافع المباشر لنظمها فان ثمة دافعا بعيدا أو غير مباشر هو الذي دفعه الى التفكير في التأليف البلاغي ، وهو الدافع الذي دفع جل من ألف في هذا المضمار ، دافع معرفة اعجاز القرآن الكريم ، وفهم ما ورد في الذكر الحكيم ، فلنطلب من الحلي مزيدا من الاسباب لنحكم على النتائج ، فلنستمع اليه يقول أيضا : «وذكر ابن أبي الاصبع أنه لم يؤلف كتابه المذكور الا بعد الوقوف على أربعين كتابا في هذا العلم أو بعضه ، وعددها في صدر كتابه ، فأنهيت الكتاب مطالعة ، وطالعت مما لم يقف عليه مما كان قبله وما ألف بعده ثلاثين كتابا ، وسأذكر تفصيل الجملتين بعد انتهاء الشرح ان شاء الله ، فجمعت ما وجدت في كتب العلماء ، وأضفت اليه أنواعا ، استخرجتها من أشعار القدماء»(٢) .

وبعد استعراض هاتين المقدمتين يمكننا استخراج نتيجة منها وهي أننا لوعدنا الى أكثر البديعيات التي وصلتنا لوجدنا أنها تتمتع بصفات أربع رئيسية :

١ ـ نظمت في مدح الرسول ﷺ .

٢ ـ اختار الشاعر لها البحر البسيط .

٣ ـ جعل القافية ميمية .

٤ ـ ضمن كل بيت فيها نوعا من أنواع البديع ، وقد يصرح باسم هذا النوع احيانا ، وقد لا يصرح في الأحيان الأخرى .

---

(١) مقدمة شرح بديعية صفي الدين الحلي ص ٥ .

(٢) مقدمة شرح بديعية الحلي ص ٤ .

فلو عدنا الى كل من ابن جابر والحلي ، وطرحنا السؤ ال التالي : لماذا اختار ابن جابر بحر قصيدته من البسيط وقافيتها الميمية ، ولماذا كانت مخصوصة بمدح الرسول ؟؟ أظن أنه لا جواب عنده لهذا السؤ ال اللهم الا اذا أجاب ما أجاب به الدكتور زكي مبارك من أن ابن جابر تأثر بالبوصيري وقصيدته ولكن هذه الأسئلة تحمل الاجابة في ثناياها من خلال مقدمة الحلي الآنفة الذكر ، فالذي دفعه الى مدح الرسول هو تلك الرؤ يا التي رآها في منامه كما ذكر هو ، وهذه الرؤ يا التي رآها الحلي في منامه تذكرنا فورا بمنام البوصيري وتقاضي الرسول المديح منه ، فلا غرابة أن ينشط الحلي بمعارضة البوصيري في قصيدة كقصيدته ما دامت دواعي النظم متشابهة ، فلماذا لا يستريح الحلي من البحث عن بحر وقافية وموضوع لقصيدته ما دام يعيش التجربة نفسها التي عاشها البوصيري ، فكل ظروف الحلي تشبه ظروف البوصيري فلذا ما عليه الا أن يفرغ معانيه وأفكاره في قوالب مشابهة لمعاني كان غيره قد مر بها ، واذا كان ثمة فرق بين الحلي والبوصيري فهو في أن الحلي ضمن قصيدته أنواع البديع وهذا أمر طالما فكر فيه الحلي وكان يود أن يؤ لف فيه كتابا لولا ما ألم به من مرض . فمن كل هذا نستخلص نتيجة واحدة وهي أنَّ الحلي لديه من مسوغات السبق في نظم البديعيات أكثر وأرجح مما لدى ابن جابر كما ذهب الدكتور زكي مبارك . ومن كل هذا نستطيع ان نحكم بأسبقية الحلي على ابن جابر في نظم البديعية ، ولكن لا نستطيع أن نقول انه أول من ابتكر فن البديعيات ـ كما وصف الدكتور زكي مبارك ابن جابر الأندلسي ـ ذلك لأننا نعلم أن شاعرا اسمه الشيخ علي بن عثمان بن علي بن سليمان أمير الدين السليماني الاربلي الصوفي قد نظم قصيدة لامية ضمنها جملة من أنواع البديع ، نوعا في كل بيت أولها الجناس التام والمطرف وهو :

بعض هذا الدلال والادلال حال بالهجر والتجنب حالي

ثم قال في الجناس المصحف والمركب :

جرت اذ حزت ربع قلبي وادلالي صبرا أكثرت من اذلالي

ذكر ذلك ابن شاكر في فوات الوفيات في ترجمة الشاعر المذكور ، والقصيدة لامية غزلية عدد أبياتها ستة وثلاثون بيتا ، وكانت وفاة الاربلي بالفيوم سنة ٦٧٠ أي قبل ولادة الحلي ببضع سنوات ، وفكرة نظم أمثلة البديع يمكن أن يكون الاربلي المذكور هو أبا عذرتها وان لم يتقيد ببعض الشروط التي أصبحت فيما بعد ملازمة للبديعيات كالبحر البسيط والقافية والميمية ومدح الرسول .

واذا كان للحلي من أولوية في هذا فهي في كونه أول من سنّ سنة البحر البسيط والقافية الميمية ومدح الرسول . ومن الأدلة اللاحقة التي نسوقها على أن الحلي مقدم على ابن جابر وسابق عليه في هذا المضمار أن كل الذين نظموا بديعيات في القرن الثامن وهم الطليعة لنظام البديعيات كانوا يعارضون الحلي ولا يقولون انهم عارضوا ابن جابر مثل شهاب الدين أحمد العطار (٨٠٠) هـ له بديعية اسمها (الفتح الاليّ في مطارحة الحلي)[١] ، ومن الذين عارضوا الحلي شعبان الآثاري المتوفى سنة ٨٢٨ [٢] وله ثلاث بديعيات أسماؤ ها (بديع البديع في مديح الشفيع ، والعقد البديع في مدح الشفيع ، وعين البديع في مدح الشفيع) ، وعارضه

(١) ذكرها حاجي خليفة ، ومنها نسخة في برلين برقم ٧٣٥٥ .

(٢) شعبان بن محمد بن داود القرشي الآثاري العثماني المصري الموصلي زين الدين أبو سعيد (٧٦٥ ـ ٨٢٨) .

العلوي في بديعيته المسماة «الجوهر الرفيع ووجه المعاني في معرفة أنواع البديع»[1] فتصدى مثل هؤلاء المعاصرين تقريبا للمعارضة اقرار منهم بأن الحلي فاتح باب هذا الفن .

وبعد كل هذا فبديعية صفي الدين الحلي سماها الكافية البديعية في المدائح النبوية وشرحها بشرح سماه «النتائج الالهية»[2] شرحا موجزا يورد البيت من البديعية ويثني بشرحة وايراد الشواهد عليه ولم يلتزم تسمية النوع في البديعية ، وقد بلغت أبيات البديعية (١٤٥) مبينا فيها (١٥١) نوعا من أنواع البديع ومطلعها :

ان جئت سلعا فسل عن جيرة العلم ... واقر السلام على عرب بذي سلم
فقد ضمنت وجود الدمع من عدم ... لهم ولم أستطع مع ذلك منع دمي
أبيت والدمع هام هامل سرب ... والجسم في إضم لحم على وضم

وأما بديعية ابن جابر[3] فسماها «الحلة السيرا في مدح خير الورى»[4] قال عنها طاش كبرى زاده : «انها بديعة» وقال السيوطي : «ان نظمها عال ولكنه أخل بذكر أنواع من البديع كثيرة جدا» . وعدد أبياتها ١٧٧ بيتا ، ويبدو أن لهذه البديعية شرحين أحدهما للناظم ، والآخر لأبي جعفر أحمد بن يوسف الرعيني[5] الغرناطي المتوفى سنة ٧٧٩ رفيق ابن جابر ، وسمى شرحه «طراز الحلة وشفاء الغلة»[6]

ومهما يكن فان باب البديعيات قد فتح على مصراعيه أمام الشعراء ، وقد كانت القرون الثلاثة الثامن والتاسع والعاشر قرون ازدهار البديعيات ، وقد كان ابن حجة في واسطة عقد هذه القرون ، فقبل عصره بقرن أي في القرن الثامن وما قبله ولدت بديعية السليماني الاربلي ، وصفي الدين الحلي وابن جابر الأندلسي ، وشهاب الدين أحمد العطار وعويس وعز الدين الموصلي ، وفي القرن التاسع نلتقي بابن حجة الحموي وشعبان الآثاري صاحب البديعيات الثلاث والمقري صاحب (الفريدة الجامعة للمعاني الرائعة) وهي بديعيته ، وفي القرن العاشر نظمت بديعيات كثيرة سنتحدث عنها في كلامنا عن أثر ابن حجة في البلاغيين الذين جاؤوا بعده .

والكلام على بديعية واحدة يغني عن الكلام عن كل البديعيات ، لأن أكثرها تتميز بالصفات العامة ذاتها التي سبق أن عددناها .

---

(١) عبد الرحمن بن ابراهيم بن اسماعيل بن عبد الله بن عبد الرحمن الزبيدي العلوي من بديعيته نسخة في برلين رقمها ٧٣٧٦ .

(٢) طبع الشرح بالمطبعة العلمية سنة ١٣١٦ .

(٣) هو محمد بن أحمد بن علي بن محمد الأندلسي الهواري الأعمى شمس الدين أبو عبد الله بن جابر (٦٩٨ - ٧٨٠) وانظر ترجمته في نفح الطيب ج١ص٩١٦ طبع ليدن .

(٤) منها نسخة مخطوطة في برلين برقم ٧٣٥٣ ، ونسخة مطبوعة في القاهرة سنة ١٣٤٨ باشراف الاستاذ عبد الله مخلص .

(٥) أحمد بن يوسف الرعيني الغرناطي ابو جعفر . ترجمته في نفح الطيب ج ١ ص ٩٢٣ ، طبعة ليدن .

(٦) منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم ٧١١ بلاغه .

فاذا تجاوزنا البديعيتين الأوليين ؛ بديعية الحلي وبديعية ابن جابر ، وسرنا مع تطور شكل البديعيات ألفينا ثمة شيئا جديدا قد حصل فيها ، وكان السابق اليه في هذه المرة عز الدين الموصلي[1] وهو التزام الشاعر بذكر اسم النوع البديعي في بيت البديعية . واستمرت الظاهرة القديمة وهي أن ينظم الشاعر البديعية ويمنحها الاسم ، ثم ينثني عليها بالشرح أو يشرحها غيره ويسمي هذا الشرح اسما جديدا فالحلي سمى بديعيته «الكافيةالبديعية في المدائح النبوية» وشرحها هو وسمى شرحه «النتائج الالهية» وابن جابر سمى بديعيته «الحلة السيرا في مدح خير الورى» وشرحها أبو جعفر وسمى شرحه «طراز الحلة وشفاء الغلة» وجاء الموصلي فنظم بديعية وشرحها وسمى شرحه «التوصل بالبديع الى التوسل بالشفيع» ثم تلاه ابن حجة فنظم بديعية وشرحها وسمى شرحه «تقديم أبي بكر» ، وقلما كان الشاعر يقتصر على نظم البديعية بل يحاول أن يشرحها ، وقد تظفر البديعية بأكثر من شرح كما حصل لبديعية العميان فقد شرحها ناظمها ابن جابر ثم شرحها رفيقه ابو جعفر ، وكما حصر لبديعية ابن حجة اذ شرحها هو شرحا كاملا وافيا بكتابه الذي سماه تقديم أبي بكر ، ثم شرحها شرحا مختصرا أطلق عليه متأخرو المصنفين اسم الشرح الصغير ، ولكن اسمه الحقيقي «ثبوت الحجة على الموصلي والحلي لابن حجة» وان كانت الشروح ضرو ـة للبديعيات لجلاء ما غمض من فكر اضطر اليها الشاعر أثناء معاناته لنظم البديعية فما أدري ما هو وجه تعدد البديعيات للشاعر الواحد كما فعل شعبان الآثاري الذي نظم ثلاث بديعيات في غرض واحد ووزن واحد وقافية واحدة وليس من فرق سوى تغيير بعض العبارات والمفردات ، وللحميدي أيضا بديعيتان احداهما نظمها على سنن البديعيات المعروفة من حيث الوزن والقافية والغرض ومطلعها :

ان جئت اسما فأسمي بغيتيك رم وجبي حيا حواها معدن الكرم

وقال انه عارض فيها الصفي والمقري والسيوطي ، وأخرى تختلف عن سنن البديعيات بكونها على قافية الكاف ومطلعها :

بديع حسنك أبدى من محياك براعة تستهل البشر للباكي

وهذا الخروج على القافية الميمية ظاهرة جديدة نلاقيها في بديعية الحميدي يدعونا الى الاستغراب ، الا ان هذا الاستغراب يزول اذا تذكرنا أن أول بديّعية أخرجت للشعراء من نظم السلياني الابلي كانت على قافية اللام ومن البحر الخفيف وموضوعها الغزل : ولا رابطة تربطها بالبديعيات سوى كونها تتوخى ايراد مثال على كل نوع من الأنواع البديعية في كل بيت من أبياتها الستة والثلاثين . كما أن هناك بديعية على حرف الراء للشيخ عيد علي بن ناصر بن رحمة الخوزي مطلعها :

قلبي وطرفي منصوب ومكسور كلاهما مطلق منا ومأسور

وقد ذكر ابن معصوم في ترجمته للشاعر الآنف الذكر في كتابه سلافة العصر ثمانية وعشرين بيتا منها تشتمل على أنواع من البديع ، وذكر ابن حميد العامري الحنبلي المتوفى سنة ١٢٩٥ في السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة في ترجمة عيسى بن حجاج بن عيسى السعدي الشطرنجي المعروف بعويس المتوفى سنة ٨٠٧ انه عمل

---

(١) علي بن الحسين بن علي بن أبي بكر بن محمد بن أبي الخير الموصلي الدمشقي عز الدين توفي سنة ٧٨٩ .

بديعية على طريقة الحلي لكنها على الراء قرظها له المجد اسماعيل الحنفي وغيره ، ثم ذكر أن للمجد اسماعيل المذكور شرحا عليها غير أنه لم يورد منها شيئا ، وكما أن بعض البديعيات خرجت على القافية الميمية فبعض البديعيات الأخرى خرجت عن مدح الرسول فهناك بديعية لم نعلم نظامها مطلعها :

عج بالطلول وجز ربعا بقربهم   ياحادي النوق لي رحّب بحيّهم

وهي كما نرى توافق البديعيات في بحرها ورويها ولكنها تخالفها بكونها في غير المديح النبوي ، فانها في مدح شخص اسمه (عبد الله) مذكور في بيت تخلصها .

ومن الصفات الأخرى التي تتسم بها البديعيات أنها كانت تحمل اسماء مسجوعة وغالبا ماتكون السجعة ثنائية (العقد البديع في مدح الشفيع) أو (تلميح البديع في مدح الشفيع) فاذا شرحت اختار الشارح لشرحها اسما ينسجم في سجعته مع سجعة البديعية فشرح الحميدي على البديعية السابقة (فتح البديع) وعندما اختصر هذا الشرح سمى اختصاره (منح السميح) فأصبح الاسم الكامل لمختصر شرح البديعية بأربع سجعات وهو «منح السميع من فتح البديع على تلميح البديع في مدح الشفيع» !!

ولما كان نظام البديعيات وشراحها شعراء وأدباء وبلاغيي عصرهم لذلك جاءت شروح البديعيات معرضا من معارض الثقافة العامة ، اذ يتخذ الشاعر شرح بديعيته لعرض ثقافته الأدبية ومحفوظاته من الشعر والنثر والقرآن والحديث ، كما يتخذها مجالا لإظهار البراعة في استبعاد بعض الآراء وتقريب بعضها الآخر ، غير ناس أن يدلل بين الحين والحين على الجانب الآخر من ثقافته الأدبية باستعراض نماذج من شعره ومقارنتها مع مثيلاتها من الشعر المشابه ، فلذا زخرت شروح البديعيات بالشعر والنثر وتخريج الآراء البلاغية ومناقشة أحكام السابقين من النظام ونقد ما قدموه من شعر وآراء بلاغية .

بديعية ابن حجة وشرحها «تقديم أبي بكر»[1]

---

(١) أسم الكتاب الحقيقي (تقديم أبي بكر) ، وقد نص المؤلف على هذه التسمية مرتين في أول الكتاب مرة في الصفحة الثالثة في السطر الثاني عشر ، ومرة أخرى في الصفحة السادسة عشرة في السطر الثلاثين ، وفي كل مرة يقول : وسميته تقديم أبي بكر . وهذه التسمية هي التي اعتمدها كل الذين ترجموا له وتحدّثوا عن آثاره منذ القرن التاسع الهجري حتى الربع الأخير من القرن الثالث عشر الهجري . وكل مخطوطات هذا المصنف التي وجدناها أو سمعنا بها في البلاد العربية أو في البلاد الأجنبية تحمل أسم (تقديم أبي بكر) ولكننا عندما التقينا بأول نسخة مطبوعة للكتاب وجدناها تحمل أسم (خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي) ، وهي النسخة التي طبعت في بولاق سنة ١٢٧٣ هـ ، وقد استغربنا هذه التسمية اللصيقة بالكتاب ثم سارت كل النسخ التي طبعت فيما بعد على هذه التسمية فطبعت أيضا ببولاق سنة ١٢٩١ باسم خزانة الأدب وغاية الأرب .

ومن خلال البحث تبين لنا أن الذي حوّر أسم الكتاب هو الشيخ نصر الهوريني ، فالذي أرجحه أنه استثقل أسمه الحقيقي تقديم أبي بكر ، وسماه خزانة الأدب وغاية الأرب ، ودليلنا على ذلك أن النسخة الأولى المطبوعة عاصرت الهوريني اذ طبعت سنة ١٢٧٣ هـ - كما رأينا قبل قليل - وكانت وفاة الشيخ نصر سنة ١٢٩١ هـ ، وزادنا يقينا بذلك أن أول نسخة مطبوعة وهي الموجودة في دار الكتب المصرية برقم (٣١١ - بلاغة تيمور) قد حملت تعليقات وحواشي بخط الشيخ نصر الهوريني نفسه ، ففي الصفحة ٥٧٠ منها كتب الحاشية التالية : «يقول الفقير نصر أبو الوفا الهوريني : قابلت هذه الخزانة المطبوعة على نسخة مكتوبة مؤرخة في صبيحة خميس ١٥ ربيع الآخر عام ٨٥٤

أربع وخمسين وثمان مئة ، وكانت مقابلتي في جمادي الأولى ورجب سنة ١٢٧٤ هـ . . . » . وفي الصفحة الثالثة من النسخة المطبوع التي كتب على حواشيها الهوريني هذا الكلام صرح بأن النسخة التي قابل عليها هذه النسخة المطبوعة موجودة في الأزهر ، ولدى التحقيق منها وجدت تحمل أسم (تقديم أبي بكر) ، وعلى هذا يكون مبتدع التسمية هو الشيخ أبو الوفا نصر الهوريني ، وربما شاركه في الابتداع المشرفون على مطبعة بولاق آنذاك ، وأخص منهم بالذكر «أبراهيم عبد الغفار» الذي وصف نفسه في الصفحة ٥٧٠ من هذه النسخة المطبوعة بأنه «محرر رهبانيها ، ومهذب مجانيها» ، وقال بعد قليل : «وقد بذلت الجهد في تنميقها ، والتحري في ميدان تحقيقها » ثم ألزم نفسه بنظم قصيدة ختم بها هذا التقديم وأرخ لسنة طبعة ، وذكر أسم (خزانة الأدب) في هذه القصيدة مرتين ، فقال :

أبدرتم زان حسنا أوجه	فسر لكن ماأراه أوجه
أم شمس حسن طلعت في دجيه	أم زورق من عسجد في لجّه
أم روضة غادرها ماء الحيا	نارنجة حمراء أو انزجّه
أم جنة تبسمت أزهارها	أم هذه (خزانة ابن حجة)
وعادة الخزن تضيق مذهبا	وهذه واضحة المحجّه
وكامل البديع فيها وافر	وليس ذا يحتاج نصب حجه
ومذ تبدى لطفها بطبعها	وازداد بين الكتب حسن بهجه
قال لسان حالها مؤرخا	(هي المنى (خزانة ابن حجه) ٣٧٢١

ولو افترضنا أن (ابراهيم عبد الغفار) هو الذي ابتدع هذا الاسم (خزانة الأدب) للتسهيل ، أوكان من جملة (تنسيقاته) كما قال فيها ، فمن حق الشيخ نصر الهوريني أن يشير الى هذه التسمية اللصيقة من جملة حواشيه على المطبوعة ، وخاصة أن الاشارة تتعلق بعنوان المصنف وهو أبرز شيء فيه ، وله من الاشارات ماهو تافه ، وسكوته عن تصحيح العنوان المبتدع ، رغم مقابلته لها على نسخة لا تحمل أسم (خزانة الأدب) يجعل تهمة ابتداع هذه التسمية تلاحقه وتقترب منه لتلتصق به أكثر من التصاقها بابراهيم عبد الغفار ـ غفر الله له وللشيخ نصر على هذا الصنيع .

وبعد هذا فالتقديم قد ظفر بعناية البأس منذ القديم حتى الحديث فاستنسخت منه عشرات النسخ التي كتب عليها القدر أن تتوضح في شتى مكتبات العالم ، ففي مكتبة ليدن نسختان برقم ٣٢٥/ ٣٢٦ ، وفي كمبرج نسخة رقمها ٢٥٨ وفي امبروزيانا نسخة رقمها ٧٤ ـB وفي الفاتيكان نسخة رقمها ٩٤١ج ٥ ـ ٩٨٢ ، ويوجد منها نسخ أخرى في بقية مكتبات أوروبة أما في البلاد العربية فثمة نسخة مخطوط بجامعة القرويين بفاس رقم ١٣٢ ، أما دار الكتب المصرية فظفرت بعدد من النسخ أرقامها ٤٢/ ٤٣/ ٤٣٧/ ٥٠٩٧/ ١١٠ وفي طلعت نسختان أرقامها ٣٠٢/ ٤٠٠ ، وفي تيمور ست نسخ مخطوطة أرقامها بلاغة ٢٦١/ ١٦٦/ ٥٢/ ٥٣/ ٣١١ ، وفي الظاهرية بدمشق نسختان تحمل رقما واحدا ك ٤٠٩٠ هذا فيما يتعلق بالنسخ المخطوطة ، أما المطبوعة فهي على مانعلم طبعتان احداهما سنة ١٢٧٣ ، والثانية ١٢٩١ وكلتاهما ببولاق .

عاش ابن حجة في قرن كانت فيه البديعيات قد ولدت ونشأت وتكاملت وأخذت طابعها الأخير ، ولكنها مع ذلك كانت فنا جديدا بديعا يستهوي الشعراء ، ويجدون فيه متنفّسا للتعبير عن حذقهم وفنهم ومهارتهم في النظم ، كما وجدوا فيه مجالا لعرض مخزونهم الثقافي عامة والأدبي خاصة ، وقد كانت عند ابن حجة شهوة للتأليف بوجه عام ، ورغبة للتأليف في البلاغة والبديع بوجه خاص ، وقد يكون لمهنته ككاتب في ديوان الإنشاء ، وما تتطلبه هذه المهنة من براعة في تملك ناصية الإنشاء بالاطلاع على البديع ، ليتمكن الكاتب من حسن التصرف بالألفاظ ، لأن العصر كان عصر عناية بالألفاظ أكثر من العناية بالمعاني ، ولذا أكثر ابن حجة من التأليف في الأمور التي تفيد الكاتب . ففي ثمرات الأوراق عقد فصلا لوصف الخيول المسومة التي (لابد لفحول كتاب الإنشاء من الجولان في ميدان وصفها) بل ألف رسالة سماها مجرى السوابق ـ وقد أتينا على وصفها في آثاره النثرية ـ قصد منها أن يتزود الكتاب والمنشئون ما يفيدهم بصنعتهم[1] ، وفي كتاب ثمرات الأوراق عرف السجع والفقرة والفاصلة والبلاغة والفصاحة وغيرها . ولكنه لم يكتف بهذا النزر اليسير من البلاغة ، بل تصدى لتأليف كتاب ضخم قائم بذاته ، أو على الأصح مجموعة كتب قائمة بذاتها ، تشرح البلاغة وتعرفها وتوضح حدودها ، وله في هذا الميدان كتب كثيرة منها : (تقديم أبي بكر) . و (ثبوت الحجة على الموصلي والحلي لابن حجة) و (كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام) وغيرها .

وقد كان يسعف ابن حجة في الجولان في هذا الميدان سعة اطلاعه على كتب البلاغة التي ألفت قبل عصره ، وما كان أكثرها ، بالاضافة الى توجيه بعض شيوخه له ، كانوا على جانب كبير من الإلمام بعلوم البلاغة كشمس الدين الهيتي والقضامي وغيرهما ، هذه زيادة على أن العصر الذي عاش فيه كان عصر تسابق في نظم هذا اللون من البديع المسمى بالبديعيات ، وجعلها تتضمن أكبر كمية ممكنة من الأنواع البديعية ، كما أنه عصر تسابق في تأليف الشروح لتكون مجالا لاستيعاب ما عجزت عن استيعابه البديعيات الملتزمة بالقافية والبحر ، فلذا تسابق الشراح بكثرة التفريعات والتقسيمات والتنويعات ، والتعرض لمن سبقهم والثناء عليهم تارة ، وسلقهم بألسنة حداد تارة أخرى . وسبق أن نوهنا بأن ابن حجة ليس هو مخترع فن البديعيات ، بل سبقته ثلاث بديعيات ـ على الأقل ـ احداها للحلي والثانية لابن جابر والثالثة لعز الدين الموصلي .

لقد نظر ابن حجة في البديعيات الثلاث التي سبقته فلم تعجبه وقال في وصفها : «بيد أني أقول وبالله المستعان أن العميان اختصروا جانبا كبيرا من البديع وما أجادوا النظم فيما وقع اختيارهم عليه ، والشيخ صفي الدين الحلي أجاد في الغالب لخلاصه من التورية في تسمية النوع ، ولكنه قصر في مواضع نبهت عليها في مظانها ، والشيخ عز الدين رحمه الله قصرّ في غالب بديعيته لالتزامه بتسمية النوع البديعي ومراعاة التورية ، والبحث مقرر مع كل منهم في اجادته وتقصيره عند ايراد بيته على ذلك النوع الوارد»[2] فعندما قرأ هذه البديعيات ولم تعجبه شمر عن ساعد الجد ، وبرز للمعارضة ، وأخذ على نفسه أن ينظم بديعية تبزّ كل هذه البديعيات ، وقد دفعه الى المضي في هذا المضمار صديقه ناصر الدين البارزي الذي وقف في دمشق

---

(١) ثمرات الأوراق ص ١٦٢ .

(٢) التقديم ص ٥٧٠ .

على بديعية عز الدين الموصلي ورسم له فخطط معارضتها وربما كانت هناك دوافع اخرى غير رغبة ابن البارزي ، كحب ابن حجة للمعارضات ، فقد مرّ سابقا معنا أنه تصدى للكثير من الشعراء وعارضهم ، فما أحراه ان يعارضهم بموضوع شاع وذاع في عصره وهو فن البديعيات ، وقد يكون الدافع لا هذا ولا ذاك ، فقد يكون حبه للتأليف ، وهذا الحب مأثور عند ابن حجة ، فقد استكثر منه حتى بلغت مؤلفاته نيفا وثلاثين مصنفا ، ولما وقعت بين يديه مجموعة لا بأس بها من كتب البلاغة والبديع وأتيح له الوقوف عليها أحب أن ينظم هذه البديعية وينثني بشرحها ، ويبقى الدافع الأول وهو رغبة ابن البارزي على رأس هذه الدوافع لذلك دعنا نستمع اليه يقول في مقدمة كتابه الذي سماه «تقديم أبي بكر» : «فهذه البديعية التي نسجتها بمدحه ﷺ على منوال طرز البردة ، كان مولانا المقر الأشرف العالي المولوي القاضوي المخدومي الناصري سيدي محمد بن البارزي الجهني الشافعي صاحب دواوين الانشاء الشريف بالممالك الاسلامية المحروسه جمل الله الوجود بوجوده هو الذي ثقف لي هذه الصعدة وحلب لي ضرعها الحافل لحصول هذه الزبده ، وما ذاك الا أنه وقف بدمشق المحروسه على قصيدة بديعيه للشيخ عز الدين الموصلي رحمه الله تعالى التزم فيها بتسمية النوع البديعي وورى بها من جنس الغزل ليتميز بذلك على الشيخ صفي الدين الحلي تغمده الله تعالى برحمته لأنه ما التزم في بديعيته بحمل هذا العبء الثقيل ، غير أن الشيخ عز الدين ما أعرب عن بناء بيوت أذن الله أن ترفع ، ولا طالت يده الابهام القعادة إلى شيء من اشارات ابن أبي الاصبع ، وربما رضي في الغالب بتسمية النوع ولم يعرب عن المسمى ، ونثر شمل الألفاظ والمعاني لشدة ما عنده نظما :

فيا دارها بالخيف ان مزارها   بعيدو لكن دون ذلك أهوال

فاستخار الله مولانا الناصري المشار اليه ورسم لي بنظم قصيدة أطرز حلتها ببديع هذا الالتزام ، وأجارى الحلي برقة السحر الحلال الذي ينفث في الأقلام ، فصرت أشيد البيت فيرسم لي بهدمه ، وخراب البيوت في هذا البناء صعب على الناس ، ويقول : بيت الصفي أصفى موردا ، وأنور اقتباسا ، فأسن كل ما حده الفكر وأراجعه ببيت له على المناظرة طاقته ، فيحكم لي بالسبق وينقلني إلى غيره وقد صار لي فكرة إلى الغايات سباقه ، فجاءت بديعية هدمت ما نحته الموصلي في بيوته من الجهال ، وجاريت الصفي مفيدا بتسمية النوع وهو من ذلك محلول العقال[1] .

من هذه المقدمه ندرك أن هدف ابن حجه أن يجمع في بديعيته محاسن البديعيتين السابقتين ، محاسن بديعية الحلي بما فيها من رقة السحر الحلال ، ومحاسن فكرة الموصلي بالتزام ذكر اسم النوع ، وعلى هذا فابن حجه سيضع نصب عينيه كلا من البديعيتين محاولا استبعاد كل المآخذ التي أخذت عليهما متخذا في ذلك المنهج التالي :

أ ـ أنه كان ينظم البيت البديعي في مدح الرسول ، ومن البحر البسيط ، وعلى قافية الميم المكسورة ، متضمنا النوع البديعي مشيرا إلى اسم هذا النوع ، وهذا الالتزام بكل هذه الشروط جعل كاهل ابن حجه ينوء

---

(١) التقديم ص ٢ .

تحت وطأة هذه القيود وليس من اليسير أبدا أن يوزع الشاعر فكره وانباهه إلى التوفيق بين عدة عناصر قد تكون متعارضة أشد التعارض في بعض الأحيان ، وقد تحمل الشاعر على التخلي عن بعض الشروط من أجل استيفاء بعض الشروط الأخرى ، ولكن ابن البارزي كان ينقح له البديعيه ويذكره دائما بالتزام الرقة التي كانت متوفرة في بديعية الحلي ، ولهذا السبب كان يأمره بهدم بيت أنفق في تشييده كثيرا من الجهد لخوه من الرقة ، وهي عنصر خفي من العناصر التي اشترط ابن البارزي توفرها في القصيدة ، وغالبا ما كان ابن البارزي يقارن بيت بديعية ابن حجة مع بيت بديعية الحلي .

ب ـ من المنهج الذي اتبعه ابن حجه في شرح بديعيته أنه أكثر من الشواهد ، فطاف بالقرآن الكريم والحديث الشريف ، وأخذ منهما ما أمكنه أخذه ، كما أنه عرج على الشعر القديم ، وانتزع منه ما اقتنصه شاهدا على النوع البديعي ، ثم بطريقه على شعر المولدين وألم به بعض الالمام ، ولكنه وقف وقفه طويلة عند شعر المتأخرين من معاصريه ، وحشد لهم نماذج كثيرة من الشعر والنثر ، كما أكثر من حشد نماذج شعرية ونثريه من تأليفه ، بل تجاوز ذلك واستشهد بالزجل والدوبيت والمواليا ، وخشية أن يلومه لائم على هذا الاستشهاد بشعر المتأخرين ونثرهم قدم بين يدي كتابه مقدمة ذكر فيها آراء بعض العلماء التي مؤداها أنه لامانع من الاستشهاد بشعر المتأخرين ، وسنورد هذه الآراء في فصل لاحق .

وبعد أن اتخذ من آراء القدامي في جواز الاستشهاد بكلام المتأخرين أباح لنفسه أن يستشهد بل ويستكثر من الاستشهاد بشعر معاصريه ونثرهم وشعره هو بالذات ونثره ، ولكن نلاحظ على استشهاده ببعض أدب معاصريه أنه كان يميل إلى التزلف والملق لبعض الشخصيات البارزة في زمانه ، اذ يرفعها إلى مصاف كبار الأدباء الذين يصح الاستشهاد بكلامهم كاستشهاده ببعض المواليا التي نظمها زين الدين ابن العجمي .

وما دمنا في معرض الحديث عن الشواهد الواردة في تقديم أبي بكر يمكن أن نعزو اليها ضخامة هذا المصنف لأنه أسرف اسرافا كبيرا في حشد الشواهد ، فهو ـ على سبيل المثال ـ يستشهد بالبيت أو البيتين أو الثلاثة على ظاهرة أو نوع بديعي ، ولكنه لا يكتفي بذلك بل يقول : وأعجبني من هذه القصيدة قوله كذا ويورد عدة أبيات ، وتذكره القصيدة بقصيدة أخرى فيذكرها أو يذكر منها عدة أبيات ، فلهذا تضخمت الشواهد وكثرت ، وأعتقد أن تضخم شواهد البلاغة في هذا العصر شيء طبيعي وذلك لأن المشتغلين بالبلاغه فتحوا باب الاستشهاد على مصراعيه ولم يجعلوا له حدودا معينة كما فعل المشتغلون في النحو اذ جعلوا منتصف القرن الثاني للهجرة حدا فاصلا تقريبا للاستشهاد بمن ينبغي أن يستشهد بشعرهم في علم اللغة والنحو ،ولكن المشتغلين بالبلاغه أباحوا لأنفسهم أن يستشهدوا بكلام المتأخرين كما يستشهدون بكلام المتقدمين على حد سواء ، ومن يتتبع تطور كتابات المشتغلين بالبلاغة يلاحظ ازدياد الشواهد على النوع الواحد بتطور الزمن فكل عالم من علوم البلاغه يتقنص بعض الشواهد فيأتي الآخر فيغير عليها ولا يكتفي بل يزيد من شواهد معاصرية ، فلهذا ماإن وصلت الأنواع البديعية إلى القرن التاسع حتى كانت الشواهد من الكثرة بمكان بعيد ، والذي زاد في كثرة الشواهد أن الشعراء المتأخرين في عصر ابن حجه وقبله بقرون كان اسرافهم في البديع اسرافا كبيرا مما جعل شعرهم مرتعا خصيبا للشواهد البديعية ، فكان النقاد والبلاغيون أنى ساروا وجدوا شعرا يمكنهم الاستشهاد به . ولكن الذي ضخم كتاب ابن حجه ليس تعدد

الشواهد فحسب بل حب الاكثر والتدليل على سعة ثقافته فمثلا في (ارسال المثل) أورد كل ما اقتنصه متتبعو شعر المتنبي من حكمته فبلغت أربعة مئة بيت ومئة شطر . ولم يكتف بذلك بل أورد كتابا كاملا له في الاستشهاد على هذا النوع البديعي ـ أعني ارسال المثل ـ وهو كتابه المسمى تغريد الصادح لسبب أن الكتاب مؤلف من أرجوزة كلها أمثال وحكم ، وظني أنه ما صنع هذا الصنيع الا ليضع بين أيدي كتاب الإنشاء طائفة من جوامع الكلم التي يحتاجون اليها في صناعتهم ، وهذا هدف من الأهداف التي كان يرمي اليها من تأليف بعض مصنفاته ، وقد يكون بسبب الاستكثار من الشواهد عامل آخر هو العامل الذوقي ، اذ يورد من القصيدة بيتا للاستشهاد هو بيت القصيد ولكنه يقول ومما تخيرته من هذه القصيدة كذا وكذا ويذكر عدة أبيات أو يستكمل القصيدة ويعتذر بعد إيرادها كاملة بأن ما فيها من الطلاوة وحسن السبك هو الذي جعله يورد ما أورد ، وهذا الصنيع يسلكه مع من يحبهم من الشعراء كالمتنبي وابن نباته ومن سار على منهاجهم من جماعة المولعين بالتورية ومع هذا فعماد بديعيته (١٤٥) بيتا جمعت (١٤٥) نوعا من أنواع البديع ولكن شرحها بلغ (٥٧١) صفحة من القطع الكبير ، وسبب الاستفاضه في الشرح رغبة ابن حجة في التفريع والتقسيم والتنويع هذا بالاضافة إلى أنه كان يلغي بعض الأنواع الفرعية التي لا يستلطفها ذوقه فلذا نراه يقول : «وذكر صاحب الإيضاح للتفريع قسما ثانيا لم يذكره غيره ، ولانسج على منو اله أ، حاب البديعيات فألغيته أيضا ، والشيخ زكي الدين ابن أبي الاصبع اخترع قسما ثالثا ولكن وجدت هذا النوع الذي نحن بصدده أحلى في الأذواق وأوقع في القلوب وعلى سننه مشى أصحاب البديعيات فألغيت أيضا ما اخترعه ابن أبي الاصبع»[١] .

لم يكن ابن حجه مجرد مقتف لآثار البلاغيين في تسميتهم للأنواع ، بل كان يلغى بعضها كما رأينا ، وأحيانا كان ينتقد كبار البلاغيين لوقوعهم في سقطات ليس من ورائها شديد فائدة . ففي ذكر المراجعة ، يصرح بأنه لو لا المعارضة ما ذكر هذا النوع في بديعيته لأنه نوع تافه قال : «المراجعة ليس تحتها كبير أمر ولو فوض الي حكم في البديع ما نظمته في سلك أنواعه ، وذكر ابن أبي الاصبع أنها من اختراعاته وعجبت من مثله كيف قربها إلى الذي استنبطه من الأنواع البديعية الغريبة»[٢] . ومن هذه الأنواع التي أنف من الاستفاضة فيها ، ولو لا المعارضة لما نظمها في بديعيته التفصيل ، وعتاب المرء نفسه ، وتشابه الأطراف والمماثلة ، وقال في معرض حديثه عن التفصيل : « التفصيل ـ بصاد مهملة ـ نوع رخيص بالنسبة إلى فن البديع والمغالاة في نظمه ، وقد نبهت قبله على عدة أنواع سافلة ولكن المعارضة أوجبت الشروع في نظمه كالتصدير وعقاب المرء نفسه ، وتشابه الأطراف وما أشبه ذلك»[٣] .

وابن حجه اتبع في ترتيب أنواع البديع المنهج نفسه الذي اتبعه الحلي ، وذلك بأن بدأ ببراعة الاستهلال ثم أتبعها بالجناس وأنواعه إلى أن وصل في آخر بيت إلى حسن الختام ، وقد استفاض استفاضة كبيرة في الحديث

---

(١) تقديم أبي بكر ٥٠٦ .
(٢) التقديم ص ١٢٦ .
(٣) التقديم ص ٢٧٧ .

عن براعة الاستهلال وحسن المطلع ، وزخر هذا القسم بكثرة الشواهد الشعرية والنثرية من القرآن والحديث وشعر فحول القدامى والمولدين، وكلام معاصريه من الكتاب والمنشئين حتى من شعره ونثره ، وقد استعرض في مطلع حديثه الشواهد الجيدة على براعة الاستهلال ولكنه لم يقف عندها بل تطرق لذكر براعات استهلال الذين كبت بهم خيول الفكر وتعثروا فجاؤ وا بالسيء من المطالع مما جعلهم موطن استهجان أهل الذوق والأدب ، وذكر قصص هؤلاء المقصرين في براعة الاستهلال ، وما جرته عليهم سقطاتهم من متاعب وأعنات ونفذ من وراء ذلك إلى تحذير الكتاب والمنشئين من الوقوع في مثل هذا الزلات التي كان يزلها كبار الأدباء فألحقت بهم ما لا تحمد عقباه ، وبعد هذا فكتاب (تقديم أبي بكر) يعتبر كتاب بلاغة لتضمنه البديعية وشرحها ، وما اقتضاه هذه الشرح من تعريفات وحدود ، رجع ابن حجه فيها لا الى سبعين كتابا كما فعل الحلي ولكن إلى ما يربو عن مئة كتاب كان يذكرها في أثناء حديثه ، فيسميها ويسمى مؤلفها طورا ، ويكتفي باسمها أو باسم المؤلف طورا آخر ، وقد ينقل منها بعض الحدود البلاغية ، أو بعض المناقشات التي كانت تدور بين البلاغيين حول نقطة معقدة ، وكثيرا ما كان يعطينا تاريخ ميلاد النوع البديعي وعلى يد من ولد هذا النوع ، ففي حديثه عن الترتيب قال :«هذا النوع ـ أعني الترتيب ـ من استخراجات التيفاشي ، ذكره في كتابه وسماه بهذا الاسم»[1] وفي حديثه عن الاشتقاق قال : « هذا النوع أعني الاشتقاق استخرجه الامام ابو هلال العسكري ، وذكره في آخر أنواع البديع من كتابه المعروف بالصناعتين . . . وهذا النوع ما ذكره القاضي جلال الدين القزويني في التلخيص ولا في الايضاح ، ولا ذكره الشهاب محمود في حسن التوسل ولا نظمته العميان ولاغيرهم من أصحاب البديعيات غير الشيخ صفي الدين الحلي[2] ومن هذا النص الصغير المقتطف من تقديم أبي بكر ندرك أن ابن حجه كان اذا أراد نظم النوع البديعي وشرحه رجع في الشرح الي العديد من كتب البلاغة وقارن بين تعريفات البلاغيين له ، ورجع الى ما ذكره أصحاب البديعيات ، ثم استخلص لنفسه رأيا في تعريف هذا النوع ، مشيرا الى مخترعه أو السابق الى معرفته وفي كل ما يكتب تطل علينا شخصيته كناقد بلاغي يذكر الأنواع ويعرفها ويعرج عليها بالنقد . وهذا لا يتأتي للانسان الا بعد سعة اطلاع كبيرة على كتب البلاغة ونقدها ، ويحلو لي هنا أن أورد كل ما قاله عن (الاشتقاق) ومناقشته له ، ليتضح لنا معالم سعة اطلاعه ونخرج من ذلك بأنه ناقد بديعي قل أن يضاهي ، قال : « هذا النوع ، أعني الاشتقاق ، استخرجه الامام أبو هلال العسكري ، وذكره في آخر أنواع البديع من كتابه المعروف بالصناعتين ، وعرفه بأنه قال : هو أن يشتق المتكلم من الاسم العلم معنى في غرض يقصده من مدح أو هجاء أو غيره كقول ابن دريد في نفطويه :

لو أوحي النحو الى نفطويه ... ما كان هذا العلم يعزى اليه
أحرقه الله بنصف اسمه ... وصير الباقي صياحا عليه

---

(١) التقديم ص ٤٤٩ .

(٢) التقديم ص ٤٥٠ .

وهذا النوع ما ذكره القاضي جلال الدين القزويني في التلخيص ولا في الايضاح ، ولا ذكره الشهاب محمود في حسن التوسل ، ولا نظمته العميان ولا غيرهم من أصحاب البديعيات غير الشيخ صفي الدين الحلي وبيت بديعيته التي ذكر أنه جمعها من سبعين كتابا قوله :

لم يلق مرحب منه مرحبا ورأى ضد اسمه عند هد الحصن والأطم

الشيخ صفي الدين اشتق من اسم (مرحب) الترحاب حتى يقابله بضده ، وهذا هو الغرض الذي أراده الناظم وبيت الشيخ عز الدين في المعارضه قوله :

مسيم وحا في اشتقاق الاسم محو عدا والميم والدال مد الخير للأمم

هذا البيت يشق علي أن اشرح اشتقاقه ، وأذكر ما فيه من التعسف والزيادة ، وعدم القبول للتجريد فانه أراد أن يمشي على طريق ابن دريد في الاشتقاق ، فلم يأت بغير الشقاق ، وما ذاك الا أن اسم نفطويه سداسي ، قسمه الناظم في الاشتقاق نصفين ، جعل النصف الأول (نفطا) والثاني (صياحا) وهذا الاشتقاق صحيح على هذا التفصيل ، وقالوا : هو في (محمد) رباعي ، من أين للشيخ عز الدين غفر الله له هذا حتى تصح معه لفظة (محو) مع أني راجعت شرحه فوجدته قال : الميم والحاء من أسم محمد (ص) فيهما (محو) لاعدائه ، وأيضا فلم نجد أحدا استشهد في بيت من بيوت بديعيته وصدر بيته بقوله : (ميم وحاء في اشتقاق الاسم محو عدا) الا الشيخ عز الدين فان المراد من بيت البديعية أن يكون صالحا للتجريد ، خاليا من العقادة ، ليصح الاستشهاد به على ذلك النوع ، وبيت بديعيتي أقول فيه عن النبي (ص) :

محمد أحمد المحمود مبعثه كل من الحمد تبيين اشتقاقهم

قد تقدم تقرير أبي هلال في هذا النوع وهو أن تسبق المتكلم معنى لغرض يقصده ، والغرض هنا أن كلا من محمد وأحمد وصفتهما المحمودة مشتق من الحمد ، وشرف هذا المدح ظاهر والله أعلم»[(١)] .

أوردت هذا النص كاملا لأدل على مدى سعة ثقافته أولا على كتب البلاغة وثانيا على البديعيات التي نظمت قبله وشروحه ، ثم لنطالع على الروح النقدية البديعية التي يتميز بها ابن حجه والتي تبدو واضحة من خلال مناقشته لشرح بديعية الموصلي ، وكيف أن الموصلي تعسف في الشرح حتى اضطر إلى العقادة والغموض ، ومثل هذه الآراء مبثوثه بكثرة في كتابه هذا ، وهي التي جعلت من ابن حجه ناقدا بديعيا ، يعتمد في نقده على ذوق بديعي يمده مخزون كبير من الاطلاع على كتب البلاغة ، وفنون البديع أو ممارسة طويلة من القراءة والدربة على النظم وتدبيج البديع وتصيده نظما ونثرا .

وشرح هذه البديعية لم يكن مقصورا على البلاغة وتعريفات الحدود وتسميتها ، بل كان الشرح معرضا لكل ما تزخر به ثقافة ابن حجة الأدبية من ضروب ، فهو في أثناء الشرح ينقلك من البلاغة إلى الأدب ، الى النقد الى الطرفة فالتقديم حديقة جمعت ألوانا من الأزهار ، وبستان جمع شتيتا من الأشجار ، ولكنها بالرغم من أنها في مدح الرسول فقد خلت من التاريخ والسيرة ، ولم يتعرض في الشرح الى شيء من هذا أبدا ، ولعل كل هذه السير والحوادث التاريخية استوعبها كتابه «بلوغ المرام من سيره ابن هشام والروض الأنف

---

(١) التقهيم ص ٤٥٠ .

والاعلام ، ولابن حجه فضيلة أخرى في كتابه هذا وهو أنه حفظ لنا آراء بعض النقاد والبلاغيين الذين **ألفوا** كتبا في النقد والبلاغة ولكنها ضاعت مع الزمن ، ولو لا كتابه لما علمنا بها ولما عرفنا عن أولئك النقاد والبلاغيين شيئا .

ولقد فرغ ابن حجه من تأليف كتابه (التقديم) في شهر ذي الحجة الحرام سنة ست وعشرين وثمان مئة ، وتناسخه أكثر أدباء عصره وأعجبوا بمضمونه ، وكتبوا عليه تقاريظ كثيرة ، منها تقريظ طويل كتبه الامام بدر الدين الدماميني نقتطف منه العبارة التالية : قال : «على أنه لو لم يكن لهذا الامام الا هذه البديعية لكفاه فضلا ، ولأوجب له ذلك في ذمم الشكر ديوانا»[1] . ونقل صاحب كشف الظنون عن ظهر نسخة من نسخ كتاب (التقديم) لابن حجة شهادة ابن حجر العسقلاني بخطه ، كتب فيها : «وهو مجموع أدب قل أن يوجد في غيره ، ولعل مقتنيه يستغني عن غيره من الكتب الأدبية ، ولو لم يكن فيه الا جودة الشواهد لكل نوع من الأنواع ما امتاز به من الاستكثار من ايراد نوادر العصريين ، فان مصنفه مرتفع عن كلفة العارية ، وهذا وحده مقصد لكل حاذق» [2] .

ولكي نشكل فكرة صحيحة عن بديعية ابن حجة لابد لنا من ايراد بعض النماذج منها ، ولكن قبل أن نورد هنا هذه النماذج من الجدير بالذكر أن نقول اننا سبق أن أثبتنا بضعة أبيات من مطلع البديعية في حديثنا عن (المدح النبوى) وتكلمنا بايجاز عن البديعية لكونها أثرا فنيا ، وسنورد هنا أبياتا مغايرة للابيات التي سبق أن أوردناها لتنوع الدلالات ونتجنب التكرار قال في نوع (الاستعارة)

وكان غرس التمني يانعا فذوى　　　بالاستعارة من نيران هجرهم

وفي نوع الاستخدام قال :

واستخدموا العين مني وهي جارية　　　وقد سمحت بها أيام عسرهم

وفي نوع الطباق قال :

بوحشة بدلوا أنسي وقد خفضوا　　　قدرى وزادوا علوا في طباقهم

وينبغي ألا يغرب عن بالنا أن هذه الأبيات بالاضافة الي كونها تصلح للتجريد للاستشهاد علي الأنواع المذكورة الا أنها تمثل القسم الأول من البديعية وأقصد بذلك المقدمه الغزلية ، أما الأبيات المنتزعة من القسم الثاني وهو المديح النبوي فكقوله مستشهدا وممثلا للنوع البديعي المسمى (الجمع مع التقسيم) قوله :

جمع الأعادي بتقسيم يفرقه　　　فالحي للأسر والأموات للضرم

أما بيت بديعيته على نوع (الجمع مع التفريق) قوله :

سناه كالبرق ان أبدوا ظلاما وغى　　　والعزم كالبرق في تفريق جمعهم

وبيته الذي ساقه شاهدا على نوع (الاشارة) قوله :

ومن اشارته في الحرب كم فهم ال　　　أنصار معنى به فازوا بنصرهم

وهكذا تسير أبيات البديعيه حتى يقول في حسن ختامها :

---

(١) الثمرات الشهية من الفواكه الحموية ورقة ٦٧/ ٢ .

(٢) كشف الظنون جـ ١ ص ٢٣٣ .

حسن ابتدائي به أرجو التخلص من　　　نار الجحيم وهذا حسن مختتمي

أثر بديعية ابن حجة وشرحها فيمن جاء بعده من المشتغلين بالبلاغة لقد كان أثر بديعية ابن حجه وشرحها فيمن جاء بعده من المشتغلين بالبلاغة كبيرا ، ولقد حظيت بعناية أكثر مما حظيت به بديعية أخرى ، وشاهد ذلك أن هذه البديعية رغم أن ناظمها شرحها شرحا وافيا فان أحد أدباء العصر واسمه عثمان الظاهر قد شرحها مرة ثانية ، وكذلك في أوئل القرن العاشر نظم الامام جلال الدين السيوطي بديعيه عارض بها بديعية ابن حجة وشرحها وسماها «تنظيم البديع في مدح الشفيع» وبعده توالى المشتغلون بالبلاغه قرنا فقرنا ، وكانوا يعتمدون إن في نظم بديعياتهم أو شروحها على بديعية ابن حجه فالشيخ عبد الغني النابلسي عندما أراد أن ينظم بديعية عارض بها ابن حجه وسماها» نسمات الاسحار في مدح النبي المختار ، «وعندما عزم على شرحها اعتمد على ثلاثة شروح رئيسيه : شرح الحلي والموصلي وابن حجه وسمي شرحه هذا» نفحات الأزهار على نسمات الاسحار في مدح النبي المختار» وكذلك فعل مصطفى بن عبد الوهاب الصلاحى الذي نظم (نخبة البديع في مدح الشفيع ،) وفي مقدمة كتابه عدد من استعان بمؤلفاتهم وذكر منهم ابن حجه الحموي . ومن الذين اعجبوا بشرح ابن حجه على بديعيته عبد الحي بن أحمد بن العماد الحنبلي فأختصر هذا الشرح تيسيرا للدارسين وسماه «شرح أبي الفلاح» ولا أبالغ إذا قلت إن بديعية ابن حجه قد شغلت الرجال والنساء ، فمن النساء عائشة الباعونية التي نظمت بديعيتها وشرحتها متأثرة بابن حجه ، وقد شغلت المسلمين والنصارى ، فمن ألف شروحا على بديعية ابن حجه الخوري بولص عواد وسماها (العقد البديع في فن البديع) .

ويمكننا القول إن الذين اشتغلوا بالبلاغة من المتأخرين كانوا فئتين فئة أعجبت بصنيع ابن حجه في نظمه للبديعيه وشرحه لها ، فلذا قرنت اسمه في مؤلفاتها بالثناء العاطر ، والشكر المستطاب وفئة أخرى رأت في صنيعه هذا اجترارا لفن اشتغل فيه الكثيرون قبله ولافضل له فيه بل نسبوا اليه اساءة الأدب تجاه من سبقوه لاعتزازه وفخره والتبجح بصنيعه وترجيحه على صنيعهم ، ولذلك سنتحدث عن هاتين الفئتين ومؤلفاتهما وأثر ابن حجه فيهما ان سلبا أو ايجابا .

فمن المعجبين جلال الدين السيوطي الذي رأى في بديعية ابن حجه وشرحها أمثل بديعية وأوفى شرح ، لذلك اعتمدها مرجعا له عندما عن له أن يدلي بدلوه في هذا الفن الذي استشرى في عصره ، كما أن الأديبة عائشة الباعونية وهي من معاصري السيوطي أعجبت بشرح ابن حجة على بديعيته ولذلك فإنها أخذت كل تعريفاتها للأنواع البديعية ـ عندما عرفتها ـ من كتاب ابن حجة . وكانت تنقل بأمانة وتصرح بهذا النقل فتقول : قال العلامة كذا . وعرف العلامة هذا النوع بكذا وهي تقصد بالعلامة ـ دائماً ـ ابن حجة ، وحتى لقد اعتمدت على شواهده التي أوردها في شرحه سمت كتابها هذا (الفتح المبين في مدح الأمين) .

أما بولص عوّاد فهو خوري معاصر طلبت منه احدى المؤسسات الكاثوليكية في بيروت أن يؤلف كتاباً في البديع فاتخذ بديعية ابن حجة عمدة وأخذ أبياتها بيتاً بيتاً وشرحه بأسلوب المعاصر ، وبالرغم من أن البديعية في مدح الرسول فإنه في الشرح تجنب ذكر الرسول اطلاقاً ، بل كما يعن له الشرح وأباح لنفسه في شرح هذه البديعية ما لم يبحه أحد من قبله . فمثلاً قال عندما شرح بيت بديعية ابن حجة في التلميح وهو قوله :

ورد شمس الضحى للقوم خاضعة   وما ليوشع تلميح بركبهم

قال بولص : «وقد أشار بذلك إلى قصة يوشع ـ وهو المعروف في التوراة بيوشع بن نون ـ في استيقافه الشمس يوم قتاله للجبارين ، وأمره في ذلك مشهور»[١] .

ومن الغريب أن بولص أباح لنفسه أن يستشهد أثناء شرحه لنوع التطريز بقول «السيد المفضال المطران جرمانوس فرحات رحمه الله ـ بقوله

مسيري والهوى وكمين سري   خفي في خفي في خفي
وعزمي والفلا وثبات جاشي   خفي في خفي في خفي
وعهدي والجواد وخدن أنسي   وفي في وفي في وفي

ولم يقتصر على ذلك بل استشهد بشعره وشعر خاله ، وهكذا .

وأما الفئة التي لم يعجبها صنيع ابن حجة في بديعيته وشرحه لها فهي فئة ليست بالقليلة منها النواجي تلميذ ابن حجة فقد انصبّ عليه باللوم والتقريع ونقد نظمه للبديعية وعزاها للسرقة من الموصلي والحلي وأبان عن كثير من سرقاته فيها ، وادعى بأنه كان يساعده في نظمها وتنقيح ألفاظها ، وفي الصفحات الأولى من كتاب (الحجة في سرقات ابن حجة) نقد طويل لهذه البديعية .

ولقد أثارت تسمية ابن حجة لشرح بديعيته باسم (تقديم أبي بكر) أثارت حسد الشيخ عبد القادر الحسيني الطبري[٢] فألف كتابا سماه (عليّ الحجة بتأخير ابن حجة) وتهجم عليه وسفه بعض آرائه ، وكذلك فعل صدر الدين بن معصوم[٣] الذي نظم بديعية وشرحها في كتابه المسمى (أنوار الربيع في أنواع البديع)[٤] فقال في مقدمة كتابه المذكور : «فبينا أنا ذات يوم أطرف الطرف في بديعية ابن حجة ، وأروح مروح الفكر في مهيع تلك المحجة . . فنظمت هذه البديعية التي فاتت بديعية ابن حجة ، فلو أدركها لما قامت له معها على تزكية نفسه حجة ، »[٥] فبالرغم من أن الحافز هو بديعية ابن حجة الا أنه لم يعجبه صنيعه وتحامل عليه ولكنه تحامل أخف من تحامل النواجي عليه .

ومن الذين أخذوا على ابن حجة بعض المآخذ أبو بكر الحسيني الحضرمي[٦] الذي ألف كتابا سماه (اقامة الحجة على التقي ابن حجة) قال في خطبته : «وكان ممن طال في مهيع الانتقاد باعه وذراعه واستطال على اعراض جحا جحة الادب لسانه ويراعه شيخ البديع ومجلي حلبته وإمام الأدب ومؤهل غربته ، الشيخ تقي

---

(١) العقد البديع ص ٧٥ .

(٢) عبد القادر بن محمد بن يحيى بن ابي بكر بن محب الدين بن رضى الدين بن شهاب الدين بن ابراهيم بن محمد الحسيني الطبري محي الدين ٩٧٦ ـ ١٠٣٣ .

(٣) هو صدر الدين علي بن نظام بن احمد بن محمد بن معصوم الحسيني ١٠٥٢ ـ ١١٠١

(٤) الكتاب مطبوع بفارس ومنه نسخة مطبوعة واخرى مخطوطة بدار الكتب المصرية

(٥) مقدمة انوار الربيع ص ٢

(٦) هو ابو بكر بن عبد الرحمن بن شهاب الدين العلوي الحسيني الحضرمي

الدين أبو بكر بن حجة»[1] ولقد نقد كتاب «التقديم» ولكنه نقد يجمع بين الرقة تارة والعنف تارة اخرى :

وفي مطلع هذا القرن ـ العشرين ـ ألف الاستاذ عبد الله مخلص كتابه الذي جمع فيه بديعية العميان وقدم له بمقدمة ذكر فيها تحامل ابن حجة على العميان ، وازراءه بصنيعهم ، فرد التهمة عنهم ، وأبان شطط ابن حجة في احكامه على العميان .

هذه صورة موجزة للأثر الذي تركته بديعية ابن حجة وشرحها في من جاء بعده من المشتغلين بالبلاغة .

ـ ٢ ـ

ثبوت الحجة علي الموصلي والحلي لابن حجة[2] : ما إن أنجز ابن حجة كتاب التقديم الآنف الذكر بعد أن أفني فيه الليالي الطوال بين نظم وشرح وتنقيح ومراجعة للكتب السابقة ، ووضعه بين أيدي الناس حتى انبرى بعض أدباء عصره وسلقوه بألسنة حداد ، ورموه بالسرقة والاتباع والتطفل على موائد أصحاب البديعيات الذين جاؤ وا قبله ، ورغم أنه اعتز بمصنّعه وسماه (تقديم أبي بكر) الا أن معاصريه أخذوا ينعتونه (بتأخير أبي بكر) واتهموه بأنه لم يزد عن سرقة أبيات من سبقه من نظام البديعيات وسرقة أفكارهم في شرحهم ، لذا عمد الى رفع التهمة بتأليف كتاب آخر يثبت فيه فكرة «تقدمه» على عميدي نظام البديعيات الحلي والموصلي فكان هذا المصنف هو كتاب «ثبوت الحجة على الموصلي والحلبي لابن حجة» ولقد افتتح كتابه المذكور بالشهادة التي ظفر بها من أصدقائه علماء القرنين الثامن والتاسع الهجريين الذين قرظوا بديعيته الآنفة الذكر . وقدم بين يدي «ثبوت حجته» هذه الشهادات فلنترك الحديث عن هذا الكتاب قال : «فاني رأيت الاطالة تعيق سهام المقاصد عن استيفاء الوصول الى بلوغ الغرض ، وجل القصد هنا استدعاء نفاد الأدب الى الفرق بين الجوهر والعرض ، وما ذاك الا أن الشيخ صفي الدين الحلي والشيخ عز الدين الموصلي رحمهما الله تقدّماني في نظم بديعيتن ، وثبوت حجج النقد عليهما تأتي من اقتطاف ما أثمر لهما من جني الجنتين ، فان بديعيتي التي سميتها (تقديم أبي بكر) أجمع أئمة الادب على أنها قبلة ، وقالوا لم نلتفت مع صحة هذا التقديم الى شيعة الموصل والحلة ، وقد ثبت ذلك على امام أئمة الأدب وشيخ مشايخ الاسلام ، مولانا قاضي القضاة شهاب الدين بن حجر العسقلاني الشافعي الناظر في الحكم العزيز بالديار المصرية وسائر المهالك الاسلامية ، زاد الله شأنه تعظيما ، وحكم فيه بقلمه ولم يفتقر معه الى اقامة بينة ولا الى اعلام ، فانه أعز الله تعالى أحكامه قال : «أشهد أن أبا بكر مقدم على أنظاره ولا أعدل في هذه الشهادة من أحمد ، وأجزم رفعة قدره على كل من انتصب لهذا الفن ولا أبلغ من حاكم يشهد ، وقد فاخر بهذه البديعية الحلي والموصلي ، فأما ابن سرايا فالشيعي المسرف قاصر عن رتبة السنّي التقي وأما العز فذلّل صعبة أبا بكر عند أهل

---

(١) الكتاب مطبوع بالهند ومنه نسخة مخطوطة في دار الكتب المصرية برقم ٥٥ بلاغة تيمور

(٢) ثبوت الحجة علي الموصلي والحلي لابن حجة منها نسخة مخطوطة في برلين برقم ٧٣٦٩ حصلنا منها على نسخة مصورة وفي القاهرة منها نسختان الاولى برقم ١٤٨ بلاغة تيمور والثانية برقم ٣١٣ بلاغة تيمور بها خروم كملها بعضهم من شرحه الكبير واسماها الشرح الصغير .

الحق أفضل من علي[1] . واقتصر ابن حجة من شهادة ابن حجر على هذا القدر ، وقبل أن ننتقل الى شهادة أخرى لا نملك أنفسنا الى أن ندلي بنقدنا على هذا النقد ، فرغم المنزلة القيمة التي نحملها لابن حجر في نفوسنا فاننا لا نقبل هذه الشهادة التي انحرفت عن النقد الأدبي الصحيح الى التشهير بالمذهب أو استغلال الاسم للحط من قيمة الناظم . فبديعية الحلي أحط من بديعية ابن حجة لكون الحلي شيعيا مسرفا في شيعيته ـ هكذا وصفه ابن حجر رحمه الله ـ وتفوّق ابن حجة على الموصلي لأن اسم ابن حجة أبو بكر واسم الموصلي علي ، ومنزلة ابي بكر الصديق تفوق منزلة علي بن أبي طالب ، وهذا هو سر تفوق ابن حجة على كل من الحلي والموصلي ، واذا كانت هذه هي أحكام ابن حجر الأدبية ، فلا كانت هذه الأحكام .

ومع ذلك دعنا نستمع الى ابن حجة وهو يستدعي من أسماهم بنقّاد الأدب ، فيكثر من شهوده ، ويورد شهادة بدر الدين الدماميني المالكي المخزومي الذي نقد وحكم وقال وقوله في ليالي سطور الأدب أشهر من نار على علم . ـ على حد تعبير ابن حجة ـ قال الدماميني : «شرطت على الناظر في أبيات هذه البديعيّة السنية أن يبدأ بتقديم أبي بكر ويصرف لجهته ما هو معلوم من الشهادة السنيّة ، علما بان الامام الذي لا شك في علو قدره ، ولا مزية لسبقه في احراز الفضل ولكن بشيء وقر في صدره ، لقد أظهر من زوايا بديع الأدب خبايا ، وجرّد جيوش بلاغة لا تعبأ بالحلي ولو انتصر من أبيه بسرايا ، وأما العزّ فقد باء بالذل لتعقيد تركيبه وقلقه ، وقيّد بسلاسل حروفها الى مصرعه ، وكانت ميم الروى غلاً في عنقه»[2] . وقد اكتفى ابن حجة من هذه الشهادة بايراد هذا القسم ، وطار بها فرحا ، ووصف هذه العبارة بأنها «قد أعربت عن الايضاح ، وأغنت بهذا التلخيص وفتح أبواب بيانه عن المفتاح»[3] ثم تلت هاتين الشهادتين شهادة رجل اذا أردت أن تعرفه قلت لك في تعريفه ـ كما عرفه القدماء ـ انه امام الحفّاظ وأعلاهم سندا ، أحد مشايخ الاسلام ، مولانا الشيخ شمس الدين أبي عبد الله محمد بن محمد ابن الجزري الشافعي ، شيخ البلاد الشامية ، يومئذ بشيراز ، قال :

ألم تر أن السيف ينقص قدره اذا قيل ان السيف أمضى من العصا

ولاشك أن أبا بكر هو المقدم ، والقول قوله والحكم له فيا حكم مسلم ، وهو بكل فضل أولى وأحق ، واذا قضى في بديعيته بصواب فالثالثة تقضي بالحق»[4] .

وقبل أن نغادر هذه الشهادات يجب التنويه بأن هذه الشهادات التي شهدها الأئمة المذكورون ، والذين أسماهم ابن حجة نقاد الأدب ، سبق أن قرأنا لهم أحكاما مشابهة ان لم تكن بالحرف الواحد فبالعبارة الواحدة ، عندما قرظوا تائيته التي عارض بها تائيتي ابن نباته والقيراطي ، وابن حجر العسقلاني وابن الجزري هما اللذان نفحاه شهادتيهما بالعبارة نفسها في (قبول البينات للمبرز في نظم التائيات) وأظن أنّ ابن حجة عندما يتكالب عليه نقاد عصره وحساده ، ويتوجهون الى صنيعه باللوم والحط من قيمته يهرع الى

(١) ثبوت الحجة ورقة ٣ .

(٢) ثبوت الحجة ورقلا ٣ ص٢ .

(٣) ثبوت الحجة ورقة ٤ ص١ .

(٤) ثبوت الحجة ورقة ٤ ص٢ .

هؤلاء الأئمة ليستنجد بشهاداتهم ، ويستعين بها أمام الملأ للصمود ازاء التهم والشائعات التي يلصقها خصومه به ، فتأتي شهادة هؤلاء الأصدقاء دعما له ولانتاجه الأدبي ، وتصدّ عنه عاديات الخصوم .

وبعد ايراد هذه الشهادات الثلاث التي قدمها ابن حجة بين يدي (ثبوت حجته) لم يطمئن الى خروج بعض الناس ومناوأته ، لأنه يعلم مدى تهافت هذه الشهادات فلذا أتبعها بقوله : «قلت : هذه الأئمة الثلاثة قد حكمت للعبد بصحة ما ادعاه ولم يستعن بعد ذلك على زور كل معاند بغير الله»[1] ثم شرع بتطبيق منهجه ، وهو أن يأخذ النوع البديعي فيعرفه كما عرفه علماء البلاغة السابقون ، ويحدّه حدا جامعا مانعا مستقيا هذا الحد من الكتب البلاغية التي اطلع عليها ، وبعد ايراد التعريف للنوع البديعي يسوق بيت بديعية الحلي ، ثم بيت بديعية الموصلي ويعلق عليهما تعليقا طفيفا ، وأخيرا يتبعهما ببيت بديعيته ، وهو بصنيعه هذا يضع أمامنا كل بيت من أبيات البديعيات الثلاث للمقارنة ، وهو صنيع حسن الا أنه يأبى الا أن يلقي أحكامه التي تزرى بصنيع الآخرين ، والمغترة بصنعه هو ، مختصرا كل الشواهد التي عرفناها في (التقديم) الا مادعت اليه الضرورة منبها الى أن هذا المصنف قد توخى فيه الاختصار ، أما من أراد التفصيل فعليه بكتابه تقديم أبي بكر - كما قال - فهو شرح مديد في ثلاثة مجلدات .

فخلاصة ثبوت الحجة اذا أنه كتاب مختصر ، جمع فيه ابن حجة أبيات البديعيات الثلاث وعرف كل نوع من الأنواع البديعية ، وكان رائده المقارنة التي اتخذها مقدمة للوصول الى نتيجة التدليل بحسن صنيعه ، وتفوقه على عميدي فن البديعيات الحلي والموصلي . ولكني نضع النقاط على الحروف نحب أن نورد نموذجا من مصنفه (ثبوت الحجة) في نوع بديعي اسمه (حسن الاتباع) قال ابن حجة[2] : «هذا النوع - أعني حسن الاتباع - الى معنى اخترعه غيره فيحسن اتباعه فيه بحيث يستحقه بوجه من الزيادات التي توجب للمتأخر استحقاق معنى المتقدم ، كاتباع أبي نواس جريرا في قوله :

اذا غضبت عليك بنو تميم   حسبت الناس كلهم غضابا

فنقل أبو نواس المعنى من الفخر الى المدح بقوله :

وليس لله بمستنكر   أن يجمع العالم في واحد

فزاد على جرير زيادات منها ، قصر الوزن ، وحسن السبك ، واخراج كلامه من الظن الى اليقين ، وأيضا فان ذكر العالم أعم من ذكر الناس في بيت جرير .

وبيت الشيخ صفي الدين الحلي :

ينازع السمع فيها الطرف حين جرت   فيرجعان الى الآثار في الأكم

بيت الشيخ صفي الدين مأخوذ من قول القائل :

وطرف يفوت الطرف في جريانه   ولكنّ للاسماع فيه نصيب

وبيت الشيخ عز الدين الموصلي :

---

(١) ثبوت الحجة ورقة ورقة ٤ص٢ .

(٢) ثبوت الحجة ورقة ٢/١٦٦ .

والجذع حنّ اليه بعد فرقته   حسن اتباع لتلك الأربع الحرم

ذكر الشيخ عز الدين في شرحه انه اتبع فيه قول الفرزدق في زين العابدين وهو :

هذا ابن من تعرف البطحاء وطأته   والبيت يعرفه والحل والحرم

وبيت بديعيتي تقدمه قولي في صحابة النبيﷺ :

وصحبه بالوجوه البيض يوم وغىً   كم فسروا من بدور في دجى الظلم

ثم قلت بعده في حسن الاتباع عن الصحابة رضي الله عنهم

ذكراه يطربهم والسيغ ينهل من   أجسامهم لم يشن حسن اتباعهم

هذا المعنى سبقني اليه الشيخ شرف الدين بن الفارض ، وكنت من صغر أترنم به وأتلذذ بسماعه من الغير ، وهو قوله :

فلي ذكرها يحلو على كل صيغة   ولو مزجوه عذّلي بخصامي

- ٣ -

كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام : ما زالت معركة الخصومة بين أنصار اللفظ وأنصار المعني محتدمة الأوار ، منذ أن شب أوارها الجاحظ ومن جاء بعده ، وقد كانت هذه المعركة علنية عند بعض البلاغيين ، سرية عند البعض الآخر ، وسايرت تطور الأدب والنقد منذ أن أشار اليها الجاحظ في القرن الثالث ، ولكن ألسنة لهيب هذه المعركة خمدت من جهة لتستطيل من جهة أخرى في القرن التاسع ، ولقد أصبحت في القرنين الثامن والتاسع معركة حول اللفظ والمعنى ولكن في اتجاه آخر ، يغاير المعركة حول اللفظ والمعنى التي عرفناها من قبل . ان معركة القرن التاسع حول اللفظ والمعنى تختلف عن معركة القرن الثالث والرابع حول المفهومين نفسيهما ، والمتتبع لمعركة القرن الثامن والتاسع يظن أن المعركة معركة لفظ ليس غير ، والواقع انها معركة تدور في ميدان اللفظ الا أن فرسان المعركة رغم أنهم يجولون في ميدان واحد هو ميدان اللفظ بشكل عام والبديع بشكل خاص ، الا أن خصومتهم يمكن ان نعتبرها حول اللفظ المعنوي من جهة واللفظ اللفظي من جهة أخرى ، ذلك لأنهم قسموا الأنواع البديعية ـ نقديا ـ الى قسمين ؛ قسم عالي الرتبة سامي المقام ، يتطلع الى حذقه فحول الشعراء وهو أنواع التورية والاستخدام والتشبيه والاستعارة ، وقسم سافل الرتبة ، منحط المقام بنظر أدباء العصر ليس وراءه شديد طائل ، وهو المتمثل بالجناس والطباق وماشابههما من هذه الأنواع . ولتوضيح ذلك يمكن القول بأن أدباء هذه الفترة كانوا فئتين رئيسيتين ، وبينهما فئة ثالثة تجنح لهؤلاء تارة ولأولئك تارة أخرى ، أما الفئة الأولى فهي فئة أنصار الجناس ، وأصحاب مذهب الجناس فتنوا بهذا النوع من البديع ، وفرّعوه وتفننوا في تقسيمه وتنويعه ، فمن جناس مركب الى آخر مطلق الى ثالث ملفّق الى رابع مذيّل ، ثم لاحق وتام ومطرّف ، ومصحّف ومحرّف ولفظي ومقلوب وغير ذلك من أنواع الجناس وكان قصارى جهدهم أن يتصيدوا اللفظتين المتجانستين ويودعوهما في شعرهم ، واذا حللنا العملية الشعرية عند هؤلاء وجدناها لا تزيد عن اقتناص الألفاظ المتجانسة أو المتطابقة وأحيانا ، وتدبيجها في الشعر مقاطيع ومواصيل ، وأما الفئة الثانية فهم أنصار مذهب التورية وهؤلاء كانت فتنتهم بالتورية أكثر من فتنة أصحاب الجناس بجناسهم ، وكانوا أكثر ولوعا باقتناص الألفاظ التي تكون مظنة للتورية ، واذا وقعت التورية في بيت واحد من شعر شعرائهم تتبعوها وأمعنوا النظر في تقصيها وترديدها وتكرارها بأوجه

مختلفة وكانوا يعيبون على أصحاب مذهب الجناس ، ويحملون عليهم حملات شعواء ، ويتهمونهم بأن النقاد لا يقيمون للجناس كبير وزن ، فهذا ابن حجة ينقل عن ابن رشيق انه قال : «الجناس من أنواع الفراغ وقلة الفائدة ، ومما لايشك في تكلفه وقد كثر منه هؤلاء الساقه حتى بَرَدوَرَكْ» [١] . ونقل ابن حجة عن بدر الدين البشتكي عبارة نقد نقد بها أبياتا للصلاح الصفدي أكثر فيها من الجناس فقال : «وأن من كان مبلغه ذلك من النظم لجدير أن يقعد مع صغار المتأدبين» [٢] . فعقب ابن حجة على قول ابن رشيق والبشتكي مؤيدا ما ذهبا اليه فقال : «ولم يجنح للجناس ولا يكثر استعماله الا من قصرت همته عن اختراع المعاني التي هي كالنجوم الزواهر في أفق الألفاظ ، واذا خلت بيوت الألفاظ من سكان المعاني تنزل منزلة الأطلال البالية» [٢] .

وكان ابن حجة يكره مذهب الجناس ، ولذا جمع طائفة من عبارة من شاركوه بهذه الكراهية فقد نقل عن علامة عصره شهاب الدين محمود انه قال : «الجناس يحسن اذا قلّ في الكلام وأتي عفوا من غير كد ولا ميل» [٣] وكان ابن حجة يزرى بشعر الصفدي لأنه كان ولوعا بالجناس معرضا عن التورية ، فلذلك انصب عليه ابن حجة باللوم ، فقال في أكثر من موضع : «وكان الشيخ صلاح الدين الصفدي يستسمن ورم الجناس ويظنه شحما فيشبع أفكاره منه ، ويملأ بطون دفاتره ، ويأتي فيه بتراكيب تخف عندها صخور الجبال» [٤] ، وقد عزا ابن حجة تحاشي الصفدي للتورية وميله للجناس لأنه لم يكن يحسن نظم التورية لما فيه من صعوبة ومشقة ولما يتطلبه من دقة فكر صرّح فيها الصفدي نفسه في مقدمة كتابه (فض الختام عن التورية والاستخدام) فقال ابن حجة : «وقد بالغ الشيخ صلاح الدين في ذلك قبلي بقوله في كتابه المسمى فض الختام : «ومن البديع ـ وهو نادر الوقوع ، ملحق بالمستحيل الممنوع ،ـ نوع التورية والاستخدام ، فإنه نوع تقف الأفهام حسرى دون غاية عن مرام المرام ، لا يفرع هضبته فارغ ، ولا يقرع بابه قارع ، إلا من تنحو البلاغة نحو بالخطاب ، وتجري ريحها بأمره رخاء حيث آصاب» [٥] ويظن ابن حجة أن هذه الصعوبة التي تصوّرها الصفدي في التورية هي التي أقعدته عن أن يكون واحد من فرسانها . وقد يتبادر للمرء أن الجناس والتورية قريبان من بعضهما ، وباستطاعة من ينظم شعرا في الجناس أن ينظم مثيله في التورية ولكن هذه الفكرة النظرية تبدو أصعب وأعمق وأدق عندما تنزل الى المستوى العملي ، وهذا المستوى العملي وهو الفرق بين العملية الذهنية التي يلجأ اليها صاحب الجناس والعملية الذهنية التي يلجأ اليها صاحب التورية يوضحه ابن حجة ذلك بما ملخصه أن الشاعر المهتم بالجناس يلجأ للتعبير عما في ذهنه الى لفظتين اثنتين متجانستين ، أي متشابهتين لفظا مختلفتين معنى ، أما صاحب التورية فمهمته أدق وأعمق لأن يطالب بأن يضغط المعنيين المختلفين بلفظة واحدة تحمل معنى قريبا ومعنى بعيدا فالسعة التي يتمتع بها نظام الجناس

---

(١) كشف اللثام ص٥ .
(٢) كشف اللثام ص٦
(٣) كشف اللثام ص٥
(٤) المصدر نفسه ص٥
(٥) كشف اللثام ص١١ .

تصبح ضيقا عند ناظم التورية ومن هنا جاءت الآفة ، ومن هنا جاء قصور بعض من لم تسعفهم ملكاتهم في نظم التورية وعدلوا عنها الى نظم الجناس لسهولته ووضوحه وسطحيته ، فلذا قال ابن حجة : «وها أنا أظهر نور هذا الفرق ، وهو مثل الصبح ظاهر ، فأقول : الجناس التام هو ماتماثل ركناه واتفقا واختلفا معنى من غير تفاوت في صحيح تركيبها واختلاف في حركاتها ، فاذا جعلته تورية انحصر المعنيان في ركن واحد ، وخلصت من تكليف الجناس ، وانتقلت من رخيصة الى غالي التورية ، وحركت جامد الأذواق ، وأبهجت خاطر السامع ، بما أتحفته من بديع تركيبها ، وآنسته بما أهلته من غريبها»[1] ، ولكي يؤ يد ابن حجة رأيه هذا يأتينا ببعض الشواهد من الجناس التي يمكن تحويلها الى تورية بل أمكن تكويلها على أيدي شعراء آخرين ، فمثلا قال ناظم الجناس :

القلب مني صبّ   والدمع مني صبّ

فجاء الشيخ جمال الدين بن نباته وحصر معنيي (صب) في ركن واحد وقال :

دمعي عليك مجانس قلبي   فانظر الى الحالين للصبّ

ومثال آخر من الجناس المركب ، وهو ان يكون أحد ركنيه كلمة مفردة ، والآخر مركبا من كلمتين قال :

أعن العقيق سألت برقا أومضا   أأقام حاد بالركائب أو مضى

فجاء ناظم التورية وحصر المعنيين في ركن واحد فقال :

واذا تبسّم انني لم ألتفت   أأغار برق في الدجى أو أومضا

وقال ناظم الجناس الملفق وهو ان يكون كل من الركنين مركبا من كلمتين :

خبّروها بأنه ماتصدى   لسلوّ عنها ولو فات صدا

فحصرت المعنيين في ركن واحد فقلت ـ والقائل ابن حجة ـ :

تصديتم لهجر ضعيف جسم   فذاب من الغرام وماتصدى (ومات صدا)
وعد ضلوعه بالقسم لمّا   تعديتم عليه وما تعدى (ومات عدا)

ويمضي ابن حجة في المقارنة بين أبيات جناسية وأخرى في التورية ، ويرجح التورية على الجناس ، ويبدو أن هذه الخصومة لم تكن بين ابن حجة والصفدي فحسب حول مذهب الجناس ومذهب التورية ، بل كانت واسعة النطاق ، وتكاد تكون حديث المجالس والمحافل ، ولهذا المذهب شعراؤه ولذلك شعراؤه الآخرون . ومن بقايا المعركة حصلنا على بعض أبيات تحط من قيمة الجناس وتعتبره مجانبة للطباع ، فمما قاله زين الدين بن الوردي في هذا المقام :

---

(١) كشف اللثام ص ٧ .

اذا أحببت نظم الشعر فاختر   لنظمك كل سهل ذي امتناع
ولاتقصد (مجانسة) ومكّن   قوافيه ، وكله الى الطباع

وكان أسعد بن مماتي ممن يذم نظم الجناس ويكرهه ومن قوله في ذلك :

طبع المجانس فيه نوع قيادة   أو ما ترى تأليفه للاحرف

ومن أغرب مايحكى وينقل أن الشيخ صلاح الدين الصفدي ، مع شدة تهافته على نظم الجناس زاحم ابن مماتي الآنف الذكر في لفظه ومعانيه فقال :

ألا ان من عاني القريض بطبعه   يقود ، فأرسله لمن صدّ واحتشم
ألم تره ان قال شعرا مجانسا   يؤلف مابين الحروف اذا نظم

ولا زال ابن حجة يؤكد ان مذهبه مذهب التورية وهو مذهب انصار المعاني وأما الجناس فهو مذهب أنصار اللفظ ولذا تمثل بقول القائل :

أنظر الى سور الألفاظ واحدة   وانما بالمعاني تعشق الصور

واتبع البيت بقوله : «والجناس من سور الألفاظ» ومن أنصار الألفاظ المفتتنون بالطباق وهم فئة ملحقة بأنصار الجناس فلذا تبرأ منهم ابن حجة وقال : «ان الذين اقتديت برأيهم ومشيت على سنتهم لم يرضوا بالمطابقة المجردة ، ولم ينظموها الا في سلك التورية»[1] ، وهؤلاء ـ على قلّتهم ـ كانوا يكلفون في بعض الأحيان بهذا الضرب من البديع ويعتبرونه من اللوازم التي ينبغي ألا تفوت الأديب فقال شاعرهم :

وقالوا: ياقبيح الوجه تهوى   مليحا دونه السمر الرشاق
فقلت : وهل أنا الأديب   فكيف يفوتني هذا الطباق

وقبل أن ننتقل الى الحديث عن أنصار مذهب التورية أو مدرسة التورية ـ ان صح هذا الاصطلاح ـ لا بد أن نقول ان ثمة فئة ثالثة لا تدين بهذا المذهب أي مذهب التورية ولا بذاك أي مذهب الجناس ، وهي مدرسة المستقلّين ـ ان جاز لنا استعارة هذا الاصطلاح من مصطلحات السياسة ـ ومن أعلام هذه المدرسة صفي الدين الحلي الذي وصفه ابن حجة وبرّأه من المدرستين فقال ابن حجة معلقا على بيتين نظمهما ابن خطيب داريّا هما :

تصفحت ديوان الصفي فلم أجدْ   لديه من السحر الحلال مرامي
فقلت لقلبي دونك ابن نباتة   ولا تقرب الحلي فهو حرامي

---

(١) التقديم ص ٩٤ .

فعلق ابن حجة على هذين البيتين قائلا : «أراد بالسحر الحلال الذي ما وجده في ديوان صفي الدين التورية لا غير وماذاك الا أن الشيخ صفي الدين كان أجنبيا منها ، ولهذا لم أنظمه في سلك القوم الذي مشوا في نظم التورية تحت العلم الفاضلي والعلم النباتي ، وغايته أنه رضي بالشعر الساذج المنسجم وتعرض للتورية في بعض المواضع ، ولكن سبكها في غير قالبها لأنه لم يكن في طباعه[1] ومن أمثال الحلي الذين كانوا بمعزل عن الاتجاهين شهاب الدين بن فضل الله ، وبدر الدين بن حبيب ، وابن جابر الأندلسي صاحب البديعية الموسومة بها (الحلة السيرا في مدح خير الورى) وابن النبيه وغيرهم .

أما أكثر شعراء هذه الفترة فقد فتنوا أشد الافتتان بالتورية ، ووجدوا فيها مرتعا خصيبا للتلاعب اللفظي المغلّف بغلاف شفاف من المعنوية ، وكان هؤ لاء أكثر عددا وأقوى شاعرية ، وخرجت الخصومة بينهم وبين أنصار الجناس من مجرد نظم القصائد الى مجال التأليف ، فأنصار الجناس ألفوا مصنفات جمعوا فيها محاسن مذهبهم ، والشعراء الذي انضووا تحت لواء هذا المذهب ، فألف الصفدي (جنان الجناس) وألف بدر الدين الحمداني كتابه (ازالة الالتباس في الفرق بين الاشتقاق والجناس) وألف القاياتي (نزهة الجليس في أنواع التجنيس) كما ألفت كتب أخرى في هذا الموضوع مثل (نفائس الانفاس في علم الجناس) ، وسبق ذكرها في أول هذا الفصل .

وأما كتب أنصار مذهب التورية فقد كانت كثيرة وطافحة بالأمثلة والشواهد مثل (كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام) لابن حجة ، و (رائق التحلية في فائق التورية) لأبي جعفر أحمد بن علي بن خاتمة الأندلسي وألف الصفدي كتابه (فض الختام عن التورية والاستخدام) ولكن الكتاب لم يعجب ابن حجة لأن صاحبه لم يكن مخلصا لمذهب التورية فجاء كتابه مشوّها غير مستوف لما ينبغي أن يستوفيه .

وقد احتج أنصار مذهب التورية بحجج كثيرة تؤ يّد مذهبهم منها مانقله ابن حجة عن الامام الزمخشري أنه قال : «ولا نرى بابا في البيان أدق ولا ألطف من هذا الباب ـ يعني التورية ـ ولا أنفع ولا أعون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله تعالى وكلام نبيه ﷺ وكلام الصحابة (ر)»[1] وذكر ابن حجة نماذج من تفسير الكشاف تدل على أن الزمخشري عمد الى التورية لسبر غور معاني القرآن الكريم وكلام الرسول وصحابه ، وابن حجة لا ينكر أن القدماء لم يغالوا بالتورية بل ان وقعت وقعت عفو الخاطر ولم تكن مقصودة لذاتها ، فقال : «وقد علم أن خواطر المتقدمين كانت عن نظم التورية بمعزل ، وأفكارهم ـ مع صحتها ـ ماخيّمت عليها بمنزل ، لكنهم ربما وقعت لهم عفوا من غير قصد لأنهم على كل حال ولاة هذا الشأن»[2] وهذه كلمة حق وشهادة صادقة من ابن حجة في شعر الأقدمين وانصرافهم عن التورية ، وما أورد ابن حجة هذه الكلمة الا ليؤ رخ لنشوء هذا النوع البديعي ، ففي كلمته التي أوردها على لسان الزمخشري قصد الى أن التورية موجودة في كتاب الله وحديث رسوله وكلام صحابته ومعرفته التورية تعين على كشف ما تشابه من آي الذكر الحكيم ، وقصد ثانيا الى أن التورية موجودة في شعر الفحول من الأقدمين ،

(١) التقديم ص ٤٠٧ .
(٢) كشف اللثام ص ١١ .
(٣) كشف اللثام ص ١٢ .

ولكنها كانت عفوية ، لينتقل من كل ذلك ليؤرخ لنشوء هذا النوع على يد أبي الطيب المتنبي ـ الذي يزعم ابن حجة ـ أنه أول من كشف غطاءها في قوله :

برغم شبيب فارق السيف كفه ... وكانا على العلات يصطحبان
كأن رقاب الناس قالت لسيفه ... رفيقك قيسّي وأنت يماني

وسرعان مايعود ابن حجة الى الوراء ويقول : لا تحسبن أن المتنبي هو أبو عذرة هذا النوع بل تعال معي الى عمرو بن كلثوم وعنترة والنابغة وأبي نواس والبحتري فكلهم سبقوا المتنبي الى التورية ، فهي اذن فن مغرق في الأدب راسخ القدم في الشعر ، واذا كان للمتنبي من فضل فانه قد أمدّه بشيء من شعره .

ومع كل هذا فلم يرد ابن حجة من تعداد هؤلاء الشعراء القدامى وتعداد تواريهم وايراد الشواهد من هذه التوارى الا ليثبت ان هذا النوع أصيل في الشعر العربي وفي كتاب الله وكلام رسوله ، ولكي يبرر عنايته الشديدة بهذا النوع وسبب مجيئها بكثرة في شعره ، ودواعي تأليف هذا الكتاب الذي نحن بصدد تحليله والمسمى بكشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام ، وبعد استعراضه لطائفة من تواري الأقدمين يلتفت ليقول «ان هذا الفن بلغ أشده ، ونضج على يد عملاق هذا الفن وأحد أساطينه وهو القاضي الفاضل فهو الذي عصر سلاف راح التورية لأهل عصره ، وتقدم على المتقدمين بما أودع فيها من نظمه ونثره ، فانه ـ رحمه الله ـ كشف بعد طول التحجب ستر حجابها ، وأنزل الناس بعد تمهيده في ساحتها ورحابها»[(١)] ، والواقع أن التورية لاقت على يد القاضي الفاضل مالم تلقه على يد أديب آخر من النمو والازدهار ، ذلك لأن طبيعته كانت تمده بفيض لا ينضب من التورية شعرا أو نثرا ، ولذلك فان ابن حجة عندما يؤرخ للتورية يعتبر أن لها قمتين كبيرتين احداهما في القرن السادس وعميدها القاضي الفاضل ، وتلاه مجموعة من الأدباء الذى نسجوا على منواله منهم بالديار المصرية وغيرها ابن سناء الملك ، وسراج الدين الوراق ، وأبو الحسن الجزار ، ونصر الدين الحمامي ، وناصر الدين ابن النقيب ، وشمس الدين بن دانيال ومحي الدين بن عبد الظاهر ، ومنهم بالديار الشامية أمثال : شيخ شيوخ حماة عبد العزيز الأنصاري ومحي الدين بن تميم ، بدر الدين يوسف الذهبي ومحي الدين بن قرناص ، وشمس الدين بن العفيف التلمساني ، وسيف الدين بن المشد ، وغالب هؤلاء عاش ومات في القرن السابع . وأما القمة الثانية في التورية فكانت جمال الدين ابن نباته ، وقد يفضل القاضي الفاضل في هذا الباب ، ذلك لأن القاضي الفاضل كان له ولع ليس بالقليل بالجناس وغيره من فنون التصنيع الأخرى ، أما ابن نباته فقد اتجه بكليّته نحو التورية ولذلك كانت له مدرسة اعترف ابن حجة أنه منضو تحت لوائها ، وأنها مدرسة تضم نخبة كبيرة من شعراء القرنين الثامن والتاسع فلذا قال ابن حجة : «ولما رفع العلم النباتي كانت الفرقة التي مشت تحت هذا العلم المحمدي أكثر عددا وأشهر ذكرا ، وأعلى رتبة نظما ونثرا ، وقد عن لي أن أذكر هنا لكل من عاصره ومشى تحت العلم النباتي وتحلى بنكته الأدبية نبذة من مختار مقاطيعه التي حلاوتها في الأصل نباتية ، ليظهر صدق قولي في تفضيل

(١) كشف اللثام ص ٨٦ .

الصحابة المحمدية»[٢] ثم يذكر مجموعة من أسماء الشعراء الذين تجمعوا حول هذه القمة منهم زين الدين بن الوردي وبرهان الدين القيراطي وشمس الدين بن الصائغ ، وابراهيم المعمار ، وابن أبي حجلة ، والزغاري ، والخبّاز الحموي والحاجبي ، وذكر فئة عاصرها ابن حجة وأنشدها وأنشدته وكاتبها وكاتبته ، وهي تدين لابن نباته بالفضل وتنسج على منواله منها زين الدين بن العجمي وفتح الدين بن الشهيد وعز الدين الموصلي وعلاء الدين بن أيبك وابن خطيب داريا وشمس الدين المزين ، وشرف الدين عيسى العاليه ، وشهاب الدين بن العطار وجمال الدين السوسي وفخر الدين بن مكانس وابن أبي الوفاء وشمس الدين المتنبي وابن حجر العسقلاني والدماميني وبدر الدين البشتكي وغيرهم .

فابن حجة يعتبر أن القاضي الفاضل هو المعلم الأول لهذا الفن وتبعه رجال مدرسته في القرن السابع ، ثم جاء ابن نباته فكان المعلم الثاني وتبعه رجال مدرسته ومن تبعهم باحسان في القرن التاسع ، فرسخ قدم التورية وكثر أتباعها وعشاقها والمفتتنون بها ، حتى لقد خطر ببال ابن حجة أن يضيف لهذين العلمين الفاضل وابن نباتة علماً آخر أغفله الصفدي في كتابه (فض الختام) ويرى ابن حجة أنه قمة ثالثة لا تقل عن الفاضل وابن نباته ، وكان بوده أن يعزّز الامامين بثالث وهو الوداعي . فلذا قال «ولولا الحياء من العصابة النباتية ـ وأنا منها ـ لعززت العلمين من الوداعي بثالث ، فأوردت هنا من مطرب عطر مفرداته ما يغني عن المثاني والمثالث ، فانه أحد أئمة هذا المذهب ، واذا ذكرت التورية فهو غزيقها المرجّب ، وعلى كل تقدير ففرسان العلمين المشهورين أعني الفاضلي والنباتي هم الذين أبرزوا عروس التورية من خدرها ، وجققوا للناس من تساذج عن نقوش القاعدة وسفل عن علو قدرها»[١] .

وبعد هذا الثناء المستطاب من ابن حجة على أعلام التورية نرى أن هؤلاء الأعلام ـ على جلالة قدرهم ـ أساؤوا الى الأدب العربي ، وقادوه الى الهرم ، وقد حملوا معول الهدم ـ بدون قصد ـ فهدموا قصر الأدب المنيف الذي اشترك في اشادته كل أدباء العربية في العصور التي خلت ، وقد أسهم في هذا الهرم انحرافهم عن جادة الصواب وعنايتهم بالألفاظ دون المعاني ، هذا على الرغم من ادعائهم العناية بالمعاني أكثر من الألفاظ ـ كما بينا قبل قليل ـ وتجلت هذه العناية بالاسراف في فنون هزيلة رأيناهم يفتخرون بحذقها واتقانها كالجناس والتورية ، فانحرفت هذه العناصر بالأدب من أدب غذاء للعقل والعاطفة والنفس الانسانية ، الى أدب ترف وتسلية واظهار براعة لسان ، دون أن يكون وراءها يقظة جنان .

والذي يتصفح هذه الأسماء التي أوردناها قبل قليل يدرك عظمة شعراء هذه الفترة بالتورية عناية بلغت حدا كبيرا ، حتى أن الشاعر المغلق والأديب الذي لا يلحق شأوه هو الأديب الذي تكثر توررياته ، وتشيع بين الناس ، فيقبل الشعراء عليها بالتقليد والمحاكاة والمعارضة ، ولهذا نجد في كثير من كتب الأدب والنقد التي ألفت في تلك الفترة قولهم : فلان الدين ابتكر هذه التورية ، فتوارد معه عليها فلان الدين الأخر ، وسرقها فلان الدين الثالث ، وتطفّل عليها فلان الدين الرابع ، فمن هنا كثرت السرقات الشعرية ، لأن الشاعر المتبكر تجود عليه القريحة ببيتين فيهما بعض التورية ، فينبري الشعراء لمحاكاتها لفظا أو معنى أو بكليهما ،

---

(١) كشف اللثام ص ١٤ .

(١) كشف اللثام ص ١٤٧ .

ولذلك فان من اعتبرهم ابن حجة من أئمة هذا الفن كانت حصتهم من السرقة حصة الأسد . وفي هذا المصنف الذي ندرسه الآن (كشف اللثام) عقد ابن حجة فصلا كبيرا لسرقات الصفدي من ابن نباتة ، وسنبينّ ذلك بالتفصيل في السرقات الشعرية .

وفي خضم هذا البحر الزاخر بالتورية في هذا العصر ألف ابن حجة كتابه المسمى (كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام) وهو ليس مؤلفا مبتكرا من مؤلفات ابن حجة ذلك لأن صلاح الدين الصفدي سبقه اليه ، بمصنفه (فض الختام عن التورية والاستخدام) هذا من جهة وأما من جهة ثانية فهذا المصنف ان هو الا نسخة ثانية لكراسة من كتابه الضخم (تقديم أبي بكر) ففي ذلك الكتاب الضخم تحدث عن التورية كنوع بديعي ، وأفرط في الحديث لدرجة أنه استغرق معه (٤٠) صحيفة من القطع الكبير ، فبعد الاستجمام والاستراحة من تأليف الكتاب الكبير عنّ له أن يفرد هذا البحث في كتيّب آخر فألف هذا الذي سماه (كشف اللثام) وكنا نتوقع من ابن حجة أن يزيد في هذا المصنف عما كتبه في التقديم ، ولكنه لم يفعل شيئا من هذا ، بل حتى لقد اختصر في بعض المواطن ، وكان منهجه في تأليف الكتاب أنه بدأ بخطبة عرّض فيها بصلاح الدين الصفدي ومؤلفه (فض الختام) وبأنه قصر عما يتطلب منه في هذا المؤلف ، فمسك ختامه لم يتوضع فيه رائحة ، وأضاع كتابه من غير تورية ، وأورد نثره من مقاطيعه ليس لها بالمراد صلة ، وأن كتابه لم يف بما وعد به في الخطبة ، وأنه عرف التورية بغير ماينبغي ان تعرف به ، وأخذ عليه أنه استطرد الى التضمين واستوعب جانبا كبيرا من كتابه مع امكانية تحاشيه ، كما أخذ عليه أنه ذكر في كتابه من مقاطيعه مايقارب ثلث مصنفه ، وأنه لم يلحق كل مقطوع من مقاطيعه بنوع التورية ، ومرد ذلك الى عدم الجسارة والثقة عند الصفدي . كل هذه المثالب حدت بابن حجة أن يؤلف كتابه «كشف اللثام» فلذا انصرف بعد الخطبة الى تعريف التورية وذكر ما وقع منها في كتاب الله وكلام رسوله وشعر القدامى . ثم وقف وقفة طويلة عند فن القاضي الفاضل واستعرض نماذج طويلة من توورياته ، واثني عليه الثناء المستطاب ، وعقد له راية مشيخة هذا الفن ، ورئاسة هذه المدرسة ثم عدد تلاميذه الذين نسجوا على منواله وأورد لكل واحد منهم نماذج من شعر التورية ، الى ان وصل الى المعلم الثاني جمال الدين بن نباته فعقد له راية اخرى ، وذكر تلاميذ مدرسته الذي كان أحدهم ابن حجة نفسه ، وأسرف في ابراز الشواهد الشعرية تارة والنثرية تارة أخرى غير ناس أن يستشهد بالزجل والمواليا والدوبيت كصنيعه في غير هذا الفن ، ولمح الى ظاهرة يشكر عليها وهي علاقة التورية بمهنة هؤلاء الشعراء ، وكيف أنهم استغلوا مهنتهم في سبيل التورية والاستخدام فأبو الحسين الجزار يستغل مهنة (الجزارة) في سبيل تورية يظفر بها فيقول :

كيف لا أشكر الجزارة ماعشت حفاظا وأرفض الآدابا
وبها صارت الكلاب ترجيني وبالشعر كنت أرجو الكلابا

وقال ابن حجة : «وتعاصر السراج الوراق وأبو الحسين الجزار والنصير الحمامي وتطارحوا كثيرا وساعدتهم صنائعهم وألقابهم في نظم التورية حتى أنه قيل للسراج الوراق لولا لقبك وصناعتك لذهب نصف شعرك»[1] . ومن شعره هذا :

---

(١) كشف اللثام ص ١٧ .

وكنـــت حبيبـــا الى الغانيات فأكسبنـــي الشيب هجـــر الحبيب
وكنـــت سراجـــا لليل الشباب فأطفـــأ نوري نهـــار المشيب

ونعود الى الحديث عن منهج ابن حجة في كتابه كشف اللثام فنقول انه بعد أن أورد نماذج من توريات هؤلاء الذين أطلق عليهم اسم الجماعة ، وذكر شيئا كثيرا من شعره في التورية ، ثم ذكر نماذج من التورية للمغلق منها ، وختم كتابه في بيان الأنواع الأربعة للتورية عرضها وعرض نماذج عليها ، وأخيرا أنهى كتابه بتعريف الاستخدام تعريفا سريعا وذكر الفرق بينه وبين التورية وأشار الى أن الاستخدام أرفع مرتبـة في البديع من التورية ، وقد وقع ابن حجة في الخطيئة نفسها التي عابها على الصفدي وهي أنه يعزو كل شاهد في التورية الى نوعه من الأنواع الأربعة التي آثر أن يعرفها في آخر الكتاب . وأكرر القول بأن كتابه لم يزد عن كونه نسخة ثانية لكراسة من كتابه تقديم أبي بكر عندما تناول بحث التورية بالشرح والتفصيل . علما بأنه ألف كتابه كشف اللثام بعد تقديم أبي بكر وكان من حقه أن يضيف عليه ويوسعه ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك .

الفصل الثاني
ابن حجّة الناقد الأدبي

ـ القسم الأول : ـ الناقد النظري ـ

أبرز ما في عصر المماليك عناية رجال الفكر والأدب بالتأليف ، وتنافس الأدباء والمفكرين بالاستكثار من الانتاج ، حتى أصبحت هذه الظاهرة من ميزات عصر المماليك ، ولقد ألفت في هذا العصر أضخم المؤلفات . والباحث في المؤلفات التي انحدرت الينا من هذه الفترة يعثر على مصنفات في كل باب من أبواب المعرفة والعلم كعلوم الحديث ، والتفسير ، وعلوم الأدب ، والتاريخ والسير وتراجم الأعلام وغيرها ، ولكنه لن يعثر ولو على كتاب واحد في النقد الأدبي الخالص ، ولن يعثر على أديب واحد كرس كل جهده لخدمة النقد الخالص ، وذلك لأن صفة رجل الفكر والأدب في هذه الفترة هي صفة الموسوعيه لا التخصص في العلم الواحد ، أو الفن الذي لا يتعداه الى غيره ، ومن يتصفح آثار مفكر من مفكري هذه الحقبة يجد فيها المؤلفات التاريخية والأدبية واللغوية وغيرها من علوم الحديث والفقه والمذاهب كمؤلفات ابن حجر العسقلاني وابن حجه والسيوطي ، وحتى في نطاق المؤلف الواحد نجد العقليه الموسوعية هي المسيطرة ومصداق ذلك ما نجده في صبح الأعشى للقلقشندي ، ونهاية الأرب للنويري .

فاذا لن نجد كتابا مستقلا في النقد الأدبي ، كما أننا لن نجد ناقدا لم يكن له هم سوى الاشتغال بالنقد الصرف ، ولذلك فاننا نتساءل : ما بال النقد الأدبي في هذه الفترة قد تلاشى ، أليس هناك من نقد أو نقاد ؟ والواقع أن النقد الأدبي منذ أن ألف قدامه بن جعفر كتابه المشهور فيه كانت تلازمه ظاهرة يخشى عليه منها . وهي ظاهرة اشتراك البلاغة معه ، وتداخل مقاييسها في مقاييسه ، وسار النقد بعد قدامة والبلاغة تواكب ركبه . يتغلب عليها حينا ، وتتغلب عليه أحيانا ، وقد قطع النقد شوطا والبلاغة تربه في رحلته ، ولكنها كانت دائما تصارعه . وعندما جاء إمام الصناعتين أبو هلال العسكري في أواخر القرن الرابع رجع جانب البلاغة على جانب النقد حتى طغت عليه . وكان صنيعه هذا ايذانا بتحول النقد الأدبي الى نقد يعتمد على البلاغة ، وفروعها وأنواعها أساسا ومنطلقا ، ولذلك ضمر النقد وهزل وزاد ضمورا وهزالا في القرون التي تلت بعد نقطة التحول هذه ، وما إن جاء عصر ابن حجة حتى كانت البلاغة قد طغت طغيانا كبيرا على النقد . وأصبح نقاد هذه الفترة اذا أحبوا نقد الشعر أو النثر أو التأليف فيهما ألفوا كتباً في البلاغه وأودعوها خطرات نقدية ، ولم يخطر ببالهم أن يؤلفوا كتابا مستقلا يجمعون فيه هذه الخطرات ويجعلونها بمعزل عن قواعد البلاغة وأنواع البديع .

وقد نلتمس العذر للمشتغلين بالنقد ، وحتى للأوائل منهم ، ذلك أن هؤلاء حاولوا أن يجدوا للنقد بعض المقاييس ، وجهدوا في التعرف على بعض الأسس التي يمكن اعتبارها أصولا لعلم النقد ، لكي يجعلوا منها فيصلا في الحكم اذا احتدمت الخصومة ، ولكنهم في بحثهم عن هذه الأسس ، وتلمسهم للمقاييس بدا لهم أنها موجودة في هذه المصطلحات التي صارت فيما بعد مصطلحات للبلاغة وأسسا لعلم البلاغة لا لعلم النقد وأوتيت من جهد العلماء ما جعلها تثبت على مر القرون أصولا للبلاغه وتنحرف عن النقد وتزداد الشقه بينهما حتى لم يعودا الى الالتقاء .

واذا ، فليس أمامنا ـ اذا أحببنا الإطلاع على الآراء النقدية في هذه الفترة ـ إلا الآثار الأدبية عامة ومؤلفات البلاغة خاصة ، ولما كانت شروح البديعيات هي أغنى هذه الآثار ، وأكثرها خصبا ، وكانت أشبه ببساتين فيها أنواع الزهور . فلذا سنجد في ثنايا هذه الشروح آراء نقدية مبثوته هنا وهناك .

وفي شرح بديعية ابن حجة أحكام نقدية تدل على ذوق صاحبها ، وعلى مقدار تذوقه للأدب وتعبيره عنه ، وكان بوسع ابن حجة أن يأتي بآراء نقدية أكثر مما أتي به لو لا أن عنايته بالاستكثار من الشواهد صرفته عن التعمق في النقد ، والاسترسال فيه ولو لا ذلك لحفلت بديعيته وشرحها بآراء نقدية أكثر .

ومن الآراء النقدية التي جمعناها من كتب ابن حجة ، وهذه مناسبة لأن أقول ان آراءه النقدية مبثوته في أكثر من كتاب وأهمها متركز في شرحه للبديعية وفي كتابه ثمرات الأوراق ـ أقول : من آرائه النقدية رأيه في أن الدربة والمراس ، ودوام قراءة الأدب ، وحفظ الشعر لتكوين الملكة الأدبية ، كل ذلك يخلق ملكة مكسوبة ترفد الملكه الموهوبة في صناعة الأدب شعرا ونثرا . فهو يؤمن ، أول ما يؤمن ، بالموهبة الأدبية التي تنفحها الطبيعة للشاعر أو الأديب . ثم تأتي الدربة والمراس فتزيد الطبيعة الموهوبة طبيعة مكسوبة وتصقلها ، وتشذب نشازها ، فما كان يشترطه للشاعر وخاصة المتأخر لكي يكون شعره مقبولا مبرءا من النقد أن يتمتع هذا الشاعر بالاستعداد الفطري لقول الشعر ، وأن تكون لديه الموهبه ليمتح من بئر فياضه قال : «وما خفي أن المتأخر يحتاج الى صحة ذوق ، وصفاء ذهن ، وصحة تمييز ، وحسن هذا الذوق إنما هو أمر الهامي ليس مما يكسب ، ولكن يختلج في صدر من أدبه ربه فتأدب ، فاذا اختار شيئا وأورده نزه الناس في حدائق وروده ، وكان نعم الواسطة فيما أحكمه من نظم عقوده»(١) . من هذا النص القصير ندرك أن ابن حجة كان يرى أن الاستعداد الفطري ، أصل الشاعرية عند الشاعر ولا بدّ من أن يكون سليما ، يرفده الذوق السليم ، والذهن الصافي ، والتمييز الصحيح ، ولكن ليس الاستعداد الفطري هو كل شيء عند الشاعر ، وليس الشاعر المجيد هو الذي يملك موهبة فطرّية مجيدة ، بل هو الذي جمع ـ بالأضافة الى التمتع بالموهبة ـ المراس والدربة ومداومة قراءة الشعر ، ومزاولة نظمه ، واضعا نصب عينيه توخي الأحسن والأفضل من الانتاج مقتديا بمن يتمتعون بحسن الانتاج ، وقد عبر عن ذلك ابن حجه في نقد طويل ساق بعده قصة تشعر بأن من تصدّى لنظم نوع من الشعر أو فن من الفنون الشعرية لا بد له من مزاولة التطلع والتبصر بما أنتجه عمالقة هذا الفن ، والقصة القصيرة التي أوردها تؤيد رأيه النقدي هذا فقد قال : «وهنا

(١) تأهيل الغريب الشعري ص ٣١٩ .

نكتة لطيفة تؤ يد هذا النقد ، اتفق أن الشيخ نور الدين علي بن سعيد الأندلسي الأريب المشهور الذي من نظمه قوله :

واطول شوقي الى ثغور ملأى من الشهد والرحيق
عنها أخذت الذي تراه يعذب من شعري الرقيق

لما ورد الى هذه البلاد ، اجتمع بالصاحب بهاء الدين زهير ، وتطفل على موائد طريقته الغرامية ، وسأله الارشاد الى سلوكها فقال له : طالع ديوان الحاجري والتلعفري ، وأكثر المطالعة فيهما وراجعني بعد ذلك ، فغاب عنه مدة وأكثر من مطالعة الديوانين الى أن حفظ غالبهما ، ثم اجتمع به بعد ذلك ، وتذاكرا في الغراميات فأنشده الصاحب بهاء الدين زهير في غضون المحاضرة : (ياban وادي الأجرع) ، وقال : أشتهي أن يكمّل لي هذا المطلع ، ففكر قليلا وقال : (سقيت غيث الأدمع) . فقال والله حسن ، ولكن الأقرب الى الطريق الغرامي أن تقول : (هل ملت من طرب معي[1]) . وقد أخذ ابن حجه نفسه من هذه القصة درسا جعله يطبق آراءه النقدية التي تحصلت لديه على نفسه ، لأنه يؤ من بهذه الآراء ، فلذلك عندما تصدى لنظم الشعر اعتكف على ديوان صفي الدين الحلي وجمال ابن نباته وطالعهما وأكثر من مطالعتهما ، وعندما ثقفهما قال انه اكتسب من الحلي رقه سحره ، ومن النباتي أحكام طريقته ، فلما شدا قرأ ديوان المتنبي فكان له في شعره أثر كبير .

وابن حجة لا يكتفي بالموهبة الشعرية ، ولا بالمراس والدربة فحسب بل يطلب من الشاعر أن يرجع الى شعره بعد نظمه فينقحه ويشذبه ، واذا عجز عن ذلك فليستعن بأهل الذوق . وطبق هذا المبدأ على نفسه فقد كان ينظم البيت ثم يهدمه البيت ثم يهدمه ويعيد بناءه الى أن يأتي معبرا تمام التعبير عن الفكرة التي أرادها له ، واذا عجز عن ذلك هرع الى ناصر الدين البارزي الذي عرض عليه أبيات البديعيه بيتا بيتا ، وكان يشير عليه بآرائه ، وينصحه باستبدال كلمة بأخرى ، وتقديم هذه اللفظه وتأخير تلك حتى يستقيم اللفظ والمعنى فيقره على حسن صنيعه . ولم يكن ابن حجه يأخذ رأي البارزي فحسب بل كان يأخذ رأي النواجي في كثير من نظمه ، والمأثور عن النواجي وابن حجة أنهما كانا يتعاوران النقد عند نظم القصيدة الواحدة التي ذكر لنا النواجي أنهما كانا يشتركان في نظمها ، ويطبقان عليها الأحكام النقدية التي انتهت اليها معرفتهما ، وفكرة تنقيح الشعر ومراجعة قراءته فكرة قديمة عرفناها عن شعراء الجاهلية ، وعند من كان يطلق عليهم أسم (عبيد الشعر) و(أصحاب الحوليات) ، كز هير بن أبي سلمى وبعض تلاميذ مدرسته ، ولكن ابن حجة لم يكتف بتطبيق هذا المبدأ على شعره هو بل تعداه الى أن جعل هذا المبدأ رأيا نقديا طبقه على انتاج الآخرين ، وكثيرا ما كان ينقد شعر شاعر من شعراء عصره بأنه ينقصه التهذيب والتشذيب ، وتجاوز ذلك من الشعر الى النثر ، وكتب في كتابه (ثمرات الأوراق) مجموعة من النصائح لكتاب الانشاء أكد فيها على ضرورة تهذيب ما كتبوه ومراجعته قبل دفعه الى أيدي الناس ، ولهذا فقد فتح بابا في كتاب التقديم تحدث فيه عن التهذيب

---

(١) تقديم أبي بكر ص ١٠ .

والتأديب وخصه بالشعر والنثر فقال : «انه وصف يعم كل كلام منقح محرر ، وهو عبارة عن ترداد النظر في الكلام بعد عمله ، والشروع في تهذيبه وتنقيحه ، نظما كان أو نثرا ، وتغيير ما يجب تغييره ، وحذف ما ينبغي حذفه ، واصلاح ما يتعين اصلاحه ، وكشف ما يشكل من غريبه واغرابه ، وتحرير ما يدق من معانيه ، واطّراح ما يتجافى عن مضاجع الرقة من غليظ ألفاظه لتشرق شموس التهذيب في سماء بلاغته ، وترشف الأسماع على الطرب رقيق سلافته ، فان الكلام اذا كان موصوفا بالمهذب منعوتا بالمنفح علت رتبته ، وان كانت معانيه غير مبتكرة ، وكل كلام قيل فيه : لو كان موضع هذه الكلمة غيرها ، أو لو تقدم هذا المتأخر ، وتأخر هذا المتقدم ، أو لو تم هذا النقص بكذا ، أو لو تكمل هذا الوصف بكذا ، أو لو حذفت هذه اللفظة ، أو لو اتضح هذا المقصد ، وسهل هذا المطلب ، لكان الكلام أحسن ، والمعنى أبين ، كان ذلك الكلام غير منتظم في سلك نوع التهذيب والتأديب ، وكان زهير بن أبي سلمى معروفا بالتنقيح والتهذيب ، وله قصائد تعرف بالحوليات ، قيل انه كان ينظم القصيدة في أربعة أشهر ، ويهذبها وينقحها في أربعة أشهر ، ويعرضها على علماء قبيلته أربعة أشهر . . . ولهذا كان الامام عمر بن الخطاب (ض) مع جلالة قدره في العلم ، وتقدمه في النقد يقدمه على سائر الفحول من طبقته»[1] ولن تجد أحسن من هذا الكلام ولا أجود من هذا النقد الذي ساقه ابن حجه في معرض حديثه عن التهذيب ، وقد ساق أضعاف أضعاف ما أوردناه . كما أنه ناقش بيت أبي تمام الذي قال فيه :

خذها ابنة الفكر المهذب في الدجى   والليل أسود رقعة الجلباب

وأشار الى ما قصده أبو تمام من تهذيب القصيدة في الدجى ، ولماذا الدجى عن غيره من أوقات الليل ، ولماذا لم يختر السحر مثلا ، وتكلم في ذلك كلاما طويلا علل فيه سبب اختيار الدجى عن غيره من الأوقات ، وبعد أن تكلم عن كل ذلك ذكره بيت أبي تمام بالوصية التي نفحها تلميذه البحترى فذكرها كاملة ، وأكد فيها على ضرورة التهذيب والتنقيح ، ثم اتبعها بوصية مشابهة أوصى بها الشيخ زكي الدين بن أبي الاصبع نفسه في نظم الشعر وتهذيبه ، وذكر مقاطع منها ، ثم اتبعها بتعليقات تفيد ناظم الشعر ومنقحه ، وفي ختام بابه هذا تحدث عن تهذيب البديعيات ، ومن من الشعراء كان أكثر تهذيبا . وقارن بين صنيع كل واحد منهم ومدى توفيقه .

ومن آرائه النقدية الجيدة محاولة تفسيره للشعر بأنه صدى للبيئة والعصر اللذين عاشهما الشاعر ، ومحاولته لالتماس العذر للشاعر القديم لاستمداده الصور الشعرية من معطيات بيئته ، سواء أكانت هذه المعطيات تنسجم مع الذوق المعاصر أم لم تنسجم ، وقد خالف نقد ابن رشيق الذي حاول أن يطبق مفهومات النقد في القرن الخامس التي استنبطها من شعر شعراء القرن الخامس وبيئتهم ، على شعر شعراء العصر الجاهلي والبيئه الجاهلية ، متناسيا الفروق الجوهرية في معطيات العصرين والبيئتين . فابن رشيق يأخذ على أبي محجن الثقفي قوله في وصفه لقينة مغنية :

ترجع الصوت أحيانا وتخفضه   كما يطير ذباب الروضة الغرد

(١) التقديم ص ٢٩١ .

قال ابن رشيق : «خولفت العرب في كثير من الشعر الى ما هو أليق منه وأمس بالوقت وأليق بأهله فان القينة الجميلة لم ترض أن تشبه بالذباب .»[1] ويرد عليه ابن حجه محتجا بأن هذه هي معطيات البيئه والعصر اللذين عاش فيهما أبو محجن ، وهما بيئة وعصر حديثا عهد بالجاهلية وحياة الصحراء وما فيها من معطيات ، فقال ابن حجه ملتمسا العذر : «والعرب عذرها واضح في ذلك ، فانه لا يسعها أن تذكر غير ما وجدته في المهمه والقفار من الذباب والاساريع وشجر الاسحل[2] وما أشبه ذلك ، ومن أين للعرب أن تقول كقول ابن المعتز في الهلال :

فانظر اليه كزورق من فضة　　　قد أثقلته حمولة من عنبر

وهي عن الزورق والعنبرو عن كثير من ذلك بمعزل»[3] ثم قارن بين الاختلاف في معطيات البيئتين الجاهليه والعصر الذي عاشه المتأخرون ، وانعكاس ذلك على الشعر فقال : » أين وصف عنترة لروضته بالذباب والأجذم حيث قال :

وخلا الذباب بها فليس ببارح　　　غردا كفعل الشارب المترنم
هزجا يحك ذراعه بذراعه　　　قدح المكب على الزناد الأجذم

أين هذا من وصف العلامة يحيي بن هديل المغربي لروضته الأريضه ، حيث أتى ببديع الغريب وقال :[1]

نام طفل النبت في حجر النعاما　　　لاهتزاز الطل في مهد الخزامى
وسقى الوسمي أغصان النقا　　　فهوت تلثم أفواه الندامى
كحل الفجر لهم فجر الدجى　　　وغدا في وجنة الصبح لثاما
تحسب البدر محيا ثملا　　　قد سقته راحة الصبح مداما
حوله الزهر كؤوس قد غدت　　　مسكة الليل عليهن ختاما

هذا رأي ابن حجه في أن البيئة والعصر يمدان الشاعر بالمعطيات ، فيستمد منهما الصورة التي تساعده على رسم أفكاره فتأتي هذه الأفكار بدورها انعكاسا للبيئه والعصر . ولقد اطلع ابن حجه على كثير من الآراء النقدية التي سبقته ، والتي كانت مثار خصومة عند بعض النقاد ، ولعل أبرز معركة قامت ، وتقوم دائما ،

---

(١) تأهيل الغريب الشعري ص ٢٥٠ .

(٢) أشار بذلك الى أن نقاد الأدب عابوا على امرىء القيس تشبيه أنامل محبوبته بأساريع الظبي أو مساويك الاسحل في بيته الذي يقول فيه :

وتعطو برخص غير شين كأنه　　　أساريع ظبي أو مساويك اسحل

والاساريع دواب تكون في الرمل ظهورها ملس ، والاسحل شجر أغصانه ناعمة ـ الثمرات وتأهيل الغريب ص ٣٥٠ .

(٣) تأهيل الغريب ص ٢٥٠ .

(٤) تأهيل الغريب ص ٢٥٠ .

بين القدامى والمحدثين ، فالرعيل الأول من المشتغلين بعلوم العربية أرادوا أن يضعوا حدا فاصلا بين من كان كلامهم عربيا خالصا ، وبالتالي يستشهد به ويحتج بألفاظه ، ومن اختلط كلامهم بكلام الأعاجم وشابته لوثة أعجمية وبالتالي لا يحتج به ، وعلى هذا مضى المشتغلون بالنحو والصرف واللغة ، ولما جاء المشتغلون بالبلاغه رأوا أنه مبـرر لقصر الاحتجاج على شعراء العرب صيلبة فيما يتعلق بالمعاني والبلاغة والبديع وغيرها ، فلذا أباح هؤلاء البلاغيون لانفسهم الاستشهاد بأقوال المولدين والمتأخرين كما يستشهد بأقوال القدامى على حد سوا ، وقامت خصومة بين أنصار القديم وأنصار الحديث لامن حيث الاستشهاد فقط ، وانما لأن أنصار القديم يعجبهم من الشعر رصينه ، وجزله ورزينه ، ولا يعجبهم من الشعر الحديث أو شعر المولدين والمتأخرين ركضهم وراء ما يسمي بالابداع والاغراب وتصيد البديع ، ولف المعنى الهزيل بغلالة مزركشة من الألفاظ الفخمة ، ولذلك أعرض أنصار القديم عن هذا الشعر وعن الاستشهاد به . واعتبروه بدعة الأدب وضلالة الشعر . وبعد تطور طويل لهذه الخصومة ونقاش وجدال حفلت بها كتب الأدب وصلت إلى ابن حجه آثار هذه الخصومة ، وبالرغم من أن نارها قد خمدت منذ أمد ليس باليسير الا أن ابن حجه أحب أن يكون له رأي نقدي في هذا الموضوع مع أنه لا يعدو أمثاله من آراء سابقيه . وخلاصة رأيه هذا أنه لا يرى مانعا من الاستشهاد بكلام المحدثين ـ أو بتعبيره : المتأخرين ـ في أبواب من علوم العربية دون أبواب أخرى ، فعلم اللغة وعلم التصريف وعلم العربية ـ أي النحو ـ فلا يجوز الاحتجاج عليها الابكلام القدامى ، أما علم المعاني وعلم البيان وعلم البديع فلا مانع عنده من أن يحتج بأقوال المتأخرين كما يحتج بأقوال القدامى ، فلهذا قال : «وهنا بحث لطيف وهو أن الاستشهاد بكلام المولدين وغيرهم من المتأخرين ليس فيه نقص لأن البديع أحد علوم الأدب الستة ، وذلك أنك اذا نظرت في كلام العربي ، اما أن تبحث عن المعنى الذي وضع له اللفظ وهو علم اللغة ، وأما أن تبحث عن ذات اللفظ بحسب ما يعتريه وهو علم التصريف ، واما أن تبحث عن المعنى الذي يفهم من الكلام المركب بحسب اختلاف أواخر الكلم وهو علم العربية ، واما أن تبحث عن مطابقة الكلام لمقتضى الحال بحسب الوضع اللغوي وهو علم المعاني ، واما أن تبحث عن طرق دلالة الكلام ايضاحا وخفاء بحسب الدلالة العقلية وهو علم البيان ، واما أن تبحث عن وجوه تحسين الكلام وهو علم البديع ؛ فالعلوم الثلاثة الأول يستشهد عليها بكلام العرب نظما ونثرا ، لأن المعتبر فيها ضبط ألفاظهم ، والعلوم الثلاثة الأخيرة يستشهد عليها بكلام العرب وغيرهم لأنها راجعة إلى المعاني ولا فرق في ذلك بين العرب وغيرهم اذا كان الرجوع إلى العقل ، وقال أبو الفتح ابن جني : المولدون يستشهد بهم في المعاني كما يستشهد بالقدماء في الألفاظ ، قال ابن رشيق في العمدة : الذي قاله أبو الفتح صحيح بين لأن المعاني اتسعت باتساع الناس في الدنيا ، وانتشار العرب بالاسلام في أقطار الأرض فانهم حضروا الحواضر وتفننوا في المطاعم والملابس ، وعرفوا بالعيان مادلتهم عليه بداهة عقولهم»(١) وينقل حديثا طويلالابن رشيق وشيئا من شعر ابن المعتز ورأى ابن الرومي فيه ، ثم ينقل عن ابن الصائغ أنه لم يقتصر على الاستشهاد بكلام المحدثين في شرح البرده الذي سماه بالرقم ، بل استشهد بشعر معاصرية وزجلهم .

---

(١) التقديم ص ٥ .

فهذا رأى ابن حجه في مشكلة الاحتجاج بشعر بشعر القدامى والمحدثين ونثرهم ، ورأيناه يأخذ برأي ابن جني وابن رشيق وابن الصائغ في الاستشهاد بكلام المتأخرين ولكن على على العلوم الثلاثة الأخيره أي علم المعاني والبيان والبديع ، ولقد طبق ذلك بنفسه فاستشهد في شروحه بشعر المولدين والمتأخرين بل وبشعره هو وزجله وزجل من عاصره ، وهذا تطبيق عملي لآرائه النقديه النظرية ، أو لآراء من آمن بآرائهم من المتقدمين عليه .

السرقات الشعرية : اطلع ابن حجه على كثير من كتب النقد والأدب والبلاغة التي ألفت قبله ، ومن أكثر الموضوعات التي تناولها هذه الكتب بالدراسة موضوع السرقات الشعرية ، ففي احدى المناسبات ذكر أنه اطلع علي رأى ابن رشيق في السرقة وذكر بعض الأنواع التي فرعها ابن رشيق من السرقه ، كذلك اطلع ابن حجة على آراء ابن الأثير النقدية في كتابه المثل السائر ، وبطبيعة الحال اطلع علي تقسيمه الثلاثي للسرقة النسخ والسلخ والمسخ ، ولكن ابن حجه في هذا الموضوع رأى أن هذه الظاهرة قد عمت القاصي والداني ، والرفيع والوضيع فلا بد من قبولها واقرارها ، والذي سهل عليه ذلك أن السرقة الشعرية أصبحت من المسلمات في عصره ، ولا يكاد يقع المرء على شاعر لم تند يده إلى سرقة كثير من المعاني ، وقد شاعت السرقة الشعرية حتى أصبح أدباء العصر يتندرون بها ، لأن بعض الشعراء أباح لنفسه أن يسرق شعر الكثيرين تحت اسم «التضمين» والتضمين رغم أنه نوع يختلف عن السرقة الا أنه ضرب من الاغارة على انتاج الآخرين وايداعه في انتاج الشاعر المضمن فهذا مجير الدين بن تميم يقول :

أطالع كل ديوان أراه ولم أزجر عن التضمين طيري
أضمن كل بيت فيه معنى فشعري نصفه من شعر غيري

فهذا اعتراف صريح من شاعر لا يرى بأسا في السرقة . وجاء بعده ابن الوردي فكان أجرأ على الاعتراف بالسرقة بل دلنا على طريقته وأطلعنا على سر المهنة بالتفصيل فقال :

وأسرق ما استطعت من المعاني فإن فقت القديم حمدت سيري
وإن ساويت من قبلي فحسبي مساواة القديم ، وذا لخيري
وإن كان القديم أتم معنى فذلك مبلغي ومطار طيري
فإن الدرهم المضروب باسمي أحب إليّ من دينار غيري

وعندما وصلنا إلى القرن الثامن وجدنا أن السرقة صارت مشاعة أكثر من ذي قبل ، فيأتي الشاعر ويغير على شعر غيره ، فيأتي آخر ويغير على شعره ، ثم يأتي ثالث ويختلس ما سرقه الثاني وهكذا ، وقد عبر عن هذه الفكرة ابن نباتة موجهاً كلامه لصلاح الدين الصفدي قال :

وفتى يقول الشعر إلا أنه فيما علمنا يسرق المسروقا

وحتى صلاح الدين الصفدي الذي كان (يسرق المسروقا) قيّض له من يسرق شعره ، يسرقه لا بلفظه ومعناه فحسب بل وفي بحره وقافيته ، ويحلو للصفدي أن يسخر من سارق شعره بلفظه ومعناه ويطلب منه أن يتخلى له عن القافية فيقول :

إن كان يا مولاي لابد أن تأخذ شعري جملة كافية
قافية البيت اطرح لفظها وقم خذ الكل بلا قافية

ويبدو أنه في هذا العصر الذي نتحدث عنه قد جمدت الملكات ، ونضب الابتكار ، فأخذ الشعراء يميلون إلى الاعتماد على شعر القدامى ، وإذا صدف وابتكر أحد الشعراء معنى جديداً تلقفته أيدي الشعراء وتعاوروه وأكثروا من تكريره ، ولا أدري أسبب ذلك نضوب القريحة عن الابتكار فقط أم فكرة المعارضة في المعنى واللفظ ! ومهما يكن الأمر فإن ثمة معان معدودة تناولها شعراء العصر وتسارقوها مثل ذلك قول محيي الدين بن عبد الظاهر :

شكراً لنسمة أرضهم كم بلغت عني تحيّة
لا غرو أن حفظت أحا ديث الهوى فهي الذكية

أخذه الأمير شهاب الدين الحاجبي وزاده ترشيحاً فقال :

لا تبعثوا غير الصبا بتحية ما طاب في سمعي حديث سواها
حفظت أحاديث الهوى وتضوعت نشراً فيالله ما أذكاها

أخذه صلاح الدين الصفدي فقال :

صدّق خلي نسمات الصبا فيما روت عنكم وما شكا
وقال : لا أخبر منها بما جاءت به ، قلنا : ولا أذكى

وقد أدعى الصفدي بأنه مبتكر هذا المعنى مع أنه مسبوق إليه ، فكان هذا الادعاء سبباً لاطلاق لسان ابن حجة إذ رد عليه فقال :

ان (ابن ايبك) لم تزل سرقاته تأتي بكل قبيحة وقبيح
نسب المعاني في النسيم لنفسه جهلاً فراح كلامه في الريح

أخذه ابن حجة فقال :

يا طبيب نشر لي من أرضكم فأثار كامن لوعتي وتهتكي
أهدي تحيتكم وأشبه لطفكم وروى شذاكم إن ذا نشر ذكي

فمن خلال هذه النبذة القصيرة من السرقات أدركنا أن ثمة معاني تزاحم حولها الشعراء وتسارقوها ، وهي كثيرة ، ومتعارف عليها وشائعة عند شعراء ذلك العصر :

وعندما جاء ابن حجة وحالة العصر على ما وصفنا من اقرار السرقة ، وجد أنه لا مناص من اقرارها ، وكان يتحدث عن السرقات الشعرية حديث غير المستهجن أو المستكره لها بل حديث المقر بواقعها ، وأكثر من ذلك أنه أباح لنفسه أن يسرق . فاختلس الكثير والكثير من معاني السابقين والمعاصرين ، ولعل سكوته عن

السرقة كناقد مرده إلى أنه تحاشى أن يطعن بما طعن الناس به ، ولكن قيّض له من تتبع سرقاته وبيّنها وعددها واحدة واحدة وأرجعها إلى أصولها وشهّر بها وألف كتاباً عنوانه «الحجة في سرقات ابن حجة» وهو النواجي ، غير أن حديثنا عن سرقاته جانب من موضوع خصائصه الفنية ، ولكن الأجدر بالذكر هو حديثه هو عن سرقات الآخرين ونقده لها . والواقع ان ابن حجة أكثر من الحديث عن السرقة ولكنه لم يزد على ما قاله من سبقه ممن تعرضوا لهذه المشكلة ، ولكن فضله يبدو في أنه تتبع سرقات معاصريه وبينها ، فتتبع سرقات ابن نباتة من الوداعي ، وأحصاها فوجدها تربو على مئة معنى ، فلما استكملها ، أخذ يتحدث عن سرقات الصفدي من ابن نباتة وقال : «إن الجزاء من جنس العمل كما أغار الشيخ جمال الدين على الوداعي ودخل بيوته ، وابتذل حجاب بنات فكره قيض الله له الشيخ صلاح الدين الصفدي ، فإن الشيخ جمال الدين كان يخترع المعنى الذي لم يسبق إليه ويسكنه بيتاً من أبياته العامرة بالمحاسن فيأخذه الشيخ صلاح الدين بلفظه ولم يغير فيه غير البحر وربما عام به في بحر طويل ، يفتقر فيه إلى الاقلال من كثرة الحشو ، واستعمال ما يلائم ، فلم يصبر الشيخ جمال الدين على ذلك وصنف كتاباً ألفه من نظمه ونظم الصفدي وسماه (خبز الشعير) يعني أنه مأكول مذموم . . . ورتب كتابه المذكور على قوله : قلت أنا فأخذه الشيخ صلاح الدين وقال[1] وأورد نماذج كثيرة من المعاني التي سرقها الصفدي من ابن نباتة .

وابن حجة ينظر إلى السرقة الشعرية من زاويتين ، الزاوية الأولى السرقة باللفظ وهذه لا يقرها ، والزاوية الثانية وهي السرقة بالمعنى وهذه يجيزها ولكن إذا كان الشاعر ماهراً وتحولت السرقة على يديه إلى (توليد) فقد حاز بعض الفضل ، ولذا قال في التوليد : «ليس تحته كبير أمر ، وهو على ضربين من الألفاظ والمعاني ، فالذي من الألفاظ تركه أولى من استعماله لأنه سرقة ظاهرة . . . والتوليد من المعاني هو الأجمل والأستر ، وهو الغرض ههنا ، وذلك أن الشاعر ينظر إلى معنى من معاني من تقدمه ويكون محتاجاً إلى استعماله في بيت من قصيد له فيورده ويولد منه معنى آخر .

ومن آرائه المصيبة في النقد أخذه بعين الاعتبار الحالة النفسية للمخاطب ، وبمعنى أوضح أن الشاعر ينبغي أن يراعي الحالة النفسيةللمدوح الذي يقدم إليه مدحه ، وقد ركز ابن حجة مراعاة الشاعر للحالة النفسية للمدوح في مطلع القصيدة ولذلك اشترط في هذه المطالع شروطاً عدة لتعطي أحسن الانطباع في نفس السامع ذلك لأنها كما قال : «أول شيء يقرع الاسماع ، ويتعين على ناظمه النظر في أحوال المخاطبين والممدوحين ، ويتفقد ما يكرهون سماعه ، ويتطيرون منه ، ليتجنب ذكره ويختار لأوقات المدح ما يناسبها ، وخطاب الملوك في حسن الابتداء هو العمدة في حسن الأدب»[1] ثم اتبع هذه المقدمة لمراعاة الحالة النفسية للمخاطب بمجموعة من الشواهد والقصص التي أساء فيها الشعراء في مطالعهم لعدم معرفتهم بالحالة النفسية للمخاطبين ، وخاصة الملوك منهم ، فكانت النتيجة أن انعكست الاساءة عليهم .

وابن حجة كان من أنصار المعاني بعض الشيء ، وبالرغم من أن عصره عصر عناية مفرطة بالزينة اللفظية ، إلا أنه كان ميالاً إلى المعاني ، واعتبر ابن حجة أصحاب مذهب الجناس هم أصحاب العناية باللفظ على حين أن أصحاب مذهب التورية ـ وهو منهم ـ أصحاب العناية بالمعنى ، فلذا قال : «وإذا خلت

---

(١) التقديم ص ٤ .

بيوت الألفاظ من سكان المعاني تنزلت منزلة الأطلال البالية»[١] .

ويؤخذ على ابن حجة في نقده أنه كان إذا أحب شاعراً أعجب بشعره فإذا أثنى عليه ألبسه من ثياب الثناء حلة قشيبة ، وأفرط في تعظيم صنيعه ، وإذا غضب على شاعر تناوله بالقدح والذم واتهمه بسوء الصنيع وأكثر من لومه واشتط في ذلك اشتطاطاً غريباً ، فمن الذين أثنى عليهم في جل نقده الشيخ جمال الدين بن نباتة والمتنبي والوداعي والقاضي الفاضل وأغلب أنصار التورية من معاصريه والذين تحامل في نقده عليهم أنصار الجناس وعلى رأسهم الصفدي وخصومه الآخرين كابن العطار وابن الخراط وغيرهم . كما يؤخذ عليه في نقده اصداره للأحكام النقدية المهوشة ، فهو يكيل المدح والثناء ويفرط في الاستحسان لمجرد ظاهرة بسيطة لا تستحق جزءاً صغيراً من هذا الاستحسان والثناء الذي كاله بغير حساب لبعض أصدقائه .

ويعجبنا من أحكامه النقدية تلك الأحكام المعلّلة ، التي تأتي كنتائج بعد أن يقدم بين يديها الأسباب ولكن أحكامه غير المعلّلة ـ وما أكثرها في مصنفاته ـ فينبغي للدارس أن يتناولها بحذر ، وأن يستبعد منها كثيراً من الهوى والحب والميل إلى الأصدقاء وما جرته الصداقة من تغاض عن مساوئهم .

وهناك ظاهرة أخرى تعطينا فكرة عن ذوقه النقدي والأدبي وهو نوع اختياره فاختيار المرء قطعة من عقله ، فكتابه (تأهيل الغريب) قائم على حسن الاختيار ، وفيه روح نقدية إذ تجمع المتشابه من الأدب في باب واحد ، وحتى في البلاغة كان يجمع الشواهد المتقاربة والمتشابهة في باب واحد ، وفي التكاليف كان يجمع القصص المتشابهة أو الموضوعات المتقاربة المتماثلة ليصنع منها مصنفاً واحداً .

(١) التقديم ص ٢٦ .

القسم الثاني ـ الناقد التطبيقي

وقد يعترض معترض على آراء ابن حجة النقدية ، ويقول ـ بما نوّهنا به قبل قليل ـ بأن بعضها قد سبق إليه ، ولكنه لابن حجة فضيلة أخرى ، وهو أنه طبّق بعض الآراء النقدية التي آمن بها ، على نقد شعر الآخرين ونثرهم ، كما طبّقه على شعره ونثره ، فالذي يطالع الصفحات الكثيرة التي كتبها ابن حجة في براعة الاستهلال ، يجد فيها نزوعه إلى تطبيق الآراء النقدية على انتاج من سبقه أو عاصره من الشعراء ، ورأيه النظري الذي مؤداه مراعاة الحالة النفسية للمخاطب في مطالع القصائد هو الذي دعاه إلى الاستفاضة في الحديث عن براعة الاستهلال ومن من الشعراء أحسن في هذه البراعة ومن منهم أساء . وفي أماكن مختلفة من (تقديمه) كنا نلمح آراءه النقدية المطبقة تطل برأسها بين الحين والحين . فمن ذلك ما كتبه وهو يناقش نوع (التخيير) قال : «ومن هذا النوع في الكتاب العزيز قوله تعالى : ان في السموات والأرض لآيات للمؤمنين، وفي خلقكم ومايثبث من دابة آيات لقوم يوقنون، واختلاف الليل والنهار ومأأنزل الله من السماء من رزق فأحيىٰ به الأرض بعد موتها ، وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون» . فالبلاغة تقتضي أن تكون فاصلة الآية الأولى للمؤمنين ، لأنه سبحانه وتعالى ذكر العالم بجملته حيث قال : السموات والأرض ، ومعرفة ما في العالم من الآيات الدالة على أن المخترع قادر عليم حكيم ، ولا بد من التصديق أولا بالصانع حتى يصح أن يكون ما في المصنوع من الآيات دليلاً على أنه موصوف بتلك الصفات ، والتصديق هو الايمان ، وكذلك قوله تعالى في الآية الثانية : لقوم يوقنون ؛ فإن خلق الانسان ، وتدبير خلق الحيوان ، والتفكير في ذلك مما يزيده يقيناً في معتقده الأول ، وكذلك معرفة جزيئات العالم من اختلاف الليل والنهار ، وانزال الرزق من السماء ، واحياء الأرض بعد موتها ، وتصريف الرياح يقتضي رجاحة العقل ، ليعلم أن من صنع هذه الجزيئات هو الذي صنع العالم الكلي بعد قيام البرهان على أن للعالم الكلي صانعاً مختاراً ، فلذلك اقتضت البلاغة أن تكون فاصلة الآية الثالثة لقوم يعقلون ، وان احتيج للعقل في الجميع ، إلا أن ذكره هنا أمس بالمعنى من الأول»[1] ، وهذه المناقشة الطويلة التي أوردها ابن حجة تدل على فكره النقدي الجانح إلى التعليل ، ومعرفة أسباب اختيار الكلم والعبارات ، اختيارا لا يقوم على العشوائية وإنما يقوم على امعان النظر في المعاني ليأتي اللفظ مؤدياً الدور الصحيح الذي ينبغي أن يؤديه ، وقد أورد ابن حجة قصة قصيرة أخرى ، مؤداها أيضاً انسجام الألفاظ وموقعها الموقع الصحيح من الجملة ، معبرة تمام التعبير عما وضعت له فقال : «ويروى أن أعرابياً سمع شخصاً يقرأ : والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ، جزاء بما كسبا ، نكالا من الله[2] ، والله غفور رحيم . فقال : ما ينبغي أن يكون الكلام هكذا . فقيل إن القارىء غلط ، والقراءة : والله عزيز حكيم ، فقال : نعم ، هكذا تكون فاصلة هذا الكلام ، فإنه لما عز حكم»[3] وإيراد هذه القصة يدل على ما يتميز به ذوق ابن حجة من نقد ، يقوم على التماس الأسباب

---

(١) التقديم ص ٩٦ .

(٢) سورة المائدة آية ٤١ .

(٣) التقديم ص ٩٧ .

للمسببات ، ومعرفة في فقه الألفاظ ، وتدّبر معانيها ، واحلالها المكان اللائق بها في التركيب .

ولقد مر معنا ونحن نتحدث عن غزله الذي كان يسوقه في مطالع المدائح النبوية وشروطه التي اشترطها ليكون ذلك الغزل محتشماً ينسجم مع جلال الممدوح ، مبّرأ من النقد الذي يؤخذ على الشاعر ، وقلنا هناك أنه طبق هذا الرأي النقدي على شعره وكانت جميع أغزاله التي ساقها في مطالع مدحه للرسول مبرأة فعلاً مما يؤخذ عليه من نقد . ولكنه لم يكتف بذلك ، بل لاحقه رأيه النقدي لتطبيق هذا المبدأ على شعر الآخرين الذين أخلوا بهذه الشروط فقال في التقديم : «ومن الأغزال التي لا تليق أن يكون غزلها لمديح قصيد نبوي قصيدة السرى الزفاء ، فإنه مدح بها الفاطميين وجدهم (ص) وجرح القلوب بندبة الحسين عليه السلام ، فإنه قال منها :

مهــلا ، فما نقلــوا آثــار والده   وإنمـــا نقضـــوا في قتلــه الدنيا

وهذه القصيدة مشتملة على مدح النبي ﷺ وآل بيته ، وندبة الحسين عليه السلام ، فما ينبغي أن تكون براعتها :

نطــوي الليالي علماً أن ستطوينا   فشعشعيهــا بمــاء المزن واسقينا

وما كفاه حتى قال بعد ذلك :

وتوجـــي بكؤوس الـــراح راحتنا   فإنمـــا خلقـــت للـــراح أيدينا
قامـــت تهـــز قوامـــاً ناعماً سرقت   شمائـــل البـــان من أعطافـــه اللينا
تدير خمـــراً تلقاهـــا المزاج كما   ألقيت فوق جنـــي الـــورد نسرينا
فلســت أدري اتسقينا وقــد نفحت   روائـــح المســـك منهـــا أم تحيّينا
وقــد ملكنـــا زمـــان العيش صافية   لوفاتنا الملك راحـــت عنـــه تسلينا

أقول : غفر الله له ، هذا الغزل فيه إساءة أدب على ممادحيه ، فإنه شبب بوصف القيان ، وبذكر الخمر ، وبينه وبين المديح مباينة عظيمة»[1] .

ولا أريد أن أعلق على هذا القول أكثر مما قلت قبل قليل بأنه كان مخلصاً لشروطه التي اشترطها في مطالع المدح النبوي ، ويريد من الشعراء أن يعملوا بها ، هذا بالاضافة إلى أنه ينقد هذه القصيدة من جهة أخرى بأن ثمة مباينة بين المطلع الذي وصف فيه القيان وذكر الخمرة وصلب القصيدة وهو مدح الرسول وآل بيته .

وفي معرض الحديث عن نقده التطبيقي نقول : إن له آراء صائبة تدل على دقة نظر في هذا الموضوع فمما قاله تحت عنوان «مراعاة النظير» : «فإنهم عابوا على أبي نواس قوله :

وقـــد حلفـــت يمينـــاً   مبـــرورة لا تـــكـــذب
برب زمـــزم والحـــو   ض والصفـــا والمحصـــب

---

(١) التقديم ص ١٦ .

فالحوض هنا أجنبي من المناسبة لأنه ما يلائم المحصب والصفا وزمزم ، وإنما يناسب الصراط والميزان ، وما هو منوط بيوم القيامة ، ومثله في عدم المناسبة قول الكميت :

وقد رأينا بها حوراً منعمّة ... بيضا تكامل فيها الدّل والشنب

فإنهم قالوا : الدلال لا يناسب الشنب ، وهو صحيح ، فإن الشنب من لوازم الثغر ، فلو ذكر معه اللعس وما ناسب ذلك مشى على سنن المناسبة ، وخلص من النقد»[٢] .

فهنا بالرغم من أنه ينقل أحكاماً نقدية لبعض أهل الأدب الذين عابوا على بعض الشعراء كأبي نواس والكميت استعمال الفاظ في مواطن لا تناسبها ، فإن ذوقه النقدي يبدو في جمع هذه النماذج حتى تحصل له منها العشرات ، بعضها مما أصاب أصحابها في حسن النظير ، وبعضها الآخر مما أساء أصحابها فلم يستطيعوا مراعاة حسن النظير ، وعلق عليها تعليقاً يدل على حصافة رأي ، وله ميزة أخرى وهي أنه لا يكتم رأيه النقدي تجاه القطعة التي ينقدها ، فإذا لم تعجبه القطعة أو البيت أو العبارة ، ولو لنشاز صغير أو كلمة غير منسجمة فيها عبر عن رأيه وبينّ عيب البيت وعلّل ذلك . وإذا استحسن بيتا لا يتمالك إلا أن يعبر عن هذا الاستحسان ، فما قاله : «ومن أحلى ما يستحلى في الذوق من هذا النوع قول ابن مطروح :

لبسنا ثياب العنا ... ق مزررة بالقبل

ومن شدة اعجابي بهذا البيت ضمنته تضميناً لو سمعه ابن مطروح لاطرح نفسه خاضعاً ، وسلّم إليّ مفاتيح بيته طائعاً ، وهو :

ولما خلعنا العذار ... فككنا طويق الخجل
«لبسنا ثياب العنا ... ق مزررة بالقبل»[١]

فابن حجة يتحسّس الجمال في البيت ويتذوقه ، ولكنه لا يكتفي بذلك ، بل يعمد إلى محاكاة الجميل ، محاكاة **معنوية** حينا ، لفظية حيناً آخر ، محاكاة سرقة مرة ، أو تضمينا مرة أخرى ، ولكنه في كل ذلك ذوّاقة ناقد ، يطبق بعض مقاييسه النقدية ، وينزع إلي تعميمها .

وقد كان يأخذ على فحول الشعراء في عصره بعض المآخذ ، فنقد الفاظ بيت قاله صفي الدين الحلي وهو :

يا غائبين لقد أضنى الهوى جسدي ... والغصن يذوي لفقد الوابل الردم

قال ابن حجة : «مثّل الحلي حالته لما أضنى الهوى جسده لغيبة أحبابه بالغصن لما يذوي لفقد المطر ، وأخرج كلامه مخرج المثل السائر كما تقرر ، ولكن لو وضع موضع (الهوى) الجفا لكان أقرب إلى المراد ، ولو كانت القافية غير الردم لكانت أخف على القلوب»[٢] .

---

(١) التقديم ص ١٦٥ .

(٢) التقديم ص ١٦٦ .

(٣) التقديم ص ١٦٨ .

فبالرغم من أن الحلي مشهور برقة شعره ، فإن ابن حجة يحاول أن ينقد شعره نقداً تطبيقياً ، ولو كان مقصوراً على وضع كلمة مكان كلمة أو تغيير قافية بلفظة خفيفة الظل ، رقيقة الوقع على القلب ، ويصلح له شعره الذي تنكب سواء السبيل .

وأخيراً قد يقال إن أهم آراء ابن حجة النقدية قد سبق اليها ، وليس له من فضل سوى تكريرها ، والواقع أن ذلك حق ، ولكن له فضل امتداد علم النقد في هذه العصور رغم تلاشيه في ثنايا البلاغة واضمحلاله في بطون كتب البديع ، كما أن له فضلاً آخر وهو أنه كان يقوم نتاج شعراء عصره بمقاييس نقدية أقرب ما تكون إلى المقاييس النقدية الصحيحة في بعض الأحيان ، ثم إن عصره خلا أو كاد من ناقد سليم الذوق ، فكان ابن حجة ناقداً يتناسب مع العصر الذي جاء فيه ، وقيمة الأدب الذي أنشيء في ذلك العصر . وليس عهدنا ببعيد عن تلك الأحكام النقدية التي أطلقها أناس غير نقاد كابن حجر العسقلاني وابن الجزري الدمشقي في نقدهم لقبول البينات ، وأحكامهم السالفة في النقد تدل على ما وصل إليه النقد الأدبي من انحراف في ذلك العصر حتى عدّ من النقاد من لا يعرف النقد ولا يعرف أحكامه . ولكن لا غرابة أن يصل النقد في تلك العصور إلى الدرجة التي وصل إليها ذلك لأن الناقد هو الشاعر ، والشاعر هو الناقد ، وعهدنا بالناقد أنه يقوم اعوجاج الأديب ويرسم له الطريق ويحاسبه على انحرافه ، أما إذا كان الشاعر هو الناقد ، والناقد هو الشاعر فعندئذ تدور في حلقة مفرغة ونقول للشاعر : «فيك الخصام وأنت الخصم والحكم» . وبظني أن عصر المماليك لو أنه رزق ولو بعضاً من النقاد ذوي الذوق السليم لتغير انتاج شعرائه وأدبائه ، ولما كان فترة هرم الشعر وخريف الأدب في تاريخ الأمة العربية .

منزلة ابن حجة

لقد تناولنا في الفصول السابقة فنون ابن حجة الشعرية وآرائه النقدية ودرسناها دراسة وافية ، وتحدثنا بشيء غير قليل عن موهبته الشعرية ، والألوان التي أنتجتها هذه الموهبة . وقد كنا ننتهز كل مناسبة لكي نقوم هذا الانتاج بعد أن نكون قد وصفناه الوصف الكافي ، ومجموعة تلك الأحكام التي كنا نختم بها الحديث عن كل فن من فنونه تساعدنا على وضع الشاعر بمكانه اللائق به بين شعراء عصره ، ولكننا اذا أردنا أن نرسم صورة صحيحة لمنزلته بين شعراء عصره ، فلا بد لنا من تناول بعض الظواهر التي اشترك بها شعراء العصر ، والتحدث عنها بصورة عامة عند معاصريه من الشعراء . ومقارنته بهم في هذه الظواهر . لبيان مدى اجادته أو تقصيره عن في هذه الظواهر بالذات ، وبالتالي ستكون معواناً كبيراً لنا على وضع الشاعر في منزلته شعراء عصره .

فهذه مجموعة من الظواهر شاعت في عصر ابن حجة ، وأدلى كل شاعر فيها دلوه ، ولكنهم وان اشتركوا في هذه الظواهر إلا أنهم تفاوتوا في المقدرة ، وفي البراعة في التعبير ، ومن هذه الظواهر بل أبرزها ظاهرة التصنع ، بل الاغراق والتطرف في التصنع ، وهي صنعة لازمت الأدباء في العصر المملوكي عامة ، وأقصد بالتصنع الافراط في اظهار الحذق والبراعة في الشعر والنثر والتأليف ، وهو باب واسع فتح قبل ابن حجة بزمن بعيد ، واتخذه، بعض الشعراء مجالا لاظهار براعتهم الأدبية واللغوية ولابراز ثقافتهم بشتى جوانبها : ومن مظاهر هذا التصنع الالتزام الذي التزمه صفي الدين الحلي في أول كل بيت من أبيات شعره في (الأرتقيات) وقد نظم الحلي هذه القصائد أول ما اتصل بالملك المنصور ليبين له مقدرته على النظم ، وعلو كعبه في الأدب ، وهذه القصائد تسمى (المحبوكات) لان الشاعر التزم في كل بيت أن يجعل الحرف الأول والأخير من نوع واحد وهو حرف الألف ، حتى اذا نظم القصيدة في تسعة وعشرين بيتا محبوكا على الألف انتقل الى الباء ونظم تسعة وعشرين بيتا محبوكا على هذا الحرف وانتقل الى التاء . . . وهكذا حتى استوفى حروف الهجاء جميعها فالملاحظ انه التزم التزامين الأول التزامه نظم تسع وعشرين قصيدة كل واحدة على حرف من الحروف الهجائية ، والالتزام الثاني حبك البيت بأن يجعل أول حرف فيه من نوع حرف القافية ، وفي هذا ما فيه من التضيق والتعقيد وبالتالي التصنع الذي هو في غنى عنه وليت الحلي وقف عند هذا الحد فله في التصنع فنون كثيرة فله الرسالة المهملة التي تجنب فيها استعمال الحروف المنقوطة ، وفعل مثل ذلك في الشعر فله أبيات مهملة الحروف يقول فيها : -

كم ساهـر حرم لمس الوساد ... وما أراه سؤلـه والمراد
ما سهـر الوالـه معـط له ... وصـلا ولـو داوم طول السهاد
أسمـر كالرمـح له عامل ... أعمالـه حطـم سمـر الصعاد

وفي قصيدة أخرى صنع عكس هذا الصنيع فنظم قصيدة عدة أبياتها خمسة عشر بيتا التزم في كل حرف من حروفها أن يكون معجما وليس فيها حرف مهمل واحد ، قال

فتنـت بظبـي بغـى خيبتي ... بجفـن تفنـن في فتنتي
تجنـي فبـت بجفـن يفيض ... فخيبـت ظنـي في يقظتي

وله الرسالة التوأمية التي جاور فيها كلمتين متقاربة الحروف لا تختلف الا بالتحريف كقوله ، عبده عنده وهم وهم ، وقد وفد مستجيرا مستخيرا حرمة حرمه . . . الخ . . ومن أبيات له متصلة الحروف قوله :

سل متلفـي عطفـاً عسى يتعطف ... فلقـد مسـا قلبـا فما يتلطف

فهذا التلاعب بالألفاظ بل بالحروف والحركات لا مبرر له غير اظهار الحذق والبراعة وملء الفراغ .
ولو أردنا أن نتصيد للشعراء الذين جاؤ وا بعد الحلي مثل هذه الفنون لوجدنا كثيراً ، ولكن ضيق المقام لا يسمح بذلك وحسبنا أن نصل الى ابن حجة لنرى تصنعه واسهامه بمثل هذه التسليات الأدبية . فقد روى لنا في التقديم أن رجلا أوقفه في حلب على رسالة عاطلة غير معجمة الحروف ـ فقرظها ابن حجة بتقريظ عاطل وهو (طالع المملوك رسالة محمد وسلم ، وأحكم السمع والطاعة لكلامها الحكم ، والله ما سمعها عالم الأوهام (١) . . . »

وقد أكثر ابن حجة من ظاهرة مثقلة بالتصنع وهي توريته بأسماء سور القرآن شعرا ونثراً وزجلا ، وقد مرت معنا نماذج من ذلك كما حدثنا هو في جني الجنتين بأنه عارض في قصيدته الهائية صلاح الدين الصفدي والعماد الكاتب وتاج الدين الكندي وابن نباته ، وقد التزم جميع هؤ لاء ألا يوردواهاء الضمير في قافية من قوافي القصيدة مع أن قافيتها هائية تسمح بذلك ، ومع ان القصيدة بلغت سبعة وخمسين بيتا فلم يلجأ ابن حجة الى استعمال هاء الضمير في قافية من قوافيها ، ومثل هذا فعل من عارضهم باستثناء العماد الكاتب الذي أورد مرة واحدة في قافيته هاء الضمير فكان ذلك مجال تندر صلاح الدين الصفدي عليه فقال : ـ

ان العماد على وجاهـة فضله ... قد قال في بعض القـوافي (وجهه)

---

(١) التقديم ص ٥٣٧

وواضح ما في هذا الالتزام من التضيق على الشاعر . وجعله يبحث عن ألفاظ تصلح للقافية مع خلوها من هاء الضمير ، والتزام من هذا النوع أقرب الى التصنع منه الى الطبع مهما كانت حصيلة الشاعر اللغوية ، وصورة أخرى من صور التصنع عند ابن حجة وهي ما نقرؤه له في القصيدة المصغرة التي امتدح بها شمس الذين النويري ، فقد وضع نصب عينيه أن يصغر كل كلمة فيها ، مع أن أبياتها بلغت خمسة وثلاثين بيتا ، لا يخلو كل بيت من سبع ألفاظ مصغره ، وبالرغم (من أنه ارتكب في التصغير مغرورات لا تقبلها قواعد الصرف فانه خرج من نظم القصيدة فرحا مستبشرا لما حققه فيها من براعة وحذق ـ على حد قوله ـ ومما يلحق بتصنعه أنه نظم أسماء الولائم في بيتين من الشعر ، وجهد في نظم بيت آخر ليذكر كلمة (ألم[1]) وقد يعطينا هذا الاستقصاء لصور التصنع فكرة سيئة عنه ، ولكن يخفف من غلوائنا عليه هو ان العصر كله كان أميل الى التصنع ، بل اندفع في التصنع اندفاعا لا هواده فيه ، واحببنا ان نوطيء لكلامنا هذا بما ذكرناه للحلي من تصنع ، ويبدو أن ذوق الناس في ذلك العصر كان يقر هذا التصنع الذي كثرت وجوهه وعمت مظاهر كثيرة من الحياة ، فقد ذكر لنا ابن اياس في بدائعه أن أحد قضاة العصر كتب سورة الاخلاص على حبة أرز ، فهذه الظاهرة ـ على بساطتها ـ تدل على ان التكلف لم يكن في الشعر فحسب بل تعداه لجوانب أخرى من الحياة ، وكان تكلفا مقصودا لذاته ، أو بتعبيرنا المعاصر (الفن للفن) وان كان هذا الفن لا يخدم الحياة ، ولا يزيد في غني الثقافة ، وما أحرى فنا هذا وصفه بالاكرام الذي أكرم به هارون الرشيد رجلا يدعي الحذق والمهارة في فن لا نظيرله في الدنيا ، فلما مثل بن يدي الرشيد أخرج جعبة فيها مئة ابرة ، فأخذ الابرة الأولى وضرب بها الأرض فغاص رأسها في الأرض وانتصبت عمودية الوضع ثم تناول الثانية وصوبها فدخل برأسها في سم الأولى واستقامت أفقية الوضع ، ثم صوب الثالثة فدخل رأسها في سم الثانية وانتصبت عمودية الوضع ، وظل يفعل هكذا حتى اتى على الأبر كلها فشكلت خطا منكسرا فأثني عليه الحاضرون ، وقال الرشيد : أعطوه مئة دينار ، واقطعوا يده ، فتعجب الحاضرون وسأله بعضهم عن هذا الصنيع فقال : أما المئة دينار فلجهده المبذول في اتقان هذه الحرفه وحذقها ، وأما قطع يده فلأن حرفته هراء بهراء لا تفيد المسلمين شيئا وضياع وقت نحن بحاجة اليه .

نخلص من هذا الحديث عن ظاهرة واحدة سيطرت على شعراء العصر ، وتناولنا منزلة ابن حجة فيها ، ولنتقل الى ظاهرة أخرى ، وهي ظاهرة المعارضات ، والمعارضات مشكلة ظهرت في الأدب العربي منذ القديم ، ولا نريد أن نؤرخ لنشوئها وتطورها ، بل نحب أن نقفز رأسا الى عصر ابن حجة فنجد أن المعارضات قد استشرت في هذا العصر كثيراً وقلما نجا منها شاعر ، والمعارضة لا تقتصر على الشعراء الأحياء بل تمتد إلى الأموات ، وكل شاعر ، رغم أنه يزهو بصنيعه ويعتبره هو الفن الكامل ـ لا بد أن يكون له مثال أعلى يقتدي به ينسج على منواله ، وقد رزق الأدب العربي بعض الشعراء كانوا القمة في زمانهم ، وليس بغريب من شعراء عصر المماليك أن يقلدوا هذه القمم ، ومن القمم التي أعجب بها شعراء عصر المماليك أبو الطيب المتنبي الذي ملأ الدنيا وشغل الناس ، فذا أنس الشاعر في نفسه القوة ، وفي شاعريته النضج طمحت نفسه إلى محاكاة هذا الشاعر الذي أجمع الكثيرون على علو كعبه في الشعر ، فمن الذين أعجبوا به

---

(١) البيت هو : من قدة الألفي مع لام عارضة وميم مبسمة قد صرت في (ألم)

وعارضوه صفي الدين الحلي فنظم قصيدته التي مطلعها :

أو تقصيره عن معاصرية في هذه الظواهر بالذات ، وبالتالي ستكون معواناً كبيراً لنا على وضع الشاعر في منزلته بين شعراء عصره .

الدنيا وشغل الناس ، فاذا أنس الشاعر في نفسه القوة ، وفي شاعريته النضج طمحت نفسه الى محاكاة هذا الشاعر الذي أجمع الكثيرون على علو كعبه في الشعر ، فمن الذين أعجبوا به وعارضوه صفي الدين الحلي فنظم قصيدته التي مطلعها :

اسبلن من فوق النهود ذوائبا　　　فجعلن حبات القلوب ذوائبا

عارض بها المتنبي بقوله :

بأبي الشموس الجانحات غواربا　　　اللابسات من الحرير جلاببا

ولم تكن منزلة المتنبي في نفس ابن نباتة بأقل منها في نفس الحلي ، فقد حدثنا ابن حجة أن ابن نباتة أعجب بأبي الطيب وعارضه بقصيدة مطلعها :

ما بت فيك بدمع عيني أشرق　　　إلا وأنت من الغزالة أشرق

ومطلع قصيدة المتنبي المعارضة :

أرق على أرق ومثلي يأرق　　　وجوى يزيد وعبرة تترقرق

والباحث في ديوان ابن نباتة يجد الكثير من قصائده معارضات للمتنبي ، وحدثنا أيضاً ابن حجة أن الصلاح الصفدي كان يلتقي مع ابن نباتة في حب المتنبي وتفضيله على غيره من الشعراء ، فقد قال في التقديم : «وهنا نكتة لطيفة ، وهي أن صلاح الدين الصفدي كان مذهبه تقديم أبي الطيب المتنبي على أبي تمام ، وهو مذهب أبي العلاء المعري فإنه سمى ديوانه بعد ما شرحه (معجز أحمد) فاتفق أن صلاح الدين اجتمع بابن نباتة بالديار المصرية وذاكره في أبي الطيب وأبي تمام فوجده على مذهبه واجتمعا بعد ذلك بالشيخ أثير الدين أبي حيان ، وذاكره في ذلك ، فقدم أبا تمام ، فلاماه على ذلك ، فقال : أنا لا أسمع لوماً في حبيب»(١) فإن دلت هذه القصة على شيء فإنما تدل على أن أكثر الشعراء في عصر المماليك قد أعجبوا بالمتنبي ، ولعل أكثر المعجبين بالمتنبي هو ابن حجة ، وقد صرح بهذا الاعجاب ، واتخذ حبه له مذهباً فقال : (ومذهبي في ذلك مذهب الشيخ صلاح الدين ، ومذهب الشيخ جمال الدين ، وإن كان الشيخ أثير الدين ما سمع في حبيبه لوماً وخالف من لامه فيه وفند ، فمن المستحيل رجوع أبي بكر عن حب أحمد»(١) ولقد تمثل حب ابن حجة للمتنبي واعجابه بشعره أنه اعتكف على ديوانه وزاول مطالعته حتى تزود منه بقسط وافر ، كما أن حبه له جعله يفرد له في كتابه (التقديم) زاوية خاصة جمع فيها كل حكمه المستخرجة من ديوانه أبياتاً وأشطاراً ولفتنته بها نصح الكتاب بحفظها وتحلية شعرهم ونثرهم بفرائدها ، وطبق هذا المبدأ على نفسه ففي نثره كثير من الشواهد المنتزعة من كلام المتنبي كما أن في شعره كثيراً من الأشطار بل والأبيات الكاملة

(١) التقديم ص ١١٧

التي ضمنها من شعر المتنبي ، هذا إضافة إلى ما كان يشاركه فيه من القوافي والأغراض ، وأخيراً لم يسعه إلا التصريح والاعتراف الجريء بافتتانه بشعر المتنبي فقال :

المرء مفتون بأشعاره لا في سماع المرقص المطرب
إلا أنا في الشعر مع رقتي أفتن في قول أبي الطيب

واعجاب ابن حجة بفن المتنبي لم يقف عند حد المعارضات بل تجاوزه إلى تضمين أشطار كثيرة في شعره كما رأينا في موشحته اللامية التي نظمها لتضمين اعجاز قصيدته اللامية المشهورة ، قال فيها :

جاءت تغازل بالأجفان والمقل فاهتز عطف غرامي وانجلى غزلي
كحل بعينيك قالت وهي في خجل «ليس التكحل في العينين كالكحل
سألتها برد ما عندي من الكمد وقلت نار الجوى قد أضعفت جلدي
قالت بريقي أطفيها إذا التهبت يا برد ذاك الذي قالت على كبدي
وغرقتني بدمع طرفي وقالت : اسمع كفيت خلفي
ألم تخف بللا ، ناديت يا أملي «أنا الغريق فما خوفي من البلل»

وتستمر القصيدة التضمينية على هذا الشكل . وكثيراً ما كان يشبه ممدوحه بسيف الدولة ليسري إليه التشبيه بالمتنبي ، وصرح بذلك مراراً فقال :

فيا ناصراً بالسيف دين محمد بحقك لا تنسى حقوق أبي بكر
فإن كنت سيف الدولة اليوم إنني أنا المتنبي الآن في معجز الشعر

وأما معارضاته له فكثيرة فقد عارضه في الدالية المطلقة ، وفي الميمية التي امتدح بها شرف الدين مسعود فقال في مستهلها :

أتى الدهر يبدي عذره وهو نادم ولولا الرضى عنه أتى وهو راغم

عارض فيها قصيدة المتنبي التي مطلعها

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

أما قصيدته التي هنأ بها المؤ يد بشفائه من مرضه والتي مطلعها :

الحمد لله زال البؤس والألم وعوفي العدل والمعروف والكرم

فقد عارض المتنبي فيها بقصيدته التي مدح فيها سيف الدولة بمناسبة مثل هذه المناسبة وقال في مطلعها :

المجد عوفي إذ عوفيت والكرم وزال عنك إلى أعدائك الألم

غير أننا نقول إن معارضات ابن حجة لم تكن مقصورة على المتنبي وإنما عارض أيضاً ابن نباتة وما كتابه (بيوت العشرة) إلا تلك القصائد الخمس التي أختارها من جيد شعر ابن نباتة وعارضها بخمس من شعره كما أن مصنفة (قبول البينيات) معارضة لتائية القيراطي وابن نباتة أيضاً . فإذا خلصنا من كل هذا الاستعراض وأردنا وضع ابن حجة في منزلة بين الشعراء المعاصرين قلنا إنه خضع لنفس الظاهرة التي خضع لها جل شعراء عصره وهي معارضات القدامى والمعاصرين . وإذا أردنا أن نقوّم شعره في هذه المعارضات فمن الجدير بالذكر أن نقول إنها لم تصل إلى مستوى معارضات صفي الدين الحلي للمتنبي ففي هذه احكام السبك وتملك ناصية اللغة وتطويعها للشعر ما لم يكن يحسنه ابن حجة وحتى معارضات ابن نباتة للمتنبي كانت أرفع منزلة من معارضات ابن حجة ، فبالرغم من أن مذهب ابن نباتة وابن حجة واحد إلا أن ابن حجة قصر عن ابن نباتة في كثير من المواطن ، ومن بينهاهذا الموطن أقصد موطن المعارضة للمتنبي ، وما دام ابن حجة قد قصر عن الحلي وابن نباتة فما أحراه ألا يلحق بغبار المتنبي ، وكان ابن حجة يعرف ذلك ولكنه لم يرعو عن المعارضة ولم يصنع كما صنع ابن رشيق القيرواني الذي روى ابن بسام أنه حاول أن يقلد المتنبي فلم يفلح فعدل عن ذلك . قال ابن بسام : وحدثت أن أبا علي بن رشيق ناجى نفسه بمعارضة أبي الطيب في بعض اشعاره ، وراطن شيطانه بالدخول في مضماره ، فأطال الفكرة ، وأعمل النظرة ، فأداه جهده ، وذهب به نقده إلى معارضة قوله : «أمن ازديادك في الدجى الرقباء»

فبث عيونه واستمد ملائكته وشياطينه ، . . . ثم صنع قصيدة فيما بلغني ، رأى أنها مادة طبعه ، ومنتهى طاقة وسعه ، ثم حكم نقده ، ورضي بما عنده ، فرأى أن قصرت يداه وقصر مداه ، وعلم أن الاحسان كنز لا يوجد بالطلب ، وميدان لا يستولى عليه التعصب ، وصان نفسه عن أن يتحدث عنه ، بأن تكون الهرة أحزم منه[1] لقد كان ابن رشيق القيرواني ناقداً يحترم نفسه لذا عرف حده ووقف عنده . وابن حجة لم يعارض أصحاب القصيد فحسب بل عارض أصحاب الزجل كالشيخ علي بن مقاتل ، وأصحاب الموشحات كصدر الدين بن الوكيل ، وأصحاب المخمسات كالشعراء الكثر الذين خمسوا عينيه السهيلي ، وميمية البوصيري وغيرهم . ففي حدود اطلاعنا لا نعرف شاعراً من شعراء العصر خضع لسيطرة المعارضات أكثر من ابن حجة ، حتى ليمكننا رد أكثر قصائده التي في ديوانه إلى معارضات للمعاصرين والسابقين . ولو لوعه بالمعارضات كان يتبعها كتائية ابن النبيه التي تصدى لمعارضتها ابن نباتة وصفي الدين والصفدي وغيرهم والظاهرة الثالثة التي شاعت في عصر ابن حجة شيوعاً لا يقل عن شيوع التصنع والمعارضات هي ظاهرة السرقات الشعرية ، وخضع لهذه الظاهرة كل شعراء العصر ومنهم ابن حجة وقد تحدثنا في الفصل السابق عن رأي ابن حجة في السرقات الشعرية ، وإذا كان حديثنا هناك عن رأيه في السرقات كناقد أدبي فإننا سنتحدث هنا عن سرقاته كشاعر ، ومنزلة سرقاته بالنسبة لسرقات المعاصرين . فالمعلوم أن الشعراء أكثروا من السرقات كما أكثروا من المعارضات ، ولا نريد أن نورد نماذج من السرقات فقد مر معنا في مناسبات مختلفة كثير من هذه النماذج .

---

(١) الذخيرة القسم الرابع ـ المجلد الأول ص ١٥

والمعروف في تاريخ آداب الأمم ، أن كل عصر وكل فترة من فترات التاريخ الأدبي فيها مجموعة من الشعراء يخترعون المعاني ثم يأتي شعراء الفترة التي تليها ويغنون الثروة القديمة من المعاني بمعانيهم الجديدة ، وهكذا تتوالى القرون . وكل فئة تضيف الى الثروة القديمة تراثا جديدا من المعاني ، ويقدر غنى العصر بمقدار ما يضيفه من المعاني الى معاني العصور السابقة ، ولو طبقنا هذه الفكرة على المعاني التي أضافها شعراء عصر المماليك الى الرصيد الضخم من المعاني الشعرية لوجدنا أن هذه الاضافة ضئيلة ضحلة لا تتناسب مع طول الفترة من جهة وكثرة الشعراء من جهة ثانية ، وما ذلك الا لأن الشعراء عزفوا عن الابتكار الى التكرار . وشاعت هذه الظاهرة الخبيثة ظاهرة السرقات التي لم يكن ينجو منها شاعر من شعراء العصر . فكانت المعاني التي تدور بين الشعراء معدودة يتعاورونها ويتبادلونها ويفرحون بما ألبسوها اياه من ثوب قشيب وبما كسوها اياه من حلة مزركشة ، ونصيب ابن حجة من هذه السرقات وافر ، ولقد اتيح لنا أن نسبر غور شعر ابن حجة أكثر من غيره رغم اشتراكهم معه في الظاهرة نفسها ، فلذا نسجل عليه الملاحظات التالية التي تساعدنا على وضعه في المكان الذي ينبغي أن يوضع فيه بالنسبة لشعراء عصره وبظاهرة السرقات عامة ، فابن حجة كثير السرقات متفنن في طرق تناولها ، فتارة يأخذ المعنى ويعيد صياغته بألفاظ من عنده فيوفق حينا ويفشل حينا آخر . فمن المعاني التي سرقها وقصر فيها قول شهاب الدين الحاجبي ،

لم أنس أيام الصبا والهوى ... لله أيام النجا والنجاح
ذاك زمان مر حلو الجنى ... ظفرت فيه بحبيب وراح

أخذه ابن حجة فقال :

مذ راح عني قال لي عازلي ... هل ذقت يوما ريقه ؟ قلت : راح

ويعلق على هذه السرقة النواجي فيقول : فانظر كيف فاتته سهولة التركيب ، وترشيح التورية ببديع ابن حجة قصر عن ابن نباتة في كثير من المواطن ، ومن بينها هذا الموطن أقصد موطن المعارضة للمتنبي ، وما دام المطابقة في قول الحاجبي (ذاك زمان مر حلو الجنى) حتى يقول : (ظفرت فيه بحبيب وراح)[1] كما أن ابن حجة سرق من معاصره وصديقه ابن حجر العسقلاني معناه وقصر في هذه السرقة قال ابن حجر العسقلاني :

تجرد من أحب فقال لي من ... يلوم ، وأظهر الحسد المكتم :
أجاد لك الحبيب بلثم جسم ... له كالخز ؟ قلت : نعم وأنعم

أخذه ابن حجة فقال :

قلت : جد لي باللثم في ناعم الكف ... وأنعم فقال خدي أنعم

وكان ابن حجة يتدنى في سرقاته فيسرق معانيه من المواله والزجالة ، بل يسرق معاني الشعراء ويجعلها زجلا ، فمحا سرقة من الموالة قول بعضهم :

رأيتهـا تتمشى وهـي مخمورة	فقلـت : يا رب احفـظ هذه الصورة
فجاوبتنـي وهـي بالبشر مسرورة	أقـرأ (سبـا) فجوابـك اخـر السورة

أخذه ابن حجة فقال :

واذا اشـتهيت السـير نحـو دياركم	قرأ النـوى الى في الأواخـر من (سبا)

ويقصد الموّال وابن حجة قوله تعالى «وحيل بينهم وبين ما يشتهون»[١] .

وثمة ظاهرة أخرى وهي تبادل التقاريظ ، فما إن ينظم الشاعر قصيدة أو يؤلف رسالة حتى ينبري شعراء العصر وأدباؤه لتقريظها ان كانت تستحق أو لا تستحق وقد قرظ ابن حجة كثيرا من انتاج عصره ، وقد قرظ شعره الكثيرون ، وهو ككل إنسان له أصدقاء وأعداء فأما أصدقاؤه فقد منحوه حسن الثناء ، وكلما نظم قصيدة أو ألف مصنفا انهالوا عليه بالثناء ورطبوا السنتهم بحسن أحدوثته ، وأما أعداؤه فقد تتبعوا سقطاته وشهروا بها وتحاملوا عليه ، وبينوا أخطاءه ، وكشفـوا مساوئـه ، وتغاضـوا عن محاسنـه ، فاضطـروه الى مخاصمتهم ورغم أنهم سودوا الصحائف في هجائه كسوط العذاب على شر الدواب الذي ألفه ابن الخراط في هجائه وعقر الحمار الذي ألفه ابن العطار ، فلم نقع له في ديوانه على أبيات في هجائهم ، لا نقول إنه ترفع عن هجائهم ، ونزّه لسانه عن ذكر مساوئهم ، كلا فقد اضطر للرد عليهم في كتيب صغير اسمه «لزقة البيطار في عقر ابن عطار» ولكن الذي نريد ان نصل اليه هو أن فن الهجاء ليس مذهبه ولم يستطع اتقانه وحذقه ، ولولا الضرورة لنزه منه مصنفاته كما نزه منه ديوانه .

وقبل أن نختتم موضوعنا هذا لا بد من القول بأن منزلة ابن حجة الكلية ، بعد هذا التقويم الجزئي لكل ظاهرة من ظواهر العصر ومكان ابن حجة منها أقول : إن منزلته الكلية هي أنه شاعر من أحسن شعراء قرنه ، وشاعر من أوسط شعراء عصره ، هذا إذا طبقنا عليه مقاييس نقدنا المعاصرة ، أما برأي شعراء عصره فهو كما وصفه ابن الأدمي اذ قال :

أديب العصر قد شنفـت سمعي	بمـا أخفيت من درر مضية
فأنـت اليوم في الآداب فرد	بغـير معـارض في الأولوية

ورغم هذه الشهادة التي نفحه اياها محمد ابن الادمي فان بعض شعراء عصره لم يقروا له بجودة النظم بله التفوق وكانوا يرون أنه يلقى الكلام على عواهنه فينبرون لاصلاح نظمه ، فقد ذكر ان ابن حجة نظم البيت التالي وكان يعتز به لما يتضمنه البيت من بديع الاكتفاء وهو قوله :

فيا ظبي ما يحكيه عند التفـاتـه	ولا البدر يحكي حسن طلعته ولا

---

(١) سبا اية ٥٤

فلما نظر فيه الشيخ شمس الدين الكفتى وهو من الشعراء المعاصرين لابن حجة لم يعجبه وقال لو أنه قال :

فلا الظبي يحكي جيده في التفاتــه　　　ولا البدر يحكي حسن طلعته ولا

لكان أحسن واسجم ، ثم أرى ان هذا النقد ليس مقصورا على هذا البيت فحسب بل في شعر ابن حجة الكثير الذي يحتاج الى اصلاح ، وعلق الكفتي على كثير من ابياته وأعاد نظمها مبقيا المعنى محافظا على اللفظ ولكنه قوم ما استطاع تقويمه من معوجها ، ومن هذا تقويمه لبيت ابن حجة الذي يقول فيه :

وقــد حاز فهما في التفاســير قد غدا　　　على صاحــب الكشــاف ســترا مجللا

نقده الكفتي بقوله ان تكرار (قد) مرتين في شطر واحد مما تنفر منه الطباع ولو قال :

وقــد حاز في التفســير فهما به غدا　　　على صاحــب الكشــاف ســترا مجللا

لكان أحسن

فهاتان صورتان أحببنا أن نختتم بهما حديثنا عن منزلة ابن حجة في نظر معاصريه احداهما شهادة صديق يرى في ابن حجة أنه أديب العصر بلا منازع ، والثانية شهادة ناقد لم يعجبه صنيع ابن حجة في شعره ، بل رأى فيه شاعراً أخرق ، يحتاج شعره الى كثير من الاصلاح .

والحقيقة ان كلا من الشهادتين متطرفة في الحكم . فليس ابن حجة أديب العصر لا ينازعه في ذلك شاعر آخر ، كما ان شعره ليس أخرق يحتاج الى كثير اصلاح بل هو كما قلنا وتكرر القول بانه من أحسن شعراء قرنه ومن أوسط شعراء عصره ، ولا نجد ضرورة لمقارنته بشعراء الرعيل الأول في العصر العباسي وما بعده لان شقة المقارنة واسعة وليس في شعر ابن حجة ما يسمو به الى مضاهاة شعراء ذلك العصر .

الخاتمـــة

الحمد لله العلي القدير الذي أعانني على انجاز هذه الرسالة ، فمكنني أن أكتب الآن خاتمة البحث الذي بدأته منذ سنوات ، وساعدني على الوفاء بما أقتطعته على نفسي من وعد لدراسة شعر ابن حجة ونقده . وأتاح لي من الصبر والدأب ما جعل هذا البحث خلقا سويا بعد أن كان أشتاتا مفرقة ، وأشلاء مبعثرة ، ومخطوطات متناثرة ران عليها السكون وخيّم عليها الظلام في أقباء دور الكتب في بلاد الله الواسعة ، وعاشرت مخطوطات أصول هذا البحث وبذوره أناسا كانوا ـ عن العربية التي كتبت بها هذه المخطوطات ـ بمعزل ، وعاشت بينهم عيشة الغرباء ، الى أن قيض الله لي الاطلاع عليها ، فجمعت أشتاتها ، وقربت متفرقها ، وأعدت الى هذه الأسرة وئامها ، واجتماع شملها ، بعد طول غربة ، وشديد افتراق ، وثنيت بالدراسة والتمحيص لهذه الآثار ، وكانت هي كل ما أملك لا من أدب ابن حجة وشعره ونقده فحسب ، بل ومن حياته وحله وترحاله ، لأن كتب التاريخ والتراجم المعاصرة لم يكن حظ الحديث عن ابن حجة منها الا النزر اليسير ، وأغلب كتب التراجم لم تظفر منها حياة شاعرنا الا ببضع كلمات ، والمكثرة منها تناولت ترجمته ببضعة أسطر ، وكانت ترجمة (كلاسيكية) تتضمن الجزء الأخير من حياته أيام أصبح له شأن يذكر ، وتؤ رخ لوفاته وتذكر شيء من الاضطراب بعض آثاره . ولذا كانت مهمتي عسيرة في تقصي حياة الشاعر في نصفها الأول على الأقل ، إذا لم يكن لدى ما يساعدني على رسم خطوط حياة الشاعر ، الا بعض آثاره الشعرية والنثرية التي كان يؤ رخها ، أو يكتبها بمناسبة حوادث معينة معروفة التاريخ ، فانتزعت هذه الآثار الشعرية والنثرية والتأليفية المؤ رخة ، وجعلت منها صوى أسير على أسير هلى هديها لرسم مخطط حياته ، ورتبتها ترتيبا زمنيا بحث استعت معها أن ألقي ضوءا بشيء غير قليل من اليقين على السنوات الأولى من حياته ثم استعنت بكتب التاريخ والتراجم التي رفدتني بمعلومات كانت تؤ يد ما توقعته . ومن شعره ونثره ـ بالاضافة إلى كتب التراجم والتاريخ ـ استطعت أن أرسم صورة صادقة لحياته تتبعتها بالايضاح منذ ولادته حتى صباه حتى شبابه وكهولته وهرمه ، إلى أن أدركته المنية ، مسجلا بين كل فترة من هذه الفترات مراحل حياته في تطوافه الكثير في بلاد الشام ومصر ، مصورا الأزمات التي مرت به والتجارب التي عركته ، والصداقات التي أنشأها في البلاد التي زارها ، وما جرت عليه هذه الصداقات من فوائد أحيانا وخسائر أحيانا أخرى ، وأعاني التنقيب على رسم صورة لصفاته وأخلاقه كما تبدت لي من خلال شعره وآثاره .

وعندما أردت أن أضع حياة ابن حجة في اطار العصر الذي عاش فيه عدت الى كتب التاريخ التي أرخت لهذه الفترة ، فاستقيت منها مادة حديثي عن العصر بكل مناحيه السياسية والاجتماعية والثقافية ، ولكني وضعت نصب عيني أن يكون حديثي عن العصر موجزا لا استفاضة فيه ، لأني تركت الحديث المستفيض عن العصر للمختصين بالتاريخ ، ولكيلا يطغى التاريخ على الأدب ، ولأنني أعلم أنه باستطاعة أي انسان ان يغير على كتب التاريخ القديمة والحديثة فيملأ منها صفحات كثيرة ، يستكثر منها اذا عزّ عنده الحديث عن الأدب الذي يدرسه ، فلذا ضمر الحديث عن العصر لكي أفسح المجال في حديثي عن الأديب الذي هو - برأيي - محور العصر ، ولم أتكلم في العصر الا عن الأحداث السياسية والاجتماعية والثقافية التي تشكل (الأرضية) للصورة التي أنيط بي رسمها ، فتكلمت عن الخلفاء والسلاطين الذين عاصرهم ابن حجة ، والتكالب الذي عاصره ابن حجة على السلطان ، كما تكلمت عن علاقة الخلفاء والسلاطين بالمجتمع الذي يسوسونه ، وصدى هذه السياسة في المجتمع ، وأبنت الهوة السحيقة بين طبقتي الحاكم والمحكوم ، وكيف أن الفئة الوافدة من خارج البلاد العربية حكمت هذا الشعب العربي مدة طويلة من الزمان ، وما هي الانعكاسات التي خلفتها هذه الفئة في الحكم وفي الميدانين الاجتماعي والثقافي ، وحاولت استقصاء الأسباب التي أسهمت في تدهور الأدب وتأخر الأدباء في هذه الحقبة ، وجعلت كل ذلك مدعوما بالشواهد الشعرية المنتزعة من شعر ابن حجة نفسه .

وعندما وصلت الى هذا الشعر حللته ، وبحثت عن دوافعه الداخلية والخارجية وأرخت لنشوئه ، ورافقته في تطوره ، وبينت أنواعه ، منذ كان زجلا حتى أصبح قصيدا ، وبعد أن تحققت مما نسب اليه من دواوين جمعت شعره منها ومن غيرها الذي لم يرد في ديوان ، وأقبلت عليها بالدراسة ، فقسمته الى فنونه الكثيرة ، ودرست كل فن على حدة ، وتوجت هذه الدراسة بتسجيل ما رصدته من خصائص فنية ، تعرفت عليها عند الشاعر ، أثناء مرافقتي الطويلة لشعره ، وبعد أن حللت فنونه وسبرت غور خصائصه ، طمحت نفسي الى معرفة العملية الشعرية عنده ، أو مايسمى بالخلق الفني ، فوجدت أنه - نتيجة ولعه بالتورية - كالفنان الذي يمسك بين أنامله بريشتين ، احداهما ترسم الصورة والأخرى ترسم ظلالها ، فابن حجة في فنه ينزع دائما الى الصورة الشعرية ووراءها الظلال ، والذي حقق له ذلك هو التورية التي ملكت عليه كل فنه ، وأثناء حديثي عن التورية عند ابن حجة وفي شعره خاصة قادني الحديث الى الجناس الذي كان يغرم به بعض أدباء العصر ، ومن أنصار التورية وأنصار الجناس تتكون فئة الأدباء في العصر المملوكي وهي فئة - رغم تفاوتها في الاقتراب نحو المعنى - تعتبر كلها من أنصار اللفظ ، هذا المذهب الذي طغى على الأدب في العصر المملوكي وقبله بقرون ، وأنصار اللفظ هؤلاء هم حملة لواء علم البديع ، واليهم يعود الفضل في ازدهاره وازدهار البديعيات وان كان البديع قد ازدهر أيضا قبلهم بقرون .

وعندما اخترت ابن حجة كنت أعلم أن شخصيته البلاغية وما تنطوي عليه من نقد لا تقل عن شخصيته الشاعرة ، فلذا اعتكفت في الباب الثالث على بيان عبقريته البلاغية وتحدث عن مؤلفاته في البلاغة ، ونقده لكتب البلاغة والأنواع البديعية التي سبقته وما تخلل هذه المؤلفات البلاغية التي كانت معرضاً كبيراً لثقافة الأدبية من آراء في النقد الأدبي الخالص ، وفصلت النقد الأدبي النظري عن النقد التطبيقي ، وأشرت إلى ما كان منه جيداً ، وما كان منه ترديداً لآراء القدامى من النقاد ، وقد وقعت في تراث ابن حجة على بعض الآثار التي تستحق كل اعجاب فأثنيت على صنيعة في مكانه ، ولكن الصداقة التي قامت بيني وبينه لم تمنعني من أن أنحو عليه باللوم في الأماكن التي تستحق اللوم ، وقد نهت على سقطاته وأظن أن ذلك ليس من العقوق، ولكنها الحقيقة التي ينبغي أن تقال .

وبعد دراستي لشعره ونقده عقدت فصلا لوضع ابن حجة في موضعه بين أدباء عصره وخاصة في بعض الظواهر التي سادت العصر كالتورية والسرقات الأدبية والمعارضات ، وفي بعضها الآخر الذي انفرد به ، وخلصت من ذلك الى بيانّ منزلة ابن حجة بينهم .

ولا يسعني في الختام الا أن أتجه الى الله الكبير أن يمنحني مواصلة الرغبة في البحث لاستكمال جوانب أخرى من الثقافة العربية ، انه سميع مجيب .

المراجع والمصادر

١) أسرار البلاغة للامام عبد القاهر الجرجاني . نشر دار المنار سنة ١٣٦٧ هـ .
٢) اعجاز القرآن للباقلاني ، المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٤٩ هـ .
٣) اغاثة الأمة بكشف الغمة ، تأليف تقي الدين المقريزي المتوفي سنة ٨٤٥ ، نشر زيادة والشيال ، مصر سنة ١٣٥٩ .
٤) اقامة الحجة على التقي بن حجة ، تأليف أبي بكر الحسيني الحضرمي ، مطبوع بالهند ١٣٠٥ .
٥) انباء الغمر بأبناء العمر ، تأليف ابن حجر العسقلاني نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية بالقاهرة .
٦) أنوار الربيع في أنواع البديع لابن معصوم . طبع بفارس ، بدون تاريخ على الحجر .
٧) أزهار الأنوار ، تأليف ابن حجة الحموي ، حصلنا على نسخة مصورة عن مخطوطة برلين .
٨) بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تأليف محمد بن أحمد بن اياس المصري . مطابع الشعب بالقاهرة ١٩٦٠ .
٩) البديع لعبد الله بن المعتز ، مطبعة الحلبي ، القاهرة ١٩٤٥ .
١٠) البديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ ، مطبعة الحلبي بالقاهرة ١٩٦٠ .
١١) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، تأليف العلامة محمد بن علي الشوكاني اليمني المتوفي سنة ١٢٥٠ . طبع مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٨٤ .
١٢) بلوغ الأمل من فن الزجل ، تأليف ابن حجة الحموي : حصلنا على نسخة مصورة عن النسخة المخطوطة بدار الكتب الظاهرية بدمشق .
١٣) بلوغ المراد من الحيوان والنبات والجماد ، تأليف ابن حجة الحموي ، حصلنا على نسخة مصورة عن النسخة المخطوطة في فيينا بالنمسا .
١٤) بلوغ المرام من سيرة ابن هشام والروض الأنف والاعلام ، تأليف ابن حجة الحموي ، حصلنا على نسخة مصورة عن النسخة المخطوطة في برلين .
١٥) البيان العربي ، تأليف الدكتور بدوي طبانه ، الطبعة الثالثة ، مطبعة الرسالة ١٩٦٢ .
١٦) تاريخ ابن خلدون : تأليف العلامة عبد الرحمن بن خلدون المتوفي سنة ٨٠٨ مطبوع في مصر سنة ١٢٨٤ هـ .
١٧) تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الله ، تأليف السيوطي المتوفي سنة ٩١١ مطبوع في مصر ١٣٥١ هـ .
١٨) تأهيل الغريب الشعري ، تأليف ابن حجة الحموي ، طبع الجزء الأول منه ملحقا بثمرات الأوراق في المطبعة الوهبية بالقاهرة سنة ١٣٠٠ هـ وبقية أجزاء الكتاب لا تزال مخطوطة ، ومنها أكثر من نسخة في القاهرة .

١٩) تأهيل الغريب النثري : تأليف ابن حجة الحموي ، موجود منه الجزء الرابع فقط ولا يزال مخطوطا بدار الكتب المصرية بالقاهرة .
٢٠) تاريخ حماة ، تأليف الشيخ أحمد الصابوني ، المطبعة الأهلية بحماه ١٣٣٢ هـ .
٢١) تحرير حماة ، تأليف الشيخ أحمد الصابوني ، المطبعة الأهلية بحماه ١٣٣٢ هـ .
٢١) تحرير التحبير ، لابن أبي الاصبع المصري ، نشر لجنة احياء التراث الاسلامي في القاهرة ١٣٨٣ هـ .
٢٢) تحرير القيراطي ، اختيار ابن حجة من ديوان القيراطي ، نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية بالقاهرة .
٢٣) تغريد الصادح ، اختيار ابن حجة الحموي من الصادح والباغم ، نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية بالقاهرة .
٢٤) تقديم أبي بكر : تأليف ابن حجة الحموي مطبعة بولاق ١٢٧٣ هـ .
٢٥) التكملة لكتاب الصلة لابن بشكوال ، تأليف أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار المتوفي سنة ٦٥٩ طبع المطبعة الشرطية بالجزائر سنة ١٩١٩ .
٢٦) ثبوت الحجة على الموصلي والحلي لابن حجه . تأليف ابن حجه الحموي ، حصلنا على نسخة مصورة عن النسخة المخطوطة ببرلين .
٢٧) ثمرات الأوراق في المحاضرات ، تأليف ابن حجة مطبوع بالمطبعة الوهبية في القاهرة ١٣٠٠ هـ .
٢٨) الثمرات الشهية من الفواكه الحموية مع الزوائد المصرية : تأليف ابن حجة الحموي ، مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة .
٢٩) جني الجنتين : وهو ديوان ابن حجة الحموي ، مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة .
٣٠) الحجة في سرقات ابن حجة تأليف شمس الدين النواجي ، مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة .
٣١) حسن التوسل في صناعة الترسل تأليف شهاب الدين محمود المتوفي سنة ٧٢٥ طبع مطبعة هندية بالقاهرة ١٣١٥ هـ .
٣٢) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي مطبوع بمصر ١٣٢٧ هـ .
٣٣) حلة الكميت لشمس الدين النواجي ، المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٢٧٦ هـ .
٣٤) الحلة السيرا في مدح خير الورى ، وهي بديعية العميان نظمها ابن جابر الأندلسي ، طبعت في القاهرة سنة ١٣٤٨ .
٣٥) الخطط : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار . للعلامة المقريزي طبع مصر سنة ١٩٢٠ الموجود منه الجزء الرابع باللغة العربية .
٣٦) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ، تأليف ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ مطبوع بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الركن ١٣٤٨ ـ ١٣٥٠ هـ .
٣٧) دلائل الاعجاز للامام عبد القاهر الجرجاني ، مكتبة القاهرة ١٣٨١ .
٣٨) ديوان ابن نباته ، نظم ابن نباته ، مطبعة التمدن بعابدين بمصر ، الطبعة الاولى ١٣٢٣ .
٣٨) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ، الطبعة الثانية طبعة مصطفى النابي الحلي بمصر ١٣٧٦ هـ .
٣٩) ديوان صفي الدين الحلي ، نظم الحلي . طبع دار صادر بيروت سنة ١٣٨٢ هـ .

٤٠) الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، تأليف أبي الحسن علي بن بسام الشنزيني المتوفي سنة ٥٤٣ مخطوط ، الموجود منه الجزء الأول ، مكتوب بخط مغربي في دار الكتب المصرية بالقاهرة .
٤١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ، مطبعة صبح بالقاهرة ١٩٥٣ .
٤٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب تأليف أبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي المتوفي سنة ١٠٨٩ ، طبع مكتبة القدسي بمصر ١٣٥٠ هـ .
٤٣) الصادح والباغم . نظم ابن الهبارية المتوفي سنة ٥٠٤ ، طبع مكتبة الهلال بالقاهرة سنة ١٣٥٥ هـ .
٤٤) صبح الأعشى في صناعة الانشاء ، للقلقشندي المتوفي سنة ٨٢١ نشر وزارة الثقافة والارشاد المصرية ، وهي نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية ، نشرتها الوزارة بمصر ١٩٦٣ .
٤٥) الصناعتين لأبي هلال العسكري ، طبع دار احياء الكتب العربية ١٣٧١ هـ بالقاهرة .
٤٦) الضوء اللامع في أهل القرن التاسع ، تأليف العلامة شمس الدين السخاوي المتوفي سنة ٩٠٢ هـ طبع مطبعة القدسي بالقاهرة ١٣٥٣ ـ ١٣٥٥ هـ .
٤٧) العاطل الحالي والمرخص الغالي تأليف صفي الدين الحلي ، نسخة منقولة عن مخطوطة ، والنسخة بحوزة الدكتور حسين نصار .
٤٨) عصر سلاطين المماليك . الدكتور محمود رزق سليم . طبع على مطابع مختلفة وسنوات مختلفة في القاهرة .
٤٩) العقد البديع في فن البديع . تأليف الخوري بولس عواد . طبع في المطبعة العمومية الكاثوليكية في بيروت سنة ١٨٨١ م .
٥٠) العمدة لابن رشيق القيرواني المتوفي سنة ٤٥٦ . طبع المكتبة التجارية بالقاهرة الطبعة الثانية بتحقيق محي الدين عبد الحميد سنة ١٣٧٤ هـ .
٥١) عيار الشعر . محمد بن طباطبا . طبع المكتبة التجارية بالقاهرة ١٩٥٦ .
٥٢) الغصون اليانعة في محاسن شعراء المئة السابعة تأليف أبي الحسن علي بن موسى الأندلسي المتوفي سنة ٦٨٥ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٤٥) .
٥٣) الفتح المبين في مدح الأمين ، وهو شرح الباعونية على بديعيتها . تأليف عائشة الباعونية المتوفاة سنة ٩٢٢ ، دار الكتب مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة .
٥٤) الفريدة الجامعة للمعاني الرائعة ، وهي البديعية وشرحها ، تأليف اسماعيل المقري نسخة مخطوطة بالمكتبة التيمورية في القاهرة .
٥٥) فوات الوفيات ، لابن شاكر الكتبي المتوفي سنة ٧٦٤ مطبعة بولاق القاهرة ١٨٨١ م .
٥٦) قهوة الانشاء تأليف ابن حجة الحموي . كتاب مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة .
٥٧) الكافية البديعية ، وهي بديعية صفي الدين الحلي . طبع المطبعة العلمية ١٣١٦ هـ .
٥٨) كتاب التخطيط التاريخي لسورية القديمة والمتوسطة ، لرينيه دوسود طبع باريس سنة ١٩٢٧ .
٥٩) كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون ، تأليف مصطفى بن عبد الله المشهور بحاجي خليفة . طبع وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية ١٩٤٣ ـ ١٣٦٢ هـ .

٦٠) كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام ، تأليف ابن حجة الحموي . طبع في المطبعة الانسية ببيروت ١٣١٢ هـ .
٦١) المثل السائر . لضياء الدين بن الأثير . المطبعة البهية بمصر ١٣١٢ هـ .
٦٢) المجمع المؤسس للمعجم المفهرس تأليف ابن حجر العسقلاني مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة .
٦٣) المدائح النبوية للدكتور زكي مبارك ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي القاهرة ١٣٥٤ .
٦٤) مصر في عصر دولة المماليك الشراكسة . تأليف دكتور ابراهيم علي طرخان ، طبع في مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٠ .
٦٥) معيد النعم ومبيد النقم لتاج الدين عبد الوهاب السبكي المتوفي سنة ٧٧١ هـ . مطبوع بمصر سنة ١٣١٧ .
٦٦) الموازنة بين الطائين للآمدي . مطبوع بالمطبعة التجارية ١٣٧٣ هـ .
٦٧) الناغم من الصادح والباغم . شهاب الدين الحلواني . طبع المطبعة الأميرية ببولاق مصر سنة ١٣٠٨ .
٦٨) النتائج الالهية وهو شرح بديعية صفي الدين الحلي طبع المطبعة العلمية سنة ١٣١٦ .
٦٩) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردى . نشرته وزارة الثقافة والارشاد المصرية عن نسخة مطبوعة في دار الكتب المصرية . والنسخة المصورة تاريخها ١٩٦٣ في القاهرة .
٧٠) نفحات الأزهار على نسمات الاسحار في مدح النبي المختار للشيخ عبد الغني النابلسي متوفي سنة ١١٤٣ مخطوطة شرح فيها المؤلف بديعيته . والمخطوطة بدار الكتب الظاهرية بدمشق .
٧١) نقد الشعر لقدامة بن جعفر ، طبع مكتبتي الخانجي والمتنبي بمصر والعراق سنة ١٩٤٩ .
٧٢) الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني . دار احياء الكتب العربية مصر ١٣٧٠ هـ .
٧٣) وفيات الاعيان لأحمد بن خلكان ، المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٠ هـ .
٧٤) ياقوت الكلام في نادر الشام . تأليف ابن حجة الحموي . نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية .

«الفهـــرس»

مطبعة خالد بن الوليد